

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد العاشر

دار إحياء التراث العربي

- ٦٢- سورة الجمعة
- ٦٣- سورة المنافقون
- ٦٤- سورة التغابن
- ٦٥- سورة الطلاق
- ٦٦- سورة التحريم
- ٦٧- سورة الملك
- ٦٨- سورة القلم
- ٦٩- سورة الحاقة
- ٧٠- سورة المعارج
- ٧١- سورة نوح
- ٧٢- سورة الجن
- ٧٣- سورة المزمل
- ٧٤- سورة المدثر
- ٧٥- سورة القيامة
- ٧٦- سورة الدهر
- ٧٧- سورة المرسلات
- ٧٨- سورة النبا
- ٧٩- سورة النازعات
- ٨٠- سورة عبس
- ٨١- سورة التكويد
- ٨٢- سورة الانفطار
- ٨٣- سورة المطففين
- ٨٤- سورة الانشقاق
- ٨٥- سورة البروج
- ٨٦- سورة الطارق
- ٨٧- سورة الأعلى
- ٨٨- سورة الغاشية
- ٨٩- سورة الفجر
- ٩٠- سورة البلد

- ٩١- سورة الشمس
- ٩٢- سورة الليل
- ٩٣- سورة الضحى
- ٩٤- سورة الانشراح
- ٩٥- سورة التين
- ٩٦- سورة العلق
- ٩٧- سورة القدر
- ٩٨- سورة البينة
- ٩٩- سورة الزلزال
- ١٠٠- سورة العاديات
- ١٠١- سورة القارعة
- ١٠٢- سورة التكاثر
- ١٠٣- سورة العصر
- ١٠٤- سورة الهمزة
- ١٠٥- سورة الفيل
- ١٠٦- سورة قريش
- ١٠٧- سورة الماعون
- ١٠٨- سورة الكوثر
- ١٠٩- سورة الكافرون
- ١١٠- سورة النصر
- ١١١- سورة اللهب
- ١١٢- سورة الاخلاص
- ١١٣- سورة الفلق
- ١١٤- سورة الناس

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد العاشر

دار إحياء التراث العربي

(٣)

٦٢ - سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله مافي السموات ومافي الارض الملك القدوس العزيز الحكيم (١) هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٢) وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم (٣) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤) مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين) (٥) خمس آيات بلاخلاف.

لا خلاف بين القراء في هذه السورة إلا ماروي عن الاعمش انه قرأ (الجمعة) بسكون الميم. الباقر بضمها. وقد بينا معنى قوله (يسبح لله مافي السموات وما في الارض) وبيننا وجه التكرار فيه. وإنما جاء - ههنا - على لفظ المضارعة.

وقوله (الملك) يعني المالك للأشياء كلها ليس لاحد منعه منها (القدوس) المستحق

(٤)

للتعظيم بتطهير صفاته من كل صفة نقص (العزیز) معناه القادر الذي لا يقهر ولا يغلب (الحكيم) في جميع أفعاله.

وقوله (هو الذي بعث) يعني الله الذي وصفه بالصفات المذكورة هو الذي أرسل (في الاميين) قال قتادة ومجاهد: الاميون العرب. وقال قوم: هم أهل مكة، لأنها تسمى أم القرى، والامي منسوب إلى انه ولد من أمه لايحسن الكتابة. ووجه النعمة في جعل النبوة في أمي موافقة ماتقدمت البشارة به في كتب الانبياء السالفة، ولما فيه من انه أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة.

وقوله (رسولاً) مفعول (بعث) و (منهم) يعني من سميتهم الاميين ومن جملتهم (يتلو عليهم) أي يقرأ عليهم (آياته) أي حججه وبياناته من القرآن وغيرها (ويزكيهم) أي يطهرهم من دنس الشرك بما يهدبهم إلى الايمان فيجعلهم أذكاء. وإنما يجعلهم كذلك بأن يدعوهم إلى طاعة الله التي يقع فيها الاجابة لانه لو دعاهم ولم يجيبوا لما قيل: إنه زكاهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة) قال قتادة:

يعلمهم القرآن والسنة، والحكمة نعم الكتاب والسنة، وكل ما أراده الله، فان الحكمة هي العلم الذي يعمل عليه فيما يخشى او يحبب من أمر الدين والدنيا (وإن كانوا من قبل) يعني من قبل أن يبعث فيهم ويتلو عليهم القرآن (لفي ضلال مبين) أي في عدول عن الحق جائرين عن الصراط المستقيم مبين أي ظاهر.

وقوله (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال ابن زيد ومجاهد: هم كل من بعد الصحابة إلى يوم القيامة، فان الله بعث النبي منهم وشريعته تلزمهم، وإن لم يلحقوا بزمان الصحابة. (وآخرين) نصب على تقدير ويزكي آخرين منهم، لما يلحقوا بهم. ويجوز ان يكون جراً، وتقديره هو الذي بعث في الاميين وفي آخرين، (وهو العزیز) الذي لا يغالب (الحكيم) في جميع أفعاله ومايأمر به.

(٥)

وقوله (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) (ذلك) إشارة إلى بعث الرسول بين الله تعالى ان إرساله الرسول (فضل) من (الله) ونعمة (بؤتيه) أي يعطيه (من يشاء) بحسب ما يعلمه من صلاحه

مبعثة، وتحمل أعباء الرسالة (والله ذو الفضل العظيم) على عباده بما يفعل بهم من التفضل والاحسان ساعة بعد ساعة.

وقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها) معنا (مثل الذين حملوا التوراة) يعني العمل بها وبما فيها، فحفظوها ودونوها في كتبهم ثم لم يعملوا بما فيها (كمثل الحمار يحمل اسفارا) قال ابن عباس: الاسفار الكتب واحدها سفر، لانها تكشف عن المعنى باظهار حاله، يقال: سفر الرجل عن عمامته إذا كشف، وسفرت المرأة عن وجهها وهي سافرة، وإنما مثلهم بالحمار لان الحمار الذي يحمل كتب الحكمة على ظهره لا يدري بما فيها، ولا يحس بها كمثل من يحفظ الكتاب ولا يعمل به، وعلى هذا من تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عن ذلك اعراض من لا يحتاج اليه كان هذا المثل لاحقا به. وإن من حفظه وهو طالب لمعناه وقد تقدم حفظه فليس من أهل هذا المثل.

وقوله (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) معناه بئس القوم قوم هذا مثلهم، وهم الذين كذبوا بحجج الله وبياناته.

ثم قال (والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني الذين يظلمون نفوسهم بارتكاب المعاصي لا يحكم بهدايتهم، ولا يرشدهم إلى طريق الجنة. قوله تعالى:

(قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (٦) ولا يتمنونه

(٦)

أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٧) قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (٨) يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٩) فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (١٠) وإذا رأوا تجارة أولهوا أنفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين (١١) ست آيات.

هذا أمر من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب اليهود، فيقول لهم (إن زعمتم انكم أولياء لله) فالزعم قول عن ظن أو علم، ولهذا صارت من أخوات (ظن) في الظن والعلم وعملت ذلك العمل من الاعراب قال الشاعر:

فان تزعميني كنت أجهل فيكم * فأنى شريت الحلم بعدك بالجهل (١)

والاولياء جمع ولي، وهو الحقيق بالنصرة التي يوليها عند الحاجة، فانه ولي المؤمنين، لانه يوليهم النصره عند حاجتهم. والمؤمن ولي الله لهذه العلة. ويجوز أن يكون لانه يولي المطيع له بنصرته عند حاجته، فقال الله لهؤلاء اليهود: إن كنتم تظنون على زعمكم أنكم انصار الله وأن الله ينصركم (فتمنوا الموت ان كنتم

(١) مر في ٨ / ١٦٨ (*)

(٧)

صادقين) في ادعائكم أنكم أولياؤه دون الناس، فالتمني هو قول القائل - لما كان - ليته لم يكن، ولمالم يكن: ليته كان. وهو من صفات الكلام. وقال بعضهم: هو معنى في النفس. ثم اخبر تعالى عن حالهم وكذبهم واضطرابهم في دعواهم، وانهم غير واثقين بمايدعونه فقال (ولايتمنونه ابدأ بما قدمت ايديهم) ومعناه لايتمنون الموت أبدا فيما بعد (بما قدمت أيديهم) مما لايرجعون فيه إلى ثقة من التكذيب

بالنبي (صلى الله عليه وآله) والتحريف لصفته في التوراة (والله عليم بالظالمين) أي عالم بأحوالهم وافعالهم، لا يخفى عليه شيء منها.

وفي الآية دليل على النبوة لانه اخبر بأنهم لايتمنون الموت ابدأ، وما تمنوه فكان ذلك اخبارا بالصدق قبل كون الشيء، وذلك لا يعلمه، إلا الله تعالى.

وفيها بطلان ما ادعوه من انهم أولياء الله.

ثم قال للنبي (صلى الله عليه وآله) (قل) لهم (إن الموت الذي تفرون منه) أي تهربون منه (فانه ملائكم) وإنما قال (فانه) بالفاء، وسواء فروا منه او لم يفروا منه فانه ملائكم، مبالغة في الدلالة على أنه لاينفع الفرار منه لانه إذا كان الفرار منه بمنزلة السبب في ملاقاته فلا معنى للتعرض له لانه لا يباعد منه قال زهير:

ومن هاب اسباب المنايا ينلنه * ولو رام أن يرقى السماء بسلم (١)

وهن ينلنه هابها اولم يهبها، ولكنه إذاكانت هيئته بمنزلة السبب للمنية كان لا معنى للهيبة،

وقال قوم: تقديره قل إن الموت هو الذي تفرون منه فجعلوا (الذي)

في موضع الخبر لاصلة: ويكون (فانه) مستأنف.

وقوله (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة) معناه ثم ترجعون إلى الله تعالى

(١) مر في ٥ / ٥٢٦ (*)

(٨)

يوم القيامة الذي يعلم سركم وعلانيتكم وظاهركم وباطنكم، لا يخفى عليه شئ من أحوالكم (فبينئلكم) أي يخبركم (بما كنتم تعملون) في دار الدنيا ويجازيكم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب، ثم خاطب المؤمنين فقال (ياأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) معناه إذا سمعتم، أذان يوم الجمعة فامضوا إلى الصلاة. قال قتادة: معناه امضوا إلى الصلاة مسرعين غير متناقلين وبه قال ابن زيد والضحاك. وقال الزجاج: المعنى فامضوا إلى السعي الذي هو الإسراع قال وقرأ ابن مسعود (فامضوا) إلى ذكر الله ثم قال: لو علمت الإسراع لا سرعت حتى يقع ردائي عن كتفي. قال: وكذلك كان يقرأ (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى) (١) يريد مضى فيه دون الإسراع. ومثله قوله (إن سعيكم لشتى) (٢) وفرض الجمعة لازم على جميع المكلفين إلا صاحب العذر: من سفر أو مرض أو عمى أو عرج أو آفة وغير ذلك. وعند اجتماع شروط وهي:

كون سلطان عادل أو من نصبه السلطان للصلاة، وتكامل العدد - عندنا - سبعة، وعند قوم اربعين. وعند آخرين أربعة، وثلاثة. وقد بينا الخلاف في ذلك في (خلاف الفقهاء) وظاهر الآية متوجه إلى المؤمنين وإنما يدخل فيه الفاسق على التغليب، كما يغلب المذكر على المؤنث، هذا على قول من يقول إن الفاسق ليس بمؤمن. فأما من قال: إنه مؤمن مع كونه فاسقا، فالإية متوجهة إليهم كلهم. وقال مجاهد وسعيد ابن المسيب: المراد بالذكر موعظة الامام في خطبته. وقال غيرهما: يعني الصلاة التي فيها ذكر الله. وقوله (وذروا البيع) معناه إذا دخل وقت الصلاة اتركوا البيع والشراء.

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣٩ (٢) سورة ٩٢ الليل آية ٤ (*)

(٩)

قال الضحاك: إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء. وقال الحسن: كل بيع تفوت فيه الصلاة يوم الجمعة فإنه بيع حرام، لا يجوز، وهو الذي يقتضيه ظاهر مذهبنا، لان النهي يدل على فساد المنهي عنه. ثم قال (ذلكم) يعني ما ذكره من السعي إلى الصلاة (خير لكم) في دينكم وانفع لكم عاقبة (إن كنتم تعلمون) صحة ما قلناه أي اعلموه.

وقوله تعالى (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض) أي إذا صليتم الجمعة فانتشروا في الارض طلبا لرزق الله. وصورته صورة الامر وهو إباحة وإذن ورخصة - في قول الحسن والضحاك وابن زيد وغيره - (وابتغوا من فضل الله) أي اطلبوا من فضل الله بعمل الطاعة والدعاء به (واذكروا الله كثيرا) يا محمد على إحسانه وبالشكر على نعمه والتعظيم لصفاته (لعلكم تفلحون) ومعناه لتفلقوا وتفوزوا بثواب النعيم.

ثم اخبر تعالى عن حال جماعة كانوا مع النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يخطب وهم معه يصلي بهم، فقال (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها) قال جابر بن عبد الله والحسن: قدم عير لدحية الكلبى فيها طعام المدينة بعدما أصابتهم مجاعة، فاستقبلوه باللهو والمزامير والطبول - في قول جابر بن عبد الله ومجاهد - وكانوا مع النبي (صلى الله عليه وآله) في الصلاة فلما سمعوا صوت الطبول والمزامير (انفضوا) أي تفرقوا إلى العير يبصرونه وتركوا النبي (صلى الله عليه وآله) وحده قائما، فقال الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) (قل) لهم يا محمد (ما عند الله) من الثواب على سماع الخطبة وحضور الموعظة (خير من اللهو ومن التجارة) وانفع واحمد عاقبة (والله خير الرازقين) أي ليس يفوتهم بترك البيع شئ من رزق الله والتقدير وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك (ج ١٠ م ٢ من التبيان)

(١٠)

أى اليه، وإنما قيل (اليها) لأنها كانت أهم اليهم، ذكره الفراء. وقيل: تقديره وإذا رأوا لهوا أو تجارة انفضوا اليها، فرد الضمير إلى اقرب المذكورين، لأنه كان أهم اليهم، وكذلك قرأ ابن مسعود في مصحفه.

٦٣ - سورة المنافقون مدنية بلا خلاف وهو قول ابن عباس وعطا والضحاك وهي احدى عشرة آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون (١) إتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون (٢)

ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٣)

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون (٤) وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم

(١١)

رسول الله لووا رؤسهم ورأيتم يصدون وهم مستكبرون) (٥)
خمس آيات.

قرأ (خشب) خفيفة ابن كثير وابوعمر و الكسائي. وقرأ الباقر (خشب) مثقل. وقرأ نافع وروح وزيد (لووا رؤسهم) خفيفة. الباقر (لووا) مشددة.

يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) (إذا جاءك) يامحمد (المنافقون) وهم الذين يطهرون الايمان ويبطنون الكفر (قالوا نشهد إنك لرسول الله) أى اخبروا بأنهم يعتقدون إنك رسول الله. فقال الله تعالى لنبيه (والله يعلم انك لرسوله) على الحقيقة (والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) في قولهم إنهم يعتقدون إنك لرسول الله، وكان إكذابهم في اعتقادهم وأنهم يشهدون ذلك بقلوبهم ولم يكونوا فيما يرجع إلى ألسنتهم، لانهم شهدوا بها بألسنتهم وهم صادقون في ذلك وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول إن المعرفة ضرورية. وكسرت (إن)

لاجل اللام التي هي لام الابتداء التي في الخبر، لان لها صدر الكلام. وإنما زحقت عن موضعها إلى موضع الخبر لئلا تجمع بين حرفي تأكيد، وكانت احق بالتأخير، لانها غير عامة. وإنما كان لها صدر الكلام، لانها نقلت الجملة إلى معنى التأكيد وكل حرف نقل الجملة عن معنى إلى معنى كان له صدر الكلام، لئلا تختلط الجمل.

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء المنافقين فقال (اتخذوا أيمانهم جنة) أى سترة يتسترون بها من الكفر لئلا يقتلوا ولايسبوا ولا تؤخذ أموالهم. والجنة السترة المتخذة لدفع الاذية كالسلاح المتخذ لدفع الجراح، فالجنة السترة، والجنة البستان الذى يجنه الشجر. الجنه والجنون الذى يغطي على العقل. واصل ذلك كله الستر (فصدوا عن سبيل الله) أى منعوا غيرهم عن اتباع سبيل الحق. وقال الضحاك:

(١٢)

أيمانهم حلفهم إنهم لمنكم. وقرئ (إيمانهم) بكسر الهمزة بمعنى أنهم اتخذوا تصديقهم ظاهراً جنة، فقال تعالى) انهم ساء ماكانوا يعملون) ومعناه بئس الذي يعملونه من اظهار الايمان مع إبطان الكفر والصد عن السبيل. وقال زيد بن أرقم: نزلت الاية في عبدالله بن ابي بن سلول، لماقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاغر منها الاذل، فملا وقف على ذلك جده وحلف انه ماقاله حتى نزلت السورة. وقوله) ذلك بأنهم آمنوا) بألسنتهم عند الاقرار ب (لاإله إلا الله محمد رسول الله) (ثم كفروا) بقلوبهم لما كذبوا بهذا وهو قول قتادة (فطبع على قلوبهم) أى ختم عليها بسمة تميز الملائكة بينهم

وبين المؤمنين على الحقيقة (فهم لا يفقهون) ذلك بجحدهم توحيد الله ونفاقهم وإنكارهم نبوة رسوله الذي دعاهم إلى الحق.

ثم قال: وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) بحسن منظرهم وجميل زيهم (وان يقولوا) يعنى هؤلاء المنافقون (تسمع لقولهم) أى تصغى اليهم وتسمع مايقولون بحسن بيانهم وبلاغة لسانهم، فقال تعالى (كأنهم خشب مسندة) فشبههم الله بالخشب المسندة، قيل: إنهم شبهو بخشب نخرة متأكله لاخير فيها إلا أنها مسندة يحسب من يراها أنها صحيحة سليمة. وخشب جمع خشبة مثل بدن وبدنة فيمن سكن. ومن ضم قال: مثل ثمرة وثمر ثم وصفهم بالخور والهلع فقال (يحسبون كل صحيحة عليهم) أي يظنون أنها مهلكتهم، وأنهم المقصودون بها جينا وخورا.

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) (هم العدو) لك وللمؤمنين (فاحذرهم) وتوقم (قاتلهم الله) وقيل: معناه أخزاهم الله. وقيل: معناه أحلهم الله محل من يقائله عدو قاهر له، وهذا اشد مايكون من الذم والبلاء الذي ينزل بهم وأبلغ مايكون في البيان عن مكروهمهم (أنى يؤفكون) أي كيف يصرفون عن الحق. وإنما قال (فاحذرهم)

(١٣)

لأنهم كانوا ينقلون الاسرار إلى الكفار ويحيون من قدروا عليه من أهل الكفر. ثم اخبر تعالى فقال (وإذا قيل لهم) يعني لهؤلاء المنافقين (تعالوا) أي هلموا (يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم) ومعناه أكثروا تحريكها بالهز لها استهزاء بدعائهم إلى ذلك. فمن شدد أراد تكثير الفعل. وممن خفف فلانه يدل على القليل والكثير. ثم قال: ورأيتهم يامحمد (يصدون) عن سبيل الحق (وهم مستكبرون) أي يطلبون الكبر ويتجبرون عن إتباع الحق. قوله تعالى:

(سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (٦) هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والارض

ولكن المنافقين لا يفقهون (٧) يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٩) ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون (٩) وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين (١٠)

(١٤)

ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون (١١)
ست آيات.

قرأ أبو عمرو وحده (وأكون) بالواو، الباقون (واكن) وفي المصاحف بلاواو فقيل لابي عمرو:
لم سقطت من المصاحف؟ فقال كما كتبوا: (كلهن) وقرأ يحيى عن أبي بكر (يعملون) بالياء.
الباقون بالتاء. ومن قرأ بالياء فعلى الخبر، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب.

لما أخبر الله تعالى عن حال المنافقين، وأنه (إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله) حركوا
رؤسهم استهزاء بهذا القول، فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) (سواء عليهم أستغفرت لهم
أم لم تستغفر لهم) أي يتساوى الاستغفار لهم وعدم الاستغفار (فلن يغفر الله لهم) لأنهم يبطنون
الكفر وإن اظهروا الإيمان، وبين أنه تعالى (لا يهدي القوم الفاسقين) إلى طريق الجنة، فهذا
يجب أن يأسوا من المغفرة بالاستغفار.

وقال الحسن: أخبر الله تعالى أنهم يموتون على النفاق، فلم يستغفر لهم بعد.

وقيل: المعنى لا يحكم الله بهدايتهم، وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) يستغفر لهم على ظاهر
الحال بشرط حصول التوبة وأن يكون باطن المستغفر له مثل ظاهره، فبين بها أن ذلك لا ينفع
مع إبطانهم الكفر والنفاق.

ثم حكى تعالى عنهم فقال (هم الذين يقولون) يعني بعضهم لبعض لا تتفقوا على من عند
رسول الله (صلى الله عليه وآله) من المؤمنين المحتاجين (حتى ينفصوا) عنه ومعناه حتى يتفرقوا
عنه لفرقهم وحاجتهم. والانفصاض التفرق، وفض الكتاب إذا فرقه ونشره، وسميت الفضة
فضة لتفرقها في أثمان الأشياء المشتراة.

(١٥)

فقال الله تعالى (ولله خزائن السموات والارض) بمعنى له مقدوراته في السموات والارض،
لأن فيها كل مايشاء إخراجها، وله خزائن السموات والارض يخرج منهما مايشاء. وهي داخلة
في مقدوراته، والخزانة - بكسر الخاء - موضع يخبأ فيه الامتعة، وإذا كان لله خزائن
السموات والارض، فلا يضررك يا محمد ترك انفاقهم بل لا يضررون إلا أنفسهم دون اولياء الله
والمؤمنين الذين يسبب الله قوتهم ولو شاء الله تعالى لاغنى المؤمنين، ولكن فعل ما هو اصلح
لهم وتعبدهم بالصبر على ذلك لينالوا منزلة الثواب (ولكن المنافقين لا يفقهون) ذلك على
الحقيقة لجهلهم بعقاب الله تعالى.

ثم أخبر عنهم فقال (يقولون لنن رجعا إلى المدينة ليخرجن الاعز)

يعنون نفوسهم (منها الاذل) يعنون رسول الله والمؤمنين. وقيل: إن القائل لذلك في غزوة المريسيع، كان عبدالله بن ابي بن سلول، فقال الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) دون المنافقين والكفار (ولكن المنافقين لا يعلمون) ذلك فيظنون ان العزة لهم، وذلك بجهلهم بصفات الله وما يستحقه أولياؤه وما يعمل بهم. والاعز الاقدر على منع غيره وأصل الصفة المنع فلذلك لم يكن أحد اعز من الله ولا أذل من المنافق.

ثم خاطب المؤمنين فقال (ياايها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم) أي لاتشغلكم أموالكم (ولا أولادكم عن ذكر الله) قال قوم: الذكر المأمور به هو ذكر الله بالحمد والشكر والتعظيم بصفاته العليا واسمائه الحسنی، ويقال: ألهيته عن الامر اذا صرفته عنه بما يمنعه قال امرؤ القيس:
فمئلك حبلی قد طرقت ومرضع * فألهيته عن ذي تماء محول (١)

(١) ديوانه (السندوبي) ١٤٧ (*)

(١٦)

وقال قوم: ذكر الله جميع فرائضه ثم قال (ومن يفعل ذلك) أي من شغله ماله او ولده عن ذكر الله (فاولئك هم الخاسرون) الذين خسروا ثواب الله وحصل لهم عقابه. ثم أمرهم بأن ينفقوا مما رزقهم الله فيما تجب عليهم النفقة فيه من الزكاة والجهاد والحج والكفارات وغير ذلك من الواجبات. وفي ذلك دليل على ان الحرام ليس برزق من الله، لان الله لا يأمر بالمعصية بالانفاق، ولانه ينهى عن التصرف فيه بلا خلاف (من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول لو لا أخرتني إلى اجل قريب) اي هلا. وقيل: معناه إنه يتمنى أن يرد إلى دار الدنيا، وانما جاز التمني ب (لولا)، لان اصلها التقدير، والتمنى تقدير الخير للاستمتاع (فاصدق)

ومعناه فأصدق، وانفق في سبيل الله (وأكن من الصالحين) أي من الذين يعملون الافعال الحسنة. وفي ذلك دليل على ان القدرة قبل الفعل، لانهم تمنوا ان يؤخروا ليعملوا ماكانوا قادرين عليه متمكنين منه. ودليل على ان الله تعالى لا يخلق الكفر والنفاق فيهم، لانه لو فعل ذلك كان لامعنى لتمني التأخير والرد بل الواجب أن يطلبوا منه تعالى ان يكف عنهم الكفر ويخلق فيهم الايمان وقدرته بدل الكفر وقدرته.

وقوله (فاصدق) انتصب بأنه جواب التمني بالفاء، وكل جواب بالفاء نصب، إلا جواب الجزاء، فانه رفع على الاستئناف، لان الفاء في الجزاء وصلة إلى الجواب بالجملة من الابتداء والخير. وانما نصب الجواب بالفاء لللايد ان بأن الثاني يجب بالاول بدلالة الفاء في الجواب، وليس يحتاج إلى ذلك في الجزاء من قبل ان حرف الجزاء يكفي في الدلالة. ومن قرأ (واكن)

فجزم عطف على موضع الفاء، لأنها في موضع جزم. ومن قرأ (واكون) عطف على لفظ (فأصدق).

ثم قال (ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها) يعني الاجل المطلق الذي

(١٧)

حكم بأن الحي يموت عنده. والاجل المقيد هو الوقت المحكوم بأن العبد يموت عنده ان لم يقطع عنه اولم يزد عليه او لم ينقص منه على مايعلمه الله من المصلحة. ثم قال (والله خبير) اي عالم (بما يعملون) فمن قرأ بالياء أراد عالم بعملهم على لفظ الغيبة. ومن قرأ بالتاء أراد بعملكم على الخطاب أى قل لهم.

٦٤ - سورة التغابن.

مدنية بلا خلاف - في قول ابن عباس وعطاء والضحاك - وهي ثمان عشرة آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم.

(يسبح الله ما في السموات وما في الارض له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير (١) هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير (٢) خلق السموات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير (٣)

يعلم ما في السموات والارض ويعلم ماتسرون وماتعلنون والله عليم بذات الصدور (٤) ألم يأتكم نبؤ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) (٥) خمس آيات. (ج ١٠ م ٣ من التبيان)

(١٨)

قد فسرنا معنى قوله (يسبح الله ما في السموات وما في الارض) وأن المراد بها ما في خلق السموات والارض، وما فيهما من الادلة الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه، وأنه لايشبه شيئا ولايشبهه شئ وأنه منزه عن القبائح وصفات النقص، فعبر عن ذلك بالتسبيح من حيث كان معنى التسبيح التنزيه لله عما لايليق به.

وقوله (له الملك) معناه انه المالك لجميع ذلك والمتصرف فيه بما شاء، ولا أحد يمنعه منه، وله الحمد على جميع ذلك، لان خلق ذلك اجمع للاحسان إلى خلقه به والنفع لهم فاستحق بذلك الحمد والشكر (وهو على كل شئ قدير) يعني مما يصح أن يكون مقدورا له، فلا يدخل في ذلك مقدور العباد، لانه يستحيل أن يكون مقدورا لله.

وقوله (هو الذي خلقكم) معناه هو الذي اخترعكم وأنشأكم بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) معناه فمنكم من يختار الكفر بسوء اختياره ومنكم مؤمن بحسن اختياره للايمان. وقال الحسن: فيه محذوف وتقديره فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق. وقال غيره: ليس فيه حذف، لان الغرض ذكر الطرفين لا المنزلة بين المنزلتين كما أن قوله (خلقكم) خطاب يتوجه إلى جميع الخلق. وإن كان منهم الاطفال والمجانين الذين لاحكم لهم بالايمان ولا بالكفر وقال الزجاج: معناه (فمنكم كافر) بالله بأن الله خلقه (ومنكم مؤمن) بذلك. وقوله (والله بما تعملون بصير) معناه - ههنا - أنه خلق الكافر، وهو عالم بما يكون منه من الكفر، وكذلك خلق المؤمن وعلم بما يكون منه من الايمان، وكل ذلك على وجه الاحسان في الفعل الذي يستحق به الحمد والشكر. ثم قال (خلق السموات والارض) بمعنى اخترعهما وانشأهما (بالحق) أي للحق وهو انه

(١٩)

خلق العقلاء تعريضا لهم للثواب العظيم، وما عداهم خلق تبعاً لهم لما فيه من اللطف، وهذا الغرض لا يتأتى إلا على مذهب العدل، وأما على مذهب الجبر فلا. (وصوركهم متوجه إلى البشر كلهم) (فأحسن صوركم) معناه من الحسن الذي يقتضيه العقل لا في قبول الطبع له عند رؤيته، لان فيهم من ليس بهذه الصفة. وقال قوم: لا بل هو من تقبل الطبع لانه إذا قيل: حسن الصورة لا يفهم منه إلا تقبل الطبع، وسبيله كسيل قوله لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) (١) وإن كان فيهم المشوه الخلق لان هذا عارض لا يعتد به في هذا الوصف، والله تعالى خلق الانسان على أحسن صورة الحيوان كله. والصورة عبارة عن بنية مخصوصة كصورة الانسان والفرس والطيور وما أشبه ذلك.

ثم قال (واليه المصير) يعني اليه المرجع يوم القيامة واليه المآل. ثم قال (يعلم) يعني الله تعالى بعلم (ما في السموات والارض) من الموجودات (ويعلم ما تسرون وما تعلنون) أي ما تظهرونه وما تخفونه. وقيل: ما يسره بعضكم إلى بعض وما تخفوه في صدوركم عن غيركم. والفرق بين الاسرار والاختفاء أن الاختفاء أعم لانه قد يخفى شخصه وقد يخفى المعنى في نفسه والاسرار والمعنى دون الشخص (والله عليم بذات الصدور) معناه وهو عالم باسرار الصدور وبواطنها.

ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين فقال (ألم يأتكم نبؤ الذين كفروا من قبل) يعني من قبل هؤلاء الكفار (فذاقوا وبال أمرهم) أي بما سلطه الله عليهم بأن أهلكهم الله عاجلا واستأصلهم (ولهم عذاب اليم) أي مؤلم يوم القيامة.

قوله تعالى:

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا

(١) سورة ٩٥ التين آية ٤ (*)

(٢٠)

أبشروا يهودوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد (٦) زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا
قل بلى وربى لتبعثن ثم لتتبعن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧) فأمنوا بالله ورسوله والنور
الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير (٨) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله
ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك
الفوز العظيم (٩) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير
(١٠) خمس آيات.

قرأ رويس عن يعقوب (نجمعكم) بالنون على الاخبار من الله عن نفسه.

الباقون بالياء على تقدير يوم يجمعكم الله.

(أبشروا) لفظه لفظ الواحد والمراد به الجمع بدلالة قوله (يهودوننا) لانه على طريق الجنس الذي
لا يجمع ولا يثنى.

لما قرر الله تعالى خلقه بأنهم جاءهم اخبار من مضى من الكفار وأن الله تعالى أهلكتهم
بكفرهم، بين لم أهلكتهم فقال (ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم)

أي تبيئهم رسلهم من الله بالحجج الواضحات (فقالوا) لهم (أبشروا يهودوننا) وقد بينا أن لفظ
(بشروا) واحد والمراد به الجمع، ومعناه أخلق مثلنا يهدوننا إلى الحق؟ ! متعجبين من ذلك
مستهزئين به (فكفروا) بالله وجدوا رسله (وتولوا) أي عرضوا عن القبول منهم (واستغنى
الله) ومعناه أن الله لم يدعهم إلى عبادته لحاجته اليهم، لان الله تعالى غني عنهم وعن غيرهم،
وإنما دعاهم لما يعود عليهم بالنفع حسب

(٢١)

ماتقتضيه حكمته في تدبيرهم (والله غني) عن جميع خلقه (حميد) على جميع افعاله لانها كلها
إحسان. وقيل (حميد) يدل على أنه يجب على عباده أن يحمده.

ثم حكى ما يقول الكفار فقال (زعم الذين كفروا بالله) وجدوا رسله فقال المؤرج: (زعم)
معناه كذب في لغة حمير. وقال شريح (زعم) كنية الكذب والحدة كنية الجهل (أن لن يبعثوا)

أي لا يحشرهم الله في المستقبل للحساب والجزاء ف (قل) لهم يا محمد (صلى الله عليه وآله) (بلى وربي) أي وحق ربي، على وجه القسم (لتبعثن) أي لتحشرن (ثم لتنبؤن) أي لتخبرن (بما عملتم) من طاعة ومعصية (وذلك على الله يسير) سهل لا يتعذر عليه ذلك، وإن كثروا وعظموا فهو كالقليل الذي لا يشق على من يأخذه لخفة أمره، ومثله قوله (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) (١) واصله من تيسير الشئ بمروره على سهولة.

ثم قال (فآمنوا بالله) معاشر العقلاء (ورسوله) أي وآمنوا برسوله (النور الذي أنزلنا) يعني القرآن، سماه نورا لما فيه من الأدلة والحجج الموصلة إلى الحق فشبهه بالنور الذي يهتدى به على الطريق (والله بما تعملون خبير) أي عالم بأعمالكم لا يخفى عليه خافية منها. وقوله (يوم يجمعكم) تقديره واذكروا يوم يجمعكم (ليوم الجمع) وهو يوم القيامة. وقوله (ذلك يوم التغابن) والتغابن هو التفاوت في اخذ الشئ بدون القيمة، والذين اخذوا الدنيا بالآخرة بهذه الصفة في أنهم اخذوا الشئ بدون القيمة، فقد غبنوا أنفسهم بأخذ النعيم المنقطع بالدائم واغبنهم الذين اشتروا الآخرة بترك الدنيا المنقطع اليها من هؤلاء الذين تغابنوا عليها، وقال مجاهد وقتادة: يوم التغابن غبن أهل الجنة أهل النار.

ثم قال (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أي من يصدق بالله ويعترف

(١) سورة لقمان آية ٢٨ (*)

(٢٢)

بوحدانيتها وإخلاص العبادة له ويقر بنبوة نبيه ويضيف إلى ذلك افعال الطاعات (يكفر عنه سيئاته) أي يكفر عنه سيئاته التي هي دونها، ويتفضل عليه باسقاط عقاب ما دونها من المعاصي (ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار) يعني بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار (خالدين فيها) أي مؤبدين لا يفنى ما هم فيه من النعيم أبدا (ذلك الفوز العظيم) أي النجاح الذي ليس وراءه شئ من عظمه.

ثم قال (والذين كفروا) بالله وجدوا وحدانيتها وأنكروا نبوة نبيه وكذبوا بمعجزاته التي هي آيات الله (أولئك اصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير)

أي بئس المآل والمرجع. وقرأ (نكفر، وندخله) بالنون أهل المدينة وأهل الشام على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه. الباؤون بالياء على تقدير يكفر الله عنهم ويدخلهم.

قوله تعالى:

(ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شئ عليم (١١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين (١٢) الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٣) يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم (١٤) إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) (١٥) خمس آيات.

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه انه ليس يصيبكم مصيبة إلا باذن الله. والمصيبة

(٢٣)

المضرة التي تلحق صاحبها كالرمية التي تصيبه. ومنه الصواب بأنه أصابه الحق كالرمية في إصابة البغية. وقيل: إنما عمم قوله (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله) وفي المصائب ما هو ظلم، والله لا يأذن في الظلم، لانه لا يحسن في الحكمة، الا ترى انه ليس منها إلا ما أذن الله في وقوعه او التمكن منه وذلك أذن للملك الموكل به كأنه قبل له لا تمنع من وقوع هذه المصيبة. وقد يكون ذلك بفعل التمكن من الله كأنه يأذن له ان يكون. وقال البلخي: معناه إلا بتولية الله بينكم وبين من يريد فعلها. وقال قوم: هو خاص فيما يفعله الله تعالى او يأمر به، ويجوز ايضا ان يكون المراد بالاذن - ههنا - العلم، فكأنه قال لا يصيبكم من مصيبة إلا والله تعالى عالم بهاء ثم قال (ومن يؤمن بالله) أي من يصدق بالله ويعترف بوحدانيته (يهد قلبه)

أي يحكم بهديته. ويجوز ان يكون المراد يشرح صدره للإيمان. وقيل: معناه يهدي قلبه بأن المصيبة باذن الله ذكره ابن عباس وعقمة - قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيسلم ويرضى ويعلم أنها من عند الله، وقال الفراء: هو أن يقول: إنا لله وإنا اليه راجعون، وقال غيره: معناه إذا ابتلي صبر، وإذا انعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر.

وقرأ ابوبكر (يهد قلبه) - بفتح الدال - بمعنى يسكن قلبه (والله بكل شئ عليم) لا يخفى عليه شئ من ذلك. ثم أمرهم فقال (وأطيعوا الله) فيما أمركم به (وأطيعوا الرسول) فيما أمركم به ونهاكم عنه (فان توليتم) أي فان أعرضتم عن القبول منه وتوليتم عن الحق فليس على رسولنا قهركم إلى الرد إلى الحق (فانما على الرسول البلاغ المبين) الظاهر، وحذف ايجازاً ثم قال (الله) الذي يحق له العبادة (لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فالتوكل هو تفويض الامر إلى الله بأنه يتولاه على الحق فيه وقد أمر الله بالتوكل عليه فينبغي للمسلم أن يستشعر

(٢٤)

ذلك في سائر احواله وقال قوم: التوكل تفويض الامر إلى مالكه لتدبيره بالحق فيه. والوكيل المالك للتدبير فيمن فوض الامر اليه فيه.

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال (يا ايها الذين آمنوا إن من أزواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم) قال ابن عباس: نزلت الاية في قوم اسلموا بمكة وأرادوا الهجرة فمنعوهم من ذلك، وقال عطاء بن بشار: نزلت في قوم أرادوا البر فمنعهم هؤلاء. وقال مجاهد: هي في قوم إذا أرادوا طاعة الله منعهم أزواجهم واولادهم فبين الله تعالى أن في هؤلاء من هو عدولكم في الدين فاحذروهم فيه. و (من)

دخلت لتبعض لانه ليس حكم جميع الأزواج والاولاد هذا الحكم. والعداوة المباحدة من الخير بالبغيضة ونقيضها الولاية وهي المقاربة من الخير بالمحبة. والاذن الاطلاق في الفعل، تقول: يسمع بالاذن، فهذا أصله، ثم قد يتسع فيه بما يقارب هذا المعنى.

ثم قال (وإن تعفوا) يعني تتركوا عقابهم (وتصفحوا) وتعرضوا عما كان منهم (وتغفروا) أي تستروا ذنوبهم إذا تابوا واقبلوا عنها (فإن الله غفور) أي ستار على خلقه (رحيم) بهم.

ثم قال (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي محنة وابتلاء. وقال قتادة: يعني بلاء. والفتنة المحنة التي فيها مشقة تمنع النفس عما تدعو اليه الشهوة (والله عنده أجر عظيم) أي ثواب جزيل على الصبح والعفو وغيرهما من الطاعات. قوله تعالى:

(فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لا نفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون (١٦) إن

(٢٥)

تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم (١٧)
عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم (١٨) ثلاث آيات.

هذا أمر من الله تعالى للمكلفين يأمرهم بأن يتقوه بأن يتركوا معاصيه ويفعلوا طاعاته. فالانتقاء الامتناع من الردى باجتتاب ما يدعو اليه الهوى. يقال: اتقاه بالترس إذا امتنع منه بأن جعله حاجزا بينه وبينه. وقوله (ما استطعتم) معناه اتقوه بحسب طاقتكم، فإن الله تعالى لا يكلف نفسا ما لا تطيقه، وإنما يكلفها ما تسعه له، ولا ينافي هذا قوله (اتقوا الله حق تقاته) (١) لان كل واحد من الامرين إنما هو إلزام ترك جميع معاصيه فمن ترك جميع المعاصي فقد اتقى عقاب الله، لان من لم يفعل قبيحا ولا أخل بواجب فلا عقاب عليه إلا أن في احد الكلامين تبيين أن

التكليف لا يلزم العبد إلا فيما يطيق. وهذا يقتضي أن اتقاه فيما وقع من القبيح ليس بأن لا يكون وقع وإنما هو بالندم عليه مع العزم على ترك معاودته. وكل أمر يأمر الله به فلا بد من أن يكون مشروطا بالاستطاعة، فإن كانت الاستطاعة غير باقية على مذهب من يقول بذلك، فالأمر بما يفعل في الثالث. وما بعده مشروط بأن يفعل له استطاعة قبل الفعل بوقت وإلا لا يكون مأمورا بالفعل، وإن كانت ثابتة فالأمر على صفة الاستطاعة، لأنه لا يصح الشرط بالموجود، لأن الشرط يحدث، فليس يخلو من أن يكون على شريطة وقوع القدرة أو على صفة وجود القدرة وقال قتادة قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) ناسخ لقوله (اتقوا الله حق تقاته)

كأنه يذهب إلى أن فيه رخصة لحال التقية وما جرى مجراها مما يعظم فيه المشقة

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٢ (ج ١٠ م ٤ من التبيان) (*)

(٢٦)

وإن كانت معه القدرة على الحقيقة. وقال غيره: ليس بناسخ، وإنما هو مبين لا مكان العمل بهما جميعا. وهو الصحيح، لأن تقديره: اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم قوله (واسمعوا) أي اصغوا إلى ما يأمركم الله به (واطيعوا) فيما أمركم به (وانفقوا) فيما أمركم بالانفاق فيه من الزكاة والانفاق فيه سبيل الله وغير ذلك (خيرا لا نفسكم) انتصب (خيرا) بفعل محذوف يدل عليه (انفقوا) وتقديره وأنفقوا الانفاق خيرا لا نفسكم، ومثله انتهوا خيرا لكم، وهو كقولهم: وذاك أوسع لك لأنك إذا أمرته بشئ فهو مضمن بأن يأتي خيرا له.

وقوله (ومن يوق شح نفسه) أي من منع ووقى شح نفسه. والشح منع الواجب في الشرع. وقيل: الشح منع النفع على مخالفة العقل لمشقة البذل، ومثله البخل يقال: شح يشح شحا فهو شحيح وشحاح. وقال ابن مسعود: من الشح أن تعمد إلى مال غيرك فتأكله.

وقوله (فاولئك هم المفلحون) معنان إن من وقى شح نفسه وفعل ما أوجبه الله عليه فهو من جملة المنجحين الفائزين بثواب الله. وقوله (إن تقرضوا الله قرضا حسنا) والقرض أخذ قطعة من المال بتمليك الأخذ له على رد مثله وأصله القطع: من قرض الشئ يقرضه قرضا إذا قطع منه قطعة. وذكر القرض في صفة الله تلتفا في الاستدعاء إلى الانفاق في سبيل الله، وهو كالقرض في مثله مع اضعافه ولا يجوز أن يملك الله - عزوجل - لأنه مالك للأشياء من غير تمليك ولأن المالك لا يملك ما هو مالكة. وقوله (يضاعفه لكم) أي يضاعف ثوابه لكم بأمثاله.

ومن قرأ (يضعفه) بالتشديد، فلان الله تعالى بذل بالواحد عشرة إلى سبعين وسبعمائة (ويغفر لكم) أي ويستر عليكم ذنوبكم ولا يفضحكم بها (إن الله شكور حلِيم) أي يجازي على الشكر (حلِيم) لا يعاجل العباد بما يستحقونه من العقاب. وقوله

(٢٧)

(عالم الغيب والشهادة) أي يعلم السر والعلانية وهو (العزیز) الذي لا يغالب (الحكيم، في جميع أفعاله و (الشكور) في صفة الله مجاز ومعناه إنه يعامل المطيع في حسن الجزاء معاملة الشاكر و (الحلم) ترك المعاجلة بالعقوبة لداعي الحكمة. و (الغيب) كون الشيء بحيث لا يشاهده العبد. و (الغائب) نقيض الشاهد وهو (الحكيم) في جميع أفعاله.

وقرأ (يضعفه) بالتشديد ابن كثير وابن عامر. الباقرن (يضاعفه) وقد مضى تفسيره. ٦٥ - سورة الطلاق مدنية في قول ابن عباس وعطاء والضحاك وغيرهم وهي اثنتا عشرة آية في الكوفي والمدنيين وعشر في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة وانتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (١) فإذا

(٢٨)

بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف و أشهدوا ذوي عدل منكم وأقموا الشهادة الله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا (٣) واللائئ يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائئ لم يحضن وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٤) ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا (٥) خمس آيات.

قرأ حفص عن عاصم ونافع (بالغ أمره) على الاضافة. الباقرن (بالغ) منون (أمره) منصوب. وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى. وقيل: إنه إذا نون معناه انه تعالى بالغ مراده، وإذا اضيف فمعناه أن امره تعالى يبلغ، فيكون اضافة إلى الفاعل.

يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه والمراد به أمته (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء)

ومعناه إذا أردتم طلاق النساء، كما قال (إذا قمتم إلى الصلاة) (١) وروي عن ابن عباس انه قال: نزل القرآن بآياك أعني واسمعي يا جارة، فيكون الخطاب للنبي والمراد به الامة من ذلك. وقال قوم: تقديره يا أيها النبي قل لامتك إذا طلقتم

(١) سورة المائدة آية ٧ (*)

(٢٩)

النساء، فعلى هذا القول: النبي يكون خارجا من الحكم. وقال آخرون: هو على خطاب الرئيس الذي يدخل فيه الاتباع، فعلى هذا حكم النبي حكم أمته في هذا الحكم وأجمعت الامة على أن حكم النبي حكم الامة في الطلاق. والطلاق في الشرع عبارة عن تخلية المرأة بحل عقدة من عقد النكاح بأن يقول: أنت طالق يخاطبها او يقول هذه طالق ويشير اليها أو فلانة طالق بنت فلان. وعندنا لا يقع الطلاق إلا بهذا اللفظ المخصوص، ولا يقع بشئ من الكنايات طلاق أراد بها الطلاق أو لم يرد.

وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف. واما الفراق فقد يحصل بغير الطلاق، كالارتداد واللعان والخلع - عند كثير من أصحابنا - وإن لم يسم ذلك طلاقا. وأما فسخ النكاح بالرد بالعيب. فقد يحصل بأشياء ولا يسمى طلاقا. ومن شرط وقوع الطلاق - عندنا - أن تكون المرأة طاهرا طهرا لم يقر بها فيه بجماع بمحضر من شاهدين، ويقصد به ايقاع الطلاق، ويتلفظ بما قدمناه، فحينئذ يقع طلاقه تطليقة واحدة وهو أملك برجوعها ما لم تخرج من العدة. فان خرجت قبل ان يراجعها كان كواحد من الخطاب. ومتى تلفظ بثلاث تطليقات، فان كانت المرأة طاهرا مع باقي الشروط وقعت واحدة. وخالف جميع الفقهاء في ذلك. وقالوا: يقع الثلاث. ثم اختلفوا فقال الشافعي، ومن وافقه: ويكون ذلك مسنونا. وقال اهل العراق: المسنون ان يطلقها طليقة واحدة بلفظ واحد، ومتى اوقع ثنتين او ثلاثا وقع. وأما غير المدخول بها فعند جميعهم يقع الثلاث، ولاعدة عليها، وعندنا لا يقع إلا واحدة، وفي أصحابنا من يقول: من تلفظ بالثلاث لا يقع شئ، والاعتماد على ما قلناه أولا، ومتى طلقها ثلاثا أو واحدة، وهي حائض وكان قد دخل بها ولا يكون غائبا عنها شهرا فصاعدا لا يقع عندنا شئ اصلا. وقال جميع الفقهاء: هو بدعة. وتبين المرأة بذلك.

(٣٠)

وقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) معناه أن يطلقها وهي طاهر من غير جماع ويستوفي باقي الشروط. وقال ابن عباس: هو أن يطلقها طاهرا من غير جماع.

وبه قال مجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي، فعلى هذا متى طلقها في الحيض فلا يقع طلاقها، لانه خلاف المأمور به، وهو منهي عنه، والنهي يدل على فساد المنهي عنه وعند الفقهاء إنه يقع الطلاق، وإن كان بدعة.

ثم قال (واحصوا العدة) فالعدة قعود المرأة عن الزواج حتى تنقضي المدة المرتبة في الشريعة، وعدة المرأة على ضربين:

أحدها - عدة التي لم تبلغ المحيض، ومثلها لا تحيض، وهي التي لم تبلغ تسع سنين، فهذه لا عدة عليها - عند أكثر اصحابنا - وفيهم من قال عدتها بالشهور، وبه قال باقي الفقهاء. وعدة التي لا تحيض ومثلها تحيض ثلاثة اشهر بلا خلاف.

وعدة التي تحيض ثلاثة أقراء وهي الاطهار - عندنا وعند كثير من الفقهاء - وعند قوم انها الحيض.

وعدة التي ارتفع حيضها ومثلها تحيض ثلاثة اشهر بلا خلاف. وقد حد ذلك أصحابنا بأن يكون سنها أقل من خمسين سنة.

وعدة الأيسة من المحيض ومثلها لا تحيض، فلا عدة عليها - عند أكثر اصحابنا - وقال قوم: عدتها بالاشهر، وحد ذلك أصحابنا بأن يزيد سنها على خمسين سنة، والقرشية حدوها بستين سنة فصاعدا.

وعدة الحامل وضع ما في بطنها إذا كانت عدة الطلاق، فان كانت عدة الوفاة فأبعد الاجلين من وضع الحمل او مضي أربعة اشهر وعشرة أيام. وهو مذهب علي (عليه السلام) وابن عباس. وقال الفقهاء عدة المتوفى عنها زوجها وضع ما في بطنها وقوله (واحصوا العدة) يعني مدة زمان العدة.

(٣١)

ثم قال (وانقوا الله ربكم) بان لا ترتكبوا المعاصي (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن) يعني زمان العدة، لانه لا يجوز إخراجها من بيتها - وعندنا وعند جميع الفقهاء - يجب عليه السكنى والنفقة والسكوة إذا كانت المطلقة رجعية، فان كانت بائنا فلا نفقة لها ولا سكنى. وقال الشافعي: فلا نفقة لها ولا سكنى إذا كانت بائنا. وقال أهل العراق: لها السكنى والنفقة.

وقوله (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) من فتح الباء أراد فاحشة أظهرت.

ومن خفض الياء أراد بفاحشة ظاهرة. وقال عطاء والضحاك وقتادة: لا يجوز ان تخرج من بيتها حتى تنقضي عدتها إلا عند الفاحشة. وقال الحسن وعامر والشعبي ومجاهد وابن زيد: الفاحشة - ههنا - الزنا تخرج لاقامة الحد. قال ابن عباس:

الفاحشة النداء على أهلها، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) وقال قتادة: الفاحشة هو النشوز. وقال ابن عمر: هو خروجها قبل انقضاء العدة - وفي رواية عن ابن عباس - ان كل معصية لله ظاهرة فهي فاحشة.

وقوله (وتلك حدود الله) يعني ما تقدم ذكره من كيفية الطلاق والعدة وترك إخراجها عن بيتها إلا عند فاحشة حدود الله، فالحدود نهايات تمنع أن يدخل في الشئ ما ليس منه او يخرج منه ما هو منه، فقد بين الله بالامر والنهي الحدود في الطاعات والمعصية بما ليس لاحد ان يدخل في شئ من ذلك ما ليس منه او يخرج عنه ما هو منه.

وقوله تعالى (ومن يتعد حدود الله) معناه من يجاوز حدود الله بأن يخرج عن طاعته إلى معصيته، فقد تعدى حدا من حدود الله وكذلك من دخل في معصية، فقد خرج عن الطاعة. وليس كل من دخل في طاعة فقد خرج اليها عن معصية، لانها قد تكون نافلة. ثم بين تعالى فقال: ومن يجاوز حدود الله

(٣٢)

(فقد ظلم نفسه) بأن فعل ما يستحق معه العقاب ويحرم معه الثواب وقوله (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) قال قوم: معناه لا تدري لعل الله يغير رأي الزوج في محبة الطلاق، فتكون مطلقة على ما أمر الله به ويملك الرجعة فيما بين والواحدة والثانية وما بين الثانية والثالثة. وقال الضحاك والسدي وابن زيد (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) يعني الرجعة في العدة. وقيل معناه (لعل الله يحدث بعد ذلك) شهوة المراجعة.

وقوله (فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف) معناه فاذا قاربن أجلهن الذي هو الخروج عن عدتهن، لانه لا يجوز ان يكون المراد فاذا انقضى أجلهن، لانه عند انقضاء اجلهن لا يملك رجعتها. وقد ملكت نفسها وقد بانث منه بواحدة.

ثم تتزوج من شاءت هو او غيره. وإنما المعنى إذا قاربن الخروج من عدتهن فامسكوهن بأن تراجعوهن بمعروف بما يجب لها من النفقة والكسوة والمسكن وحسن الصحبة (أو قارقوهن بمعروف) بأن تتركوهن حتى يخرجن من العدة.

وقوله (واشهدوا ذوي عدل منكم) فعند أصحابنا أن الاشهاد شرط في وقوع الطلاق، لان ظاهر الامر بذلك يقتضيه. والامر عندنا على الوجوب.

وقال قوم: إن ذلك راجع إلى الرجعة، وتقديره وأشهدوا على الإمساك إن أمسكتم ذوي عدل منكم وهو الرجعة - في قول ابن عباس. وقال الشافعي:
الإشهاد على الرجعة أولى. ويجوز عند أكثرهم بغير إشهاد، وإنما ذكر الله الإشهاد كما ذكر في قوله (وأشهدوا إذا تبايعتم) (١) وهو على الندب، وهذا ترك الظاهر ومتى حملنا الإشهاد على الفراق، وهو الطلاق حملناه على ظاهره من الوجوب وجعلناه

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢ (*)

(٣٣)

شرطا في وقوع الطلاق. ثم قال (واقيموا الشهادة لله) إذا طولبتم بأقامتها (ذلكم) معاشر المكلفين (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فالوعظ معنى يدعو إلى الحق بالترغيب والترهيب. وإنما اضاف الوعظ إلى من يؤمن بالله واليوم الآخر دون غيره، لأنه الذي ينتفع به دون الكافر الجاحد لذلك، فالطاعة الواجبة فيها وعظ بالترغيب فيها باستحقاق الثواب وفي تركها بالعقاب. والمندوبة فيها وعظ باستحقاق المدح والثواب على فعلها والمعاصي فيها وعظ بالزجر عنها والتخويف من فعلها باستحقاق العقاب والذم على فعلها والترغيب في تركها بما يستحق على الاخلال به من الثواب.
ثم قال (ومن ينق الله) يعني باجتتاب معاصيه (يجعل له مخرجا) من عقابه (ويرزقه من حيث لا يحتسب) أي من حيث لا يتوقعه ولا يظنه (ومن يتوكل على الله) أي من اسند أمره إلى الله ووثق بحكمه وسكن إلى رحمته (فهو حسبه) أي كافيته جميع ذلك (إن الله بالغ أمره) أي يبلغ ما يريد ويشاء من أمره وتدبيره (قد جعل الله لكل شئ قدرا) أي قدر الله لكل شئ مقدارا واجلا، لا زيادة فيه ولا نقصان.

ثم بين كيفية العدد باختلاف احوال النساء، فقال (واللأئي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر) يعني ان اليائسة من المحيض إذا كانت ترتاب بنفسها ولا تدري أرتفع حيضها لكبر او عارض (فعدتها ثلاثة اشهر)
وهي التي قلنا اولا أن مثلها تحيض، لأنها لو كانت في سن من لا تحيض لم يكن لريبتها معنى. وقال الزهري وعكرمة وقتادة (إن ارتبتم) فلم تدروا: للكبر او لدم الاستحاضة، فالعدة ثلاثة اشهر. وقال قوم: ان ارتبتم فلم تدروا الحكم في ذلك فعدتهن ثلاثة اشهر.

(ج ١٠ م ٥ من التبيان)

(٣٤)

وقوله (واللآئي لم يحضن) تقديره واللآئي لم يحضن إن ارتبتم فعدتھن ثلاثة أشهر، وحذف لدلالة الكلام الأول عليه والكلام فيها كالكلام في اليأسة.

وقال قتادة: اللآئي يئسن الكبار، واللآئي لم يحضن الصغار.

ثم قال (وأولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن) بين ان عدة الحامل من الطلاق وضع الحمل الذي معها، فان وضعت عقيب الطلاق فقد ملكت نفسها.

ويجوز لها أن تعقد لغيره على نفسها، غير أنه لا يجوز له وطؤها، لان نفاسها كالحيض سواء، وإذا طهرت من نفاسها حل له ذلك، فان كانت حاملا باثنتين ووضعت واحدا لم تحل للزواج حتى تضع جميل الحمل، لقوله تعالى (أن يضعن حملهن) فاما انقطاع الرجعة، فقد روى أصحابنا أنها إذا وضعت واحدا انقطعت عصمتها من الأول، ولا يجوز لها العقد بغيره حتى تضع الآخر. فاما إذا توفى عنها زوجها، فعدتها - عندنا - أبعد الاجلين إن وضعت قبل الاربعة أشهر وعشر استوفت اربعة اشهر وعشرة أيام، وإن مضى بها أربعة اشهر وعشر ولم تضع انتظرت وضع الحمل. وقال ابن عباس: الآية في المطلقة خاصة، كما قلناه. وقال ابن مسعود وابي بن كعب وقتادة والسدي واكثر الفقهاء: إن حكم المطلقة والمتوفى عنها زوجها واحد في أنها متى وضعت حلت للزواج. والذي اخترناه هو مذهب علي (عليه السلام).

ثم قال (ومن يتق الله) باجتناب معاصيه (يجعل له من أمره يسرا) يعني سهولة في أموره ولا يعسر عليه أمره.

وقوله (ذلك أمر الله أنزله اليكم) يعني حكم الطلاق والرجعة والعدة فيما أنزله الله وحكم به وأمركم بالعمل به.

ثم قال (ومن يتق الله) باجتناب معاصيه وفعل طاعاته (يكفر عنه سيئاته) لتي هي دونها ويتفضل عليه باسقاط عقابها (ويعظم له اجرا) على ذلك يعني ثوابه

(٣٥)

ونعيمه في الجنة.

قوله تعالى:

(أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسر تم فستر ضع له أخرى (٦) لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق

مما آتته الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتتها سيجعل الله بعد عسر يسرا (٧) وكأين من قرية
عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا (٨)
فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا (٩) أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا أولي
الالباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا (١٠)
خمس آيات في الكوفي والبصري والمدني الأخير: وست آيات في المدني الأول. عدوا
(يا أولى الابواب) رأس آية.
قرأ (من وجدكم) بكسر الواو، روح. الباقون بضمها، و هما لغتان.
وحكى الفراء - فتح الواو - لغة ولم يحك الكسر. وحكى الزجاج: الكسرة ولم يحك بالفتحة.
وقرأ ابن كثير (وكاين) خفيفة على وزن (كاهن) الباقون

(٣٦)

(كأين) مشددة الياء، والاصل (أى) إلا انه حذف للتضعيف، كما يحذف من رب، وقدمت الياء
وأخرت الهمزة نحو شاك وشائك. ثم قلبت الياء ألفا، لانها في موضع حركة وقبلها فتحة نحو:
رمي، وإنما احتمل هذا التغيير للعدول به عن معنى الاستفهام إلى معنى (كم) في التكثر على
وجه الابهام. وقال قوم: في (كأين)
لغتان (كأين) مشددة الياء و (كاين) على وزن (قائل) وقد قرأ بهما. وحكى ان أهل الحجاز
يقولون: بكاين تبيع هذا الثوب. أي بكم تبيعه.
يقول: الله تعالى مخاطبا لمن طلق زوجته يأمره أن يسكنها حيث يسكنه، وقد بينا أن السكني
والنفقة يجب للرجعية بلا خلاف. فاما البائنة فلا سكنى لها ولا نفقة - عندنا - وهذا مذهب
الحسن. وقد روت فاطمة بنت قيس عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: لانفقة للمبتوتة. وقال
الشافعي ومالك لها السكنى والنفقة وهو قول معاوية وابن مسعود وعمر بن الخطاب.
وقوله (من وجدكم) قال السدي معناه من ملككم. وقال ابن زيد: هو إذا قال صاحب المسكن لا
أترك هذه في بيتي فليس من وجده. ويجوز له حينئذ أن ينقلها إلى غيره، والوجد ملك ما يجده
المالك، وذلك أنه قد يملك المالك ما يغيب عنه. وقد يملك ما هو حاضر له، فذلك وجده، يقال:
وجدت في المال وجدا ووجدة، ووجدت الضالة وجدانا، ووجدت الرجل صالحا وجودا.
وقوله (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) معناه لا تدخلوا الضرر عليهن بالتقصير في النفقة
والسكنى والكسوة وحسن العشرة لتضيقوا عليهن في السكنى والنفقة، وأمر بالسعة. والمضارة
المعاملة بما يطلب به إيقاع الضرر والمضارة المعاملة بما يطلب به إيقاع الضرر بصاحبه.

وقد تكون المضارة من واحد كما يقال: طارقت النعل، وعافاه الله، ويمكن أن يكون من كل واحد منهما لصاحبه. والتضييق تقليل

(٣٧)

ما يحتاج إلى التصرف فيه عن مقدار الكفاية. وقد يكون التضييق في الرزق وفي المكان وفي الامر. و (ان كن) يعني النساء المطلقات (أولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) أمر من الله تعالى بالانفاق على الحامل المطلقة سواء كانت رجعية او مبتوتة، ولا خلاف في ذلك، وإنما يجب ان ينفق عليها بسبب ما في بطنها، وإنما تسقط نفقتها بالوضع. والحمل - بفتح الحاء - يكون على الظهر وفي البطن، ويقال للعدل - الحمل - بكسر الحاء. وقوله (فان ارضعن لكم فآتوهن اجورهن) أمر من الله تعالى بأن الام المطلقة متى ولدت ورغبت في رضاع ولدها، كان على الاب أجره الرضاع أجره المثل، فان رضيت الاجنبية بشئ معلوم لأجرة الرضاع ورضيت بمثله الام كانت الام أولى، وإن لم ترض الام بذلك القدر كان للاب تسليمه إلى الاجنبية، وان كان الولد لا يقبل إلا لبن الام أجبرت عليه. وإلا أدى إلى هلاك الولد.

والرضاع سقي المرأة من لبنها للولد. ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآله) (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) يعني ان المرضعة تصير بمنزلة الام، وأما بمنزلة الجدة واختها خالة، وبناتها اختا وابنها اخا، وهكذا سائر المحرمات.

وقوله (واتمروا بينكم بمعروف) فالأتمار أمر كل واحد لصاحبه بفعل من الأفعال كالإتتمار بالمعروف الذي يصطلحان عليه.

وقوله (وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) خطاب للرجل ولزوجته المطلقة أنهما متى اختلفا في رضاع الصبي واجرتة أرضعته امرأة أخرى فالتعاسر التمانع يتعذر من الامر كالتمانع بما يتعسر به رضاع الام، فمتى كان كذلك فالحكم فيه أن ترضعه امرأة أخرى ثم امر تعالى فقال (لينفق ذو سعة من سعته...) ومعناه ان كل انسان يجب عليه النفقة بحسب حاله فالغنى ينبغي ان يوسع في النفقة والفقير بحسب حاله.

(٣٨)

وقوله (ومن قدر عليه زرقه) معناه من ضيق عليه، لانه أتى على مقدار البلغة التي تضييق عن غيره، فمن هذه صورته (فلينفق مما آتاه الله) على حسب امكانه وطاقته (لايكلف الله نفسا إلا ما آتاه) يعني إلا بقدر ما أعطاه من الطافة. وفي ذلك دلالة على انه تعالى لا يكلف أحدا ما لا يقدر عليه ولا يطيفه.

ثم قال (سيجعل الله بعد عسر يسرا) أي سيفعل الله بعد شدة سهولة، فاليسر اتيان الامر من غير مشقة، وهو سهولة الامر، وضده العسر، وهو صعوبة الامر.

وقوله (وكأين من قرية) معناه و (كم من قرية) على التكثر، لانه يخبر ب (كم) عن الكثرة (عنت عن امر ربها) والعتو الخروج إلى فاحش الفساد. والمعنى كم من أهل القرية كفروا بالله وتجبروا عن طاعته وخرجوا بذلك إلى افحش الفساد (ورسله) معناه عتوا عن امر الله وامر رسوله (فحاسبناها حسابا شديدا) فالحساب

الاعمال مقابلة ما يستحق على الطاعة وبما يستحق على المعصية والحساب الشديد مقابلة ذلك من غير تجاوز عن صغيرة ولا عفو عن ذنب، وذلك أن الكافر يعاقب على كل صغيرة وكبيرة من حيث انه لاطاعة معه تكفر معاصيه. وقوله (وعذبناها عذابا نكرا) معناه عذبنا أهل تلك القرية العاتية عذابا نكرا، وهو الذي ينكره الطبع وتأباه النفوس لصعوبته وشدته. والامر النكر الذي ينكره العقل. وقوله (فذاقت وبال أمرها) فالوبال عاقبة السوء، أسند الفعل إلى القرية، فلذلك أنت قوله (فذاقت) ولو قال: (عتوا، عن أمر ربهم، وعذبناهم فذاقوا) على المعنى كان جائزا. والوبال ثقل العائد من الضر. وقيل: ان معنى نكر أنه متجاوز في الشدة لكل ما عرفوه في الدنيا من العقوبة (وكان عاقبة أمرها حسرا) أي وكان آخر أمر تلك القرية العاتية خسرا أي هلاك أنفسهم، وأصله هلاك رأس المال.

ثم بين مالهم في الآخرة، فقال (اعد الله لهم عذابا شديدا) من عذاب النار

(٣٩)

يعاقبهم به على طريق التأبيد موجعا شديد الالم (فاتقوا الله) يامعاشر العقلاء (يااولوا الالباب الذين آمنوا) يعني المؤمنين منهم، وخصهم بالذكر والخطاب، لانهم المنتفعون بذلك دون الكفار. وقوله تعالى (قد أنزل الله اليكم ذكرا) قال قوم: أراد بالذكر القرآن لانه سماه ذكرا في قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) (١)

ذهب اليه السدي وابن زيد، فعلى هذا تقديره انزل الله اليكم ذكرا وارسل اليكم رسولا، وسماه ذكرا لانه يتذكر به ما يجب العمل به والانتهاء عنه. وقيل إن معنى الذكر الشرف كأنه قال: أنزل الله اليكم شرفا. وقيل: المراد بالذكر الرسول لقوله (فاسألوا أهل الذكر) (٢) ذهب اليه الحسن، فعلى هذا يكون (رسولا) بدلا منه، وتقديره أنزل الله اليكم ذكرا هو رسوله. قال الزجاج: تقديره فأنزل الله اليك ان ذكر رسولا هو جبرائيل (عليه السلام).

قوله تعالى:

(رسولا ينزل عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدون فيها أبدا قد

أحسن الله له رزقا (١١) الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما (١٢) آيتان.

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٩ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٤٣ وسورة ٢١ الانبياء آية ٧ (*)

(٤٠)

قرئ (ندخله) مدني وشامي على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه.

الباقون بالياء بمعنى يدخل الله. والياء أشبه بما قبله.

قيل في انتصاب قوله (رسولا) وجهان:

احدهما - أن يكون بدلا من ذكر، وهو بدلا الاشتمال، ويكون الذكر القرآن، كأنه قال رسولا ذكرا.

الثاني - ان يكون الذكر بمعنى الشرف، فيكون الذكر هو الرسول، كما قال (وإنه لذكر لك ولقولك) (١)

وفيه وجه ثالث وهو أنه لما قال: انزل ذكرا دل على انه جعل رسولا، وكأنه قيل وبعث رسولا كما قال الشاعر:

يارب غير آيهن مع البلى * إلا رواكد جمرهن هباء

ومشجج اما سواء قذاله * فبدا وغيب ساره المغراء (٢)

لانه لما قال: إلا رواكد دل على ان بها رواكد فحمل مشجج على المعنى.

وقال الزجاج: يحتمل ان يكون نصبا بذكر، كأنه قال ذكر رسول، بمعنى أن ذكرا رسولا،

يكون ذكر مصدر، والذي انزل جبرائيل لقوله (نزل به الروح الامين) (٤)

وقوله (يتلو عليكم) أي يقرأ عليكم آيات الله يعني دلائله وحججه مبينات أي واضحات في من

يفتح الياء ومن كسرهما أراد انها تبين الايات والتلاوة.

من قولهم جاء فلان ثم تلاه فلان أي جاء بعده، ومنه قوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) (٣) أي

يأتي بعده، فالتلاوة جعل كلمة بعد كلمة على ما وضعت عليه من المرتبة في اللغة. والقراءة

جمع كلمة إلى كلمة بما يسمع من الحروف المفصلة، وهو قولهم

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٤٤ (٢) قد مر في ٢ / ١٢٥ (٣) سورة ١١ هود آية ١٧ (٤) سورة ٢٦ الشعراء

آية ١٩٣ (*)

(٤١)

قرأت النجوم إذا اجتمعت وظهرت، ويقولون: ما قرأت الناقة سلاقط أي ما جمعت رحمها على ولد. والبيا هو الأدلة. وقيل: هو ما أبان المعنى للنفس بما يفصل من غيره، وهو من قولهم: أبان العضو من غيره إذا قطعه منه.

وقوله (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات) يعني ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك يدل على فساد قول المجبرة: إن الله تعالى بعث الانبياء ليكفر بهم قوم ويؤمن آخرون. وإنما خص (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

بالإخراج، لأنهم الذين خرجوا بدعائهم من الكفر إلى الإيمان. والنور - ههنا - نور الحق الذي يهدي إلى الرشd والجنة، كما يهدي نور الشمس إلى المواضع المقصودة والظلمة - ههنا - الباطل الذي يعود إلى الغي، كما يعود الظلام من مر فيه من غير دليل إلى الهلاك.

ثم قال (ومن يؤمن بالله) أي من يصدق بوحدانيته وإخلاص العبادة له (ويعمل صالحا) أي يعمل الأعمال الصالحات (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار) جزاء على ذلك وثوابا عليه (خالدين فيها) نصب على الحال (أبدا)

أي مؤبدين لا آخر لنعيمهم (قد أحسن الله لهم رزقا) أي اجزل الله لهم ما ينتفعون به ولا يمنعون منه، فالرزق النفع الجاري في الحكم، فلما كان النفع للمؤمنين في الجنة جاريا في حكم الله كان رزقا لهم منه.

وقوله (الله الذي خلق سبع سموات) اخبار من الله تعالى انه الذي انشأ سبع سموات (ومن الارض مثلهن) أي وخلق من الارض مثلهن في العدد لا في الكيفية، لان كيفية السماء مخالفة لكيفية الارض. والمثل ما سد مسد غيره فيما يرجع إلى ذاته.

(ج ١٠ م ٦ من التبيان)

(٤٢)

وقوله (يتنزل الامر بينهن) معناه يتنزل الامر بالتدبير من الله بين السموات وبين الارضين، بحياة بعض وموت بعض، وغنى إنسان وفقير غيره، وسلامة حي وهلاك آخر، وتصريف الامور على الحكمة لا يكون إلا من قادر عالم وهو معنى قوله (لتعلموا ان الله على كل شئ قدير) فالقادر، هو من كان له مقدور يصح منه إيقاعه على بعض الوجوه كما ان السامع هو من له مسموع موجود والتقدير عبارة عن يجب أن يكون قادرا على ما يصح ان يكون مقدورا له ك (سميع)

يفيد أنه على صفة يجب ان يسمع لا جلها ما يصح ان يكون مسموعا.

وقوله (وان الله قد أحاط بكل شئ علما) معناه ان معلوماته متميزة له بمنزلة ما قد أحاط به فلم يفته منه شئ، ومثله (ولا يحيطون به علما) (١) أي إنه ليس بمنزلة ما يحضره العلم بمكانه،

فيكون كأنه قد احاط به وقوله (ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء) (٢) معناه ولا يحيطون بشئ من معلومه إلا بما شاء أن يضطرهم اليه أو يدلهم عليه، فهو تذكير بالنعمة أي لا ينالون هذه المنزلة إلا بمشيئة، ولو لا ذلك لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما شاء، لكن لما دخل التذكير بالنعمة حسن من هذه الجهة وليس في القرآن آية تدل على أن الارضين سبع، غير هذه - ذكره الجبائي - وقوله (لتعلموا ان الله على كل شئ قدير) دليل على بطلان مذهب المجبرة في أن الله أراد من قوم أن يجهلوا كونه على هذه الصفة، لانه تعالى بين انه ذكر ما تقدم وصفه ليعلم المكلفون أجمعون (أن الله على كل شئ قدير وانه) تعالى قادر (قد احاط بكل شئ علماً) وعلى مذهب المجبرة إن الله تعالى أراد من جماعة الكفار خلاف ذلك وأراد منهم ان يجهلوه ويجهلوا صفاته وذلك خلاف الظاهر. وقوله (علماً) نصب على المصدر ودل عليه قوله تعالى

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٠ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٥ (*)

(٤٣)

(أحاط بكل شئ علماً) كأنه قال: علم كل شئ علماً.

٦٦ - سورة التحريم مدنية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي اثنتا عشرة آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم (١) قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله موليكم وهو العليم الحكيم (٢) وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (٣) إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو موليه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير (٤) عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات

(٤٤)

وأبكارا) (٥) خمس آيات.

قرأ أهل الكوفة (تظاهرا) خفيفة. الباقيون بالتشديد، يعني (تتظاهرا) فأدغم. ومن خفف حذف أحدهما. وقرأ الكسائي وحده (عرف بعضه) خفيفا وهي قراءة الحسن وابي عبدالرحمن، وكان أبو عبدالرحمن إذا قرأ إنسان بالتشديد خطأه. وقرأ ابن كثير

(جبريل) بفتح الجيم وكسر الراء من غير همزة. وقرأ - بكسر الجيم والراء من غير همز - نافع وابوعمر و ابن عامر وحفص عن عاصم.

وقرأ بفتح الجيم والراء وكسر الهمزة مقصور على وزن (جحمرش) أبوبكر عن عاصم. وقرأ بفتح الجيم والراء مهموزة بين الراء والياء على وزن (خزغيل) حمزة والكسائي وقد بينا الوجه في ذلك في سورة البقرة. قال ابوعلي: جبريل - بكسر الجيم - بلا همزة على وزن (قنديل) وفتح الجيم والراء والهمزة مع المد على وزن (عندليب) وفتح الجيم والراء وكسر الهمزة على وزن (جحمرش) وليس في العربية على وزن (قنديل) بفتح القاف غير أنه جاء خارجا على أوزان العربية.

هذا خطاب من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) وعتاب له على تحريم ما أباحه الله له وأحله له، ولا يدل على انه وقعت منه معصية، لان العتاب قد يكون على أمر قد يكون الاولى خلافه، كما يكون على ترك الواجب.

وقيل في سبب نزول قوله (يا ايها النبي) قولان:

احدهما - قال زيد بن أسلم ومسروق وقتادة والشعبي وابن زيد والضحاك:

ان النبي (صلى الله عليه وآله) حرم على نفسه مارية القبطية بيمين انه لا يقربها طلبا لمرضاة حفصة زوجته، لانها غارت عليه من أجلها، وقال الحسن: حرم رسول الله أم ولده إبراهيم، وهي مارية القبطية على نفسه فأسر بذلك إلى زوجته حفصة فأفضت به إلى

(٤٥)

عائشة وكانت حفصة بنت عمر قد زارت عائشة، فحلا بيتها، فوجه رسول الله إلى مارية القبطية، وكانت معه وجاءت حفصة فأسر إليها التحريم.

والقول الثاني - ما رواه عبدالله بن شداد بن الهلال: ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان شرب عند زينب شراب عسل كانت تصلحه له، فكان يطول مكثه عندها فكره ذلك عائشة وحفصة، فقالت له إنا نشم منك ريح المغاير، وهي بقلة متغيرة الرائحة - في قول المفسرين - وقال الزجاج: هي بقلة منتنة، فحرم النبي (صلى الله عليه وآله) شراب العسل الذي كان يشربه عند زوجته زينب بنت جحش. وقيل: ذكرت ذلك له حفصة، فحرمه النبي (صلى الله عليه وآله) على نفسه. ومن قال: انها نزلت بسبب مارية قال:

انه قال: هي علي حرام، فجعل الله فيه كفارة يمين - ذكره ابن عباس والحسن - ومن قال: إن التحريم كان في شراب كان يعجبه قال: إنه حلف على انه لا يشربه فعاتبه الله على تحريم ما أحل الله له.

والتحريم تبيين ان الشئ حرام لا يجوز، ونقيضه الحلال. والحرام هو القبيح الممنوع بالنهاي عنه، والحلال الحسن المطلق بالاذن فيه. وعندنا أنه لا يلزم بقوله أنت علي حرام شئ، ووجوده كعدمه، وهو مذهب مسروق. وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف. وإنما اوجب الله الكفارة، لانه (صلى الله عليه وآله) كان حلف ألا يقرب جاريته أو لا يشرب الشراب المذكور، فعاتبه الله على ذلك وأوجب عليه ان يكفر عن يمينه ويعود إلى استباحة ما كان يفعله. وبين أن التحريم لا يحصل إلا بأمر الله ونهيه، وليس يصير الشئ حراما بتحريم محرم، ولا باليمين على تركه، فلذلك قال (لم تحرم ما أحل الله لك). وقوله (تبتغي مرضات أزواجك) معناه إنك تطلب رضاء أزواجك في تحريم ما أحله الله لك. فالأبتغاء الطلب، ومنه البغي طلب الاستعلاء بغير حق،

(٤٦)

والبغية معتمد الطلب والبغي الفاجرة لطلبها الفاحشة. وقوله (والله غفور رحيم) معناه ارجع إلى الأولى والاليق، فان الله يرجع للتائب إلى التولي، لانه غفور رحيم. وقوله (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أي قد قدر الله تعالى ما تحلون به يمينكم إذا فعلتموه، وذلك يدل على انه (صلى الله عليه وآله) كان حلف دون ان يكون قال: هي علي حرام، لان ذلك ليس بيمين - عند اكثر الفقهاء - وقال الحسن: فرض الله تحلة اليمين في الكفارة للؤمنين. فأما النبي (صلى الله عليه وآله) فلا كفارة عليه، لان الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وتحلة اليمين هو فعل ما يسقط تبعته في اليمين إما بكفارة او بتناول شئ من المحلوف عليه، فمن حلف ألا يأكل من هذا الطعام، فمتمي أكله حنث، ولزمته كفارة، وينحل اليمين بها، ومن حلف أنه يأكل من هذا الطعام وأكل منه شيئاً قليلاً فقد انحلت يمينه، فلذلك سمي تحلة اليمين. وقوله (والله مولاكم) معناه الله ناصركم، وهو أولى بكم منكم بأنفسكم، ومن كل احد (وهو العليم) بجميع الاشياء (الحكيم) في جميع أفعاله.

وقوله (وإذ أسر النبي) معناه واذكروا حين أسر النبي (إلى بعض أزواجه حديثاً) فالاسرار القاه المعنى إلى نفس المحدث على وجه الاخفاء عن غيره، يقال:

أسر اليه كذا وكذا إسرا وإسرا والإسرا نقيض الاعلان. وقيل: إنه كان أسر إلى حفصة ألا تخبر عائشة بكونه مع مارية في يوم عائشة وقال إنه حرّمها على نفسه، فأطلعت عليه عائشة. وقيل: إنه كان يوم حفصة، فأطلعت عليه عائشة فاستكنمتها النبي فأخبرت حفصة بذلك فانتشر الخبر فعاتبهم الله على ذلك. وقال الزجاج والفراء: أسر اليها بأنه سيلي الأمر بعده أبوبكر

وعمر و عثمان فتباشروا بذلك فانتشر الخبر. وروى أصحابنا انه أسر إلى عائشة بما يكون بعده من قيام من

(٤٧)

يقوم بالامر ورفع علي (عليه السلام) عن مقامه فيشرت بذلك أباهما فعاتبهم الله على ذلك. وقوله (فلما نبأت به وظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض) معناه لما أخبرت التي اسر اليها الذي خبرها به إلى غيرها وأعلم الله تعالى نبيه ذلك وظهره له (عرف بعضه واعرض عن بعض) فمن قرأ بالتخفيف قال الفراء: معناه إنه عاتب على بعض ذلك وصفح عن الباقي. وروي انه طلق حفصة تطليقة جزاء على ذلك ثم راجعها بأمر الله تعالى، وقيل: معنى قراءة من شدد أراد انه (صلى الله عليه وآله) أعلمها جميع ذلك وعرفها إياه، فلما نبأها به يعني لما أخبر النبي (صلى الله عليه وآله)، زوجته بذلك وعرفها أنها افشت سره (قالت) له في الجواب (من أنبأك هذا) أي من اخبرك بهذا فقال النبي (صلى الله عليه وآله) (نبأني) أي اخبرني بذلك واعلمني (العليم) بجميع المعلومات (الخبير) بسرائر الصدور الذي لا يخفى عليه شيء من أمور عباده ظاهرا وباطنا.

ثم خاطبهما يعني عائشة وحفصة وقال قل لهما (إن تتوبا إلى الله) وترجعا إلى طاعته (فقد صغت قلوبكما) قال ابن عباس ومجاهد: معناه زاعت قلوبكما إلى الاثم. وقال عمر بن الخطاب وجميع أهل التأويل: انه عنى عائشة وحفصة، وقال بعضهم: معناه مالت قلوبكما إلى ما كرهه الله من تحريم ما حرمه. وقوله (فقد صغت قلوبكما) من صلة (إن تتوبا إلى الله) والجواب محذوف، وتقديره إن تتوبا إلى الله قبلت توبتكما، وقال قوم (فقد صغت قلوبكما) جواب كقول القائل إن تتابع المجيء الي فلقد جفوتتي وقطعتي دهرا أي يحق لك ان تفعل ذلك، فقد صرمت فيما قبل. وإنما قال (قلوبكما) مع أن لهما قلبين، لان كلما تثبت الاضافة فيه معنى التنثية، فلفظ الجمع أحق به، لانه أمكن واخف باعراب الواحد وقلة الزائد. وذلك في كل شيئين من شيئين، ويجوز التنثية لانها الاصل، كما قال الراجز:

(٤٨)

ظراهما مثل ظهور الترسين (١)

فجمع المذهبين. وقوله (وإن تظاهرا عليه) معناه وإن تعاونا على خلافه (فان الله هو مولاه) يعني الله الذي يتولى حفظه وحياطته ونصرته (وجبريل) ايضا معين له وناصره (وصالح المؤمنين) قال الضحاك: يعني خيار المؤمنين. وقال قتادة: يعني أتقياء المؤمنين. وقال الزجاج: (صالح المؤمنين) واحد في موضع الجمع، وقال أبو مسلم

محمد بن بحر الاصفهاني: هو صالحوا المؤمنين على الجمع، غير انه حذفت الواو للاضافة، وهذا غلط، لان النون سقطت للاضافة، فكان يجب ان يثبت الواو في الحظ، وفي المصاحف بلا واو، وروت الخاصة والعامة أن المراد بصالح المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذلك يدل على انه أفضلهم، لان القائل إذا قال: فلان فارس قومه او شجاع قبيلته او صالحهم، فانه يفهم من جميع ذلك انه افرسهم واشجعهم واصلحهم.

وقوله (والملائكة بعد ذلك ظهير) معناه إن الملائكة بعد من ذكره معينون له، فالظهير المعين الذي هو كالظهر له في القوة.

وقوله (عسى ربه إن طلقكن) معاشر نساء النبي (ان يبده أزواجا خيرا منكن) فمن خفف الدال، فلا نه يدل على القليل والكثير، ومن شدد أراد ان الله يبدهن اكثر منهن. ومعنى (خيرا منكن) أي افضل منكن وأصلح له. ثم وصفهن تعالى فقال (مسلمات) وهن اللواتي يظهرن الاسلام والشهادتين مستسلمات لما أمر الله به (مؤمنات) أي مصدقات بتوحيد الله واخلاص العبادة له مقرات بنبوة نبيه (صلى الله عليه وآله) وقيل: معناه مصدقات في قولهن وفعلن (قانتات) أي خاضعات متذللات لله تعالى. وقيل: معنى (قانتات) راجعات إلى الله بفعل ما يجب له

(١) مرفى ٣ / ٥١٣ (*)

(٤٩)

- عزوجل - (عابدات) الله بما تعبدهن به من العبادات متذللات له (سائحات) معناه ماضيات في طاعة الله. وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: معنى سائحات صائمات. وقال زيد ابن اسلم: معنى (سائحات) مهاجرات، وهو اختيار الجبائي وقيل: للصائم سائح، لانه يستمر في الامساك عن الطعام والشراب، كمايستمر السائح في الارض (ثيبات) وهن الراجعات من عند الازواج بعد افتضاضهن مشتق من ثاب يثوب اذا رجع (وابكارا) جمع بكر، وهي التي على أول حالها قبل الافتضاض. قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملئكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٦) يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون (٧) يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء

قدير (٨) يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم ومأويهم جهنم وبئس (ج ١٠ م ٧ من التبيان)

(٥٠)

المصير (٩) ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرات لوط كانتا تحت عبد ين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين (١٠) قرأ (نصوحا) بضم النون حماد ويحيى الباقر بفتحها، وهما لغتان.

وقال قوم: من فتح النون جعله نعتا للتوبة وحمله على الكثرة. ومن ضمه جعله مصدرا هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين الذين صدقوا بتوحيد الله واخلصوا العبادة له وأقروا بنبوة نبيه (صلى الله عليه وآله) يأمرهم بأن يقوا أنفسهم أي يمنعونها، ويمنعون أهلهم نارا، وإنما يمنعون نفوسهم بأن يعملوا الطاعات، ويمنعون أهلهم بأن يدعوهم إليها ويحثوهم على فعلها، وذلك يقتضي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي أن يكون للاقرب فالاقرب. وقال مجاهد وقتادة: معنى (قوا انفسكم واهليكم نارا) مروهم بطاعة الله وانهوهم عن معصيته.

ثم وصف تعالى النار التي حذرهم منها فقال (وقودها الناس والحجارة) قيل حطب تلك النار الناس والحجارة كوقود الكبريب وهو اشد ما يكون من العذاب (عليها ملائكة غلاظ) في الاخلاق وإن كانوا رفاق الاجسام، لان الظاهر من حال الملك انه روحاني فخروجه عن الروحانية كخروجه عن صورة الملائكة (شداد) في القوى (لا يعصون الله ما أمرهم) به. وفي ذلك دلالة على ان الملائكة المؤكلين بالنار وبعقاب العصاة معصومون عن فعل القبيح لا يخالفون الله في أمره ويمتثلون كل ما يأمرهم به، وعمومه يقتضي انهم لا يعصونه في صغيرة ولا كبيرة. وقال الرماني: لا يجوز أن يعصي الملك في صغيرة ولا كبيرة لتمسكه بما يدعو اليه العقل دون الطبع. وكل من تمسك بما يدعو اليه العقل دون الطبع، فانه لا يقع

(٥١)

منه قبيح. وقد اختارهم الله على ما في المعلوم منهم وقيل: هم غلاظ شداد يعذبون على قدر قواهم بأنواع العذاب. وقال الجبائي قوله (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) يعني - في دار الدنيا - لان الآخرة ليست دار تكليف. وإنما هي دار جزاء. وإنما أمرهم الله بتعذيب أهل النار على وجه الثواب لهم بأن جعل سرورهم ولذاتهم في تعذيب أهل النار، كما جعل سرور المؤمنين ولذاتهم في الجنة.

ثم حكى ما يقال للكفار يوم القيامة فان الله تعالى يخاطبهم فيقول (يا ايها الذين كفروا) نعمتي وجدوا ربوبيتي وأشركوا في عبادتي من لا يستحقها، وكذبوا أنبيائي ورسلي (لا تعتذروا اليوم) فان اليوم دار جزاء لا دار توبة واعتذار (إنما تجزون) على قدر (ما كنتم تعملون) في الدنيا على الطاعات بالثواب ولا طاعة معكم، وعلى المعاصي بالعقاب ودخول النار، وانتم مستحقون لذلك.

ثم عاد إلى خطاب المؤمنين في دار التكليف فقال (يا ايها الذين آمنوا توبوا إلى الله) من معاصيه وأرجعوا إلى طاعته (توبة نصوحا) أي توبة خالصة لوجه الله. فمن قرأ - بضم النون - وهو أبو بكر عن عاصم أراد المصدر، ومن فتح النون جعله صفة للتوبة ونعتا لها. والتوبة النصوح هي التي يناصح فيها الانسان نفسه باخلاص الندم مع العزم على ألا يعود إلى مثله في القبح. وقوله (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم) معناه متى تبتم توبة نصوحا كفر الله عنكم سيئاتكم، وغفر لكم فان (عسى) من الله واجبة (ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار) مضافا إلى تكفير السيئات والعفو عنها (يوم لا يخزي الله النبي) ولا يخزي (الذين آمنوا معه) أي لا يذلهم ولا يعاقبهم بل يعزهم بادخال الجنة.

ثم وصف النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين معه فقال (يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم) قال ابن عباس: معناه يسعى نور كتابهم الذي فيه البشرى (يقولون ربنا) في

(٥٢)

موضع الحال، وتقديره قائلين (ربنا أتم لنا نورنا) قال: يقول ذلك المؤمنون حين يطفئ نور المنافقين ويبقون في الظلمة فيسأل المؤمنون حينئذ إتمام نورهم (واغفر لنا) أي استر علينا معاصينا ولا تهلكنا بها (إنك على كل شيء قدير) لا يعجزك شيء.

ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله) فقال (يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين) قيل: معناه جاهد الكفار بالقتال والحرب، والمنافقين بالقول الذي يردع عن القبيح لا بالحرب إلا أن فيه بذل المجهود، فلذلك سماه جهادا. وفي قراءة اهل البيت (جاهد الكفار بالمنافقين) لانه (صلى الله عليه وآله) كان يجاهد الكفار وفي عسكره جماعة من المنافقين يقاتلون معه وقوله (واغلظ عليهم) أي اشدد عليهم. قال الحسن: اكثر من كان يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقون. فأمر الله أن يغلظ عليهم في إقامة الحدود. ثم قال (ومأواهم) يعني مأوى الكفار والمنافقين ومستقرهم (جهنم وبئس المصير) لما فيها من أنواع العقاب.

وقوله (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) قال ابن عباس: كانت امرأة نوح وامرأة لوط منافقتين (فخانتاهما)
قال ابن عباس: كانت امرأة نوح كافرة، تقول للناس انه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتها لهما، وما زنت امرأة نبي قط، لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به، فمن نسب أحدا من زوجات النبي إلى الزنا، فقد أخطأ خطأ عظيما، وليس ذلك قولا لمحصل. ثم قال (فلم يغنيا عنهما، أي لم يغن نوح ولوط عن المرأتين) (من الله شيئا) أي لم ينجياهما من عقاب الله وعذابه (وقيل) لهما يوم القيامة (ادخلا النار مع الداخلين من الكفار).

وقال الفراء: هذا مثل ضربه الله تعالى لعائشة وحفصة، وبين انه لا يغنيهما ولا

(٥٣)

ينفعهما مكانهما من رسول الله إن لم يطيعا الله ورسوله، ويمتثلا أمرهما، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين. وفي ذلك زجر لهما عن المعاصي وامر لهما أن يكونا كآسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران في طاعتهما لله تعالى وإمتثال أمره ونهيه. قوله تعالى:

(وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأت فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) (١٢) آيتان. قرأ أهل البصرة وحفص عن عاصم ونافع في رواية خارجة (وكتبه) على الجمع. الباقون (وكتابه) على واحد، لأنه اسم جنس يقع على القليل والكثير.

والفائدة في هذه الآية، وفي الآية التي قبلها: أن احدا لا ينفعه إلا عمله ولا يؤخذ بجرم غيره، ولا يثاب على طاعة غيره، وإن كان خصيصا به وملازما له. وتبين ان امرأة نوح وامرأة لوط لم ينفعهما قربهما من نبيين واختصاصهما والتصاقهما بهما، لما كانتا كافرتين عاصيتين لله تعالى بل عاقبهما الله بالنار بكفرهما وسوء أفعالهما.

وبين في هذه الآية أن كفر فرعون لم يتعد إلى زوجته لما كانت مؤمنة طائعة لله تعالى خائفة من عقابه، بل نجاها الله من عقابه وأدخلها الجنة على إيمانها وطاعتها، فضرب المثل الاول للكفار لما كانت المرأتان كافرتين، وضرب المثل

(٥٤)

الثاني للمؤمنين، لما كانت امرأة فرعون مؤمنة، فقال (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) واسمها آسية. والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول. فهذه الآية فيها قول فيه تشبيه حال المؤمنة التي زوجها كافر بحال امرأة فرعون في انه لا يضرها كفره مع قربها منه، كما أن امرأة نوح وامرأة لوط، لم ينفعهما نبوتهما وإيمانهما حين كانتا كافرتين.

وقوله (إذ قالت) أي حين قالت امرأة فرعون داعية الله (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني) أي وخلصني (من فرعون وعمله) يعني من مثل سوء عمله (ونجني من القوم الظالمين) يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله واستحقوا لذلك العقاب. وإنما دعت بالخلص من عمل الكفار بأن سألت الله تعالى أن يلطف لها في التمسك بالإيمان، وألا تعثر بتمكين الله لفرعون وكفار قومه وطول سلامته وسوابع نعمته عليهم والانس به لطول مخالطته وصحبته، وربما أفتتت من هذه الوجوه، فدعت بهذا ليلطف الله لها في ذلك وتبقى على التمسك بالإيمان.

وقوله (ومريم ابنت عمران) يحتمل ان يكون عطفًا على قوله (امرأة فرعون) فلذلك نصبه. والعامل (وضرب) فكأنه قال: وضرب مثلًا مريم ابنت عمران، ويحتمل ان يكون نصبا على تقدير واذكر أيضا مريم بنت عمران (التي احصنت فرجها) فاحصان الفرج منعه من دنس المعصية يقال: أحصن يحصن إحصانا، ومنه الحصن الحصين، لانه بناء منيع، والفرس الحصان الذي يمنع من ركوبه إلا مقتدرا على تلك الحال، وامرأة حصان - بفتح الحاء - لانها تمنع من لمس الحرام.

وقوله (فنفخنا فيه من روحنا) قال قتادة معناه فنفخنا في جيبها من روحنا وقال الفراء: كل شق فهو فرج فاحصنت فرجها منعت جيب درعها من جبرائيل (عليه السلام) والظاهر انه أراد الفرج الذي يكنى عنه. وقوله (فيه) يعني في الفرج، فلذلك

(٥٥)

ذكر في الانبياء (فيها) لانه رده إلى التي أحصنت فرجها. وقيل: إن جبرائيل (عليه السلام) نفخ في فرجها، فخلق الله - عزوجل - فيه المسيح (وصدقت بكلمات ربها) يعني بما تكلم الله به، وأوحاه إلى انبيائه وملائكته (وكتبه) أي وصدقت بكتبه التي أنزلها على انبيائه. فمن قرأ (وكتبه) جمع لانها كتب مختلفة. ومن وحد ذهب إلى الجنس، وهو يدل على القليل والكثير (وكانت من القانتين) وإنما لم يقل من القانتات لتغليب المذكر على المؤنث، فكأنه قال من القوم القانتين، فالقانت المقيم على طاعة الله. وقيل: معناه الداعي لله في كل حال. وقال الحسن: رفع الله آسية امرأة فرعون إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتعلم فيها إلى يوم القيامة، فنهاها الله أكرم النجاة. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال (حسبك من نساء العالمين أربع: مريم ابنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وآله)) وروي أن فرعون امر أن تسمر آسية بأربع مسامير ويرفع فوقها حجر الرخام، فان رجعت عن قولها وإلا أرسل عليها الحجر فأراها الله منزلها من الجنة، فاختارت الجنة فنزع الله روحها، فلما أرسل الحجر وقع على جسد ميت

(٥٦)

٦٧ - سورة الملك مكية في قول ابن عباس والضحاك وعطاء وغيرهم وهي ثلاثون آية في الكوفي والبصري والمدني الاول واحد وثلاثون في المدني الاخير وقال الفراء: سورة الملك تسمى المنجبة لانها تنجي قاربها من عذاب القبر وروي إن في التوراة مثل (سورة الملك) بسم الله الرحمن الرحيم.

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير (١))

ألذي خلق الموت والحيوة وليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور (٢) الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور (٣) ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير (٤) ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير) (٥) خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي (من تفوت) بتشديد الواو بلا ألف. الباقون (تفاوت) على وزن تفاعل. ومعناها واحد. وهو مثل: تصعر وتصاعر، وتعهد وتعاهد. والتفاوت إختلاف التناقض، وهو تباعد مابين الشئيين في الصحة. والتباين

(٥٧)

امتناع كل واحد من المعنيين ان يصح مع الآخر. يقول الله تعالى مخبرا عن عظمته وعلو شأنه (تبارك الذي بيده الملك) فمعنى تبارك بأنه الثابت الذي لم يزل ولا يزال. وأصل الصفة من الثبوت من البرك وهو ثبوت الطائر على الماء. ومنه البركة ثبوت الخير بنمائه. وقيل: معناه تعاضم بالحق من لم يزل ولا يزال، وهو راجع إلى معنى الثابت الدائم. وقيل: المعنى تبارك من ثبوت الاشياء به إذ لولاه لبطل كل شئ لانه لا يصح شئ سواه إلا مقدوره او مقدور مقدوره، الذي هو القدرة، لان الله تعالى هو الخالق لها. وقيل: إن معناه تبارك لان جميع البركات منه، إلا ان هذا المعنى مضمن في الصفة غير مصرح به، وإنما المصرح به تعالى يستحقاق التعظيم. وقوله (الذي بيده الملك) معناه الذي يجب كونه قادرا وانه السلطان العظيم الذي كل ملك له، ليس من ملك إلا داخل فيه لان الله تعالى مالك الملوك، وممكنهم منها. والملك هو إتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير.

وقوله (وهو على كل شئ قدير) معناه إن الذي بيده الملك والسلطان القادر على كل شئ يصح ان يكون مقدورا له وهو أخص من قولنا: وهو بكل شئ عليم، لانه تعالى يعلم كل ما يصح أن يكون معلوما في نفسه، ولا يوصف بكونه قادرا إلا على ما يصح ان يكون مقدورا له، لان مقدور القدرة لا يصح أن يكون مقدورا له، وكذلك ما تقضى وقته مما لا يبقى لا يصح ان يكون مقدورا في نفسه.

ثم وصف تعالى نفسه فقال (الذي خلق الموت والحيوة) أي خلق الموت للتعبد بالصبر عليه، والحيوة للتعبد بالشكر عليها. وقيل: وجه خلق الموت والحيوة للابتلاء هو ما فيها من الاعتبار المؤدي إلى تثبيت قادر على الاضداد مع التحذير (ج ١٠ م ٨ من التبيان)

(٥٨)

في كل حال من مجيئ الموت الذي ينقطع به استدراك ما فات، ومع التسوية بين الغني والفقير والملك والسوقة في الموت بما يقتضي قاهرا للجميع قد عمهم بحسن التدبير فقد أدل الله ابن آدم بالموت ليكون أبعد من الطغيان في حال التمكين من العصيان.

وفي كون الموت معنى خلاف بين الشيخين: أبي، وأبي هاشم.

وقوله (ليبلوكم) معناه ليعاملكم معاملة المختبر بالامر والنهي فيجازي كل عامل على قدر عمله، الابتلاء الاختبار. وقال الفراء والزجاج: في الكلام اضمار وتقديره ليبلوكم فيعلم أيكم، لان حروف الاستفهام لاتشغل إلا بفعل يتعلق بالجملة على تقدير المفرد كقولك: علمت أزيد في الدار أم عمرو، وتقديره وقد علمت ان احدهما في الدار (وعرفت، ونظرت) بمنزلة (علمت) في هذا، لانها توافقها في (عرفت انه في الدار) و (نظرت بقلبي انه في الدار) ومثله (سلمهم أيهم بذلك زعيم) (١) أي سؤال من يطلب ان يعلم أيهم بذلك زعيم، ولو قلت اضرب أيهم ذهب لم يكن إلا نصبا، لانه بمعنى الذي. والقديم تعالى وإن كان عالما بالاشياء قبل كونها، فانما يبئلي الخلق ويختبرهم اختبار من يطلب العلم، حتى يجازي على الفعل بحسبه، ولما كان لم يحسن الثواب والعقاب والتعظيم والا جلال إلا بعد وجود الطاعة والمعصية لم يكن بد من التكليف، والامر والنهي فاجرى عليه الاختبار مجازا.

وقوله (وهو العزيز) في انتقامه من اعدائه والكافرين لنعمه، لايقدر أحد على مغالبتة ومقاهرته، غفور لمن تاب اليه، او إن يريد التفضل باسقاط عقابه ولا يصح التكليف إلا مع الترغيب والترغيب، لان التمكين من الحسن والقبيح يقتضي ذلك، والتكليف تحميل المشقة في الامر والنهي.

ثم عاد إلى صفات نفسه فقال (الذي خلق سبع سموات طباقا) أي انشأ

(١) سورة ٦٨ القلم آية ٤٠ (*)

(٥٩)

واخترع سبع سموات واحدة فوق الاخرى (ماترى في خلق الرحمن من تفاوت) يعني من اختلاف وتناقض، وذلك يدل على ان مافيه تفاوت من الكفر والمعاصي ليس من خلق الله، لانه نفى عاما أن يكون فيما خلقه تفاوت. وتفاوت وتفوت مثل تصاغر وتصعر. ثم نبه تعالى العاقل على صحة ما قاله من انه ليس في خلق الله تفاوت.

فقال (فارجع البصر) أي فرد البصر وأدراها في خلق الله من السموات (هل ترى من فطور) أي من شقوق وصدوح يقال: فطره يفطره، فهو فاطر إذا شقه ومنه قوله (تكاد السموات يتفطرن منه) (١) أي يتصدعن. وقال ابن عباس:

معناه هل ترى من وهن، وقال قتادة: من خلل. وقال سفيان: من شقوق. ثم أكد ذلك بقوله (ثم ارجع البصر كرتين) أي دفعة ثانية، لأن من نظر في الشيء كرة بعد أخرى بان له ما لم يكن بايناله.

ثم بين انه إذا فعل ذلك وتردد بصره في خلق الله انقلب اليه بصره ورجع اليه خاسئاً يعني ذليلاً صاغراً - في قول ابن عباس - وذلك كذلة من طلب شيئاً لم يجده وأبعد عنه (وهو حسير) قال قتادة: معناه كال معي، فالحسير الكليل، كما يحسر البعير.

ثم أقسم الله تعالى بقوله (ولقد زينا السماء الدنيا...) لان لام (لقد) هي التي يتلقى بها القسم بأنه زين السماء أي حسنها وجملها أي السماء الدنيا بالمصابيح، يعني الكواكب وسميت النجوم مصابيح لاضاءتها، وكذلك الصبح. والمصباح السراج وواحد المصابيح مصباح. قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث خصال: احدها زينة السماء. وثانيها رجوما للشياطين. وثالثها علامات يهتدى بها، فعلى هذا يكون

(١) سورة ١٩ مريم آية ٩١ (*)

(٦٠)

تقديره وجعلنا فيها.

وقوله (واعتدنا لهم عذاب السعير) معناه إنا جعلنا الكواكب رجماً للشياطين أعتدنا لهم وادخرنا لاجلهم عذاب السعير يعني النار المسعرة، فالسعير النار المسعرة المشتعلة. وقيل: ينفصل من الكواكب شهاب بأن يكون رجوماً للشياطين، فأما الكوكب نفسه، فليس يزول إلى أن يريد الله فناءه، ففي هذه الايات بيان ما يجب من تعظيم الله تعالى لم يزول ولا يزال، وأن له الملك الكبير، وانه على كل شئ قدير. وفيها بيان ما يجب اعتقاده من أن جميع ما خلقه الله فلا يتلاء، بما يصح معه التكليف للعمل الذي يوجب الثواب جزاء على الاحسان مع رحمة من تاب بالغفران وشدة الانتقام ممن أقام على معصيته وفيها بيان ما يجب اعتقاده من أن جميع ما خلقه الله محكم لا تفاوت فيه، لانه على ما تقتضيه الحكمة في المتعة والعبارة وما يصح به الزجر من السيئة. وفيها بيان ما يجب اعتقاده مما اقتضت الحكمة فيه التلاؤم من غير فطور، ولا عدول عن الصواب من أمر السموات والافلاك والنجوم، وما خلق فيها من المصابيح زينة لها ورجوماً للشياطين مع ان عاقبتهم إلى عذاب السعير.

قوله تعالى:

(وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير (٦)

إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور (٧) تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير (٨) قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير (٩) وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في

(٦١)

أصحاب السعير (١٠) فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير (١١) ست آيات.

قرأ أبو جعفر والكسائي (فسحقا) بضم الحاء مثقل. الباقون بالتخفيف، وهما لغتان. لما ذكر الله تعالى ما أعد للشياطين من عذاب السعير، ذكر عقبيه وعيد الكفار وما أعد لهم لاتصال ذلك بوعيد النار، فقال (وللذين كفروا) يعني بتوحيد الله وإخلاص عبادته وجدوا نبوة رسله وما جاءوا به (عذاب جهنم) ثم قال (وبئس المصير) أي بئس المآل والمرجع. وإنما وصفه ب (بئس) وهي من صفات الذم، والعقاب حسن، لما في ذلك من الضرر الذي يجب على كل عاقل أن يتقيه بغاية الجهد واستفراغ الوسع ومع هذا ليس يخفى المراد في ذلك على أحد ولا يجوز قياسا على ذلك أن يوصف به الفاعل، لأنه لا يوصف به الفاعل إلا على وجه الذم، لأنه لا يقال: بئس الرجل إلا لمن كان مستحقا للذم من حيث أن القادر قادر على الضدين.

ووجه الحكمة في فعل العقاب ما فيه من الزجر المتقدم للمكلف، ولا يمكن ان يكون مزجورا إلا به ولولاه لكان مغرى بالقبيح.

ثم قال تعالى (إذا ألقوا فيها) ومعناه إذا طرح الكفار في النار (سمعوا لها) يعني للنار (شهيقا) وصوتا فظيعا بنفس كالنزع، فاذا اشتد لهيب النار سمع لها ذلك الصوت كأنها تطلب الوقود، قال رؤبة:

حشرج في الجوف سحيلا أو شهق * حتى يقال ناهق ومانهق (١)

(١) مرفى ٦ / ٦٧ (*)

(٦٢)

وقال ابو العالية: الشهيق في الصدر، والزفير في الحلق وقوله (وهي تفور) أي ترتفع، فالفور ارتفاع الشئ بالغلجان، يقال: فارت القدر تفور فورا ومنه الفوارة لارتفاعها بالماء ارتفاع الغليان. وفار الدم فورانا، وفار الماء يفور فورا.

وقوله (تكاد تميز من الغيظ) أي تكاد النار تتفرق وتتقطع من شدتها، وسمى شدتها والتهابها غيظا لان المغناط هو المتقطع بما يجد من الالم الباعث على الايقاع لغيره، فحال جهنم كحال المغناط، فالتميز التفرق والتميز التفريق. وقال ابن عباس (تميز) أي تفرق، وهو قول الضحاك وابن زيد.

وقوله (كلما بقي فيها فوج) يعني كلما طرح في النار فوج من الكفار (سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) يعني تقول لهم الملائكة الموكلون بالنار على وجه التبكيت لهم في صيغة الاستفهام: ألم يجنكم مخوف من جهة الله يخوفكم عذاب هذه النار؟ ! فيقولون في جوابهم (بلى قد جاء ناذير) أي مخوف معلم (فكذبنا) ولم نصدقه ولم نقبل منه (وقلنا ما أنزل الله من شئ) مما تدعوننا اليه وتحذروننا منه فتقول لهم الملائكة (ان أنتم إلا في ضلال كبير) أي لستم اليوم إلا في عذاب عظيم.

(وقالوا) أيضا يعني الكفار (لو كنا نسمع) من النذر ماجاؤنا به (اونعقل)

مادعوننا اليه وعملنا به (ما كنا في أصحاب السعير) فقال الله تعالى (فاعترفوا بذنبهم) يعني أقر اهل النار بمعاصيهم في ذلك الوقت الذي لم ينفعهم الاعتراف.

فالاعتراف هو الاقرار بالشئ عن معرفة، وذلك ان الافرار مشتق من قر الشئ يقر قرا إذا ثبت، فالمقر في المعنى مثبت له والاعتراف مأخوذ من المعرفة. فقال الله تعالى (فسحقا لأصحاب السعير) أي بعدا لهم عن الخير وعن ثواب الله ونعمه، فكأنه قال اسحقهم الله سحقا او ألزمهم الله سحقا عن الخير فجاء المصدر على غير

(٦٣)

لفظه، كما قال الله تعالى (والله أنبتكم من الارض نباتا) (١) وتقديره فأسحقهم الله إسحاقا لانه مأخوذ منه فأما سحقته سحقا فمعناه باعدته بالتفريق عن حال اجتماعه بما صار اليه كالغبار. وليس لاحد أن يقول: ماوجه اعترافهم بالذنب مع ما عليهم من الفضيحة به؟ ! وذلك أنهم قد علموا انهم قد حصلوا على الفضيحة اعترفوا او لم يعترفوا وانهم سواء عليهم أجزعوا أم صبروا، فليس يدعوهم إلى أحد الامرين إلا بمثل مايدعوهم إلى الاخر في أنه لا فرج فيه، فلا يصلح أن يقال لم جزعوا إلا بمثل ما يصلح أن يقال لم صبروا، وكذلك لم اعترفوا بمنزلة لم لم يعترفوا على ما بيناه، والذنب مصدر لا يثنى ولا يجمع، ومتى جمع فلا ختلاف جنسه، كما يقال غطاء الناس واغطيتهم.

قوله تعالى:

(إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير (١٢) وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور (١٣)

ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١٤) هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) (١٥) أربع آيات.

لما وصف الله تعالى الكفار وما أعد لهم من أليم العقاب، ذكر المؤمنين وما أعد لهم من جزيل الثواب، فقال (إن الذين يخشون ربهم) أي يخافون عذاب ربهم باتقاء معاصيه وفعل طاعاته (بالغيب) أي على وجه الاستسرار بذلك

(١) سورة ١٧ نوح آية ١٧ (*)

(٦٤)

لان الخشية متي كانت بالغيب على ماقلناه كانت بعيدة من النفاق، وخالصة لوجه الله. وخشية الله بالغيب تنفع بأن يستحق عليها الثواب، والخشية في الظاهر وترك المعاصي لا يستحق بها الثواب وإنما لا يستحق عليها العقاب. وإنما الخشية في الغيب أفضل لا محالة.

وقوله (لهم مغفرة وأجر كبير) أي لمن خشي الله واتقاه بالغيب ستر الله على معاصيه ولهم ثواب كبير لافناء له. وقيل: معنى (يخشون ربهم بالغيب) أي يخافونه، وهم لا يرونه. وقيل (بالغيب) أي في سرهم وباطنهم، ومن علم ضمائر الصدور علم إسرار القائل إلى غيره. وقال الحسن: معناه يخشون ربهم بالآخرة لأنها غيب يؤمنون به، وكل من خشي ربه بالغيب خشيه بالشهادة، وليس كل من خشيه بالشهادة يخشى بالغيب.

ثم قال مهدياً للعصاة (أسروا قولكم أو اجهروا به) ومعناه إن شئتم أظهروه وإن شئتم ابطنوه فإنه عالم بذلك ل (انه عليم بذات الصدور) فمن علم ضمائر الصدور علم إسرار القول.

وقوله (ألا يعلم من خلق) معناه من خلق الصدور يعلم مافي الصدور ويجوز ان يكون المراد ألا يعلم من خلق الاشياء ما في الصدور. وقيل تقديره ألا يعلم سر العبد من خلقه يعني من خلق العبد، ويجوز أن يكون المراد ألا يعلم سر من خلق، وحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه. ولايجوز أن يكون المراد ألا يعلم من خلق افعال القلوب، لانه لو أراد ذلك لقال ألا يعلم ماخلق، لانه لايعبر عما لايعقل ب (من) ولا يدل ذلك على أن الواحد منا لا يخلق أفعاله من حيث أنه لا يعلم الضمائر، وإنما بينا أن المراد ألا يعلم من خلق الصدور أي خلق الاشياء والواحد منا لا يخلق ذلك فلا يجب أن يكون عالماً بالضمائر.

(٦٥)

وقوله (وهو اللطيف الخبير) معناه هو اللطيف بعباده من حيث يدبرهم بلطف التدبير، فلطيف التدبير هو الذي يدبر تدبيراً نافذاً لا يخفو عن شيء يدبره به (الخبير) معناه العالم بهم وبأعمالهم.

ثم قال تعالى ممتنا على خلقه ومعدداً لأنواع نعمه عليهم (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً) يعني سهلاً سهلها لكم تعملون فيها ما تشتهون (فامشوا في مناكبها) قال مجاهد: مناكبها طرقها وفجاجها. وقال ابن عباس وقتادة: مناكبها جبالها (وكلوا من رزقه) صورته صورة الأمر والمراد به الإباحة والأذن، أذن الله تعالى أن يأكلوا مما خلقه لهم وجعله لهم رزقاً على الوجه الذي أباحه لهم (واليه النشور) أي إلى الله المرجع يوم القيامة واليه المآل والمصير فيجازي كل واحد حسب عمله. وفي ذلك تهديد.

قوله تعالى:

(أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور (١٦) أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير (١٧) ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير (١٨) أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير (١٩) أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور (٢٠) أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في (ج ١٠ م ٩ من التبيان)

(٦٦)

عتو ونفور) (٢١) ست آيات.

قرأ ابن كثير (واليه النشور وأمنتم) بواو في الوصل قلباً لهمزة الاستفهام واوا لضم ما قبلها. وقرأ أهل الكوفة وأهل الشام بهزتين على أصولهم. الباقيون بتحقيق الأولى وتخفيف الثانية. يقول الله تعالى مهدداً للمكلفين وزاجراً لهم عن ارتكاب معاصيه والجدد لربوبيته على لفظ الاستفهام والمراد به تفخيم الأمر وتعظيم التبكيث (أأمنتم من في السماء) فالأمن هو اطمينان النفس إلى السلامة من الخوف، والأمن علم بسلامة النفس من الضرر يقال أمن يأمن أمناً وأمنه يؤمنه إيماناً وأماناً، والمعنى أمن من في السماء سلطانه وأمره ونهيه كما قال (وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم) (١) أي وهو الله في السموات وفي الأرض معلومه، لا يخفى عليه شيء منه. وقيل: أيضاً يجوز أن يكون المراد (أأمنتم من في السماء) يعني الملك الكائن في السماء (أن يخسف بكم الأرض) بأمر الله، فإذا هي تمور أي تردد، فالمرور هو التردد في الذهاب والمجيء، يقال: مار يمور مورا فهو مائر، ومثله ماج يموج موجاً.

وقوله (أمنتم من السماء أن يرسل عليكم حاصبا) فالحاصب الحجارة التي يرمى بها كالحصباء، حصبه بالحصباء يحصبه حصبا إذا رماه بها. ويقال الذي يرمى به حاصب أي ذو حصب كأن الحجر هو الذي يحصب. وقيل: تقديره آمنوا قبل ان يرسل عليكم حاصبا، كما أرسل على قوم لوط حجارة من السماء.
وقوله (فستعلمون كيف نذير) فيه تهديد أي ستعرفون كيف تخويفي

(١) سورة ٦ الانعام آية ٣ (*)

(٦٧)

وترهيبني إن عصيتموني إذا صرتم إلى عذاب النار. ثم قال مقسما (ولقد كذب الذين من قبلهم) أي جحد من قبل هؤلاء الكفار من الامم وحدانيتي واشركوا بي غيري في العبادة وكذبوا رسلي (فاهلكتهم) واستأصلتكم (فكيف كان نكير) أي ألم اهلكهم بضروب النقمات والمثلاث.

ثم قال منبها لهم على توحيده (اولم يروا إلى الطير فوقهم صافات) أي مصطفاة فوق رؤسهم في الجو باسقاط أجنحتهم (ويقبضن) أي يضرين بها.

أي من الطير ما يضرب بجناحيه فيدف، ومنه الصفيف والدفيف (مايمسكهن إلا الرحمن) أي ليس يمنعهن من السقوط إلى الارض إلا الرحمن الذي خلق لهم الالات التي يصفون بها ويدفون، وماخلق فيها من القدرة على ذلك، ولولا ذلك لسقطت إلى الارض. وقيل معنى مايمسكهن إلا الرحمن بتوطئة الهواء لها، ولولا ذلك لسقطت، وفي ذلك أكبر دلالة، وأوضح عبرة بأن من سخر الهواء هذا التسخير هو على كل شئ قدير. والصف وضع الاشياء المتواليه على خط مستقيم، والقبض جمع الشئ من حال البسط. والامساك اللزوم المانع من السقوط.

وقوله (إنه بكل شئ بصير) اخبار منه تعالى انه عالم بجميع الاشياء لا يخفى عليه شئ منها (بصير) بمالخلق من النفع والضر. ثم قال (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) أي من لكم معاشر الكفار يدفع عنكم عذاب الله إذا حل بكم (إن الكافرون إلا في غرور) معناه ليس الكافرون بالله العابدون للوثان إلا في غرور أي يتوهمون أن ذلك أنفع لهم والامر على خلاف ذلك من المكروه.

ثم قال (أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك) الله (رزقه) بأنت يزيله ويمنعه منكم، فينزل عليكم رزقه (بل لجوا في عتو ونفور) فاللجاج تقحم الامر

(٦٨)

كثيرا ردا للصارف عنه، يقال لجج في الامر يلج لجاجا، وقد لاجه ملاجة ولجج فلان في الحرب فهو يلج تلجيجا. ولما كان لهؤلاء المشركين صوارف كثيرة من عبادة الاوثان وهم يتقحمون على ذلك العصيان كانوا قد لجوا في عتوهم. والعتو الطغيان وهو الخروج إلى فاحش الفساد، يقال: عتا يعتو عتوا فهو عات وجمعه عتاة. والنفور الخروج عن الشيء هربا من الشعور بضروره، ونقيض النفور القبول

وقال الجبائي: قوله (أمن هذا الذي) إلى قوله (إن امسك رزقه) تعريف حجة عرفها الله لعباده فعرفوا وأقروا بها، ولم يردوا لها جوابا فقال الله (بل لجوا في عتو ونفور).
قوله تعالى:

(أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم (٢٢) قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون (٢٣) قل هو الذي ذرأكم في الارض وإليه تحشرون (٢٤) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٢٥) قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين) (٢٦)
خمس آيات.

قوله (أفمن يمشي... مثل ضربه الله قال ابن عباس: هو مثل ضربه الله عزوجل للكافر وشبهه بمن يمشى مكبا على وجهه. والمؤمن شبهه بمن يمشى سويا على صراط مستقيم. وقال قتادة: الكافر يحشر يوم القيامة يمشى على وجهه مكبا، والمؤمن يمشى على صراط مستقيم.

(٦٩)

وفي الآية دلالة على وجوب النظر في الدين، لانه تعالى ضرب المثل بالناظر في ما يسلكه حتى خلص إلى الطريق المستقيم فمدحه بهذا وذم التارك للنظر مكبا على وجهه لايثق بسلامة طريقه، يقال: اكب يكب اكبابا فهو مكب في مالا يتعدى قال الاعشى:

مكبا على روقيه يحفر عرقها * على ظهر عريان الطريقة أهيماء (١)

فاذا تعدى قيل: كبيت فلانا على وجهه، وأكبه الله لوجهه. ثم قال تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) (قل) لهؤلاء الكفار إن الله تعالى (هو الذي أنشأكم) بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود واخترعكم (وجعل لكم السمع والابصار) تسمعون بالسمع المسموعات وتبصرون بالبصر المبصرات (والافئدة) يعني القلوب تعقلون فيها أي بما فيها من المعلوم تعلمون بها وتميزون بها، فهذه نعم من الله تعالى يجب عليكم أن تشكروها وتحمدوا الله عليها فانتم (قليلا ماتشكرون) أي قليلا شكركم، ويجوز أن يكون المعنى إنكم تشكرون قليلا.

ثم قال (قل) لهم يا محمد (هو) الله تعالى (الذي ذرأكم في الارض) أي خلقكم أولاً وأوجدكم (واليه تحشرون) أي تبعثون اليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. ثم حكى تعالى ما كان يقوله الكفار فانهم كانوا (يقولون) مستهزئين مكذبين بأنه من عند الله (متى هذا الوعد) الذي تعدوننا به من العذاب والهلاك (إن كنتم صادقين) معاشر المؤمنين والمسلمين، فقال الله تعالى (قل) لهم يا محمد (إنما العلم عند الله) يعني علم وقت قيام الساعة على اليقين عند الله لم يطلع عليه احدا من البشر، كما قال (إن الله عنده علم الساعة) (٢) (وإنما أنا نذير) لكم مخبر مخوف من عقاب الله تعالى

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٨٨ (٢) سورة ٣١ لقمان آية ٣٤ (*)

(٧٠)

(مبين) مالكم فيه من الصلاح والنجاة من العقاب. والنذير هو الدال على موضع المخافة فكل من دعا إلى حق إما رغبة أو رهبة فهو نذير إلا انه صار علما في صفات الانبياء (عليهم السلام).

قوله تعالى:

(فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون (٢٧) قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم (٢٨) قل هو الرحمن أمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين (٢٩) قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتىكم بماء معين) (٣٠) أربع آيات.

قرأ يعقوب (تدعون) خفيفة. الباقون بالتشديد. وقرأ الكسائي (فسيعلمون من هو) بالياء على الغيبة. الباقون بالتاء على الخطاب، أي قل لهم.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم استبطؤا عذاب الله واهلاكه لهم مستهزئين بذلك، فقالوا متي هذا الوعد، قال الله تعالى حاكيا عنهم إذا رأوا ما يوعدون به (فلما رأوه زلفة) قال الحسن: معناه معاينة. وقال مجاهد: يعني قريبا. والزلفة المنزلة القريبة والاصل فيه القرب، يقال: أزدلف اليه أزدلفا إذا تقرب اليه.

ومنه (مزدلفة) لانها منزلة قريبة من مكة، وجمع زلفة زلف، قال العجاج:

ناج طواه الاين مما وجفا * طي الليلي زلفا فزلفا

سماوة الهلال حتى احقوقفا (١)

وقوله (سئت وجوه الذين كفروا، أي ظهر فيها ما يفهم من الكآبة والحزن تقول: ساء يسوء سواً، ومنه السوائي، ومنه أساء يسيئ إساءة، فهو مسئ إذا فعل قبيحا يؤدي إلى الغم) وقيل هذا الذي كنتم به تدعون) أي ويقال لهؤلاء الكفار إذا شاهدوا العذاب (هذا الذي كنتم به تدعون) أي تطلبون به خلاف ما وعدتم به على طريق التكريب بالوعد: كأنه قيل هذا الذي كنتم به تكذبون في إدعائكم انه باطل. والادعاء الاخبار بما يوعد اليه القائل دون المعنى، فاذا ظهر دليله خرج من الادعاء لانه حينئذ يدعو إليه المعنى، وكذلك الاخبار بما يدعو إلى نفسه في الفعل ليس بدعوى، قال الزجاج: (تدعون) يجوز ان يكون يريد يفعلون من الدعاء، ويجوز أن يكون من الدعوى، قال الفراء: والتشديد والتخفيف واحد مثل تذكرون وتذكرون وتذكرون وتذكرون.

ثم قال للنبي (صلى الله عليه وآله) (قل) لهم يا محمد (أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي) بان يميتنا (أورحمنا) بتأخير آجالنا ما الذي ينفعكم من ذلك في رفع العذاب الذي استحققتموه من الله فلا تعللوا في ذلك بما لا يغني عنكم شيئاً. وقيل إن الكفار كانوا يتمنون موت النبي وموت أصحابه فقيل لهم (أرأيتم إن أهلكني الله) باماتتي وإماتة اصحابي فما الذي ينفعكم ذلك في النجاة من عذاب أليم. وقل لهم (فمن)

الذي (يجير الكافرين من عذاب أليم) حتى لا يعذبوا ولا يعاقبوا، فلا يمكنهم الاحالة على من يجيرهم من الله ويخلصهم من عذابه.

ثم قال (قل) لهم على وجه الانكار عليهم والتوبيخ لهم على فعلهم (هو الرحمن) يعني الله تعالى هو الذي عمت نعمه جميع الخلائق واستحق الوصف بالرحمن

(١) مرفي ٦ / ٧٩ و ٨ / ٢٩ و ٩ / ٢٨٠ ، ٣٧٠ (*)

(أمنابه) أي صدقنا بوحدانيته (وعليه توكلنا) أي اعتمدنا عليه وفوضنا أمورنا اليه، فالتوكل الاعتماد على فضل الله وحسن تدبيره وقل لهم (فستعلمون) معاشر الكفار (من) الذي (هو في ضلال مبين) أي بين. ومن قرأ بالياء معناه فسيعلم الكفار ذلك.

ثم قال (قل) لهم يا محمد (أرأيتم) معاشر الكفار (إن أصبح ماؤكم غورا) أي غائرا وصف الغائر بالغور الذي هو المصدر مبالغة، يقال ماء غور، وما أن غور، ومياه غور كما يقال:

هؤلاء زور فلان وضيغه، لانه مصدر - في قول الفراء وغيره - (فمن يأتيكم بماء معين) معناه من الذي يجيئكم بماء معين إذا غارت مياهكم. قال قوم:
الماء المعين الذي تراه العيون. وقال قتادة والضحاك: هو الجارى، فالاول مفعول من العين، كميع من البيع، والثاني من الامعان في الجرى، ووزنه (فعليل) كأنه قال ممعن في الجرى والظهور، وقال الحسن أصله من العيون. قال الجبائي قوله (قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا) تعريف حجة الله لعباده عرفوها وأقروا بها ولم يردوا لها جوابا.

(٧٣)

٦٨ سورة القلم مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي اثنتان وخمسون آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لاجرا غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق عظيم (٤) فستبصر ويبصرون (٥) بأيكم المفتون (٦) إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (٧) فلا تطع المكذبين (٨) ودوا لو تدهن فيدهنون (٩) ولا تطع كل حلاف مهين (١٠) هماغم بمميم (١١) منع للخير معتد أثيم (١٢) عتل بعد ذلك زنيم (١٣)
أن كان ذا مال وبنين (٤) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين (١٥) سنسمه على الخرطوم) (١٦) ست عشرة آية.
قرأ الكسائي وابوبكر عن عاصم (ن والقلم) بالاخفاء. الباقرن بالاظهار.
والاظهار اقوى، لان النية بها الوقف إذ هي حرف هجاء. ويجوز ادغام النون الثانية (ج ١٠ م ١٠ من التبيان)

(٧٤)

في الواو المقارنة على قياس (من واقد) ولم يقرأ به احد. وقرأ (آن كان ذا مال) بهمزة واحدة ممدودة يعقوب وابوجعفر وابن عامر - وبهمزتين - حمزة وابوبكر، الباقرن بهمزة واحدة. واختلفوا في معنى (ن) في هذا الموضع.
فقال قوم: هو اسم من أسماء السورة مثل (حم، والم وص، وق) وما اشبه ذلك. وهو الذي قلنا إنه اقوى الاقوال. وقال ابن عباس - في رواية عنه - إن النون الحوت الذى عليه الارضون. وفي رواية أخرى عنه إن النون الدواة.
وهو قول الحسن وقاتدة، وروي في خبر عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (نون) لوح من نور. وقال قوم: تقديره ورب نون والقلم. والقلم آلة مبرية للكتابة. والمقلمة وعاء القلم، وجمعه أقلام، ومنه قلامة الظفر، لانه يؤخذ منه كالاخذ بالقط. وانجر القلم بالقسم. وقوله

(ومايسطرون) (ما) في موضع جر بالعطف على (والقلم) وكان القسم بالقلم ومايسطر بالقلم، ويجوز ان تكون (ما) مصدرية، وتقديره: ن والقلم وسطرکم، فيكون القسم بالكتابة، وعلى الاول بالمكتوب والسطر الكتابة، وهو وضع الحروف على خط مستقيم: سطر يسطر سطرًا إذا كتب، وأسطر إذا كتب.

وجمع السطر سطور واسطار، قال رؤبة:

اني وأسطار سطرن سطرًا (١)

والمسطرة آلة التسطير. وقوله (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) هو المحلوف عليه، وهو جواب القسم، ومعناه لست يا محمد بمجنون بنعمة ربك، كما تقول ما انت بنعمة ربك بجاهل، وجاز تقديم معمولها بعد الباء، لأنها زائدة مؤكدة في ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وتقديره انتفى عنك الجنون بنعمة ربك، وإنما قال (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) مع ان الجنة قد تكون نعمة، لان الجنة لا تكون

(١) مرفي ٤ / ١١٠ (*)

(٧٥)

نعمة من حيث هي جنة، وإنما تكون نعمة من حيث تؤدي إلى مصلحة في الدين. والعافية تكون نعمة من حيث هي عافية، فهذا حسن ما أنت بنعمة ربك بمجنون والجنون غمور العقل بستره عن الادراك به بما يخرج عن حكم الصحيح، وأصله الستر من قوله (جن عليه الليل) (١) إذا ستره. وقيل إن قوله (ما انت بنعمة ربك بمجنون) جواب لقول المشركين حين قالوا (يا ايها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) (٢) فقال الله تعالى (ما انت بنعمة ربك بمجنون)

وقوله (وإن لك) خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول له (وإن لك) يا محمد (لاجرا) أى ثوبا من الله على قيامك بالنبوة وتحملك بأعبائها (غير ممنون) أى غير مقطوع من قولهم منه السير يمنه منا إذا قطعه، ويقال: ضعفت منتي عن السفر، ورجل منين أى ضعيف، ويجوز ان يكون المراد به إنه غير مكدر بالمن الذى يقطع عن لزوم الشكر، من قولهم: المننة تكدر الصنيعة. وقال الحسن: معناه لا يمن عليك بأجرك. ثم وصف النبي (صلى الله عليه وآله) فقال (وإنك) يا محمد (لعلى خلق عظيم) قال الحسن: على دين عظيم، وهو الاسلام. وقيل أدب القرآن. وقال المؤرج:

معناه على دين عظيم بلغة قريش. وقالت عائشة: كانت خلق النبي (صلى الله عليه وآله) ما تضمنه العشر الاول من سورة (المؤمنون)، فالخلق المرور في الفعل على عادة، فالخلق

الكريم الصبر على الحق وسعة البذل، وتدبير الامور على مقتضى العقل وفي ذلك الرفق والاناة والحلم والمداراة. ومن وصفه الله بأنه على خلق عظيم فليس وراء مدحه مدح. وقيل: وإنك لعلی خلق عظیم بحكم القرآن وكل ذلك عطف على جواب القسم. وقوله (فستبصر ويبصرون) معناه فستعلم يا محمد يوم القيامة ويعلمون، يعني هؤلاء الكفار الذين يرمونك بالجنون تارة وبالكهانة أخرى (بأيكم المفتون)

(١) سورة ٦ الانعام آية ٧٦ (٢) سورة ١٥ الحجر آية ٦ (*)

(٧٦)

وقيل في معناه قولان:

احدهما - باي فرقكم المفتون بما يجري مجرى الجنون.
والثاني - ان يكون معنى (بأيكم المفتون) كما يقال: ليس له معقول أي عقل وتقديره ستعلم ويعلمون بمن منكم الجنون، وقيل: معنى الباء (في) وكأنه قال في أيكم الجنون المفتون المبتلى بتخييل الرأي كالمجنون، وذلك كما يبتلى بشدة الهوى المجنون. فيقال: فتن فلان بفلانة، وعلى هذا المعنى قال ابن عباس: بايكم المجنون وقال قتادة: معناه أيكم اولى بالشيطان جعل الباء زائدة كما قال الراجز:

نحن بنو جعدة اصحاب الفلج * نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج (١)

ومعناه ونرجوا الفرج. وقال مجاهد: معناه أيكم المفتون كأنه قال في أيكم المفتون. ثم قال (ان ربك يا محمد هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذي هو سبيل الحق أي بمن عدل عنها وجار عن السلوك فيها (وهو اعلم بالمهتدين) أي بمن اهتدى اليها وعمل، بموجبها. ثم نهى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال له (فلا تطع المكذبين) بتوحيد الله والجاحدين لنبوتك ولاتوافق ما يريدونه. وقوله (ودوا لوتدهن فيدهنون) قال ابن عباس: معناه ودوا لو تكفر فيكفرون، وهو قول الضحاك، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: إن معناه ود هؤلاء الكفار لوتلين في دينك، فيلبنون في دينهم، فشبه التليين في الدين بتليين الدهن. وقيل: معناه ودوا لو تركن إلى عبادة الاوثان فيما لوتنك. والادهان الجريان في ظاهر الحال على المقاربة مع إضمار العداوة. وهو مثل النفاق. ورفع (فيدهنون) بالعطف على قوله (لوتدهن) ولم يجعله جواب التمني. ثم قال له (صلى الله عليه وآله) (ولا تطع) يا محمد (كل حلاف) أي من يقسم كثيرا

(١) مر في ٧ / ١١٨، ٣٥٨ و ٨ / ٨١ (*)

(٧٧)

بالكذب (مهين) يعني مكشّار في الشر - في قول الحسن وقتادة - والمهين الوضيع باكثراره من القبيح، ومن عرف بأنه يحلف على الكذب، فهو مهين. وقال البلخي:
المهين الفاجر - في هذا الموضع -.

وقوله (هماء مشاء بنميم) أى وقاع في الناس بما لى له أن يعيبيهم به.

والاصل فيه الدفع بشدة اعتماد، ومنه الهمزة حرف من حروف المعجم، وهي همزة تخرج من الصدر بشدة اعتماد، وقال ابن عباس: الهماء المغتاب. وقوله (مشاء بنميم) فالنميم التضريب بين الناس بنقل الكلام يغلظ لقلوب بعضهم على بعض ومنه النمام المشموم، لانه يججد ريحه كالمخبر عن نفسه، والنميم والنميمة مصدران.

وهو نقل الاحاديث بالتضريب: نم ينم نميما ونميمة (مناخ للخير) أى يمنع خيره ونفعه، فلا ينتفع أحد به (معتد) قال قتادة: معناه متجاوز للحد في المعاملة (أثيم)

أى آثم فهو (فعليل) بمعنى (فاعل) وهو الذي فعل ما يآثم به (عتل بعد ذلك)

فالعتل الجافي الغليظ. ومنه قوله (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم) (١) أى اذهبوا به بعنف وغلظة يقال: عتله يعنتله ويعنتله عتلا إذا زعزعه بغلظ وجفاء. وقال ذو الاصبع:

والدهر يغدو معتلا جذعا (٢)

وقيل: العتل الفاحش اللئيم. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك. و (الزنيمة)

الدعي وهو الملقب بالقوم، وليس منهم. وأصله الزنمة وهي الهيئة التي تتحرك تحت حلق الجدى وقال حسان:

وانت زنيمة نيطة في آل هاشم * كما نيطة خلف الراكب القدح الفرد (٣)

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٧ (٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٦٤ (٣) ديوانه ١٦٠ اللسان (زيم) (*)

(٧٨)

و (بعد) هاهنا معناه (مع) وقال آخر زنيمة ليس يعرف من أبوه * بغى الام ذو حسب لئيم (١)

ويقال للئيس: زنيمة له زنيمة، والزنيمة الدعي - عن ابن عباس - وقيل:

هو الذي يعرف بالشر، كما تعرف الشاة بزنيمة.

وقوله (أن كان ذا مال وبنين) من قرأ على الاستفهام، وهو حمزة وابو بكر عن عاصم أراد،

ألان كان ذا مال وبنين؟! على وجه التوبيخ له (إذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين)

ويحتمل ان يكون المراد لان كان ذا مال وبنين يطاع. وقيل: كان له ألف دينار وعشرة بنين

(إذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين) أى أحاديث الاولين التي سطرت وكتبت لا أصل لها

وواحد الاساطير أسطورة - في قول الزجاج. وقرأ حمزة وابوبكر عن عاصم (أن كان ذا مال وبنين) بهمزتين. وقرأ ابن عامر بهمزة ممدودة. الباقون بهمزة واحدة. وقد فسرناه. فقال الله تعالى مهدياً له ومتوعداً (سنسمة على الخرطوم) أي سنعلم على أنفه علامة يعرف بها الملائكة انه من أهل النار، فالسمة العلامة المفرقة بالرؤية بين الاشياء المختلفة، كسمة الخيل إذا أرسلت في المروج، وسمه يسمه توسماً وسمه، فهو مرسوم. والخرطوم الانف، وهو الناتئ في الوجه الذي يقع به الشم. ومنه خرطوم الفيل، وخرطمه إذا قطع أنفه وجعله خرطوم. وقال ابن عباس: معنى (سنسمة على الخرطوم) نحطه بالسيف في القتال، كما فعل بهم يوم بدر. وقال قتادة: معناه سنعلمه بشئ يبقى على الابد. وقال بعضهم معناه: سنسود وجهه فعبر عن الوجه بالخرطوم، لانه فيه.

وقيل: نزلت هذه الايات في الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل: نزلت

(١) تفسير الطبري ٢٩ / ١٤ والقرطبي ١٨ / ٢٣٤ (*)

(٧٩)

في الاخنس بن شريق الثقفي، كانت به زمنة يعرف بها - ذكره ابن عباس - قوله تعالى: (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين (١٧) ولايستثنون (١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠) فتتادوا مصبحين (٢١) أن اغدوا على حرتكم إن كنتم صارمين (٢٢) فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣) أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين (٢٤) وغدوا على حرد قادرين) (٢٥) تسع آيات.

يقول الله تعالى (إنا بلوناهم) يعني هؤلاء الكفار أي اختبرناهم (كما بلونا أصحاب الجنة) يعني البستان (إذ أقسموا) أي حين أقسموا فيما بينهم (ليصر منها مصبحين) ووجه الكلام إنا بلونا أهل مكة بالجذب والقحط، كما بلونا أصحاب الجنة بهلاك الثمار التي كانت فيها حين دعا النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم، فقال (اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) فالبلوى المحنة بشدة التعبد على ما يقتضيه الحال في صحة التكليف. والصرم قطع ثمر النخل: صرم النخلة يصرمها صرماً، فهو صارم، ومنه الصريمة القطيعة عن حال المودة. وهم عشرة أولاد كانوا لرجل من بني إسرائيل، وكان يأخذ من بستانه كفاية سنته ويتصدق بالباقي، فقال أولاده: ليس يكفيننا، وحلفوا أنهم يصرمون بستانهم ليلاً وابى عليهم ابوهم، فأقسموا أنهم ليصرمون ثمر نخل البستان إذا أصبحوا، ولم يستثوا، ومعناه لم يقولوا

إن شاء الله فقول القائل: لا فعلن كذا إلا أن يشاء الله استثناء ومعناه إن شاء الله منعي أو تمكين ما نعي، فقال الله تعالى (فطاف عليها) يعني على

(٨٠)

تلك الجنة (طائف من ربك) أي طرقها طارق من أمر الله، فالطائف الطارق ليلا، فاذا قيل أطاف به صلح في الليل والنهار، وانشد الفراء:

أطفت به نهارا غير ليلى * والهي ربها طلب الرخال (١)

الرخال أولاد الضان واحدها رخل وفي الانثى رخله (وهم نائمون) أي في حال نومهم (فاصبحت) يعني الجنة (كالصريم) أي كالليل الاسود - في قول ابن عباس - وانشد ابو عمرو بن العلاء:

ألا بكرت وعاذلني تلوم * تجهلني وما انكشف الصريم (٢)
وقال:

تطاول ليلك الجون البهيم * فيما ينجاب عن صبح صريم

إذا ما قلت اقتشع او تناهى * جرت من كل ناحية غيوم (٣)

وقال قوم: الصريم هو المصروم، وقال سعيد بن جبير: الصريم أرض معروفة باليمن لا نبات فيها تدعى صروان، وإنما قيل لليل صروم، لانه يقطع بظلمته عن التصرف في الامور. وقيل: إنما فعل الله بهم ذلك لانهم منعوا الحقوق اللازمة من ثمار هذه الجنة. والصرم قطع الثمر. والصريم المصروم جميع ثماره.

وقوله (فتنادوا مصبحين) اخبار عن حالهم أنهم لما اصبحوا نادى بعضهم بعضا يافلان يا فلان، والتنادي دعاء بعض الناس بعضا بطريقة يافلان وأصله من الندى بالقصر، لان النداء الدعاء بندى الصوت الذي يمتد على طريقة يافلان، لان الصوت إنما يمتد للانسان بندى حلقه. والنادي مجلس الرفد وهو الندى (ان اغدوا على حرتكم) أي نادى بعضهم بعضا بأن اغدوا، او قالوا: (اغدوا على حرتكم) والحرث الزرع الذي قد حرثت له الارض، حرث يحرث حرثا والحرث

(١، ٢، ٣) تفسير الطبري ١٩ / ١٧ واللسان (صرم) (*)

(٨١)

الذى يحرث الارض، ومنه الحارث، ومنه الحرث، كناية عن الجماع. ويقال: احترث لاهله إذا اكتسب بطلب الرزق، كما يطلب الحرث (إن كنتم صارمين)

أى قاطعين لثماركم، فالصارم قاطع ثمر الشجر على الاستئصال. وأكثر ما يستعمل ذلك في النخل، ويجوز في الشجر، وأصله القطع. وقد تصرم النهار إذا مضى قطعة قطعة حتى انقضى. وقيل: معناه إن كنتم حاصدين زرعكم. ثم قال (فانطلقوا) أى ذهبوا، وهم (يتخافتون) فالتخافت التقابل في اخفاء الحركة، وأصله الخفاة من خفت فلان يخفت إذا اخفى نفسه ومعناه - ههنا - يتسارون بينهم (ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) في - قول قتادة - وقوله (وغدوا على حرد) فالحرد القصد، حرد يحرده حردا فهو حارد. قال الشاعر:

أقبل سيل جاء من أمر الله * يحرده حرد الجنة المغلة (١)

أى يقصد، وقال الحسن: معناه على جهة من الفاقة. وقال مجاهد: معناه على جد من أمرهم، وهو قول قتادة وابن زيد: وقال سفيان: معناه على حنق، وذلك من قول الأشهب بن رميلة:

أسود شرى لاقت أسود خفية * فساقوا على حرد دماء الأساود (٢)

أى على غضب. وقيل: معناه على منع من قولهم حاربت السنة إذا منعت قطرها، وحاربت الناقة إذا منعت لبنها. والأصل القصد.

وقوله (قادرين) معناه مقدرين انهم يصرمون ثمارهم، ويجوز ان يكون المراد وغدوا على حرد قادرين عند انفسهم على صرام جنتهم.

(١) مر في ٦ / ٢١٧ (٢) اللسان (حرد)

(ج ١٠ م ١١ من التبيان) (*)

(٨٢)

قوله تعالى:

(فلما رأوا قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧))

قال أو سطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون (٢٨) قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (٢٩) فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠)

قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين (٣١) عسى ربنا أن يبد لنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون (٣٢) كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣٣) ثمان آيات.

يقول الله تعالى مخبرا إن أولئك الكفار بنعم الله لما نادى بعضهم بعضا وانطلقوا إلى صرم ثمارهم وتساروا ألا يدخل عليهم مسكين يطلب منهم (فلما رأوها) أي حين جاؤا وجدوا البستان كالليل الأسود قالوا أهلكه الله وطرقه طارق من أمر الله فاهلكه، فلما رأوا تلك الجنة على تلك الصورة (قالوا إنا لضالون) أي اعترفوا بأنهم قد عدلوا عن طريق الحق وجازوا عن سبيل

الواجب وذهبوا عن طريق الرشاد. ثم استدرکوا فقالوا (بل نحن محرومون) ما كان لنا في جنتنا، وتقديره إنا لضالون عن الحق في أمرنا فلذلك عوقبنا بذهاب ثمرها، والضلال الذهاب عن طريق الرشاد إلى طريق الهلاك بالفساد. والحرمان منع الخير الذي كان ينال لولا ما حدث من سبب الانقطاع، يقال: حرمة يحرمه حرمانا فهو محروم في خلاف المرزوق. وقال قتادة: معنى قوله (إنا لضالون) أي اخطأنا الطريق ما هذه جنتنا، فقال بعضهم لبعض (بل نحن محرومون) وقوله (قال اوسطهم) معناه قال أعدلهم قولاً - في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقاتدة والضحاك - والاوسط

(٨٣)

الكائن بين الاكبر والاصغر. والمراد ههنا بين الاكبر والاصغر في الخروج عن القصد (ألم أقل لكم) على وجه التهجين لهم أما قلت لكم (لولا تسبحون) أي هلا تستثنون، والتسبيح التنزيه لله عما لا يجوز عليه من صفة، وهو التنزيه عن كل صفة ذم ونقص، فلذلك جاز أن يسمى الاستثناء بأن يشاء الله تسبيحا. وقيل معناه لولا تصلون.

ثم حكى انهم (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) ومعناه إنهم اعترفوا أن الله لم يظلمهم وانهم ظلموا انفسهم في عزمهم على حرمان المساكين من حصتهم عند الصرام من غير استثناء، فحرموا قطعها والانتفاع بها، ثم قال (فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أي يلوم بعضهم بعضا ويذم بعضهم بعضا. ثم (قالوا ياويلنا) والويل غلظ المكروه الشاق على النفس، والسويس دونه. والويح وسط بينهما، وإنما نودي بالويل بيانا عن حال الشدة، كأنه يقول ياويل تعال فانه من أحيائك (إنا كنا طاغين) أي علونا في الظلم وتجاوزنا الحد فيه، فالطغيان العلو في الظلم والداعي اليه طلب الارتفاع بغير استحقاق بالقهر والاعتصاب. وقيل: الطاغي المتجاوز للحد في الفساد وقال عمر وبن عبید: يجوز أن يكون ذلك منهم توبة وإيمانا، ويجوز أن يكون ذلك على حد ما يقول الكافر إذا وقع في الشدة. ثم قالوا (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) أي لما تابوا ورجعوا إلى الله قالوا لعل الله تعالى يخلف علينا ويوليننا خيرا من الجنة التي هلكنا (إنا إلى ربنا راغبون) أي ترغب اليه ونسأله ونتوب اليه مما فعلناه. فالتبديل تثبيت شئ مكان غيره مما ينافيه، بدله تبديلا فهو مبدل. ومثله التغير إلا أن التبديل لا يكون إلا في شئيين والتغير قد يكون للشئ الواحد.

وقرئ بالتشديد والتخفيف، فالتخفيف من الابدال، والتشديد من التبديل

(٨٤)

ومعناها واحد.

وقوله (كذلك العذاب) معناه مثل ما فعلنا بهؤلاء هذا العذاب عاجلا في دار الدنيا، ثم قال (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) إن هناك عقابا وعذابا. وخير من كذا أي اعظم نفعاً منه وأحسن في العقل، ومثله الاصلح والاولى والاجل، والاكبر هو الذي يصغر مقدار غير منه بالاضافة اليه. وقد يكون أكبر شأنًا و أكبر شخصاً.
قوله تعالى:

(إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم (٣٤) أفجعل المسلمين كالمجرمين (٣٥) مالكم كيف تحكمون (٣٦) أم لكم كتاب فيه تدرسون (٣٧) إن لكم فيه لما تخيرون (٣٨) أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيمة إن لكم لماتحكمون (٣٩) سلهم أيهم بذلك زعيم) (٤٠) سبع آيات.
لما اخبر الله تعالى ما حل بالكفار، وما هو معد لهم في الآخرة أخبر بما للمؤمنين من أهل الطاعات، فقال (إن للمتقين) يعني للذين آمنوا عقاب الله باتقاء معاصيه وفعل طاعاته (عند ربهم جنات النعيم) أي بساتين يتتعمون فيها ويتلذذون بها.
ثم قال على وجه الإنكار على الكفار وانه لا يسوى بينهم وبين المؤمنين فقال (أفجعل المسلمين) الذين أسلموا لله وانقادوا لطاعته وامتثلوا ما أمرهم به (كالمجرمين) أي مثل من عصاه وخرج عن طاعته وارتكب ما نهاه عنه؟! فهذا لا يكون أبداً.
وقوله (مالكم كيف تحكمون) تهجين لهم وتوبيخ. ومعناه أعلى حال الصواب أم

(٨٥)

على حال الخطاء؟ وعلى حال الرشاد أم الغي، فعلى أي حال تحكمون في الاحوال التي تدعون إلى الفعل أحال الباطل أم حال الحق؟ وقوله (أم لكم كتاب فيه تدرسون) معناه ألكم كتاب تدرسون فيه خلاف ما قد قامت عليكم الحجة به فأنتم متمسكون به ولا تلتفتون إلى خلافه؟! وليس الامر على ذلك فاذ قد عدتم الثقة بما أنتم عليه، وفي هذا عليكم أكبر الحجة وأؤكد الموعظة، لأن الكتاب الذي تقوم به الحجة حتى لا يجوز خلافه إلى أن تقوم الساعة هو الذي تشهد له المعجزة من غير اجازة نسخ له في حال ثانية، وهو القرآن الذي فيه معنى الاعجاز من غير نسخ له فيما بعد في باقى الزمان.

وقوله (إن لكم فيه لما تخيرون) يحتمل امرين:

احدهما - أن يكون تقديره أم لكم كتاب فيه تدرسون بأن لكم ما تخيرون إلا انه حذف الباء وكسرت (إن) لدخول اللام في الخبر، الثاني - ان يكون ذلك مخرج التوبيخ، وتقديره وإن لكم لما تخيرون عند أنفسكم، والامر بخلاف ظنكم،، لانه لا يجوز ان يكون ذلك خبراً مطلقاً.

وقوله (أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون) كسرت (إن) لدخول اللام في الخبر، والحكم خبر بمعنى يفصل الأمر على جهة القهر والمنع وأصله المنع من قول الشاعر:

ابني حنيفة احكموا سفهاءكم * إنني اخاف عليكم ان اغضبا (١)
أي امنعوهم. ومنه الحكمة، لأنها معرفة تمنع الفساد يصرفها عنه بما يذم به.
والحكمة في الفعل المنعة من الفساد منه، ومنه حكمة الدابة لمنعها إياها من الفساد.
وقوله (سلهم أيهم بذلك زعيم) قال ابن عباس وقتادة: زعيم أي كفيل

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٨٨ (*)

(٨٦)

والزعيم والكفيل والضمين والقبيل نظائر والمعنى سلهم أيهم زعيم ضامن يدعي علينا ان لهم علينا أيماننا بالغة؟ فلا يمكنهم ادعاء ذلك.
قوله تعالى:

(أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين (٤١)
يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون (٤٢)
خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون (٤٣) فذرني (ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون (٤٤) وأملي لهم إن كيدي متين) (٤٥)
خمس آيات.

قوله (أم لهم شركاء) توبيخ لهؤلاء الكفار وإنكار عليهم إتخاذ إله مع الله وتوجيه عبادتهم اليه، فقال (أم لهم شركاء) في العبادة مع الله (فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) أي شركاؤهم الذين تقوم بهم الحجة، فلا سبيل لهم إلى ذلك فالحجة لازمة عليهم لان كل دعوى لم يكن صاحبها أن يقيم البينة عليها فيلزمه أن يقيمها بغيره. والشريك عبارة عن يختص بمعنى هو له ولغيره من غير أفراد به.

وإنما قلنا من غير أفراد به لنفرق بين ما هو له ولغيره وهوله أيضا كالغفران هو لهذا التائب ولتائب آخر، ولهذا التائب مطلقا، فليس فيه شريك، وكذلك هذا العبد هو ملك الله تعالى، ولهذا المولى، وهو الله على الاطلاق، فليس في هذا شركة وإنما قيل الشركاء في الدعوى، لأنها مما لو انفرد بعضهم عن ان يدعيها لم يدعها الاخر، كأنهم تعاونوا عليها، فعلى هذا يحتمل أن يكون المعنى في الآية أم لهم

(٨٧)

شركاء يدعون مثل ما يدعيه هؤلاء الكفار، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين أي شركاء هم الذين تقوم بهم الحجة، ولا سبيل لهم إلى ذلك فهو لازم عليهم.

وقوله (يوم يكشف عن ساق) قال الزجاج: هو متعلق بقوله (فليأتوا بشركائهم.. يوم يكشف عن ساق) وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك: معنا يوم يبدو عن الامر الشديد كالقطيع من هول يوم القيامة.

والساق ساق الانسان وساق الشجرة لما يقوم عليه بدنها وكل نبت له ساق فهو شجر قال الشاعر:

للفتى عقل يعيش به * حيث يهدي ساقه قدمه (١)

فالمعنى يوم يشتد الامر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى ان يقوم على ساق، وقد كثر في كلام العرب حتي صار كالمثل فيقولون: قامت الحرب على ساق وكشفت عن ساق قال (زهير بن جذيمة).

فاذا شمרת لك عن ساقها * فويها ربيع ولا تنسأ (٢)

وقال جد ابي طرفة:

كشفت لهم عن ساقها * وبدا من الشر الصراح (٣)

وقال آخر:

قد شمרת عن ساقها فشدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا والقوس فيها وتر غرد (٤)

وقوله (ويدعون إلى السجود) قيل: معناه إنه يقال لهم على وجه التوبيخ:

اسجدوا (فلا يستطيعون) وقيل: معناه إن شدة الامر وصعوبة الحال تدعوهم

(١) اللسان (سوق) (٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٦٦ (٣) اللسان (سوق) والقرطبي ١٨ / ٢٤٨ (٤) القرطبي ١٨ / ٤٨

(*)

(٨٨)

إلى السجود، وإن كانوا لا ينتفعون به. ثم قال (خاشعة ابصارهم) أي ذليلة ابصارهم لا يرفعون نظرهم عن الارض ذلة ومهانة (ترهقهم ذلة معناه تغشاهم ذلة يقال: رهقه يرهقه رهقا، فهو رهق إذا غشيه، ورهقه الفارس إذا أدركه، وراهق الغلام إذا أدرك).

وقوله (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) يعني دعاهم الله تعالى إلى السجود والخضوع له في دار الدنيا وزمان التكليف، فلم يفعلوا، فلا ينفعهم السجود في ذلك الوقت.

وقوله (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) تهديد، ومعناه ذرني والمكذبين أي اوكل أمرهم إلي كما يقول القائل ادعني وإياه.

وقوله (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) معناه سأخذهم إلى العقاب حالا بعد حال.
وقوله (واملي لهم) أي واطيل آجالهم وأؤخرها (إن كيدي متين) أي قوي، فكانه قال سنستدرج أعمالهم إلى عقابهم وإن أطلناها لهم نستخرج ما عندهم قليلا قليلا. وأصله من الدرجة، لأن الراقي ينزل منها مرقة مرقة فأشبهه هذا.
ووجه الحكمة في ذلك أنهم لو عرفوا الوقت الذي يؤخذون فيه لكانوا آمنين إلى ذلك الوقت، وصاروا مغربين بالقبيح، والله تعالى لا يفعل ذلك.
قوله تعالى:

(أم تستلم أجرا فهم من مغرم مثقلون (٤٦) أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤٧) فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم (٤٨) لو لا أن تداركه نعمة من ربه

(٨٩)

لنبت بالعراء وهو مذموم (٤٩) فاجتبيه ربه فجعله من الصالحين (٥٠) وإن يكاد الذين كفروا ليزلفونك ببصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون (٥١) وما هو إلا ذكر للعالمين (٥٢) ست آيات.

قرأ نافع وحده (ليزلفونك) بفتح الياء من زلفت. الباقر بضمها من أزلفت، وهما لغتان: زلفت، وأزلفت. قال الفراء: يقولون: زلفت شعره وأزلفته إذا حلقته. والمعنى ليرمون بك ويلقونك.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) على وجه التوبيخ للكفار (أم تسألهم) أي هل تسألهم (أجرا) يعني ثوبا وجزاء على دعائك إياهم إلى الله وتخويفك إياهم من المعاصي وأمرك إياهم بطاعة الله (فهم من مغرم) أي هم من لزوم ذلك (مثقلون) أي محملون، فالاجر القسط من الخير الذي يستحق بالعمل. والمغرم ما يلزم من الدين الذي يلج في اقتضائه. وأصله اللزوم باللاحاح، ومنه قوله (إن عذابها كان غراما) (١) أي لازما ملحا قال الشاعر:

يوم الجفار ويوم النصار * كانا عذابا وكانا غراما (٢)

وقولهم دفع مغرم أي دفع الاقتضاء باللاحاح. والغرم ما يلزم بالاقتضاء على وجه اللاحاح فقط. والمتقل المحمل للثقل وهو ما فيه مشقة على النفس كالمشقة بالحمل الثقيل على الظهر، يقال: هو متقل بالدين، ومتقل بالعيال ومتقل بما عليه من

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥ (٢) مر في ٧ / ٥٠٥ و ٩ / ٥٠٥ (ج ١٠ م ١٢ من التبيان) (*)

(٩٠)

الحقوق اللازمة والامور الواجبة.

وقوله (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) معناه هل عندهم علم أختصوا به لا يعلمه غيرهم، فهم يكتبونه ويتوارثونه بصحة ما يدعونه فينبغي ان يبرزوه ثم قال للنبي (صلى الله عليه وآله) (فاصبر لحكم ربك) الذي حكم عليك بالصبر وأمهلمهم إلى وقت آجالهم (ولا تكن كصاحب الحوت) يعني ولا تكن في استعجال عقابهم مثل يونس حين طلب من الله تقديم عقاب قومه وإهلاكهم، ولا تخرج من بين ظهرائي قومك قبل ان يأذن الله لك في ذلك كما فعل يونس (إذ نادى وهو مكظوم) قال ابن عباس ومجاهد: معناه مغموم، كأن الغم قد حبسه عن الانبساط في أمره، والمكظوم المحبوس عن التصرف في الامور، ومنه كظمت رأس القربة إذا شددت رأسها، وكظم غيظه إذا حبسه بقطعه عما يدعو اليه. وقال قتادة: لا تكن مثله في العجلة والمغاضبة، حتى نادى يونس وهو ممنوع بقطعه عن شفاء غيظه، والذي نادى به (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فجعله الله من الصالحين، بما بين لعباده من صلاحه، ويجوز بما لطف له حتى صلح في كل ما امره الله به. وفي الكلام حذف، وتقديره: ولا تكن كصاحب الحوت في استعجاله الخروج من بين قومه انتظارا لنزول العذاب بهم، فلما رفع الله عنهم العذاب مضى على وجهه، فعاتبه على ذلك وحبسه في بطن الحوت، فلجأ إلى الله تعالى. وقوله (إذ نادى) متعلق بتقدير: إذكر يا محمد حاله إذ نادى. ولا يجوز ان يكون متعلقا بقوله (ولا تكن كصاحب الحوت) حين نادى، لان الله لا ينهى نبيه أن يقول مثل ما قال يونس من الدعاء.

وقوله (لولا ان تداركه نعمة من ربه) معناه لولا أن الله رحم يونس ولحقته نعمة من جهته (لنبتذ بالعراء) أي لطرح بالصحراء الواسعة (وهو مذموم) قالوا

(٩١)

هي الارض العارية من النباتات والابنية وكل حال ساترة. وقال الفراء: الفضاء من الارض العاري، قال الشاعر وهو قيس بن جعدة:

ورفعت رجلا لا أخاف عثارها * ونبتذت بالبلد العراء ثيابي (١)

وقوله (وهو مذموم) قال ابن عباس: وهو مليم أي أتى بما يلام عليه، ولكن الله تعالى تداركه برحمة من عنده، فطرح بالعراء وهو غير مذموم. وقوله (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) معناه اختار الله يونس فجعله من جملة الصالحين المطيعين لله التاركين لمعاصيه.

وقوله (وإن يكاد الذين كفروا) قال النحويون: (إن) هذه المخففة عن الثقيلة، لأنها لو كانت للشرط لجزم (يكاد) وتقديره، وإن يكاد الذين كفروا أي قارب الذين كفروا (ليزلقونك بأبصارهم) أي يرمون بك عند نظرهم غيظا عليك قال الشاعر:

يتلاحظون إذا التقوا في محفل * نظرا يزيل مواقع الأقدام (٢)

ويكاد يصرعه بحدة نظره. وقيل كان الرجل إذا أراد ان يصيب صاحبه بالعين تجوع ثلاثة أيام ثم نظره فيصرعه بذلك، والمفسرون كلهم على المراد بازلاقهم له بأبصارهم من الإصابة بالعين. وقال الجبائي منكرًا لذلك: إن هذا ليس بصحيح، لأن هذا من نظر العداوة وذلك عندهم من نظر المحبة على أن إصابة العين ليس بصحيح. قال الرماني: وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لأنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة بصحة ذلك لضرب من المصلحة، فلا وجه للامتناع من ذلك، وعليه اجماع المفسرين، وهو المعروف بين العقلاء والمسلمين وغيرهم، فينبغي أن يكون مجوزًا. وروي أن أسماء بنت عيسى قالت: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(١) مر في ٨ / ٥٣٠ (٢) القرطبي ١٨ / ٢٥٦ وهو مروى مع اختلاف (*)

(٩٢)

إن بني جعفر يصيبهم العين، فأسترقى لهم، قال: نعم، فلو كان شئ سابق القدر سبقة العين. وقيل: إنهم كانوا يقولون ماظهر حججه، وما افصح كلامه، وما ابلغ خطابه، يريدون بذلك ان يعينوه به، قال البلخي: المعنى إنهم كانوا ينظرون اليه نظر عداوة وتوعد، ونظر من بهم به، كما يقول القائل: يكاد يصرعني بشدة نظره قال الشاعر:

يتعارضون إذا التقوا في موطن * نظرا يزيل مواضع الأقدام (١)

أي ينظر بعضهم إلى بعض نظرا شديدا بالبغضاء والعداوة، ونظر يزيل الأقدام عن مواضعها أي يكاد يزيل.

وقوله (لما سمعوا الذكر) يعني القرآن (ويقولون) مع ذلك (إنه لمجنون) قد غلب على عقله، قالوا ذلك فيه مع علمهم بوقارة عقله تكذبا عليه ومعاندة له، فقال الله تعالى ردا عليهم (وما هو) أي ليس هذا القرآن (إلا ذكر للعالمين) أي شرف إلى ان تقوم الساعة.

(١) مر في الصفحة التي قبلها. وقد روي في غير هذا الكتاب مع هذا الاختلاف في الكلمات. (*)

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي اثنتان وخمسون آية في الكوفي والمدنيين. واحدى وخمسون في البصرى.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(ألحاقة (١) ما الحاقة (٢) وما أدريك ما الحاقة (٣) كذبت ثمود وعاد بالقارعة (٤) فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية (٥) وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية (٦) سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧) فهل ترى لهم من باقية (٨) وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة (٩) فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) (١٠) عشر آيات قرأ اهل البصرة والكسائي (ومن قبله) بكسر القاف. الباقون بفتحها.

قال ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم: إن الحاقة اسم من اسماء القيامة وسميت بذلك لأنها الساعة التي يحق فيها الجزاء على الاعمال: الضلال والهدى.

وقال الفراء: تقول العرب الحقة متى هربت والحقة والحاقة، كل ذلك بمعنى واحد. والعامل في (الحاقة) أحد شيئين:

أحدهما - الابتداء، والخبر (ما الحاقة) كأنه قال: الحاقة أى شئ هي.

الثاني - أن يكون خبر ابتداء محذوف، كأنه قيل هذه الحاقة، ثم قيل أى شئ الحاقة، تفخيما لشأنها، وتقديره هذه سورة الحاقة وقوله (ما أدراك ما الحاقة)

قال سفيان: يقال للمعلوم ما أدراك، ولما ليس بمعلوم: وما يدريك في جميع القرآن.

وإنما قال لمن يعلمها: ما أدراك لأنه إنما يعلمها بالصفة، فعلى ذلك قال تفخيما لشأنها أى كأنك لست تعلمها إذا لم تعابنها وترى ما فيها من الاهوال.

وقوله (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) اخبار من الله تعالى أن ثمود - وهم قوم صالح - وعادا -

وهم قوم هود - كذبوا بيوم القيامة فأنكروا البعث والنشور والثواب والعقاب. قال ابن عباس

وقتادة: القارعة إسم من اسماء القيامة، وسميت القارعة، لأنها تفرع قلوب العباد بالمخافة إلى

أن يصير المؤمنون إلى الامن. وإنما حسن أن يوضع القارعة موضع الكنية لتذكر بهذه الصفة

الهائلة بعد ذكرها بأنها الحاقة، وإلا كان يكفي ان يقول: كذبت ثمود وعاد بها. وقوله الحاقة،

والطامة (١)

والصاخة (٢)، اسماء يوم القيامة. والوقف على الحاقة حسن وأتم منه (ما الحاقة)

و (ما أدراك) كل ما في القرآن بلفظ الماضي، فقد أدراه (صلى الله عليه وآله)، وما كان بلفظ
يدريه، فلم يعلمه، يقال: دريت الشيء دراية أى علمته، ودريت الصيد أى ختلته ودرأته دفعته.
ثم اخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم، فقال (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية)
فالطاغية مصدر مثل العاقبة، والمعنى فأهلكوا بطغيانهم - في قول ابي عبيدة - وقيل:
معناه أهلكوا بالخصلة المتجاوزة لحال غيرها في الشدة، أهلك الله تعالى بها اهل الفساد. وقد
مضى فيما تقدم أن الله أهلك ثمود بالصيحة العظيمة التي اصبحوا بها

(١) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٤ (٢) سورة ٨٠ عبس آية ٣٣ (*)

(٩٥)

جائمين (١) أى ميتين هالكين قال الزجاج: تقديره فأهلكوا بالرجفة الطاغية.
ثم اخبر تعالى عن كيفية هلاك عاد، فقال (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر)
فالريح عبارة عن الهواء إذا كانت فيها حركة باعتماد ظاهرة فاذا سكن لا يسمى ريحا
واشتقاقه من راح يروح رוחا إذا رجع إلى منزله. والصرصر الريح الشديدة الصوت بما
يسمع لها من الصرير في شدة حركتها، يقال: صر وصرصر، كأنه مضاعف منه فالصرصر
الشديد العصف المجاوزة لحدتها المعروف وقال قتادة: صرصر باردة فكأنه يصطل الاسنان
بما يسمع من صوتها لشدة بردها، ويقال: صرصر وصلصل إذا تكرر الصوت، وهو
مضاعف صر وصل - في قول الزجاج - وقوله (عاتية) قيل عنت تلك الرياح على خزائها
في شدة الهبوب. والعاتي الخارج إلى غلظ الامر الذى يدعو اليه قساوة القلب، يقال: عتا يعتو
عتوا فهو عات والريح عاتية تشبيها بحال العاتي في الشدة.
وقوله (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام) اخبار منه تعالى انه أهلكهم بهذه الريح في مدة
سبع ليال، وثمانية أيام، لما في ذلك من الارهاب والتخويف، وما يتعلق به من المصلحة
لغيرهم في التكليف.
وقوله (حسوما) أى قاطعة قطع عذاب الاستئصال، واصله القطع حسم طمعه من كذا إذا
قطعه، حسم يحسم حسما إذا قطع، وانحسم النثر إذا انقطع.
وقال عبدالله بن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة: معنى (حسوما) تباعا متوالية مأخوذا من
حسم الداء بمتابعة الكي عليه، فكأنه تتابع النثر عليهم حتى استأصلهم. وقيل (حسوما) قطوعا
لم ينتق منهم أحد، ونصب (حسوما) على المصدر أي يحسمهم حسوما.

(٩٦)

ثم قال (فترى القوم فيها) أي تشاهد القوم الهلكى في تلك الايام والليالي صرعى مطرحين (كأنهم اعجاز نخل خاوية) أي كأنهم أصول نخل نخرة - في قول قتادة - وقال السدي: الخاوي الفارغ.

وقوله (فهل ترى لهم من باقية) أي من نفس باقية، وقيل: معناه فهل ترى لهم من بقاء، فالباقية بمعنى المصدر مثل العافية والطاغية. ومعناه فهل ترى لهم من بقية.

وقوله (وجاء فرعون ومن قبله) أي جاء فرعون ومن معه من قومه، على قراءة من قرأ (قبله) بكسر القاف وفتح الباء، ومن قرأ بفتح القاف وسكون الباء أراد والذين قبله من الكفار (والمؤتفكات) يعني وجاء اهل القرى المؤتفكات أي المنقلبات بأهلها - في قول قتادة - وهي قرى قوم لوط (بالخاطئة) أي بالافعال الخاطئة أو بالنفس الخاطئة، وقيل بالخاطئة أى اخطأت الحق إلى الباطل والفساد (فعضوا رسول ربهم فاخذهم) الله على كفرهم وعصيانهم (أخذة رابية) أى زائدة في الشدة من ربا يربو إذا زاد، وقرأ ابو عمرو، والكسائي، وابوبكر عن عاصم (ومن قبله) بكسر القاف وفتح الباء. الباقر بفتح القاف وسكون الباء. وحجة أبي عمرو أن في قراءة أبي (جاء فرعون ومن معه). وقرأ ابو موسى (ومن تلقاه). وأراد الباقر انه جاء فرعون ومن قبل فرعون من الكفار. قوله تعالى:

إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية (١١) لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية (١٢) فاذا تفرغ في الصور نفخة واحدة (١٣) وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة (١٤)

(٩٧)

فيومئذ وقعت الواقعة (١٥) وانشقت السماء فهي يومئذ واهية (١٦) والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية (١٧) يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية (١٨) ثمان آيات. قرأ (لا يخفى) بالياء أهل الكوفة، لان تأنيث (خافية) ليس بحقيقي. وقد فصل بينها وبين الفعل فاصل. الباقر بالتاء على لفظ التأنيث. والتقدير لا يخفى عليه شيء منكم نفس خافية.

يقول الله تعالى مخبرا عما فعل بقوم نوح وفرعون وقومه على وجه الامتتان على خلقه بما فعل بهم من الهلاك الذي فيه زجر لغيرهم عن الكفر وإرتكاب المعاصي (إنا لما طغى الماء) ومعناه لما تجاوز الماء الحد المعروف في العظم حتى غرقت الارض بمن عليها إلا من شاء

الله نجاته، وذلك في زمن نوح (عليه السلام) وغرق فرعون وقومه بانطباع البحر عليهم، وقال ابن عباس ومجاهد: معنى طغى الماء كثر، وغرق الله - عزوجل - قوم نوح. وقال قتادة: ارتفع على كل شئ خمس عشرة ذراعا. وقوله (حملناكم في الجارية) أي حملنا أباكم نوحا ومن كان معه من ولده المؤمنين في السفينة، فالجارية السفينة التي من شأنها أن تجري على الماء، ومنه قوله (وله الجوار المنشآت في البحر كاعلام) (١) والجارية المرأة الشابة تسمى بذلك، لأنها يجري فيها ماء الشباب. والحمل امسك الشئ بالوضع على غيره، تقول حملته حملا، والحمل - بفتح الحاء - ما كان في البطن او الشجر - وبكسر الحاء - ما كان على الظهر.

(١) سورة ٥، الرحمن آية ٢٤ (ج ١٠ م ١٣ من التبيان) (*)

(٩٨)

ووجه التذكرة بذلك أن نجاة من فيها وتغريق من سواهم يقتضي أنه من مدبر مختار وفي امر لم تجربه عادة، فيلتبس انه من فعل الطبيعة. ثم بين تعالى الغرض بما فعله فقال (لنجعلها) يعني السفينة (لكم تذكرة) تتذكرون بها أنعم الله وتشكرونه عليها وتتفكرون فيها (وتعيها أذن واعية) أي وتحفظها اذن حافظة، يقال: وعيت العلم، وأوعيت المتاع في الوعاء، ويقال: وعي قلبه العلم يعيه وعيا، وقال الشاعر:

إذا لم تكن واعيا حافظا * فجمعك للكتب لا ينفع

فمعنى (واعية) ممسكة ما يحصل فيها.

وقال ابن عباس: حافظة. وقيل قابلة سامعة. وقيل: إنه لما نزلت هذه الآية قال النبي (صلى الله عليه وآله) (اللهم اجعلها اذن علي عليه السلام) ورواه الطبري باسناده عن مكحول. ثم قال علي (عليه السلام) (فما سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئا فنسيته) وروى الحلواني عن ابن كثير (وتعيها) بسكون العين جعله مثل فخذ وفخذ. الباقون بكسرها، لأنه مضارع وعى يعي. واصله يوعي فحذفت الواو لوقوعها بين فتحة وكسرة ومعنى الآية تحفظها كل أذن ليكون عظة لمن يأتي بعدهم. روى الطبري باسناده عن عكرمة عن بريدة قال: سمعت رسول الله عليه وآله يقول لعلي (عليه السلام) (يا علي ان الله أمرني ان أدنيك ولا اقصيك وأن أعلمك)

وقوله (فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة) فهي النفخة الاولى التي يصعق لها من في السموات ومن في الارض (وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة)

قال: ابن زيد: ضرب بعضها على بعض حتى صارتا غبارا. وقيل: معناه بسطتا بسطة واحدة، ومنه الدكان، ويقال: اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره. وقيل: المعنى حملت الارض والجبال فصك بعضها على بعض حتى تتدك، وإنما قيل: فدكتا لانه جعل الجبال جملة والارض جملة. ومثله (أن السموات والارض كانتا

(٩٩)

رتقا) (١) لان السموات جملة واحدة. ثم قال (فيومئذ) أي يوم تدك السموات والارض وتتفخ النفخة الواحدة (وقعت الواقعة) يعني القيامة وسميت واقعة لشدة وقعها بما ليس لغيرها مثل تلك الشدة. ثم قال (وانشقت السماء) أي انفرج بعضها عن بعض، يقال: انشق الشئ ينشق انشقا، وتشقق تشقفا إذا تقطر واشتق منه كذا اشتقا، ومنه اشتقاق الصفة من المصدر، لان معناه وحروفه فيها دون صورته، فهي مأخوذة منه على هذا الوجه. وقوله (فهي يومئذ واهية) أي شديدة الضعف بانقراض بنيتها ولا ينظر أهول من رؤية السماء في هذه الهيئة، يقال: وهى الشئ يهي وهيا، فهو واه أي لا يستمسك لضعفه بنقض بنيتها. وقيل: هو تغير السماء بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهي والضعف، وقيل: السماء مكان الملائكة، فاذا وهت صارت في نواحيها. وقوله (والملك على أرجائها) فالأرجاء النواحي واحدها رجا، مقصور وتثنى رجوان بالواو، والرجا جانب البئر قال الشاعر:

فلا ترمي بي الرجوان اني * أقل القوم من يغني مكاني (٢)

وهو من رجوت، لان الجانب يرجى فيه السلامة مع خوف السقوط، والملائكة ذلك اليوم على جوانب السماء تنتظر ما تؤمر به في اهل النار من السوق اليها، وفي اهل الجنة من التحية والتكرمة فيها.

وقوله (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) يعني فوق الخلائق (يومئذ)

يعني يوم القيامة (ثمانية) من الملائكة. وقيل: على أرجائها، لان الناس إذا رأوا

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٠ (٢) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٦٦ (*)

(١٠٠)

جهنم بدروا هاربيين فتردهم الملائكة - في قول الضحاك - وقال الحسن وقتادة وسفيان (على أرجائها) يعني نواحيها. وقال ابن عباس (يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) صفوف من

الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله. وروي في خير مرفوع عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه يحمل العرش ثمانية أملاك، وهو قول ابن زيد، والمعنى في حمل العرش بثمانية أملاك. هو الاخبار بأنه عظيم محتاج أن يحمله من كل زاوية ملكان، لا يفي به لعظمه أقل من ذلك، وبهذا يتصور عظمه في النفس.

وقوله (يومئذ تعرضون) يعني يوم القيامة تعرضون معاشر المكلفين (لا يخفى منكم خافية) فروى في خبر مرفوع - ذكره ابن مسعود وقتادة - ان الخلق يعرضون ثلاث عرضات اثنتان فيها معاذير وجدال، والثالثة تطاير الصحف في الايدي فأخذ بيمينه وأخذ بشماله، وليس يعرض الله الخلق ليعلم من حالهم ما لم يعلمه بل هو عالم بجميع ما كان منهم، لانه عالم لنفسه لكن ليظهر ذلك لخلق.

قوله تعالى:

فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأ كتابه (١٩)

إني ظننت أني ملاق حسابيه (٢٠) فهو في عيشة راضية (٢١) في جنة عالية (٢٢) قطوفها دانية (٢٣) كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الايام الخالية) (٢٤) ست آيات قال الفراء: نزلت هذه الاية في أبي سلمة بن عبد الاسود، وكان مؤمناً، وكان أخوة الاسود بن عبد الاسود كافراً، نزلت فيه الاية التي بعدها.

قسم الله تعالى حال المكلفين يوم القيامة، فقال (فأما من أوتي) أي اعطي

(١٠١)

(كتابيه) الذي فيه أعماله (بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا) قال ابن زيد: يقول المكلف تعالوا اقرأوا (كتابيه) ليعلمهم انه ليس فيه إلا الطاعات، فلا يستحيون أن ينظر، فيها غيرهم، واهل الحجاز يقولون: ها يارجل، وللاتنين هاؤما، وللجمع هاءموا، وللمرأة هاء - بهمزة - وليس بعدها ياء، وللمرأتين هاؤما، وللجماعة هاؤن يانسوة. وتميم وقيس يقولون: ها يارجل مثل قول أهل الحجاز، وللاتنين هاء، وللاتنين هاءموا، وللمرأة هائي، وربما قالوا: هاء يا هذه، وللاتنين هان. وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافا، فيقول: هاك بغير همزة، ويؤمر بها ولا ينهي و (هاء) بمنزلة خذ وتناول. ووقف الكسائي على (هاؤم) وابتدأ (اقرأ واکتابيه)

ويقول أيضا (اني ظننت أني ملاق حسابيه) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: معناه إني علمت، وإنما حسن هذا فيما يلزم العمل فيما يلزم العمل به لتأكد امره بالظن، كما يلزم بالعلم مع مقاومة الظن للعلم بالقوة في النفس إلا أن العلم معه قوة ينتهي إلى الثقة الثابتة بسكون النفس. والمعنى اني كنت متيقنا في دار الدنيا بأنني ألقى حسابي يوم القيامة، واعلم أني اجازى على

الطاعة بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب، وأعمل بما يجب علي من الطاعات واجتتاب المعاصي.

ثم اخبر تعالى عن حال من أعطي كتابه بيمينه فقال (فهو في عيشة راضية) أي في عيشة مرضية تقول: عاش يعيش عيشا وعيشة، وهي الحالة التي تستمر بها الحياة ومنه المعاش الذي يطلب التصرف له بعائد النفع عليه، وراضية معناه مرضية.

ف (فاعلة) بمعنى (مفعولة) لانه في معنى ذات رضا، كما قيل: لابن وتامر، أي ذو لبن وذو تمر. قال النابغة:

كليني لهم يأميمة ناصب * وليل اقاويه بطئ الكواكب (١)

(١) مرفي ٥ / ٣٦٨ و ٦ / ٩٠، ٣٢٩ و ٨ / ١٢٢، ٥٦٧ (*)

(١٠٢)

أي ذو نصب، فكأن العيشة أعطيت حتى رضيت، لانها بمنزلة الطالبة كما أن الشهوة بمنزلة الطالبة للمشتهى. وقيل: هو كقولهم: ليل نائم وسر كاتم وماء دافق، على وجه المبالغة في الصفة من غير التباس في المعنى: فعلى هذا جاء عيشة راضية ولا. يجوز على هذا القياس زيد ضارب بمعنى مضروب لانه يلتبس به.

وقوله (في جنة عالية) أي بستان أجنه الشجر مرتفعة، فالعلو الجهة المقابلة لجهة السفلى. والعلو والسفل متضمن بالاضافة فيكون الغلو سفلا إذا أضفته إلى ما فوقه، ويكون علوا إذا اضيف إلى ما تحته، وقوله (قطوفها دانية) أي اخذ ثمرها، فالتطف اخذ الثمرة بسرعة من موضعها من الشجر، وهو قطوفها، كأنه قال دانية المتناول، قطف يقطف قطفًا فهو قاطف، وقطف تقطيفًا. والدنو القرب، دنا يدنو دنوا فهو دان، وتدانيا تدانيا وأحدهما أدنى اليانا من الاخر. وقال قتادة: معناه قطوفها دانية لا يرد أيديهم عن ثمرها بعد ولا شوك.

ثم حكى تعالى ما يقال لهم فانه يقال لهم (كلوا واشربوا هنيئًا بما اسلفتم) وصورته صورة الامر والمراد به الاباحة، كما قال (وإذا حللتم

فاصطادوا) (١) وقال قوم: انه أمر على الحقيقة، لان الله يريد من أهل الجنة الاكل والشرب لما لهم في ذلك من زيادة السرور إذا علموا ذلك. وإنما لا يريد ذلك في الدنيا، لانه عبث لا فائدة فيه.

وقوله (هنيئًا) معناه مريئًا ليس فيه ما يؤذي، فليس يحتاج فيه إلى اخراج فضل لغائط ولا بول.

وقوله (بما اسلفتم) أي جزاء على ما عملتموه من الطاعة (في الايام الخالية)

(١٠٣)

أي الماضية في دار التكليف.

قوله تعالى:

(وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه (٢٥) ولم أدر ما حسابيه (٢٦) ياليتها كانت القاضية (٢٧)

ما أغني عني ماليه (٢٨) هلك عني سلطانيه (٢٩) خذوه فغلوه (٣٠)

ثم الجحيم صلوه (٣١) ثم في سلسلة ذرعاها سبعون ذراعا فاسلكوه (٣٢) إنه كان لا يؤمن بالله العظيم (٣٣) ولا يحض على طعام المسكين (٣٤) فليس له اليوم ههنا حميم (٣٥) ولا طعام إلا من غسلين (٣٦) لا يأكله إلا الخاطون (٣٧) ثلاث عشرة آية.

لما حكى الله تعالى قصة أهل الجنة وشرح أحوالهم، حكى - ههنا - قصة أهل النار وشرح أحوالهم، فقال (وأما من أوتي كتابه) يعني من أعطي كتابه الذي فيه أعماله مثبتة (بشماله) وإنما يعطي الله هؤلاء كتابهم بشمالهم، لأنه جعل ذلك إمارة للملائكة والخلائق على أن صاحبه من أهل النار، فهو إذا اعطي كتابه في شماله يقول عند ذلك متميا متحسرا على ما فرط (يا ليتني لم أوت كتابيه....)

أى ليتني لم اعط هذا الكتاب، والتمني هو قول القائل لما كان: ليته لم يكن، ولما لم يكن: ليته كان: فهو من صفات الكلام. وقال قوم: هو معنى في النفس فهؤلاء الذين يعطون كتابهم بشمالهم يتمنون أن لم يعطوا كتابهم أصلا، ولم يعلموا

(١٠٤-) ما لهم وما عليهم، لان اعمالهم كلها معاصي، وهم يستحقون العقاب لا غير فلذلك

يتمنون أن لا يعرفوا حسابهم، والحساب اخراج الكثير مما تضمن معنى العدة، وهو محتمل

الزيادة والنقصان، والتمني في قول الكفار معناه التحسر والتندم وإن خرج مخرج التمني.

ثم حكى تعالى أنهم لعظم ما دفعوا اليه من العقاب والاهوال ينتدمون ويتحسرون ويتمنون أن لو كانت القاضية بدلا مما هم فيه. قال الفراء: معناه ليت الموتة الاولى التي متناها لم نجى بعدها. والقاضية الفاصلة بالامانة، يقال: قضى فلان إذا مات، واصله فصل الامر، ومنه قضية الحاكم، وجمعها قضايا، ومنه قضاء الله وهو الاخبار بأنه يكون على القطع والهاء في (يا ليتها) كناية عن الحالة التي هم فيها، وقيل كناية عن الموتة. قال قتادة: يعني الموت ولم يكن عنده في الدنيا شئ اكره منه.

ثم حكى انه يقول (ما أغنى عني ماليه) ومعناه ما كفاني في صرف المكروه ولا صرف عني شيئاً من عقاب الله تعالى يقال: أغنى يغني غنى واغناء، قال ابن زيد: معناه ما نفعني ملكي الذي كان لي في الدنيا.

وقوله (هلك عني سلطانيه) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: هلك عني حجلي. وقال الحسن: قد جعل الله لكل إنسان سلطانا على نفسه ودينه وعيشه.

وقال قوم: معناه هلك عني تسلطي وأمري ونهبي في دار الدنيا على ما كنت مسلطاً عليه لا أمر لي ولا نهبي، فالهلاك ذهاب الشيء بحيث لا يقع عليه احساس، هلك يهلك هلوكا، فهو هلك، قال الزجاج: والوجه أن يوقف على هذه الهآت، ولا توصل، لأنها ادخلت للوقف، وقد حذفها قوم. وفي ذلك مخالفة المصحف، فلا احب حذفها. قال: ولا احب ان اصل وأثبت الهاء، فان هذه رؤس الاي فالوجه

(١٠٥)

الوقف عندها، وكذلك قوله (وما ادراك ماهيه) وقد وصل بلاهاء الكسائي. الباقرن بالهاء في الحاليين.

ثم حكى مايقول الله تعالى للملائكة ويأمرهم به، فانه يقول لهم (خذوه) يعني الكفار الذي أعطي كتابه بشماله (فعلوه) أى اوثقوه بالغل، وهو أن يشد احدى يديه او رجليه إلى عنقه بجامعة (ثم الجحيم صلوه) فالجحيم هي النار الغليظة لان النار قد تكون ضعيفة كنار السراج ونار القدر، وقد تكون قوية كنار الحريق فلا يقال لنار السراج: جحيم، وهو اسم علم على نار جهنم التي أعدها الله للكفار والعصاة، والتصلية إلزام النار، ومنه الاصطلاء وهو القعود عند النار للدفا، واصله لزوم الامر، فمنه المصلي الذي في أثر السابق ومنه قول الشاعر:

وصلى على دنها وارنسم (١)

أى لزم الدعاء لها. وقوله (ثم في سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فاسلكوه) تقديره: ثم اسلكوه في سلسلة طولها سبعون ذراعا فاسلكوه فيها، فالسلسلة حلق منتظمة كل واحدة منها في الاخرى، ومنه يقال: سلسل كلامه إذا عقده شيئاً بعد شيء، وتسلسل إذا استمر شيئاً قبل شيء على الولا والانتظام. والذرع اخذ قدر الذراع مرة او أكثر، ذرع الرجل الثوب يزرعه ذراعاً، فهو ذراع، والثوب مذروع، مأخوذ من الذراع وهو العضو الذي يكون في طرف الكف من الانسان.

وقيل: اسلكوه في السلسلة، لانه يأخذ عنقه فيها، ثم يجر بها. وقال الضحاك:

إنها تدخل في فيه وتخرج من دبره. وقيل: المعنى ثم اسلك السلسلة فيه فقلب كما يقال: ادخلت القلنسوة في رأسي، وإنما أدخل رأسه فيها، وكما قال الأعشي:

(١) مر تخريجه في ٢ / ٤١ (ج ١٠ م ١٤ من التبيان) (*)

(١٠٦)

(غضوب من السوط زيافة) * إذا ما أرتدى بالسراه الاكم) (١)
وإنما السراه ترتدي بالاكم، ولكنه قلب، فهو يجري مجرى التقديم والتأخير اتساعا في اللغة من غير اخلال بالمعنى. ويقولون أيضا: ادخلت الخاتم في يدي، والخف في رجلي، وإنما تدخل اليد والرجل في الخاتم والخف، فقلب:
ثم بين تعالى لم فعل به ذلك؟ وعلى أي شيء استحقه، فقال (إنه كان لا يؤمن بالله) أي لم يكن يوحد الله في دار التكليف ولم يصدق بالله (العظيم) في صفاته التي لا يشاركه فيها غيره (ولا يحض على طعام المسكين) أي لا يحث على ذلك مما يجب عليه من الزكاة والكفارات والنذور.

ثم قال تعالى (فليس له) يعني للكافر (اليوم ههنا) يعني يوم القيامة (حميم) وهو القريب الذي يحمي لغضب صاحبه (ولاطعام الامن غسلين) يعني من صديد أهل النار وما يجري منهم، فالطعام هو ما هيئ للاكل، فلذلك لا يسمى التراب طعاما للانسان، والخشب طعام الارضة، وليس من طعام أكثر الحيوان.
فلما هيئ الصديد لاكل أهل النار كان ذلك طعاما لهم. والغسلين هو الصديد الذي يتغسل بسيلائنه من ابدان أهل النار. ووزنه (فعلين) من الغسل وقال ابن عباس:
هو صديد أهل النار. وقيل: أهل النار طبقات منهم من طعامه الضريع، ومنهم من طعامه الغسلين، لأنه قال في موضع آخر (ليس لهم طعام الامن ضريع) (٢) وقال قطرب: يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، فعبر عنه بعبارتين، وقال قوم:
يجوز ان يكون المراد ليس لهم طعام إلا من ضريع ولا شراب الا من غسلين، فسماه طعاما كما قال الشاعر:

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٩٧ (٢) سورة ٨٨ الغاشية آية ٦ (*)

(١٠٧)

علفتها بتنا وماء باردا (١)

ثم قال تعالى (لا يأكله) أي لا يأكل هذا الغسلين (إلا الخاطئون) وهم الجائرون عن طريق الحق عامدين. والفرق بين الخاطيء والمخطيء أن المخطيء قد يكون من غير تعمد لما وقع به من ترك اصابة المطلوب، وخطيء خطأ فهو خاطيء قال امرؤ القيس:

يالهف نفسي إذ خطئن كاهلا * القائلين الملك الحلا حلا (٢)

فهؤلاء الكفار قد جاروا عن طريق الحق وضلوا عن الصراط المستقيم وتبعوا الضلال في الدين.

قوله تعالى:

(فلا أقسم بما تبصرون (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إنه لقول رسول كريم (٤٠) وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون (٤١)

ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (٤٢) تنزيل من رب العالمين (٤٣) ولو تقول علينا بعض الاقاويل (٤٤) لا خذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين (٤٧) وإنه لتذكرة للمتقين (٤٨) وإنا لنعلم أن منكم مكذبين (٤٩) وإنه لحسرة على الكافرين (٥٠) وإنه لحق اليقين (٥١)

(١) مر في ١ / ٦٥ و ٣ / ٤٥٦ و ٥ / ٤٦٩ وعجزه: حتى شئت همالة عيناها (٢) ديوانه ١٧٦ واللسان (حلل).
(*)

(١٠٨)

فسبح باسم ربك العظيم (٥٢) خمس عشرة آية.

قرأ (قليلا ما يؤمنون، ويذكرون) بالياء فيهما مكي شامي ويعقوب، وسهل على الخبر عن الكفار. الباقر بالتاء على الخطاب لهم أي قل لهم.

وقيل في قوله (فلا أقسم) ثلاثة اقوال:

احدها - قال الفراء: انه رد لكلام قائل، فكأنه قال: ليس الامر على ما يقال أقسم إنه (لقول رسول كريم).

والثاني - قال قوم (لا) صلة مؤكدة وتقديره فأقسم.

الثالث - قال قوم: إنها نفي للقسم، ومعناه لا يحتاج إلى القسم لوضوح الحق في انه (لقول رسول كريم) وفي هذا الوجه يقع جوابه كجواب غيره من القسم.

وقيل: هو كقول القائل: لا والله لأفعل ذلك، ولا والله لأفعلن ذلك. وقال قتادة:

أقسم تعالى بالاشياء كلها ما يرى وما لا يرى، وقال الجبائي: إنما أراد إنه لا يقسم بالاشياء المخلوقات ما يرى وما لا يرى، وإنما يقسم بربه، لان القسم لا يجوز إلا بالله. وقوله (إنه لقول

رسول كريم) جواب القسم، قال الجبائي: هو قول الله على الحقيقة، وإنما الملك وجبرائيل والرسول يحكون ذلك، وإنما أسنده إليهم من حيث أن ما يسمع منهم كلامهم ولما كان حكاية كلام الله قيل: هو كلام الله على الحقيقة في العرف، وقرئ (إنه من قول رسول كريم) جواب القسم. وقال الحسن: فالرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) الذي أتى بهذا القرآن. وقال غيره: هو جبرائيل (عليه السلام) والاول اظهر، والكريم الخلق بالخير الواسع من قبله، يقال: كرم يكرم كرما فهو كريم، وضده لؤم يلؤم لؤما، فهو لئيم. ولما اقسام تعالى أن هذا القرآن هو قول رسول كريم نفى بعده أن يكون

(١٠٩)

قول شاعر فقال (وما هو بقول شاعر) فالشاعر هو المبتدئ بانشاء الشعر، ولا يكون حاكي الشعر شاعرا، كما يكون حاكي الكلام متكلما، لانه يحكي شعرا انشأه غيره، وإنما نزه الله تعالى نبيه عن الشعر ومنعه منه، لان الغالب من حال الشاعر أنه يدعو إلى الهوى، والرسول بأني بالحكمة التي يدعو اليها العقل للحاجة إلى العمل عليها والاهتداء بها، مع انه بين أن القرآن صنف من الكلام خارج عن الانواع المعتادة، وذلك أدل على إعجازه لبعده عما جرت به العادة في تأليف الكلام قال قتادة: طهر الله نبيه من الشعر والكهانة وعصمه منهما. وقوله تعالى (قليل ما تؤمنون) معناه قليلا بما ذكرناه إيمانكم (وما) مصدرية وقال قوم (ما) صلة، وتقديره قليلا تؤمنون بما ذكرناه أي لستم تؤمنون به. وقوله (ولا بقول كاهن) فالكاهن هو الذي يسجع في كلامه على ضرب من التكلف لتشاكل المقاطع، وهو ضد ماتوجه الحكمة في الكلام، لانها تقتضي أن يتبع اللفظ المعنى، لانه إنما يحتاج إلى الكلام للبيان به عن المعنى، وإنما البلاغة في الفواصل التي يتبع اللفظ فيها المعنى، فتشاكل المقاطع على ثلاثة أضرب: فواصل بلاغة، وسجع كهانة، وقواف تتبع الزنة، والكاهن الذي يزعم ان له خدمة من الجن تأتيه بضرب من الوحي. وقوله (قليل ما تذكرون) أي تتفكرون قليلا فيما ذكرناه، فلذلك لا تعلمون صحة ما قلناه، ولو انعمتم النظر لعلمتم صحته. ثم قال (تنزيل من رب العالمين) أي هو تنزيل نزله الله رب العالمين على رسوله. وقوله (ولو تقول علينا بعض الاقاويل) اخبار من الله تعالى على وجه القسم أن هذا الرسول الذي حكى بأن القرآن نزل عليه من عند الله وهو محمد (صلى الله عليه وآله) لو تقول على الله في بعض كلامه، ومعناه لو كذب علينا في بعض ما لم يؤمر به،

(١١٠)

فالتقول تكلف القول من غير رجوع إلى حق، والتقول والتكذب والتزويد بمعنى واحد (لاخذنا منه باليمين) جواب القسم، ومعناه أحد وجهين:

أحدهما - لاخذنا بيده التي هي اليمين على وجه الاذلال، كمايقول السلطان يا غلام خذ بيده فانه على وجه الالهانة، قال الحسن: معناه لقطعنا يده اليمين.
والثاني - لاخذنا منه بالقوة كما قال الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين (١)

وقوله (لقطعنا منه الوتين) قال ابن عباس وسعيد بن جبير: الوتين نياط القلب. وقال مجاهد وقتادة والضحاك: هو عرق في القلب متصل بالظهر إذا قطع مات الانسان، قال الشماخ بن ضرار الثعلبي:

إذا بلغتني وحملت رحلي * عرابة فأشر في ندم الوتين (٢)

وقوله (فما منكم من أحد عنه حاجزين) معناه ليس أحد يمنع غيره من عقاب الله بأن يكون حائلا بينه وبينه، فالحاجز هو الحائل بين الشئئين. وإنما قال (حاجزين) بلفظ الجمع، لان (أحدا) يراد به الجمع وإن كان بصيغة الواحد.

ثم قال (وانه لتذكرة للمتقين) قسم من الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة وعظة للمتقين، وهو قول قتادة، وإنما اضافه إلى المتقين، لانهم المنتفعون به، فالتذكرة العلامة التي يذكر بها المعنى، ذكره تذكرة، فهو مذكر، كقولك جزاه تجزية وجزاه تجزية، فالمتقى يتذكر القرآن بأن يعمل عليه في أمر دينه في اعتقاد او عمل به فيتميز الجائز مما لا يجوز، والواجب مما ليس بواجب، والصحيح مما لا يصح.

وقوله (وإننا لنعلم أن منكم مكذابين) عطف على جواب القسم، ومعناه

(١) مر في ٨ / ٥١٢ و ٩ / ٤٦ وقائله الشماخ (٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٦٨ والطبري ٢١ / ٣٧ (*)

(١١١)

التحذير من التكذيب بالحق وأنه ينبغي أن يتذكر أن الله تعالى يعلمه ويجازي عليه.
وقوله (وانه لحسرة على الكافرين) معناه إن هذا القرآن حسرة على الكافرين يوم القيامة حيث لم يعملوا به في الدنيا، فالحسرة الغم من أجل ما انحسر وقته كيف فات العمل الذي كان ينبغي فيه أن يفعل، فيحسر السرور عن النفس إلى الغم بانحساره. وقيل: إن التكذيب به حسرة على الكافرين.

ثم اقسام تعالى فقال (وانه) يعني القرآن الذي انزله والاعبار بما اخبر به وذكره (لحق اليقين) ومعناه الحق اليقين، وإنما اضافه إلى نفسه، والحق هو اليقين، كما قيل مسجد الجامع ودار

الآخرة وبارحة الأولى ويوم الخميس وما أشبه ذلك، فيضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه كما اختلف الحق واليقين. والحق هو الذي معتقده على ما اعتقده، واليقين هو الذي لا شبهة فيه، ثم قال لنبيه (فسبح) يا محمد والمراد به جميع المكلفين ومعناه نزه الله تعالى (باسم ربك العظيم) ومعناه نزهه عما لا يجوز عليه من صفات خلقه و (العظيم) هو الجليل الذي يصغر شأن غيره في شأنه بما يستحق من أوصافه. وروي انه لما نزلت هذه الآية قال النبي (صلى الله عليه وآله): اجعلوها في ركوعكم.

(١١٢)

٧٠ - سورة المعارج:

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي أربع واربعون آية بلا خلاف. بسم الله الرحمن الرحيم.

(سأل سائل بعذاب واقع (١) للكافرين ليس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣) تعرج الملكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤) فاصبر صبرا جميلا (٥) إنهم يرونه بعيدا (٦) ونريه قريباً (٧) يوم تكون السماء كالمهل (٨) وتكون الجبال كالعهن (٩) ولا يسئل حميم حميماً) (١٠) عشر آية.

قرأ أهل المدينة وأهل الشام (سال) بغير همز وهو يحتمل أمرين:

أحدهما - ان يكون من السيل تقول: سال يسيل سيلا فهو سائل، وسائل واد في جهنم، كما قال (اعوذ برب الفلق) والفلق جب في جهنم. واجمعوا على همزة (سائل) لانه ولو كان من (سال) بغير همز، فالياء تبدل همزة إذا وقعت بعد الالف مثل البائع والسائر من (باع، وسار). والثاني - بمعنى سأل بالهمزة، لانه لغة يقولون سلت أسال، وهما يتسالان.

(١١٣)

قال الشاعر:

سالت هذيل رسول الله فاحشة * ضلت هذيل بما سألت ولم تصب (١)

فهي لغة أخرى، وليست مخففة من الهمزة الباقون بالهمز من السؤال الذي هو الطلب. وقرأ الكسائي وحده (يعرج) بالياء، لان تأنيث الملكة ليس بحقيقي، الباقون - بالتاء وقرأ ابن كثير - في رواية البرزي - وعاصم في رواية البرجمي عن ابي بكر (ولا يسأل) بضم الياء. الباقون بفتح الياء اسندوا السؤال إلى الحميم.

حكى الله تعالى انه (سأل سائل بعذاب واقع) قال الفراء: الداعي بالعذاب هو النضر بن كلدة أسر يوم بدر وقتل صبوا، هو وعقبة بن أبي معيط. وقال:

تقديره سأل سائل بعذاب (واقع للكافرين) قال ابن: خالويه قال النحويون:
إن الباء بمعنى (عن) وتقديره: سأل سائل عن عذاب واقع وانشد:
دع المعمر لا تسأل بمصرعه * واسأل بمصقله البكري ما فعلا (٢)
أي لا تسأل عن مصرعه، وهذا الذي سأل العذاب الواقع إنما تجاسر عليه لما كذب بالحق
ليوهم أنه ليس فيه ضرر، ولم يعلم انه لازم له من الله. وقال مجاهد:
سؤاله في قوله (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء) (٣)
وقال الحسن: سأل المشركون، فقالوا: لمن هذا العذاب الذي يذكره محمد؟ فجاء جوابهم بأنه
(للكافرين ليس له دافع) وقيل: معناه دعا داع بعذاب للكافرين، وذلك الداعي هو النبي (صلى الله
عليه وآله)، واللام في قوله (للكافرين) قيل في

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ٢٨٠ (٢) فائله الاخطل اللسان (صقل)
(٣) سورة ٨ الانفال آية ٣٢ (ج ١٠ م ١٥ من التبيان) (*)

(١١٤)

معناها قولان: أحدهما - إنها بمعنى (على) وتقديره سأل سائل بعذاب واقع على الكافرين،
ذهب إليه الضحاك.
والثاني - إنها بمعنى (عن) أي ليس له دافع عن الكافرين، وإنما ذكر وعيد الكافر - ههنا -
مع ذكره في غير هذا الموضع، لان فيه معنى الجواب لمن سأل العذاب الواقع، فقيل له: ليس
لعذاب الكافرين دافع، فاعمل على هذا، وتقدم نظيره وتأخر، والدافع هو الصارف للشئ عن
غيره باعتماد يزيله، عنه دفعه عن كذا يدفعه دفعا، فهو دافع وذلك مدفوع.
وقوله (من الله ذي المعارج) يعني مصاعد الملائكة. وقيل: معناه ذي الفواضل العالية، فيكون
وصفا لله تعالى، وتقديره من الله ذي المعالي التي هي الدرجات التي يعطيها أوليائه من
الانبياء والمؤمنين في الجنة، لانه يعطيهم درجات رفيعة ومنازل شريفة، والمعارج مواضع
العروج، واحدها معرج، عرج يعرج عروجا والعروج الصعود مرتبة بعد مرتبة، ومنه
الاعرج لارتفاع احدى رجليه عن الاخرى وقال قتادة: معنى ذي المعارج ذي الفواضل
والنعم، لانها على مراتب. وقال مجاهد: هي معارج السماء. وقيل: هي معالي الدرجات التي
يعيها الله تعالى اوليائه في الجنة. وقال الحسن: معناه ذي المراقي إلى السماء. والذي اقتضى
ذكر المعارج البيان عن العقاب الذي يجب ان يخافه، على خلاف هذا الجاهل الذي سأل
العذاب الواقع على من كفر نعمته.

وقوله (تعرج الملائكة) معناه تصعد الملائكة (والروح) أي يصعد الروح أيضا معهم (إليه) والمعنى تعرج الملائكة والروح الذي هو جبرائيل إلى الموضع الذي يعطيهم الله فيه الثواب في الآخرة (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) لعلو

(١١٥)

درجاتهم، وإنما قال (إليه) لأنه هناك يعطيهم الثواب، كما قال في قصة إبراهيم (إني ذاهب إلى ربي) (١) أي الموضع الذي وعدني ربي، وكذلك الموضع الذي وعدهم الله بالثواب فيه. وقيل: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين السبع إلى فوق السماوات السبع - ذكره مجاهد - وقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) (٢) فهو لما بين السماء الدنيا والأرض في الصعود والنزول ألف سنة: خمسمائة صعودا وخمسمائة نزولا - ذكره مجاهد - أيضا. وقيل: المعنى ان يوم القيامة يفعل فيه من الأمور ما لو فعل في الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة.

وقال قوم: المعنى إنه من شدته وهو له وعظم العذاب فيه على الكافرين كأنه خمسون ألف سنة، كما يقول القائل: ما يومنا إلا شهر أي في شدته، وعلى هذا قول امرئ القيس:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل * بصبح وما الاصبح منك بأمثل
ويالك من ليل كأن نجومه * بكل مغار الفتل شدت ببذبل (٣)

ويؤكد هذا ما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه لما نزلت هذه الآية قيل له ما أطول هذا اليوم؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) (والذي بعثني بالحق نبيا إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا) وقال الضحاك وقتادة:

هو يوم القيامة. وقال الزجاج: يجوز أن يكون (يوما) من صلة (واقع) فيكون المعنى سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة وذلك العذاب يقع يوم القيامة. وقال الحسن: تعرج الملائكة بأعمال بني آدم في الغمام، كما قال

(١) سورة ٣٧ ص آية ٩٩ (٢) سورة ٣٢ ألم السجدة آية ٥ (٣) ديوانه ١٥٢ (*)

(١١٦)

(ويوم تشقق السماء بالغمام) (١) وقال الزجاج: سماه يوما، لان الملائكة تعرجه في مقدار يوم واحد. ثم أمر نبيه فقال (فاصبر صبورا جميلا) أي لا شكوى فيه على ما تقاسيه من أذى قومك، وتكذيبهم إياك فيما تخبر به من أمر الآخرة. قال الزجاج: ذلك قبل أن يؤمر بالقتال.

وقوله تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) اخبار من الله تعالى أنه يعلم مجئ يوم القيامة وحلول العقاب بالكفار قريبا، ويراه أي يظنه الكفار بعيدا، لأنهم لا يعتقدون صحته، وكل ما هو آت قريب، وهذا على وجه الإنكار عليهم استبعادهم يوم الجزاء، وتوهمهم أنه بعيد. وبين أنه تعالى يراه قريبا بما يعلمه من حصوله، وإنما جاز أن يقال في توهمهم: يرونه لأنهم يتوهمونه، وهم عند أنفسهم يرونه، فجاء على مزاج الكلام الذي ينبئ عن المعنى من غير اخلال. وقيل: معنى إنهم يرون العذاب الذي سألوا عنه بعيدا، لأنهم لا يؤمنون به، ونراه قريبا لأن كل ما هو آت قريب.

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة فقال (يوم تكون السماء كالمهل) قال الزجاج: المهل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو عكر الزيت. وقال قوم: هو الصفر المذاب. وقال قوم: المهل هو الجاري بغلظة وعكرة على رفق: من أمهله إمهالا، وتمهل تمهلا (وتكون الجبال كالعهن) فالعهن الصوف المنفوش، وذلك ان الجبال تقطع حتى تصير بهذه الصفة، كما أن السماء تشقق بالغمام وتكون كالمهل. وقوله (ولا يسأل حميم حميا) فالحميم القريب النسب إلى صاحبه الذي يحمى لغضبه وأصله القرب قال الشاعر:

احم الله ذلك من لقاء * أحاد احاد في الشهر الحلال (٢)

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٥ (٢) مر ٨ / ٥٠٣ ، ٥٧٥ (*)

(١١٧)

وقال مجاهد: لا يسأل حميم حميما لشغل كل إنسان بنفسه عن غيره. وقال الحسن: لا يسأله ان يحمل عنه من اوزار ليأسه من ذلك في الآخرة. وقيل (لا يسأل حميم حميما) لانه (يعرف المجرمو بسيماهم) (١) ومن ضم الياء أراد لا يطالب قريب بأن يحضر قريبه كما يفعل أهل الدنيا بأن يؤخذ الحميم بحميمه والجار بجاره، لانه لا جور هناك، ويجوز أن يكون المراد لا يسأل حميم عن حميمه ليعرف شأنه من جهته، كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه، والقريب من قريبه.

ثم يحذف الجار ويوصل الفعل إلى المفعول به، ويقوي ذلك قوله (يبصرونهم) أي يبصر الحميم حميمه. والفعل فيه قبل تضعيف العين بصرت به، كما قال حكاية عن السامري (بصرت بما لم يبصروا به) (٢).

قوله تعالى:

(يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بينيه (١١) وصاحبه وأخيه (١٢) وفصيلته التي تؤيه (١٣) ومن في الارض جميعا ثم ينجيه (١٤) كلا إنها لظى (١٥) نزاعة للشوى (١٦) تدعو من أدبر وتولى (١٧) وجمع فأوعى (١٨) إن الانسان خلق هلوعا (١٩) إذا مسه الشر جزوعا (٢٠) وإذا مسه الخير منوعا (٢١) إلا المصلين (٢٢) الذين هم على صلاتهم دائمون (٢٣) والذين في أموالهم حق معلوم (٢٤) للسائل

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٤١ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٩٦ (*)

(١١٨)

والمحروم) (٢٥) خمس عشرة آية.

قرأ (نزاعة) - بالنصب - حفص عن عاصم على الحال. الباقون بالضم جعلوه بدلا من (لظى) و (لظى) اسم من اسماء جهنم معرفة، و (نزاعة) نكرة فلذلك نصبه حفص على الحال ومن جعلها بدلا من (لظى) وتقديره كلا إنها لظى، كلا إنها نزاعة للشوى، وضعف أبو علي نصبه على الحال، قال: لأنه ليس في الكلام ما يعمل في الحال، ولظى اسم معرفة لا يمكن أن يكون بمعنى التلطي، فلا يعمل فيه الاعلى وجه ضعيف بأن يقال: مع انها معرفة فمعناها بمعنى التلطي. قال والاجود أن ينصب بفعل آخر، وتقديره أعني نزاعة.

لما وصف الله تعالى القيامة وأهوالها، واخبر أن الحميم لا يسأل حميا لشغله بنفسه، قال (يبصرونهم) قال ابن عباس وقتادة: يعرف الكفار بعضهم بعضا، ثم يفر بعضهم عن بعض، وقال مجاهد: يعرفهم المؤمنون، وقال قوم: يعرف اتباع الضلال رؤساءهم، وقول ابن عباس أظهر، لأنه عقيب ذكر الكفار. وقال هو كناية ينبغي ان يرجع اليهم.

وقوله (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بينيه) أى بتمنى العاصي، فالمودة مشتركة بين التمنى وبين المحبة تقول: وددت الشئ إذا تمنيته ووددته إذا احببته أود فيهما جميعا، وصفة ودود من المحبة. وقوله (لو يفتدي)، فالافتداء افتداء الضرر عن الشئ يبذل منه، فهؤلاء تمنوا سلامتهم من العذاب النازل بهم باسلام كل كريم عليهم. والفرق بين (يود لو يفتدي) و (يود أن يفتدي) أن (لو) تدل على التمني من جهة أنها لتقدير المعنى، وليس كذلك (أن) لأنها لا استقبال الفعل و (لو) للماضي، فلما كان الاعتماد على تصور المعنى صار في حكم

(١١٩)

الواقع، فلو قال قائل: حسبت أن يقوم زيد، لما دل على التمني، ولو قال حسبت لو يقوم زيد لدل على التمني فبان الفرق بينهما.

وقوله (ببنيه) يعني بأولاده الذكور (وصاحبته) يعني زوجته (واخيه) يعني ابن أبيه وأمه (وفصيلته التي تؤويه) فافصيلة هي المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى ابوة خاصة، وهي الجماعة التي ترجع إلى أبوة خاصة عن ابوة عامة (ومن في الارض جميعا ثم ينجيه) أى يتمنى هذا الكافر بان يتخلص من بعذاب الله بأن يفتدى بهؤلاء كلهم، فقال الله تعالى (كلا) أى ليس ينجيه من عقاب الله شئ وقال الزجاج (كلا) ردع وتنبيه أى لا ينجيه احد من هؤلاء فارتدعوا.

وقوله (إنها لظى) فلظى اسم من اسماء جهنم مأخوذ من التوقد، ومنه قوله (فانذرتكم نارا تلظى) (١) وموضع (لظى) رفع، لأنها خبر (ان) و (نزاعة للشوى) خبر آخر - على قول من رفع - ومن نصب جعله حالا، ويجوز أن تكون الهاء في (إنها) عمادا، و (لظى) ابتداء وخبرها (نزاعة) إذا رفع، قال الزجاج:

ويجوز أن يكون كقولهم: هذا حلو حامض، وتقديره النار لظى، وهي انزاعة ايضا. ومعنى نزاعة كثيرة النزع وهو اقتلاع عن شدة. والاقتلاع أخذ بشدة اعتماد، والشوى جلدة الرأس. والشوى الكوارع والاطراف، والشوى ماعدا المقتل من كل حيوان، يقال: رمى فأشوى إذا اصاب غير المقتل، ورمى فأصمى إذا اصاب المقتل، ومنه الشوي، لان النار تأخذ الجلدة والاطراف بالتغير. والشوى الخسيس من المال. وقيل: ان جهنم تنزع جلدة الرأس واطراف البدن، والشوى جمع سواة قال الاعشى:
قالت قتيلة ماله * قد حلت شيئا شواته (٢)

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١٤ (٢) اللسان (شوا) (*)

(١٢٠)

وقال ابن عباس: نزاعة للشوى للجلد وأم الراس. وقال ابو صالح: لحم الساق، وقال قتادة: الهام والاطراف. وقال الفراء: كل ما كان غير مقتل فهو شوى. وقال ابو عمر الدوري: كان الكسائي لا يقف على (كلا) في شئ من القرآن إلا على هذين في هذه السورة. وقال ابن خالويه: أعلم أن في القرآن ثلاثا وثلاثين موضعا (كلا) فليس في النصف الاول منه شئ، فمن وقف عليه جعله رد للكلام. ومن لم يقف جعله بمعنى حقا، قال الشاعر:

يقلن لقد بكيت فقلت كلا * وهل تبكي من الطرب الجليد (١)

فالطرب خفة تصيب الانسان لشدة الخوف قال الشاعر:

وأراني طربا في أثرهم * طرب الواله أو كالمختبل (٢)

وقال في السرور:

اطربا وأنت قنصري * والدهر بالانسان دواري (٣)
يقول أطربا وأنت شيخ. وقوله تعالى (تدعو من أدبر وتولى) قيل في معناه قولان:
احدهما - إنه لا يفوت هذه النار كافر، فكأنها تدعوه فيجيبها كرها.
والثاني - ان يخرج لسان من النار فيتناولها كأنها داعية بأخذها، وهو كقوله (تكاد تميز من
الغيظ) (٤) وقال الفراء: وغيره: إن النار تدعو الكافر والفاسق، فتقول إلي الي، وهذا يجوز
إذا فعل الله تعالى فيها الكلام، ويضاف إليها مجازا.
وقال قتادة: تدعو من أدبر وتولى عن طاعة الله. وقال مجاهد: من تولى عن الحق وقيل:
معناه تدعو زبانيتهما من أدبر وتولى عن طاعة الله. وقوله (وجمع فاعوى)

(١) مقاييس اللغة ٣ / ٤٥٤ (٢) مر في ٣ / ٢١ و ٥ / ٢٤٧ (٣) مر في ٤ / ٣٧٧، ٥٠٥ و ٨ / ٦٣ (٤) سورة
٦٧ الملك آية ٨ (*)

(١٢١)

معناه عمل فجمع المال في الدنيا وأدبر عن الحق وتولى، فالنار تدعوه بما يظهر فيها من انه
أولى بها. وقال مجاهد (جمع) المال (فاعوى) ولم يخرج حق الله منه، فكأنه جعله في وعاء
على منع الحقوق منه.
وقوله (إن الانسان خلق هلوعا) اخبار منه تعالى بان الانسان خلق هلوعا والهلوع هو الشديد
الحرص، الشديد الجزع من الضجر - في قول ابن عباس وعكرمة - وقيل: معناه خلق
ضعيفا عن الصبر على الجزع والهلع، لانه لم يكن في ابتداء خلقه يهلع ولا يجزع ولا يشعر
بذلك حال الطفولية، وإنما جاز ان يخلق الانسان على هذه الصفة المذمومة، لانها تجري
مجرى خلق سهوه القبيح ليجتنب المشتبه، لان المحنة في التكليف لاتتم إلا بمنزعة النفس
إلى القبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعالى، كما لا يتم إلا بتعريف الحسن من القبيح في
العقل ليجتنب أحدهما ويفعل الآخر (إذا مسه الشر جزوعا) لو كان منقطعا عن الاول لكان
مرفوعا، والجزع ظهور الفزع بحال تنبئ عنه (وإذا مسه الخير منوعا) معناه إذا نال الانسان
الخير والسعة في الدنيا منع حق الله فيه من الزكاة وغيرها مما فرض الله عليه، فالمس
الملاقة من غير فعل، ويقال: مسه يمسه، وتماسا إذا التقيا من غير فعل، وماسه مماسة.
والمنع هو القطع عن الفعل بما لا يمكن وقوعه معه، وهو على وجهين: احدهما - منع القادر
ان يفعل. والآخر - منع صاحب الحق أن يعطى حقه. والبخل منع الحق صاحبه.

لما وصف الله تعالى الانسان بالصفات المذمومة اسنثنى من جملتهم من لا يستحق الذم، لان الانسان عبر به عن الناس، فهو لعموم الجنس، كما قال (إن الانسان لفي خسر ألا الذين) (١) وكذلك - ههنا - قال (إلا المصلين الذين هم

(١) سورة ١٠٣ العصر آية ٢ (*)

(١٢٢)

على صلاتهم دائمون) ومعناه الذين يستمرون على اداء الصلاة التي أوجبها الله عليهم لا يخلون بها ولا يتركونها. وروي عن أبي جعفر (عليه السلام) أن ذلك في النوافل يديمون عليها وقوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) (١) في الفرائض والواجبات (والذين في أموالهم حق معلوم) فالحق وضع الشيء في موضعه على ما يقتضيه العقل والشرع من قولهم: حق الشيء يحق حقا، وحقه كقولك تحققه. والمال عبارة في الشرع عن مقدار معين من العين أو الورق يتعلق به وجوب الزكاة وأكثر ما يستعمل في اللغة في المواشي من الابل والبقر والغنم. وقال ابن عباس: الحق المعلوم هو البر الذي يخرج في صدقة أو صلة رحم. وقال قتادة: هو الزكاة المفروضة (للسائل والمحروم) والسائل هو الذي يسأل ويطلب. والمحروم، قال ابن عباس: هو المحارف وقال الحسن: هو الذي حرم أن يعطى الصدقة بتركه المسألة. وقيل: هو الذي قد حرم الرزق وهو لا يسأل الناس.

وقوله (عذاب يومئذ) قرئ بالفتح والكسر من (يومئذ) فمن كسر الميم فعلى أصل الاضافة، لان الذي أضيف اليه الاول مخفوض أيضا بالاضافة فهذا مضاف إلى مضاف. ومن فتح فلانه مضاف إلى غير متمكن مضاف إلى (إذ) و (إذ) مبهمة ومعناه يوم إذ يكون كذا ويكون كذا فلما كانت مبهمة وأضيف اليها بني المضاف اليها على الفتح وانشد:

لم يمنع الشرب منها غيران نطقت * حمامة في غصون ذات او قال (٢)
لما اضاف (غير) إلى (ان) بناها على الفتح، وهي في موضع رفع، وروي (غير أن) نطقت بالرفع.

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٩ (٢) مر في ٤ / ٤٧٩ و ٨ / ٥١ و ٩ / ٣٨٣ (*)

(١٢٣)

قوله تعالى:

(والذين يصدقون بيوم الدين (٢٦) والذين هم من عذاب ربهم مشفقون (٢٧) إن عذاب ربهم غير مأمون (٢٨) والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين (٣٠) فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون (٣١) والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون (٣٣) والذين هم على صلاتهم يحافظون (٣٤) أولئك في جنات مكرمون) (٣٥) عشر آيات. قرأ (شهاداتهم) على الجمع حفص ويعقوب وعياش وسهل، لا اختلاف الشهادات. الباقرن (بشهادتهم) على التوحيد، لأنه لفظ جنس يقع على القليل والكثير. وقرأ ابن كثير وحده (لامانتهم) على التوحيد، لأنه اسم جنس. الباقرن على الجمع لا اختلاف الامانات. عطف الله تعالى على صفات المؤمنين وزاد في مدحهم، فقال (والذين يصدقون بيوم الدين) أي يؤمنون بأن يوم الجزاء والحساب يوم القيامة حق، ولا يشكون في ذلك، والتصديق الاقرار بأن الخبر صادق، فلما كان المؤمنون قد أقرؤا ان كل من اخبر بصحة يوم الدين فهو صادق، كانوا مصدقين به، فأما المصدق بيوم الدين تقليدا، فمن الناس من قال: هو ناج. ومنهم من قال: لا يطلق عليه مصدق بيوم الدين، لأنها صفة مدح، وذلك أنه من أخلص هذا المعنى على جهة الطاعة لله تعالى

(١٢٤)

به استحق المدح والثواب، والمقلد عاص بتقليده، لأنه لا يرجع فيه إلى حجة. وقوله (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) فالاشفاق رقة القلب عن تحمل ما يخاف من الامر، فاذا قسا قلب الانسان بطل الاشفاق، وكذلك إذا أمن كحال أهل الجنة إذ قد صاروا إلى غاية الصفة بحصول المعارف الضرورية. وقيل: من اشفق من عذاب الله لم يتعد له حدا ولم يضيع له فرضا. وقوله (إن عذاب ربهم غير مأمون) اخبار منه تعالى بأن عذاب الله لا يوثق بأنه لا يكون، بل المعلوم أنه كائن لا محالة. والمعنى إن عذاب الله غير مأمون على العصاة، يقال: فلان مأمون على النفس والسر والمال، وكل ما يخاف انه لا يكون، ونقيضه غير مأمون. وقوله (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) ومعناه إنهم يمنعون فروجهم على كل وجه وسبب إلا على الأزواج وملك الايمان فكأنه قال: لا يبذلون الفروج إلا على الأزواج أو ملك الايمان، فلذلك جاز ان يقول (حافظون إلا على أزواجهم) وهم حافظون لها على الأزواج، فانما دخلت (إلا) للمعنى الذي قلناه، وقال الزجاج تقديره: إلا من أزواجهم ف (على) بمعنى (من) او تحمله على المعنى، وتقديره فانهم غير ملومين على أزواجهم ويلا موم على غير أزواجهم، وقال الفراء: لا يجوز أن تقول: ضربت

من القوم إلا زيدا، وانت تريد إلا أني لم اضرب زيدا. والوجه في الآية أن نحملها على المعنى، وتقديره والذين هم لفروجهم حافظون، فلا يلامون إلا على غير أزواجهم. ومثله أن يقول القائل:

أصنع ما شئت إلا على قتل النفس، فانك غير معذب، فمعناه إلا إنك معذب في قتل النفس.
وقوله (فانهم غير ملومين) أي لا يلامون هؤلاء إذا لم يحفظوا فروجهم

(١٢٥)

من الأزواج، وما ملكت أيمانهم من الإماء على ما أباحه الله لهم.
ثم قال (فمن ابتغى وراء ذلك) ومعناه فمن طلب وراء ما أباحه الله له من الفروج إما بعقد الزوجية أو بملك اليمين (فأولئك هم العادون) الذين تعدوا حدود الله وخرجوا عما أباحه الله لهم فالابتغاء الطلب ومعنى (وراء ذلك) ما خرج عن حده من أي جهة كان، وقد يكون وراءه بمعنى خلفه نقيض أمامه إلا أنه - ههنا - الخارج عن حده كخروج ما كان خلفه. والعادي الخارج عن الحق، يقال: عدا فلان فهو عاد إذا اعتدى، وعدا في مشيه يعدو عدوا إذا أسرع فيه، وهو الاصل. والعادي الظالم بالأسراع إلى الظلم.

وقوله (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون) فالامانة المعاهدة بالطمأنينة على حفظ ما تدعو اليه الحكمة. وقيل: الامانة معاهدة بالثقة على ما تدعو اليه الحكمة.

وقد عظم الله أمر الامانة بقوله (إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان) (١) ومن وحد لفظ الامانة، فلانها للجنس تقع على القليل والكثير، ومن جمع أراد اختلاف ضروبها. وقال قوم: المراد بالامانة الايمان وما أخذه الله على عباده من التصديق بما أوجب عليهم والعمل بما يجب عليهم العمل به، ويدخل في ذلك الايمان وغيره، وقوله (راعون) معناه حافظون.

وقوله (والذين هم بشهاداتهم قانمون) مدح للمؤمنين بأنهم يقيمون الشهادة التي يلزمهم إقامتها. ومن وحد لفظ الشهادة، فكما قلناه في الامانة سواء، والشهادة الاخبار بالشئ على أنه على ما شاهده، وذلك أنه يكون عن مشاهدة للخبر به، وقد يكون عن مشاهدة ما يدعو اليه.

وقوله (والذين هم على صلاتهم يحافظون) وصف لهم بأنهم يحافظون على

(١) سورة الاحزاب آية ٧٢ (*)

(١٢٦)

صلاتهم فلا يضيعونها وقيل إنهم يحافظون على مواقيتها فلا يتركونها حتى تفوت ثم قال (أولئك) يعني المؤمنين الذين وصفهم بالصفات المتقدمة (في جنات) أي بساتين يجنحها الشجر (مكرمون) أي معظمون مبالغون بما يفعل بهم من الثواب والاكرام وهو الاعظام على الاحسان، والاكرام قد يكون بالاحسان، وقد يكون بكبر الشأن في صفة العالم القادر الغني الذي لا يجوز عليه صفات النقص، فالاعظام بالاحسان وبكبر الشأن في أعلى المراتب لله تعالى لا يستحقه سواه.

قوله تعالى:

فمال الذين كفروا قبلك مهطعين (٣٦) عن اليمين وعن الشمال عزين (٣٧) أيطمع كل أمرئ منهم أن يدخل جنة نعيم (٣٨) كلا إنا خلقناهم مما يعلمون (٣٩) فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون (٤٠) على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين (٤١) فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (٤٢) يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون (٤٣) خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون (٤٤) تسع آيات.

قرأ (نصب) بضمين أهل الشام، وحفص عن عاصم، وسهل، على انه جمع (نصب) مثل رهن ورهن - في قول ابي عبيدة - وقال غيره: هما لغتان، مثل ضعف وضعف. الباقون بفتح النون خفيفة. والنصب الصنم الذي كانوا يعبدونه،

(١٢٧)

سمي بذلك. وقيل: النصب نصب الصنم الذي كانوا يعبدونه. وقيل: معناه إلى علم يسبقون اليه قد نصب لهم. وقرأ الاعشى (يخرجون) بضم الياء. الباقون بفتحها أضافوا الخروج اليهم. يقول الله تعالى على وجه الإنكار على الكفار (فما للذين كفروا) ومعناه أي شئ للذين كفروا بتوحيد الله وجدوا نبوتك (قبلك مهطعين) أي نحوك مسرعين - في قول ابي عبيدة - وقال الحسن: معناه منطلقين. وقال قتادة: عامدين وقال ابن زيد: معناه لا يطرقون أي شاخصون. وجميع ذلك بمعنى الاسراع إلى الشئ فمرة بتشوقه ومرة بقصده ومرة بشخصه. وقال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشئ لا يزايله، وذلك من نظر العدو، وإنما أنكر عليهم الاسراع اليه لانهم أسرعوا اليه ليأخذوا الحديث منه ثم يتفرقون عزين بالتكذيب عليه - ذكره الحسن - وقيل: أسرعوا اليه شخوص المتعجب منه. وقيل: أسرعوا اليه لطلب عيب له. وقيل: معناه فما للذين كفروا مسرعين في نيل الجنة مع الإقامة على الكفر والإشراك بالله في العبادة.

وقوله (عن اليمين وعن الشمال عزين) قال ابن عباس: عن اليمين والشمال معرضين يستهزؤون، ومعنى (عزين) جماعات في تفرقة نحو الكراريس واحدهم عزة، وجمع بالواو والنون، لانه عوض مما حذف منه، ومثله سنة وسنون وأصل عزة عزوة من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره، وكل واحدة من هذه الجماعة مضافة إلى الاخرى، وقال الراعي:
أخليفة الرحمن إن عشيرتي * أمسى سوامهم عزين فلولا (١)
وقوله (ايطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) فمن ضم الياء،

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧ والطبرى ٢٩ / ٤٧ (*)

(١٢٨)

وهم أكثر القراء جعل الفعل لما لم يسم. فاعله. وفتح الحسن الياء لانهم إذا أدخلوا فقد دخلوا. ومعنى الآية الانكار عليهم قولهم: إن دخل أصحاب محمد الجنة، فانا ندخلها قبلهم لا محالة، فقليل وأي شئ لكم عند الله يوجب هذا؟ ولم تحتقرون هؤلاء؟ وقد خلقناهم جميعا مما يعلمون أي من تراب.

وقوله (كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) قال الحسن: خلقناهم من النطفة. وقال قتادة: إنما خلقت من قدر يابن آدم فاتق الله. وقال الزجاج: أي من تراب، ثم من نطفة، فأى شئ لهم يدخلون به الجنة، وهم لك على العداوة، وهذا حجاج لان خلقهم من ماء مهين يقتضى أنهم خلقوا للعبادة، فجعل في خلقهم من هذا عبرة، ولولا ذلك لابتدأهم في نعيم الجنة، ولم يكن لتنتقلهم في الصور والاحوال معنى في الحكمة، وقال بعضهم: المعنى خلقناهم من الذين يعلمون أو من الخلق أو الجنس الذي يعلمون ويفقهون، وتلزمهم الحجة، ولم يخلقهم من الجنس الذي لا يفقه كالبهائم والطير، وإنما قال (مما يعلمون) فجمع، لانه قال قبل ذلك (خلقناهم) فجمع (يعلمون) ووجه آخر وهو أنه خلقهم من أجل ما يعلمون من الثواب والعقاب والتكليف للطاعات تعريضا للثواب، كما يقول القائل: غضبت عليك مما تعلم أى من أجل ما تعلم قال الاعشى:

أزمت من آل ليلى ابتكارا * وشطت على ذى هوى أن تزاوا (١)

على انه لم يزمع من عندهم، وإنما أزمع من أجلهم للمصير اليهم.
وقوله (فلا أقسم برب المشارق والمغرب) قسم من الله تعالى برب المطالع والمغرب، و (لا) مفخمة وقد بينا القول في ذلك. وقال ابن عباس: الشمس لها ثلاثمائة وستون مطلعاً كل يوم مطلع لا تعود إليه إلا إلى قابل. وقوله (إنا لقادرون)

(١٢٩)

جواب القسم وفيه إخبار من الله تعالى بأنه قاد (على أن نبذل) بالكفار (خيرا منهم) فالتبديل
تصبير الشئ موضع غيره، بدله تبديلا وأبدله إبدالا، والبدل الكائن في موضع غيره. وقوله
(وما نحن بمسبوقين) عطف على جواب القسم، ومعناه إن هؤلاء الكفار لا يفوتون بأن يتقدموا
على وجه يمنع من لحاق العذاب بهم فلم يكونوا سابقين، ولا العقاب مسبوqa منهم، فالسبق نقدم
الشئ في وقت قبل وقت غيره. والتقدير وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم، وكأنه لوفاتهم
عقابنا لكذا قد سبقنا، وما نحن بمسبوقين. وقيل: معناه وما أهل سلطاننا بمسبوقين. وقيل:
وما نحن بمغلوبين بالفوت. ثم قال على وجه التهديد لهم بلفظ الامر للنبي (صلى الله عليه وآله)
(فذرهم) أي اتركهم (يخوضوا ويلعبوا) فان وبال ذلك عائد عليهم والعقاب المستحق على
كفرهم حال بهم، واللعب عمل للترويح عن النفس بما هو حقير في العقل، كلعب الصبيان ومن
جرى مجراهم من ناقصي العقل، ولا يجوز من الحكيم أن يفعل اللعب لغيره، لانه عمل
وضيع في الحكمة (حتى يلافوا يومهم الذي يوعدون)
ومعناه حتى يروا اليوم الذي يوعدون فيه بالعقاب على المعاصي والثواب على الطاعات ثم
بين صفة ذلك اليوم، فقال (يوم يخرجون من الاجداث) يعني من القبور وأحدها حدث وحدث.
ونصب (سراعا) على الحال، ومعناه مسرعين (كأنهم إلى نصب يوفضون) شبههم في
اسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم يستبقون اليه، والايفاض
الاسراع أو فض يوفض ايفاض إذا أسرع قال رؤبة.
يمشي بنا الجد على أو فاض (١)

(١٣٠)

إى على عجلة. والنصب نصب الصنم الذى كانوا يعبدونه. وقيل اسم الصنم نصب وجمعه
نصب مثل رهن ورهن - في قول ابي عبيدة - وأنشد الفراء في الايفاض:
لانعتن نعمة ميفاضا * خرجاء ظلت تطلب الافاض (١)

فخر جاء ذات لونين، ويقال للقميص المرقع برقعة حمراء أخرج، لانه خرج عن لونه،
والافاض طلب ملجأ يلجأ اليه، وقال بشر بن ابي حازم:
أهاجك نصب أم بعينك منصب وقال الاعشي:
وذا النصب المنسوب لا تنسكنه * لعافية والله ربك فاعبدا (٢)
وقوله (خاشعة أبصارهم) أى ذليلة خاضعة (ترهقهم ذلة) أى يغشاهم ويركبهم ذل وصغار
وخزي لما يرون نفوسهم مستحقة للعقاب واللعن من الله.
ثم قال تعالى (ذلك هو اليوم الذى كانوا يوعدون) به فى دار التكليف فلا يصدقون به
ويجحدونه، وقد شاهدوه فى تلك الحال.
وقوله (إننا لقادرون على ان نبذل خيرا منهم) لا يدل على أنه تعالى قادر على ان يبذل بالكفار
من هو خيرا منه ولم يخلقهم، فيكون قد أخل بالاصلح لانه اخبر عن انه قادر على خير منهم
وقد خلق قوما آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله) وبذلوا نفوسهم وأموالهم.

(١) اللسان (وفض) (٢) مر فى ١ / ٤٦٥ و ٤ / ١٨ (*)

(١٣١)

٧١ - سورة نوح:

مكية فى قول ابن عباس والضحاك وغيرهما. وهى ثمان وعشرون آية فى الكوفى، وتسع
عشرون فى البصرى، وثلاثون فى المدنيين بسم الله الرحمن الرحيم (إننا أرسلنا نوحا إلى قومه
أن أنذر قومك من قبل أن ياتيهم عذاب اليم (١) قال يا قوم إنى لكم نذير مبين (٢) أن اعبدوا
الله واتقوه وأطيعون (٣) يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل مسمى إن
أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون (٤)

قال رب إنى دعوت قومي ليلا ونهارا (٥) فلم يزدهم دعائي إلا فرارا (٦) ست آيات.
قرأ (ان عبدوا الله) بكسر النون عاصم وحمزة وابوعمر، على اصل النقاء الساكنين. الباقر
بالضم اتباعا للضمة على الباء فى (عبدوا الله) وقرأ الفراء (دعائي) ممدوا إلا شبلا عن ابن
كثير، فانه قصر، وفتح الياء مثل عصاي قال ابو علي: فتح الياء وإسكانها حسنان، فاما قصر
الكلمة فلم اسمعها، ويجوز أن

(١٣٢)

تكون لغة.

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه (إنا أرسلنا نوحاً) أي بعثنا نوحاً نبياً (إلى قومه أن انذر قومك) أي بأن انذر قومك، فموضع (أن) نصب بسقوط الباء.

وقال قوم: موضعه الجر لقوة حذفها مع (أن). وقال آخرون: يجوز أن تكون (أن) بمعنى أي المفسره، فلا يكون لها موضع من الاعراب. وقرأ ابن مسعود (أرسلنا نوحاً إلى قومه أنذر) بلا (أن) لان معنى الارسال معنى القول فكأنه قال: قلنا له: أنذر قومك. والانذار التخويف بالاعلام بموضع المخافة ليتقى.

ونوح (عليه السلام) قد انذر قومه بموضع المخافة وهي عبادة غير الله، وإنتهاك محارمه، وأعلمهم وجوب طاعته وإخلاص عبادته. وقوله (من قبل أن يأتيهم عذاب اليم) معناه أعلمهم وجوب عبادة الله وخوفهم خلافه من قبل أن ينزل عليهم العذاب المؤلم، فانه إذا نزل بهم العذاب لم ينتفعوا بالانذار ولا تنتفعهم عبادة الله حينئذ، لانهم يكونون ملجئين إلى ذلك. وقال الحسن: أمره بأن ينذرهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة.

ثم حكى أن نوحاً (عليه السلام) امتثل ما أمره الله به و (قال) لقومه (ياقوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه) أي مخوفكم عبادة غير الله أو أحذركم معصية الله مظهر ذلك لكم (واتقوه) بترك معاصيه (وأطيعون) فيما أمركم به لان طاعتي مقرونة بطاعة الله، وتمسككم بطاعتي لطف لكم في التمسك بعبادة الله، واتقاء معاصيه، فلذلك وجب عليكم ما أدعوكم اليه على وجه الطاعة، وطاعة الله، واجبة عليكم لمكن النعمة السابغة عليكم التي لا يوازيها نعمة منعم. ثم بين لهم ما يستحقون على طاعة الله وطاعة رسوله فقال متى فعلتم ذلك (يغفر لكم من ذنوبكم) ودخلت (من) زائدة وقيل (من) معناها (عن)

(١٣٣)

والتقدير يصفح لكم عن ذنوبكم، وتكون عامة. وقيل: إنها دخلت للتبعيض، ومعناها يغفر لكم ذنوبكم السالفة، وهي بعض الذنوب التي تضاف اليهم، فلما كانت ذنوبهم التي يستأنفونها لايجوز الوعد بغفرانها مطلقاً - لما في ذلك من الاغراء بالقبيح - قيدت هذا التقييد. وقيل: معناها (يغفر لكم من ذنوبكم) بحسب ما تكون التوبة متعلقة بها، فهذا على التبعيض إن لم يقلعوا إلا عن البعض. وهذا على مذهب من

يقول: تصح التوبة من قبيح مع المقام على قبيح آخر يعلم قبحه. وقال الزجاج: دخلت (من) لتخص الذنوب من سائر الاشياء، لا لتبعيض الذنوب.

وأكثر النحويين وأكثر القراء على إظهار الراء عند اللام في (يغفر لكم) وأختار ابو عمرو الادغام، لان إذهاب التكرير لا يخل، لان الثاني مثل الاول.

وإنما يخل إذهاب ماله حس في المسموع، كالذي لحروف الصفير وبحروف المد واللين وقوله (ويؤخركم إلى أجل مسمى) عطف على الجزاء فلذلك جزمه، والمعنى إنكم إن اطعتم الله ورسوله غفر لكم ذنوبكم وأخركم إلى الاجل المسمى عنده وفي الآية دليل على الاجلين، لان الوعد بالاجل المسمى مشروط بالعبادة والتقوى، فلما لم يقع اقتطعوا بعذاب الاستتصال قبل الاجل الاقصى بأجل أدنى. وكل ذلك مفهوم هذا الكلام. وقيل تقديره إن الاجل الاقصى لهم إن آمنوا، وليس لهم إن لم يؤمنوا، كما أن الحنة لهم إن آمنوا وليست لهم إن لم يؤمنوا.

ثم اخبر (ان أجل الله) الاقصى اذا جاء لا يؤخر (لو كنتم تعلمون)

صحة ذلك وتؤمنون به، ويجوز ذلك أن يكون اخبارا من الله عن نفسه، ويجوز ان يكون حكاية عن نوح أنه قال ذلك لقومه.

ثم حكى تعالى ما قال نوح لله تعالى فانه قال يا (رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا) إلى عبادتك وخلق الانداد من دونك والى الاقرار بنبوتي (فلم يزداهم دعائي

(١٣٤)

الافرارا) أي لم يزدادوا بدعائي الافرارا عن قبوله وبعدا عن استماعه، وانما سمي كفرهم عند دعائه زيادة في الكفر، لانهم كانوا على كفر بالله وضلال عن حقه، ثم دعاهم نوح إلى الاقرار به وحثهم على الاقلاع عن الشرك، فلم يقبلوا، فكفروا بذلك، فكان ذلك زيادة في الكفر، لان الزيادة اضافة شئ إلى مقدار بعد حصوله منفردا، ولو حصل ابتداء في وقت واحد لم يكن أحدهما زيادة على الاخر، ولكن قد يكون زيادة على العطفية. قيل: وإنما جاز أن يكون الدعاء إلى الحق يزيد الناس فرارا منه للجهل الغالب على النفس، فتارة يدعو إلى الفرار مما نافره، وتارة يدعو إلى الفساد الذي يلائمه ويشاكله فمن ههنا لم يمتنع وقوع مثل هذا، والفرار ابتعاد عن الشئ رغبة عنه او خوفا منه، فلما كانوا يتباعدون عن سماع دعائه رغبة عنه كانوا قد فروا منه.

قوله تعالى:

(وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا (٧) ثم إني دعوتهم جهارا (٨) ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا (٩) فقللت استغفروا ربكم إنه كان غفارا (١٠) يرسل السماء عليكم مدرارا (١١) ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (١٢) مالكم لا ترجون لله وقارا (١٣) وقد خلقكم أطوارا (١٤) ثمان آيات.

(١٣٥)

لما حكى الله تعالى عن نوح أنه قال يارب اني دعوت قومي إلى طاعتك ليلا ونهارا فلم يزدادوا عند دعائي إلا بعدا عن القبول قال (وإني كلما دعوتهم) إلى اخلاص عبادتك (لتغفر لهم) معاصيهم جزاء على ذلك (جعلوا أصابعهم في آذانهم) لئلا يسمعون كلامي ودعائي (واستغشوا ثيابهم) أي طلبوا ما يستترون به من الثياب ويختفون به لئلا يرونه. وقال الزجاج: معناه إنهم كانوا يسدون آذانهم ويغطون وجوههم لئلا يسمعون كلامه. فالاستغشاء طلب الغشى، فلما طلبوا التغطية بثيابهم فراروا من الداعي لهم، كانوا قد استغشوا (وأصروا) أي أقاموا على كفرهم ومعاصيهم عازمين على فعل مثله، فالإصرار الإقامة على الأمر بالعزيمة عليه فلما كانوا مقيمين على الكفر بالعزم عليه كانوا مصرين. وقيل إن الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح، فيقول لابنه: احذر هذا لا يغوينك، فان ابي قد ذهب بي اليه وأنا مثلك، فحذرنى كما حذرتك، ذكره قتادة. وقوله (واستكبروا استكبارا) أي طلبوا بامتناعهم من القبول مني واخلاص عبادتك تجبرا في الارض وعلوا فيها.

ثم حكى أنه قال (ثم اني دعوتهم جهارا) أي اعلنا (ثم اني أعلنت لهم) أي أظهرت الدعاء لهم إلى عبادتك تارة (وأسررت لهم) أي وأخفيت لهم الدعاء إلى مثل ذلك كرة أخرى (فقلت) لهم (واستغفروا ربكم) أي اطلبوا المغفرة على كفركم ومعاصيكم من الله تعالى (إنه كان غفارا) لكل من طلب منه المغفرة ويغفر فيما بعد لمن يطلب منه ذلك ومتى فعلتم ذلك واطعمتموه ورجعتم عن كفركم ومعاصيكم (يرسل) الله تعالى (السماء عليكم مدرارا) أي كثيرة الدور بالغيث والمطر، وقيل: إنهم كانوا قحطوا وأجدبوا وهلكت اولادهم ومواشيهم، فلذلك رغبتهم في ترك ذلك بالرجوع إلى الله، والدور تجلب الشئ حالا بعد حال على الاتصال يقال: در درادرورا فهو دار، والمطر الكثير الدور مدرارا. وقيل:

(١٣٦)

ان عمر لما خرج يستسقي لم يزد على الاستغفار وتلا هذه الآية. وقوله (ويمدكم بأموال وبنين) عطف على الجزاء. وتقديره إنكم متى اطعمتموه وعبدتموه مخلصين أرسل عليكم المطر مدرارا وأمدكم بأموال وبنين، فالامداد إلحاق الثاني بالاول على النظام حالا بعد حال، يقال: أمده بكذا يمدده امدادا، ومد النهر وأمدته نهر آخر. والاموال جمع الحال، وهو عند العرب النعم. والبنون جمع إبن، وهو الذكر من الولد (ويجعل لكم جنات) أي بساتين تجنحها الاشجار (ويجعل لكم أنهارا)

وهو جمع نهر وهو المجرى الواسع للماء دون سعة البحر وفوق الجدول في الاتساع لان الجدول النهر الصغير يرى شدة جرية لضيقه ويخفى في النهر ضربا من الخفاء لسعته ثم قال لهم على وجه التبكيت (مالكم) معاشر الكفار (لا ترجون الله وقارا) أي عظمة - في قول ابن

عباس ومجاهد والضحاك - والمراد - ههنا - سعة مقدوراته تعالى، وأصل الوقار ثبوت ما به يكون الشئ عظيماً من الحكم والعلم الذي يمتنع معه الخرق، ومنه قره في السمع ووعاه في القلب إذا ثبت في السمع وحفظه القلب. وقيل: معنى ترجون تخافون. قال أبو ذؤيب: إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وخالفها في بيت نوب عوامل (١) أي لم يخف، وكأنه قال: مالكم لاترجون الله عاقبة عظيمة من الثواب بالخلود في النعيم أو تخافون عاقبة عصيانه بالدخول في عذاب النار (وقد خلقكم أطواراً) فالأطوار انتقال الاحوال حالاً بعد حال. وقيل: معناه صبيها ثم شابا ثم شيخا ثم غير عاقل ثم عاقلاً وضعيفاً ثم قويا. وقال: ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد: نطفة ثم علقة ثم مضغة. وقيل: معناه على ألوان مختلفة بيضاء وسوداء وشقراء وصفراء.

(١) مرفي ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١ و ٨ / ١٨٧ (*)

(١٣٧)

قوله تعالى:

(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً (١٥) وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً (١٦) والله أنبتكم من الأرض نباتاً (١٧) ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً (١٨) والله جعل لكم الأرض بساطاً (١٩) لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) (٢٠) ست آيات.

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه المكلفين، ومنبها لهم على توحيده وإخلاص عبادته (ألم تروا) ومعناه ألم تعلموا (كيف خلق الله سبع سموات) أي اخترع سبع سموات (طباقاً) أي واحدة فوق الأخرى فالطباق مصدر طابقت مطابقةً وطباقاً والطباق منزلة فوق منزلة. ونصب (طباقاً) على احد وجهين:

أحدهما - على الفعل وتقديره وجعلهن طباقاً.

والآخر - جعله نعتاً ل (سبع). وجعل (القمر فيهن نورا) روي أن الشمس يضيء ظهرها لما يليها من السموات، ويضيء وجهها لاهل الأرض، وكذلك القمر. والمعنى وجعل الشمس والقمر نورا في السموات والأرض. وقال قوم: معنى (فيهن) معهن، وحروف الصفات بعضها يقوم مقام بعض. وقال قوم: معناه في حيزهن، وإن كان في واحدة منها، كما يقول القائل: إن في هذه الدور لبنراً وإن كان في واحدة منها، وكذلك يقولون: هذا المسجد في سبع قبائل وإن كان في أحداها. والجعل حصول الشئ على المضى بقادر عليه. وقد يكون (ج) ١٠ م ١٨ من التبيين)

(١٣٨)

ذلك بحدوث نفسه. وقد يكون بحدوث غيره له. والجعل على أربعة أوجه:
اولها - أحداث النفس، كجعل البناء والنساجة وغير ذلك.
والثاني - بقلبه، كجعل الطين خزفاً.
والثالث - بالحكم كجعله كافراً أو مؤمناً والرابع - بالدعاء إلى الفعل كجعله صادقاً وداعياً.
والنور جسم شعاعي فيه ضياء كنور الشمس، ونور القمر، ونور النار، ونور النجوم، وشبه
بذلك نور الهدى إلى الحق، فإله تعالى جعل القمر ضياء في السموات السبع - في قول عبدالله
بن عمر - وقيل: جعله نوراً في ناحيتيها (وجعل الشمس سراجاً) فالسراج جسم يركبه النور
للاستصباح به، فلما كانت الشمس قد جعل فيها النور للاستضاءة به كانت سراجاً، وهي سراج
العالم كما أن المصباح سراج هذا الانسان.
وقوله (والله أنبتكم من الارض نباتاً) فالانبات إخراج النبات من الارض حالاً بعد حال.
والنبت هو الخارج بالنمو حالاً بعد حال، والتقدير في (أنبتكم نباتاً) أي فنبتم نباتاً، لان أنبت
يدل على نبت، من جهة انه متضمن به.
وقوله (ثم يعيدكم فيها) فالاعادة النشأة الثانية، فالقادر على النشأة الاولى قادر على الثانية، لانه
باق قادر على اختراعه من غير سبب يولده، والمعنى إن الله يردكم في الارض بأن يميئتمكم
فتصيروا تراباً كما كنتم أول مرة (ويخرجكم اخراجاً)
منها يوم القيامة كما قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) (١)
ثم قال (والله جعل لكم الارض بساطاً) أي مبسوطة يمكنكم المشي عليها والاستقرار فيها.
وبين أنه إنما جعلها، كذلك (لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) فالفجاج

(١) سورة ٢٠ طه آية ٥٥ (*)

(١٣٩)

جمع (فج) وهي الطريقة المتسعة المتفرقة، وقيل: طرقاً مختلفة - ذكره ابن عباس - والفج
المسلك بين جبلين، ومنه الفج الذي لم يستحكم أمره، كالطريق بين جبلين.
وإنما عدد تعالى هذه الضروب من النعم امتناناً على خلقه وتنبئها لهم على استحقاقه للعبادة
الخالصة من كل شرك، ودلالة لهم على انه عالم بمصالح خلقه، ومدبر لهم على ما تقتضيه
الحكمة، فيجب أن يشكروه على هذه النعمة ولا يقابلونها بالكفر والجحود.
قوله تعالى:

قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا (٢١) ومكروا مكرا كبيرا (٢٢) وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواها * ولا يغوث ويعوق ونسرا (٢٣) وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا (٢٤) مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا * فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا (٢٥)

وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢٦) إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا (٢٧) رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا (٢٨).

قرأ (ماله وولده) بالفتح نافع وعاصم وابن عامر. والباقون بضم الواو وسكون اللام، وهما لغتان مثل حزن وحزن ونخل ونخل وعدم وعدم. وقال قوم:
الولد - بالضم - جمع ولد مثل رهن ورهن وعرب وعرب وعجم وعجم. وقرأ نافع

(١٤٠)

(ودا) بضم الواو. الباقون بفتحها، وهما لغتان، وهو اسم الصنم. وقال قوم:
بالضم المحبة، وبالفتح الصنم. والسواع - ههنا - صنم، وفي غير هذا الساعة من الليل. ومثله السعواء. وقرأ ابو عمرو (خطاياهم) على جمع التكسير. الباقون (خطيئاتهم) على جمع السلامة.

حكى الله تعالى عن نوح أنه (قال) داعيا الله (يا رب انهم) يعني قومه (عصوني) فيما أمرهم به وأنهاهم عنه، فالمعصية مخالفة المراد إلى المكروه المزجور عنه.
ومخالفة ما أراده الحكيم تكون على وجهين:
احدهما - على المأذون فيه من غير أن يريده.
والاخر - إلى المكروه المزجور عنه، فهو بالاول مقصر عن ما هو الاولى فعله.
وبالثاني عاص.

وقوله (واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا) تمام الحكاية عن نوح أنه وصف به قومه بأنهم عصوه فيما دعاهم اليه واتبعوا الذي لم يزد ماله وولده إلا خسارا يعني هلاكاً، فالخسار الهلاك بذهاب رأس المال ففيه معنى الهلاك وليس كذلك الخسران، لانه محتمل للقليل الذي لا يجحفه ذهابه والكثير الذي يجحف وأما الخسار ففيه معنى ذهاب الكثير، ولهذا بني على صفة الهلاك.

وقوله (ومكروا مكرا كبيرا) فالمكر الفتل بالحيلة الخفية إلى خلاف الجهة الموافقة بما فيها من المضرة، مكر يمكر مكرا، فهو ماكر، والشئ ممكور به، قال ذو الرمة:
عجاء ممكورة خمصانة قلق * عنها الوشاح وتم الجسم والقصب (١)

أي ملتفة مفتولة. والكبار الكبير - في قول مجاهد وابن زيد - يقولون عجيب

(١) مرفي ٤ / ٥١٣، ٥٤١ و ٥ / ١٢٨ (*)

(١٤١)

وعجاب بالتخفيف والتشديد. ومثله جميل وجمال وجمال وحسن وحسان. (وقالوا) يعني الكفار بعضهم لبعض (لا تذرنا آلهتكم) أي لا تتركوا عبادة أصنامكم (ولا تذرنا ودا ولا سواعا) وهما صنمان لهم كانوا يعبدونهما، فكانت (ود) لكلب (وسواع) لهمدان (ويغوثة) لمذحج (ويعوق) لكنانة (ونسرا) لحمير - في قول قتادة -.

وقوله (قد أضلوا كثيرا) معناه ضل بهم خلق كثير. وقيل: معناه إن عبادتهم أضلت خلقا عن الثواب لمن استحق العقاب، وأضلهم بالذم والتحسر عن حال أهل الفلاح، وإنما جمع الأصنام بالواو لما أسند إليها ما يسند إلى العالم من استحقاق العبادة، ولم يصرفوا (يغوثة) و (يعوق) لأنه على لفظ المضارع من الأفعال، وهي معرفة، وقد نونهما الأعمش، وأخرجهما مخرج النكرات أي صنما من الأصنام.

ثم قال نوح (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) ومعناه إلا عذابا وسمي العذاب ضلالا كقوله (إن المجرمين في ضلالا وسعر) (١) وقيل: كانت هذه الأصنام المذكورة يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب فيما بعد - في قول ابن عباس وقاتادة والضحاك وابن زيد - ولا يجوز في صفة الحكيم الضلال عن الإيمان.

وقوله (مما خطاياهم) (ما) صلة وتقديره من خطاياهم بمعنى من أجل ما ارتكبه من الخطايا والكفر (أغرقوا) على وجه العقوبة (فادخلوا) بعد ذلك (نارا)

ليعاقبوا فيها (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) أي من يدفع عنهم ما نزل بهم من العقاب المستحق على كفرهم.

ثم حكى ما قال نوح أيضا فإنه قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين

(١) سورة ٥٤ القمر آية ٤٧ (*)

(١٤٢)

ديارا) قال قتادة: ما دعا عليهم إلا بعد ما أنزل عليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) (١) فلذلك قال (إنك) يارب (ان تذرهم) يعني تتركهم ولا تهلكهم (يضلوا عبادك) عن الدين بالاغواء عنه والدعاء إلى خلافه (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وإلا فلم يعلم نوح الغيب، وإنما

قال ذلك بعد أن اعلمه الله ذلك وإنما جاز أن يقول (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) فيسيمهم بالكفر والفجور قبل أن يعملوه، لأنه على وجه الحكاية والاختبار بما يكون منهم لو وجدوا لا على وجه الذم لهم، لاقتضاء العقل على أنه لا يذم على الكفر من لم يكن منه كفر، فكأنه قال ولا يلدوا إلا من إذا بلغ كفر، و (الديار) فيعال من الدوران، أي ولا تنذر على الأرض منهم أحدا يدور في الأرض بالذهاب والمجيء قال الشاعر:

وما نبالي إذا ما كنت جارتنا * ألا يجاورنا إلاك ديار (٢)

أي إلا ياك، فجعل المتصل موضع المنفصل ضرورة. وقال الزجاج: تقول ما في الدار أحد، ولا بها ديار، وأصله ديوار (فيعال) فقلبت الواو ياء. وأدغمت احدهما في الأخرى. والفاجر من فعل الفجور، وهي الكبيرة التي يستحق بها الذم. و (الكفار) من أكثر من فعل الكفر لأنه لفظ مبالغة. وكافر يحتمل القليل والكثير.

ثم حكى أن نوحا سأل الله تعالى فقال (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) قيل المراد بالبيت مسجده. وقيل أراد سفينته.

وذلك على وجه الانقطاع إليه تعالى، لأنه لا يفعل معصية يستحق بها العقاب.

فأما والده والمؤمنون والمؤمنات الذين استغفر لهم فيجوز أن يكون منهم معاص يحتاج أن يستغفرها لهم.

(١) سورة ١١ هود آية ٣٦ (٢) أوضح المسالك ١ / ٦٠ (*)

(١٤٣)

وقوله (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) فالتبار الهلاك والعقاب، وكل من أهلك فقد تبر، ولذلك سمي كل شيء مكسر تبرا، ويجوز أن يكون معناه لا تزدهم إلا ضالا أي عذابا على كفرهم. وقال البلخي: لا تزدهم إلا منعا من الطاعات عقوبة لهم على كفرهم، فانهم إذا ضلوا استحقوا منع اللطاف التي يعفل بالمؤمنين فيطيعون عندها، ويمتثلون أمر الله، ولا يجوز أن يفعل بهم الضلال عن الحق، لأنه سفه فتعال الله عن ذلك علوا كبيرا.

(١٤٤)

٧٢ - سورة الجن مكية في قول قتادة وابن عباس والضحاك وغيرهم وهي ثمان وعشرون آية ليس فيها اختلاف. قال الحسن: نزلت هذه السورة فقرأها رسول الله (صلى الله عليه وآله) على نفر من الجن فأمّنوا به فأتوا قومهم فقلوا (إننا سمعنا قرآنا عجبا) وكان يقول بعث الله محمدا إلى الجن والانس وقال غيرهم من المفسرين: لما رميت الشياطين بالشهب ومنعوا من

صعود السماء، قال لهم ابليس ما هذا الحادث؟ فيث شياطينه في الارض فبعث قوما من جن اليمن فلقوا النبي (صلى الله عليه وآله) بمكة يصلي بأصحابه ويقرأ القرآن فاعجبهم ذلك وآمنوا به، وأخبروا قومهم فقال ابليس لهذا رجتم.

بسم الله الرحمن الرحيم (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا (١) يهدي إلى الرشده فأما به ولن نشرك بربنا أحدا (٢)

وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا (٣) وأنه كان يقول سفيها على الله شططا (٤) وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذبا (٥) وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن

(١٤٥)

فزادوهم رهقا (٦) وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا (٧) وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا (٨) وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا (٩) وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشدا (١٠) عشر آيات.

قال الفراء: قرأ حوبة بن عابد (قل أحي إلي) أراد وحي الي مثل وعد فقلبت الواو همزة، كما قلبها في قوله (وإذا الرسل اقتت) (١) وأصله وقتت.

والعرب تقول: وحييت اليه، واوحييت بمعنى واحد وومأت اليه وأومات، قال الراجز:

وحي لها القرار فاستقرت (٢)

وقرأ ابن كثير وابوعمر و (قل أوحى إلى أنه استمع) و (أن لو استقاموا)

(وأن المساجد لله) و (أنه لما قام عبدالله) أربعة أحرف - بفتح الالف - والباقي من أول السورة إلى ههنا بكسر الالف. وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر كذلك، إلا قوله (وانه لما قام عبدالله) فانه قرأ بالكسر. الباقي بفتح جميع ذلك إلا ما جاء بعد (قول) او (فاء جزاء) فانهم يكسرونه من فتح جميع ذلك جعله عطف علي (أوحى إلي انه) وأنه. ومن كسر عطف على قوله (إنا) وإنا. قال

(١) سورة ٧٧ المرسلات آية ١١ (٢) مر في ٢ / ٥٩ و ٣ / ٨٤ و ٤ / ٦١ و ٦ / ٤٠٣ (ج ١٠ م ١٩ من التبيان) (*)

(١٤٦)

قوم: ومن نصب فعلى تقدير آمنة به وبكذا فعطف عليه. قال الزجاج: إن عطف على الهاء كان ضعيفا، لأن عطف المظهر على المضمحل ضعيف، ومن جعله مفعول (آمنة) فنصبه به كأنه قال: آمنة بكذا وكذا، وأسقط الباء فنصب على المعنى، لأن معنى (آمنة) صدق، فكأنه قال: صدقنا بكذا وكذا، وحذف الجار. ومن كسر من هؤلاء بعد القول أو فاء الجزاء، فلانه لا يقع بعد القول والفاء إلا ما هو ابتداء، أو ما هو في حكم الابتداء. ومن كسر جميع ذلك جعله مستأنفا، ولم يوقع (آمنة)

عليه، وما نصب من ذلك جعله مفعولا بايقاع فعل عليه. فأما قوله (أوحى الي انه استمع) فمفعول (أوحى) لا غير بلا خلاف. وقرأ ابوجعفر (أن لن تقول الانس) على معنى تكذب. الباقيون بتخفيف الواو من القول.

يقول الله تعالى أمرا لمحمد نبيه (صلى الله عليه وآله) (قل) يا محمد لقومك ومن بعثت اليه (أوحى الي) فالإيحاء القاء المعنى إلى النفس خفيا كالإلهام، وانزال الملائكة به لخفائه عن الناس إلا على النبي الذي انزل اليه كالإيحاء الذي يفهم به المعنى. والمراد - ههنا - انزال الملك به عليه. ثم بين ما أوحى اليه فقال (انه استمع نفر من الجن)

فالاستماع طلب سماع الصوت بالأصغاء اليه، وهو تطلب لفهم المعنى، وتطلب ليستدل به على صاحبه. وقيل: ان الجن لما منعوا من استراق السمع طافوا في الارض، فاستمعوا القرآن، فأمنوا به، فانزل بذلك الوحي على النبي صلى الله عليه اله ذكره ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم. والنفر الجماعة. والجن جيل رفاق الاجسام خفية على صور مخصوصة بخلاف صورة الملائكة والناس. وقيل: العقلاء من الحيوان ثلاثة اصناف: الملائكة، والناس، والجن. والملك مخلوق من النور، والانس من الطين والجن من النار. ثم ذكر انه قالت الجن بعضها لبعض (إنا سمعنا قرآنا عجبا) والعجب هو

(١٤٧)

كل شئ لا يعرف سببه. وقيل: هو ما يدعو إلى التعجب منه لخفاء سببه وخروجه عن العادة في مثله، فلما كان القرآن قد خرج بتأليفه عن العادة في الكلام، وخفي سببه عن الانام كان عجبا، وقوله (يهدي إلى الرشدا) حكاية ما قالت الجن ووصفت به القرآن، فانهم قالوا: هذا القرآن يهدي إلى ما فيه الرشاد والحق (فآمنة به) أي صدقنا بأنه من عند الله (ولن نشرك) فيما بعد (بربنا احدا) فنوجه العبادة اليه بل نخلص العبادة له تعالى (وانه تعالى جد ربنا) من كسر الهمزة عطفه على قوله (إنا سمعنا)

وحكى أنهم قالوا (إنه) ويجوز أن يكون استأنف الاخبار عنهم، ومن فتح فعلى تقدير فآمنة بأنه تعالى جد ربنا، ومعناه تعالى عظمة ربنا، لانقطاع كل شئ عظمة عنها لعلوها عليه. ومنه

الجد ابوالاب، والجد الحظ لانقطاعه بعلو شأنه. والجد ضد الهزل لانقطاعه عن السخف، ومنه الجديد لانه حديث عهد بالقطع في غالب الامر. وقال الحسن - في رواية - ومجاهد وقتادة: معناه تعالى جلالته وعظمته.

وفي رواية اخرى عن الحسن: تعالى غني ربنا، وكل ذلك يرجع إلى معنى وصفه بأنه عظيم غني. ويقال: جد فلان في قومه إذا عظم فيهم. وروي عن أحدهما (عليهم السلام) انه قال: ليس لله جد وإنما قالت ذلك الجن بجهلها فحكاه كما قالت. وقال الحسن:

ان الله تعالى بعث محمدا (صلى الله عليه وآله) إلى الانفس والجن، وانه لم يرسل رسولا قط من الجن ولا من أهل البادية، ولا من النساء، لقوله (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى) (١).

وقوله (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) على ما قال قوم من الكفار.

وقوله (وانه كان يقول سفيها على الله شططا) من كسر استأنف. ومن

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٩ (*)

(١٤٨)

نصب عطف على قوله (وانه تعالى جد ربنا) ونصب ذلك بتقدير آما، وقدر للباقي فعلا يليق به، ويمكن أن يعمل فيه، كما قال الشاعر:

إذا ما الغايات برزن يوما * وزججن الحواجب والعيونا (١)

على تقدير: وكحلن العيون، وقال مجاهد وقتادة: أرادوا ب (سفيهم)

ابليس و (الشطط) السرف في ظلم النفس والخروج عن الحق، فاعترفوا بأن ابليس كان يخرج عن الحد بما يغري به الخلق ويدعوهم إلى الضلال.

وقوله (وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذبا) اخبار عن اعترافهم بأنهم ظنوا أن لا يقول أحد من الجن والانس كذبا على الله في اتخاذ الشريك معه والصاحبة والولد، وأن ما يقولونه من ذلك صدق حتى سمعنا القرآن وتبيننا الحق به.

وقوله (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن) قال البلخي:

قال قوم: المعنى إنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الانس من أجل الجن، لان الرجال لا يكون إلا في الناس دون الجن. ومن قال بالاول قال في الجن مثل ما في الانس. وقال الحسن وقتادة ومجاهد: كان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره قال: أعوذ بعزير هذا الوادي من شر سفهاء قومه. ومعنى (يعوذون) يستجرون، وهذا اخبار من الله تعالى عن نفسه دون الحكاية عن الجن. والعياذ الاعتصام وهو الامتناع بالشئ من لحاق

الشر. والرجال جمع رجل وهو الذكر البالغ من الذكرا. والانسان يقع على الذكر والمرأة، والصغير والكبير ثم ينفصل كل واحد بصفة تخصه وتميزه من غيره. وقوله (فزادوهم رهقا) أي اثما إلى ائتهم الذي كانوا عليه من الكفر والمعاصي - في قول ابن عباس وقتادة - وقال مجاهد: يعني طغيانا. وقال الربيع وابن زيد:

(١) مر في ٩ / ٤٩٢ (*)

(١٤٩)

يعني فرقا. وقيل سفها. قال الزجاج: يجوز ان يكون الجن زادوا الانس، ويجوز أن يكون الانس زادوا الجن رهقا. والرهق لحاق الاثم، وأصله اللحوق. ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال قال الاعشى:

لا شئ ينفعني من دون رؤيتها * هل يشقى وامق ما لم يصب رهقا (١)
أي لم يعيش اثما. ثم حكى تعالى (وأنهم ظنوا كما ظننتم) معاشر الانس (ان لن يبعث الله احدا)
أي لا يحشره يوم القيامة ولا يحاسبه. وقال الحسن:

ظن المشركون من الجن، كما ظن المشركون من الانس (ان لن يبعث الله احدا)
لجدهم بالبعث والنشور، واستبعدوا ذلك مع اعترافهم بالنشأة الاولى، لانهم رأوا إمارة مستمرة في النشأة الاولى، ولم يروها في النشأة الثانية، ولم ينعموا النظر فيعلموا أن من قدر على النشأة الاولى يقدر على النشأة الاخرى.
وقال قتادة: ظنوا أن لا يبعث الله احدا رسولا.

ثم حكى ان الجن قالت (إنا لمسنا السماء) أي مسسناها بايدينا. وقال الجبائي: معناه إنا طلبنا الصعود إلى السماء، فعبر عن ذلك باللمس مجازا، وانما جاز من الجن تطلب الصعود مع علمهم بأنهم يرمون بالشهب لتجويزهم أن يصادفوا موضعا يصعدون منه ليس فيه ملك يرميهم بالشهب، او اعتقدوا أن ذلك غير صحيح، ولم يصدقوا من أخبرهم بأنهم رموا حين أرادوا الصعود (فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا) نصب (حرسا) على التمييز و (شديدا) نعته و (شهباً)

عطف على (حرسا) فهو نصب ايضا على التمييز. وتقديره ملئت من الحرس.
والشهب جمع شهاب، وهو نور يمتد من السماء من النجم كالنار. قال الله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) (٢) والحرس جمع

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٢٤ (٢) سورة ٦٧ الملك آية ٥ (*)

(١٥٠)

حارس. وقيل: إن السماء لم تحرس قط إلا لنبوة أو عقوبة عاجلة عامة. ثم حكى أنهم قالوا أيضا (إنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أي لم يكن فيما مضى منع من الصعود في المواضع التي يسمع منها صوت الملائكة وكلامهم، ويسمع ذلك، فالآن من يستمع منا ذلك يجده شهابا يرمى به ويرصد و (شهابا) نصب على أنه مفعول به و (رصدا) نعتة.

ثم حكى أنهم قالوا (وإنا لاندري) بما ظهر من هذه الآية العجيبة (أشر أريد بمن في الأرض) من الخلق أي اهلاكا لهم بكفرهم وعقوبة على معاصيهم (أم أراد بهم ربهم رشدا) وهداية إلى الحق بأن بعث نبيا، فان ذلك خاف عنا وقال قوم: إنا الشهب لم تكن قبل النبي (صلى الله عليه وآله) وإنما رموا به عند بعثه صلى الله عليه وآله وقال آخرون: الشهب معلوم أنها كانت فيما مضى من الزمان، ولكن كثرت في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) وعمت لا أنها لم تكن أصلا. قال البلخي: الشهب كانت لا محالة غير انه لم تكن تمتع بها الجن عن صعود السماء، فلما بعث النبي (صلى الله عليه وآله) منع الجن من الصعود قوله تعالى:

(وَأَنَا مَنَا الصَّالِحُونَ وَمَنَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقُ قَدَادَا (١١))

وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا (١٢)

وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا (١٣) وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا (١٤) وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا (١٥) وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (١٧) لنفتنهم فيه ومن

(١٥١)

يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا (١٧) وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١٨) وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (١٩) قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا) (٢٠) عشر آيات.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب وسهل (يسلكه) بالياء بمعنى يسلكه الله. الباقر بالنون على وجه الاخبار منه تعالى عن نفسه بنون العظمة. وقرأ أبو جعفر وعاصم وحمزة (قل إنما ادعوا ربي) بلفظ الامر. الباقر (قال) على فعل ماض. وقرأ هشام بن عماد عن ابن عامر (لبدا) بضم اللام. الباقر بكسر اللام. واللبد واللبد بمعنى واحد، وجمع اللبدة لبد، مثل ظلمة وظلم. ويقال: لا بد ولبد، مثل راع وركع.

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عما قالتها الجن الذين امنوا عند سماع القرآن فانهم قالوا (وانا منا الصالحون) وهم الذين عملوا الصالحات وسمي صالحا، لانه عمل ما يصلح به حاله في دينه. وأما المصلح فهو فاعل الصلاح الذي يقوم به أمر من الامور، ولهذا وصف تعالى بأنه مصلح، ولم يجز وصفه بأنه صالح. والصلاح يتعاطم استحقاق المدح عليه والثواب كما يختلف استحقاق الشكر بالنعم، ففي النعم ما يستحق به العبادة وفيها ما لا يستحق به ذلك وإن استحق به الشكر، فلذلك قال (ومنادون ذلك) والمعنى ان منا الصالحين في مراتب عالية ومنادون ذلك في الرتبة.

وقوله (كنا طرائق قدا) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني على مذاهب مختلفة: مسلم، وكافر، وصالح، ودون الصالح. والطرائق جمع طريقة وهي الجهة

(١٥٢)

المستمرة مرتبة بعد مرتبة. والمعنى فيها إنا كنا في طرق مختلفة. والقدد جمع قدة. وهي المستمرة بالقد في جهة واحدة. والقدد مضمن بجعل جاعل، وهو القاد، وليس كذلك الطريقة في تضمن الصفة، وإنما هي كالمذهب الذي يمكن فيه على استمرار إلى حيث انتهى إليه. والمعنى إنا كنا على طرائق متباينة كل فرقة يتباين صاحبها كما بين المقدود بعضه من بعض.

وقوله (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الارض) فالظن - ههنا - بمعنى العلم والمعنى اعترافهم بأن علموا أنه لا يفوت الله شئ يذهب في الارض، ولا إذا هرب منه بسائر ضروب الهرب، واعترفوا ايضا فقالوا (وانا لما سمعنا الهدى) يعنون القرآن الذي فيه هدى كل حي (أما به) أي صدقناه. ثم قالوا (فمن يؤمن بربه)

أي من يصدق بتوحيد الله وعرفه على صفاته (فلا يخاف بخسا) أي نقصانا فيما يستحقه من الثواب (ولارهقا) أي ولا يخاف ظلما، فالرهق لاحق السرف في الامر، وكأنه قال لا يخاف نقصا قليلا ولا كثيرا، وذلك أن أجره وثوابه موفر على أتم ما يكون فيه. وقال ابن عباس: معناه لا يخاف نقصا من حسناته ولا زيادة في سيئاته، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد، والتقدير فمن يؤمن بربه فانه لا يخاف ثم قالوا ايضا (وانا منا المسلمون) يعني الذين استسلموا لما أمرهم الله به، وانقادوا له (ومنا القاسطون) يعني الجائرون عن طريق الحق. والقاسط الجائر عن طريق الحق (فمن اسلم) أي استسلم لأمر الله (فأولئك تحروا رشدا) أي طلبوا الهدى إلى الحق، (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) أي استحقوا بذلك أن يكونوا وقود النار يوم القيامة يحرقون بها. وقوله (وأن لو استقاموا على الطريقة)

اخبار من الله تعالى عن نفسه. وقيل (ان) يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة، فيكون محمولا على الوحي، فكانه قال (اوحى الي أن لو استقاموا) وفصل لو بينها وبين

(١٥٣)

الفعل، كما فصل (السين) و (لا) في قوله (علم ان سيكون منكم مرضى) (١) وقوله (ان لا يرجع اليهم) (٢) ويحتمل أن تكون (لو) بمنزلة اللام في قوله (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم) (٣) فيسقط مرة ويلحق أخرى، لان (لو) بمنزلة فعل الشرط، فكما لحقت اللام زائدة قبل (إن) الداخلة على الشرط قبل فعل الشرط، كذلك لحقت (أن) هذه قبل (لو) ومعنى (وأن لو استقاموا) أحد أمرين:

احدهما - لو استقاموا على طريقة الهدى بدلالة قوله (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لا كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) (٤) وقوله (ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا) (٥)، الثاني - لو استقاموا على طريقة الكفر بدلالة قوله (ولولا أن يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة) (٦) وقيل: انه دخلت (ان) في (وأن لو استقاموا) لانه جواب القسم. ويجوز أن يحذف، كما قال الشاعر:

فأقسم لو شئ أانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا (٧)

وقال آخر:

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٨٩ (٣) سورة ٣٣ الاحزاب ٦٠ (٤) سورة ٥ المائدة آية ٦٩ (٥) سورة ٧ الاعراف آية ٩٥ (٦) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣٣ (٧) مر في ٥ / ٥٢٩ و ٦ / ٢٥٣ و ٧ / ٣٤١ و ٩ / ١٢ (ج ١٠ م ٢٠ من التبيان) (*)

(١٥٤)

اما والله إن لو كنت حرا * وما بالحر انت ولا العتيق (١) والاستقامة الاستمرار في جهة العلو. والمستقيم من الكلام المستمر على طريقة الصواب. وهو نقيض المحال. والاستقامة على طريق الحق التي يدعو اليها العقل طاعة الله. والمعنى - ههنا - في قول أكثر المفسرين: إنه لو استقام العقلاء على طريقة الهدى استمروا عليها وعملوا بموجبها لجازاهم على ذلك بأن اسقاهم ماء غدقا، يعني كثيرا. والغدق بفتح الدال المصدر، وبكسرهما اسم الفاعل، وفي ذلك ترغيب في الهدى. قال الفراء: معناه وأن لو استقاموا على

طريقة الكفر لعلنا بهم ما ذكرناه تغليظا للمحنة في التكليف، ولذلك قال (لنفتنهم فيه) أي نختبرهم بذلك ونبلوهم به وغدق المكان يغدق غدقا إذا كثر فيه الماء والندى، وهو غدق - في قول الزجاج - وقوله (لنفتنهم فيه) معناه لنختبرهم ونعاملهم معاملة المختبر في شدة التعبد بتكليف الانصراف عما تدعو شهواتهم اليه، على ما تقتضيه الحكمة في ذلك والفتنة المحنة الشديدة، والمثوبة على قدر المشقة في الصبر عما تدعوا اليه الشهوة.

ثم قال تعالى مهتدا لهم ومتوعدا (ومن يعرض عن ذكر ربه) والمعنى من يعدل عن الفكر فيما يؤديه إلى معرفة الله وتوحيده و إخلاص عبادته، فالذكر حضور المعنى الدال على المذكور للنفس، وضده السهو، ومثله حضور المعنى بالقلب. والفكر في وجوه السؤال عن المعنى طلب للذكر له. والفكر في البرهان طلب للعلم بصحة المعنى المذكور وأنه حق ونقيضه باطل. وقوله (يسلكه عذابا صعدا) أي متصعدا في العظم. وقيل: متصعدا قد غمره وأطبق عليه. ومعناه عذابا أشهد العذاب من قوله (سأرهقه صعودا) (٢) فاما قول العرب: تنفس الصعداء على وزن (فعلاء) أكثر كلامهم، ومنه قيل تنفس صعدا على وزن غرب والصعود العقبة الشاقة. وقال الفراء:

(١) تفسير القرطبي ١٨ / ١٧ (٢) سورة ٧٤ المدثر آية ١٧ (*)

(١٥٥)

الصعود صخرة ملساء في النار ويكلف الصعود عليها، فكلمنا بلغ رأسها أحد هوى إلى أسفلها وقوعا.

وقوله (وان المساجد لله فلا تدعو مع الله احدا) عطف عند جميع المفسرين على قوله (أوحى) كأنه قال: أوحى الي أن المساجد لله، وقال الخليل: التقدير، ولان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا مثل قوله (وان هذه أمتكم) وتقديره:

ولان هذه أمتكم (أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (١) والمعنى الاخبار منه تعالى بأن لا يذكر مع الله في المساجد - وهي المواضع التي وضعت للصلاة - أحد على وجه الاشتراك في عبادته، كما يدعوا النصارى في بيعهم والمشركون في الكعبة. وقال الحسن: من السنة إذا دخل المسجد أن يقول: لا إله الا الله، لا أدعو مع الله أحدا. وقيل: معناه إنه يجب أن يدعوه بالوحدانية. وقال الفراء والزجاج: المساجد مواضع السجود من الانسان: الجبهة، واليدين، والرجلان وزاد أصحابنا عيني الركبتين. والمعنى انه لا ينبغي أن يسجد بهذه الاعضاء لاحد سوى الله تعالى.

وقوله (وأنه لما قام عبدالله يدعوهم كادوا يكونون عليه لبداء) معناه إنه لما قام محمد (صلى الله عليه وآله) يدعوهم، فيقول: لا إله إلا الله كادوا يكونون عليه جماعات متكاثفات بعضها فوق بعض ليزيلوه بذلك عن دعوته باخلاص الالهية. وقال ابن عباس والضحاك: معناه إن الجن كادوا يركبونه حرصا على سماع القرآن منه.

وقال الحسن وقتادة: معناه تلبدت الانس والجن على هذا الامر ليطفئوه فابي الله الا أن ينصره ويظهره على من ناواه، كما قال (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) (٢) وقال ابن عباس: هذا من قول الجن، لما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله وإيتمامهم به في الركوع

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٢ (٢) سورة ٦١ الصف آية ٨ (*)

(١٥٦)

والسجود، وهو قول سعيد بن جبير: واللبد القطع المتكاثفة على الشيء واحدها لبد، ومنه اللبد لتكاثف صفوفه بعضه على بعض. ولبد رأسه إذا ألصق بعض شعره ببعض قال عبد مناف بن ربيع:

صابوا بستة أبيات واربعة * حتى كأن عليهم جابيا لبداء. (١)
فالجابي الجراد الذي يجبي كل شيء يأكله.

ثم حكى ان النبي (صلى الله عليه وآله) قال (انما أدعوا ربي) ومن قرأ (قل) فمعناه إن الله أمره بأن يقول: إنما أدعو ربي وحدة ولا أشرك به أحدا من الاصنام والاوثنان.
والمعنيان متقاربات، لان الله تعالى إذا أمره بأن يقول فانه يقول لا محالة فقد حصل الامران.
قوله تعالى:

(قل إنني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) (٢١) قل إنني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا (٢٢) إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا (٢٣) حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا (٢٤) قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا (٢٥) عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦) إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه

(١) اللسان (لبد) (*)

(١٥٧)

رصدنا (٢٧) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً (٢٨) ثمان آيات.

قرأ (ليعلم) بضم الياء يعقوب. الباقر بفتح الياء. أمر الله تعالى نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) أن يقول للمكلفين (اني لا أملك لكم ضرا ولا رشداً) ومعناه إني لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير اليكم، وانما يقدر على ذلك الله تعالى.

وانما أقدر على أن ادعوكم إلى الخير وأهديكم إلى طريق الرشاد، فان قبلتم نلتم الثواب والنفع، وان رددتموه نالكم العقاب وأليم العذاب، ثم قال ايضاً (قل) لهم يا محمد (اني لن يجبرني من الله احد) أي لا يقدر أن يجبر على الله حتى يدفع عنه ما يريد به من العقاب (ولن اجداً) ايضاً انا (من دنه) أي من دون الله (ملتجداً) يعني ملتجئاً ألباً اليه أطلب به السلامة مما يريد الله تعالى فعله من العذاب والالام. وأضافه إلى نفسه، والمراد به أمته، لانه لا يفعل قبيحاً فيخاف العقاب. والمعنى ليس من دون الله ملتجئ أي ملجأً.

وقوله (الابلاغ من الله ورسالاته) معناه لكن املك البلاغ من الله الذي هو بلاغ الحق لكل من ذهب عنه وأعرض عن اتباعه بأن أرشده إلى الادلة التي نصبها الله له وأمر بالدعاء إليها سائر عباده المكلفين، كما أمر أنبياءه بتبليغ رسالاته، فيكون التقدير لا أملك إلا بلاغاً من الله ورسالاته. وقيل يجوز ان يكون المراد لن يجبرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته، فيكون نصب البلاغ على اضمار فعل من الجزاء، كقولك إن لا قياماً ففعوداً وان لا عطاء فرداً جميلاً فتكون (لا) منفصلة من (إن)

وتقديره إن لا أبلغ بلاغاً من الله ورسالاته. ثم قال (ومن يعص الله ورسوله) بأن خالف ما أمراه به وارتكب مانهياها

(١٥٨)

عنه (فان له نار جهنم) جزاء على ذلك (خالدين فيها ابداً) أي مقيمين فيها على وجه التأييد والقراء على كسر (فان) على الابتداء. وروي عن طلحة بن مصروف انه فتح على تقدير فجزاءه أن له. وقال ابن خالويه: سألت ابن مجاهد عن ذلك، فقال: هو لحن. وقال بعض أهل النظر: زعم ابو عبيدة: ان ما كان من قول الجن فهو مكسور نسقا على قوله (إنا سمعنا) ومن فتح فعلى قوله (قل اوحى)

الي، وهو اختيار ابن خالويه. وقوله (حتى إذا رأوا ما يوعدون) يعني ما يوعدون به من العقاب على المعاصي (فسيعلمون) عند ذلك (من اضعف ناصراً) يدفع منه عقاب الله ومن (أقل عدداً) يستتصر بهم الكفار أم المؤمنون؟. وقيل معناه أجدد الله أم الذين عبده المشركون؟

وإنما قال (من أضعف ناصرا) ولا ناصر لهم في الآخرة، لأنه جاء على جواب من توهم أنه إن كانت لهم أخوة فناصرهم أقوى وعددهم أكثر.

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) (قل إن أدري) أي قل لهم لست اعلم (أقريب ماتوعدون) به من العقاب (أم يجعل له ربي امداد) أي غاية ينتهي إليها بعينها أم يؤخره الله تعالى إلى مدة لا يعلمها بعينها إلا الله تعالى الذي هو (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) ثم قال (إلا من ارتضى من رسول) فإنه ربما أطلعه على ما غاب عن غيره من الخلائق بأن يوحي إليهم بما شاء من الغيب - ذكره قتادة - (فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رسدا) ومعناه إن الله إذا نزل الملك بالوحي ارسل معه رسدا يحفظون الملك من أن يأتي احد من الجن ويسمع الوحي، ونصب (رسدا)

على المفعول، كأنه قال يجعل رسدا يسلك من بين يديه ومن خلفه (ليعلم ان قد ابغوا) معناه ليظهر المعلوم من التبليغ. وقال قتادة: معناه ليعلم محمد أن الرسل قبله قد ابغوا رسالات ربهم. وقال سعيد بن جبير: ليعلم الرسل أن قد ابغوا رسالات

(١٥٩)

ربهم على احاطة بهم وتحصين لما بلغوا من رسالاته. وقال الزجاج: ليعلم الله أن قد ابغوا. وقوله (واحاط بما لديهم) معناه انه يعلم ما عندهم فيحيط بما لديهم فيصير في معلومه بمنزلة ما احيط به (وأحصى كل شئ عددا) معناه انه يعلم الاشياء مفصلة بمنزلة من يحصيها ليعلمها كذلك. وقال الزجاج: نصب (عددا) يحتمل شيئين احدهما - واحصى كل شئ في حال العدد، فيكون العدد بمعنى المعدود، كما يقال: للمنقوص نقص، فلا يخفى عليه شئ من الاشياء، لا سقوط ورقة، ولا حبة في ظلمات الارض.

والثاني - ان يكون بمعنى المصدر، وتقديره وأحصى كل شئ احصاء. وقال الجبائي معنى (ليعلم ان قد ابغوا) أي ليبلغوا (رسالات ربهم) فعبر عن المعلوم بالعلم كما يقال: ما علم الله مني ذلك أي ما فعلته، لأنه لو فعله لعلم الله ذلك (واحصى كل شئ عددا) معناه انه لا شئ يعلمه عالم او يذكره ذاكر إلا وهو تعالى عالم به ومحص له. والاحصاء فعل، وليس هو بمنزلة العلم، فلا يجوز ان يقال احصى ما لا يتناهى كما يجوز ان يقال: علم ما لا يتناهى، لان الاحصاء مثل المحصي لا يكون إلا فعلا متناهيا، فاذا لم يجز ان يفعل ما لا يتناهى لم يجز ان يقال يحصي ما لا يتناهى. والفرق بينهما واضح.

(١٦٠)

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي عشرون آية في الكوفي والمدني الاول وتسع عشرة في البصري وثمانية عشرة في المدني الاخير بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٤) إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (٥) إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلا (٦) إن لك في النهار سبحا طويلا (٧) واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا (٨) رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا (٩) واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا (١٠) عشر آيات.

قرأ ابن عامر وابوعمر (وطاء) بكسر الواو والمد جعله مصدر ال (وطأ) يواطئ مواطأة، ووطاء. ومعناه إن ناشئة الليل وعمل ناشئة الليل يواطئ لسمع القلب أكثر مما يواطئ ساعات النهار، لأن البال افرغ للانقطاع عن كثير مما يشغل

(١٦١)

بالنهار. الباقيون - بفتح الواو - مقصورة، وروي عن الزهري - بكسر الواو - مقصورة، ومنه قوله (صلى الله عليه وآله): اللهم اشدد وطاءك على مضر، وقرأ (رب المشرق) بالجر كوفي غير حفص ويعقوب بدلا من (ربك). الباقيون بالرفع على الاستئناف، فيكون رفعا بالابتداء وخبره (لا إله إلا هو) ويجوز أن يكون خبر الابتداء بتقدير هو رب المشرق.

هذا خطاب من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) وقيل: إن المؤمنين داخلون فيه على وجه لتبع. يقول الله له (يا أيها المزمل) ومعناه الملتف في ثيابه، يقال تزل في ثيابه، فهو متزمل إذا التفت. والاصل (متزمل) فأدغم التاء في الزاي لأن الزاي قريبة المخرج من التاء، وهو ابدى في المسموع من التاء. وقال قتادة: معناه المتزمل بثيابه، وقال عكرمة: المتزمل بعباء النبوة، وكل شئ لفف، فقد تزمل، قال امرء القيس:

كأن ابانا في أفانين ودقه * كبير اناس في بجاد مزمل (١)

يعني كبير اناس مزمل في بجاد وهو الكساء، وجره على المجاورة للبجاد. وقوله (قم الليل إلا قليلا) أمر من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) بقيام الليل إلا القليل منه، وقال الحسن: إن الله فرض على النبي والمؤمنين أن يقوموا ثلث الليل فما زاد، فقاموه حتى تورمت أقدامهم، ثم نسخ تخفيفا عنهم. وقال غيره: هو نفل لم ينسخ، لأنه لو كان فرضا لما كان مخيرا في مقداره - ذكره الجبائي - وإنما بين تخفيف النفل. وقال قوم: المرغب فيه قيام ثلث الليل أو نصف الليل أو الليل كله

إلا القليل. ولم يرغب بالاية في قيام جميعه لانه تعالى قال (إلا قليلا نصفه

(١٦٢)

او انقص منه قليلا او زد عليه) يعني على النصف. وقال الزجاج (نصفه) بدل من (الليل) كقولك ضربت زيدا رأسه. والمعنى: قم نصف الليل إلا قليلا او انقص منه قليلا. والمعنى قم نصف الليل او انقص من نصف الليل أو زد على نصف الليل، وذلك قبل ان يتعبد بالخمس صلوات. وقال ابن عباس والحسن وقتادة:

كان بين أول السورة وآخرها - الذي نزل فيه التخفيف - سنة. وقال سعيد بن جبير: عشر سنين. وقال الحسن وعكرمة: نسخت الثانية بالاولى. والاولى أن يكون على ظاهره، ويكون جميع ذلك على ظاهرة مرغبا في جميع ذلك إلا أنه ليس بفرض وإن كانت سنة مؤكدة. والنصف أحد قسمي الشئ المساوي للاخر في المقدار. والقليل من الشئ الناقص عن قسمه الاخر، وكلما كان أنقص كان أحق باطلاق الصفة، وما لا يعتد به من النقصان لا يطلق عليه.

(ورتل القرآن ترتيلا) أمر من الله تعالى له بأن يرتل القرآن والترتيل ترتيب الحروف على حقها في تلاوتها، وتثبت فيها، والحدر هو الاسراع فيها وكلاهما حسنان إلا أن الترتيل - ههنا - هو المرغب فيه. وقال مجاهد: معناه ترسل فيه ترسلا. وقال الزجاج: معناه بينه تبيينا أي بين جميع الحروف، وذلك لا يتم بأن يعجل في القراءة.

وقوله (انا سنلقي عليك قولا ثقيلا) اخبار من الله تعالى لنبيه أنه سيطرح عليه قولا ثقيلا. وقال الحسن وقتادة: إنه يثقل العمل به لمشقة فيه. وقال ابن زيد: معناه العمل به ثقيل في الميزان والاجر، ليس بشاق. وقيل: معناه قول عظيم الشأن، كما تقول هذا الكلام رزين، وهذا قول له وزن إذا كان واقعا موقعه.

وقوله (إن ناشئة الليل هي أشد وطأ) قال مجاهد: ناشئة الليل التهجد في الليل. وقال الحسن وقتادة: هو ما كان بعد العشاء الاخرة، وعن ابي جعفر

(١٦٣)

وابي عبدالله (عليهما السلام) أنهما قالوا: هو القيام آخر الليل إلى صلاة الليل. وقال قوم: ناشئة الليل ابتداء عمل الليل شيئاً بعد شيء إلى آخره. والناشئة الظاهرة بحدوث شيء بعد شيء، وضافته إلى الليل توجب انه من عمل الليل الذي يصلح أن ينشأ فيه. وقوله (هي أشد وطأ) من قرأ - بالفتح - مقصوراً، قال معناه: لقوة الفكر فيه أمكن موقعا. وقيل: هو أشد من عمل النهار، وقال مجاهد: معناه واطأ اللسان القلب مواطأة ووطاء والوطاء المهاد المذل للقلب عليه، فكذلك عمل الليل الذي هو أصلح له فيه تمهيد للتصرف في الدلائل وضروب الحكم ووجوه المعاني.

وقوله (واقوم قِيلاً) أي أشد استقامة وصواباً لفراغ البال، وانقطاع ما يشغل القلب. والمعنى إن عمل الليل أشد ثباتاً من عمل النهار، وأثبت في القلب من عمل النهار، والاقوم الاخلص استقامة، لانه القول يشمل المعنى على ما فيه استقامة. وفيه اضطراب. وقد يقل ذلك ويكثر، وهو في القول ظاهر كما هو في الخط، ففيه الحرف المقوم وفيه الحرف المضطرب. وقال ابن زيد: معناه أقوم قراءة لفراغه من شغل الدنيا، وقال أنس: معناه أصوب. وقال مجاهد: معناه اثبت.

وقوله (إن لك في النهار سبحاً طويلاً) قال قتادة: معناه إن لك يا محمد في النهار متصرفاً ومقلباً أي ما تقضي فيه حوائجك. وقرأ يحيى ابن معمر بالخاء، وكذلك الضحاك، ومعناه التوسعة. يقال اسبخت القطعن إذا وسعته للندف: ويقال لما تطاير من القطن وتفرق عند الندف سبائخ، والسبح المر السهل في الشيء، كالمر في الماء، والسبح في عمل النهار هو المر في العمل الذي يحتاج فيه إلى الضياء. وأما عمل اللياء فلا يحتاج فيه إلى ضياء لتمكن ذلك العمل كالفكر في وجوه البرهان وتلاوة القرآن. وقال الجبائي في نوادره (لك في النهار سبحاً) أي نوماً، وقال الزجاج:

(١٦٤)

معناه إن فاتك شيء بالليل فلك في النهار فراغ تقضيه. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) (واذكر اسم ربك) يعني أسماء الله الحسنى التي تعبد بالدعاء بها (وتبتل إليه تبتيلاً) أي انقطع إليه انقطاعاً، فالتبتل الانقطاع إلى عبادة الله، ومنه مريم البتول وفاطمة البتول، لانقطاع مريم إلى عبادة الله، وانقطاع فاطمة عن القرين، ومنه قول الشاعر:

كأن لها في الارض نسياً تقصه * إذا ما غدت وإن تكلمك تبتل (١)

أي بقطع كلامها رويداً رويداً، وقيل: الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره، وجاء المصدر على غير الفعل، كما قال (انبتكم من الارض نباتاً) (٢) وقيل: تقديره تبتل نفسك إليه

تبتيلا، فوق المصدر موقع مقاربه. وقوله (رب المشرق والمغرب) من رفع فعلى انه خبر مبتدا محذوف، وتقديره: هو رب المشرق، ومن جر جعله بدلا من قوله (ربك) وتقديره إذكر اسم رب المشرق وهو مطلع الشمس موضع طلوعها ورب المغرب، يعني موضع غروبها، وهو المتصرف فيها والمدبر لما بينهما (لا إله إلا هو) أي لا احد تحق له العبادة سواه (فاتخذة وكيلا) أي حفيظا للقيام بامرك فالوكيل الحفيظ بأمر غيره. وقيل: معناه اتخذه كافلا لما وعدك به.

ثم قال (واصبر) يا محمد (على ما يقول) هؤلاء الكفار من أذاك وما يشغل قلبك (واهجرهم هجرا جميلا) فالهجر الجميل اظهار الجفوة من غير ترك الدعاء إلى الحق على وجه المناصحة.

(١) مر في ٧ / ١١٧ (٢) سورة ٧١ نوح آية ١٧ (*)

(١٦٥)

قوله تعالى:

(وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا (١١) إن لدينا أنكالا وجميما (١٢) وطعاما ذا غصة وعذابا أليما (١٣) يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا (١٤) إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا (١٥) فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذًا وبيلًا (١٦)

فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا (١٧) السماء منفطر به كان وعده مفعولا (١٨) إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (١٩) تسع آيات.

لما امر الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) بالصبر على اذى قومه، وأن يهجرهم هجرا جميلا قال على وجه التهديد للكفار (وذرنى) يا محمد (والمكذبين) الذين يكذبونك فيما تدعوهم اليه من التوحيد وإخلاص العبادة والاعتراف بالبعث والنشور، والثواب والجزاء، كما يقول القائل: دعني وإياه إذا أراد أن يهدده، يقال: يذر بمعنى يترك، ويدع، ولا يستعمل ماضيه، ولا ماضي (يدع) ولا يقال: وذر، ولا ودع، استغناء بقولهم ترك عن ذلك، لان الابتداء بالواو عندهم مكروه، ولذلك أبدلوا منها الهمزة في قولهم (أفتنت) والاصل (وقتت)، وقالوا (تخمة) والاصل (وخمة) وكذلك كل ما يصرف منه مما في أوله واو إلا قولهم: وادع من الدعة فلم يستغنوا عنه بتارك.

(١٦٦)

وقوله (اولي النعمة) معناه ذوي النعمة أي اصحاب النعمة، والنعمة - بفتح النون - لين الملمس وضدها الخشونة، ومعناه (وذرنى والمكذبين) أي ارض بعقاب المكذبين لست تحتاج إلى اكثر من ذلك كما يقال: دعني وإياه، فانه يكفيه ماينزل به من غير تقصير مما يقع به، وهذا تهديد شديد.

وقوله (ومهلهم قليلا) أي اخرهم في المدة قليلا فالتمهيل التأخير في المدة، وقد يكون التأخير في المكان، فلا يسمى تمهيدا، فاذا كان في المدة فهو تمهيل كما ان التأخير في الاجل تأجيل آخر.

وقوله (إن لدينا انكالا) أي قيودا - في قول مجاهد وقتادة - واحدا نكل (وجحيما) أي ناراً عظيمة، وجحيم اسم من اسماء جهنم (وطعاما ذا غصة)

قال ابن عباس: معناه ذا غصة بشوك يأخذ الحلق، فلا يدخل ولا يخرج. وقيل:

معناه يأخذ بالحلقوم لخشونته وشدة تكرهه (وعذابا اليما) أي عقابا موجعا مؤلما.

ثم بين متى يكون ذلك فقال (يوم ترجف الارض) أي اعتدنا هذه الانواع من العذاب في يوم ترجف الارض أي تتحرك باضطراب شديد (والجبال) أي وترجف الجبال معها أيضا (وكانت الجبال كثيبا مهيدا) قال ابن عباس: تصير الجبال رملا سائلا متناثرا، فالكثيب الرمل المجتمع الكثير، ومهيل مفعول من هلت الرمل اهيله وذلك إذا حرك اسفله فسال أعلاه، ويقال: مهبول كما يقال مكيل ومكيول، وانهاال الرمل انهيالا و (الغصة) تردد اللقمة في الفم لا يسيغها الذي يروم أكلها قال الشاعر:

لو بغير الماء حلقي شرق * كنت كالغصان بالماء اعتصاري (١)

(١) مرفي ١ / ١٣٠، ٤١ و ٦ / ١٥١ (*)

(١٦٧)

يقال غص بريقه يغص غصصا، وفي قلبه غصة من كذا، وهي كاللذغة التي لا يسيغ معها الطعام ولا الشراب.

وقوله (إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم) اخبار من الله تعالى وخطاب للمكلفين في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) ومن بعده بأنه أرسل اليهم رسولا يدعوهم إلى عبادته وإخلاص توحيده (شاهدا عليكم) بقبولهم إن قبلوا وعليهم إن لم يقبلوا (كما أرسلنا) أي ارسلناه اليكم مثل ما أرسلنا (إلى فرعون رسولا) يعني موسى ابن عمران (عليه السلام). ثم اخبر عن فرعون فقال (فعصى فرعون الرسول) يعني موسى، فلم يقبل منه ما أمره به ودعاه اليه (فأخذناه أخذاً وببلا) أي اخذا ثقيلاً شديدا عقوبة له على عصيانه موسى رسول الله، وكل ثقيل وببيل، ومنه:

كلا مستوبل أي متوخم لا يستمرء لثقله، ومنه الوابل، والوابل، وهو المطر العظيم القطر، ومنه الوبال وهو ما يغلظ على النفس وأصله الغلظ قال طرفة:

فمرت كهاة ذات خيف جلالة * عقيلة شيخ كالوبيل يلندد (١)

الوبيل - ههنا - الغليظ من العصى و (كهاة) ناقة مسنة و (الخيف) جلد الضرع و (يلندد) شديد الخصومة.

قوله (فكيف تنقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) أي إن كفرتم بالله وجدتم نعمه، وكذبتم رسوله، وإنما جعل الولدان، وهم الاولاد الصغار شيبا لشدته، وعظم أهواله، كما يقال: قد حدث أمر تشيب منه النواصي. وقيل:

(يوما يجعل الولدان شيبا) على وجه المثل، والشيب جمع أشيب، يقال: شاب الانسان يشيب شيبا إذا ابيض شعره. ثم زاد في صفة شدة ذلك اليوم أيضا فقال (السماء منفطر به) أي متصدع بشدة ذلك اليوم، وإنما لم يقل منفطرة، لانه جرى

(١) ديوانه ٣٨ وتفسير القرطبي ١٨ / ٤٨ (*)

(١٦٨)

على طريق النسبة أي ذات انفطار، ولم يجر على طريق (فاعلة) كما قالوا للمرأة: مطفل أي ذات طفل. وقال الزجاج: تقديره السماء منفطر باليوم مثقلة به. وقال الحسن: معناه السماء مثقل به. وقال غيره: السماء مثقلة بذلك اليوم من شدته.

وقال قوم: معناه متشقق بالامر الذي يجعل الولدان شيبا. والسماء يؤنث ويذكر، فمن ذكر أراد السقف.

وقوله (كان وعده مفعولا) معناه إن ما وعد الله به فلا بد من كونه، فلذلك عبر عنه بلفظ الماضي فكأنه قد وجد. ثم قال (إن هذه تذكرة) أي هذه القصة التي ذكرناها وبينناها (تذكرة) أي عظة لمن انصف من نفسه وفكر فيها، فالتذكرة التبصرة، وهي الموعدة التي يذكر بها ما يعمل عليه.

وقوله (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) معناه إن من شاء من المكلفين اتخذ إلى ثواب ربه سبيلا، لانه قادر على الطاعة التي لو فعلها وصل إلى الثواب. والله تعالى قد دعاه إلى ما يوصله اليه ورغبه فيه، وبعث رسولا يدعوه أيضا اليه. وإن لم يفعل فسبوء اختياره انصرف عنه.

قوله تعالى:

(إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه

(١٦٩)

وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) (٢٠) آية واحدة. قرأ نافع وابوعمر و ابن عامر (ونصفه وثلثه) بكسر الفاء والثاء بمعنى إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه ومن ثلثه أي وادني من نصفه وأدنى من ثلثه. الباقيون بالنصب بمعنى أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصف وثلثه. والثلث يخفف ويتقل، لغتان، ومثله ربع وعشر. وقال ابو عبيدة:

الاختيار الخفض في (ثلثه ونصفه) لانه قال (علم أن لن تحصوه) وكيف يقدر على أن يقوموا نصفه أو ثلثه، وهم لا يحصونه، وقال غيره: ليس المعنى على ما قال. وإنما المعنى علم أن لن يطيقوه، يعني قيام الليل، فخفض الله ذلك، قال والاختيار النصب، لأنها أوضح في النظر، لانه قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) (قم الليل إلا قليلا) ثم نقله عن الليل، كله إلا شيئا يسيرا ينام فيه، وهو الثلث. والثلث يسير عند الثلثين.

ثم قال (نصفه) أي قم نصفه (أو انقص منه قليلا) أي قم نصفه، واكتفى بالفعل الاول من الثاني، لانه دليل عليه أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث (أو زد) هكذا إلى الثلثين جعله موسعا عليه. وفي الناس من قال: هذه الآية ناسخة لما ذكره في أول السورة من الامر الحتم بقيام الليل إلا قليلا أو نصفه أو انقص منه. وقال آخرون: إنما نسخ ما كان فرضا إلى ان صار نفلا.

وقد قلنا: ان الامر في أول السورة على وجه الندب، فكذاك - ههنا - فلا وجه للتنافي حتى ينسخ بعضها ببعض يقول الله تعالى لنبيه ان ربك يا محمد ليعلم انك (ج ١٠ م ٢٢ من التبيان)

(١٧٠)

تقوم اقل من ثلثي الليل واقل من نصفه ومن ثلثه فيمن جر ذلك، ومن نصب فمعناه إنك تقوم أقل من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه وتقوم طائفة من الذين معك على الايمان (والله يقدر الليل والنهار) لتعملوا فيه بالصواب على ما يأمركم به (علم أن لن تحصوه) قال الحسن: معناه علم

أن لن تطيقوه (فتاب عليكم) أي لم يلزمكم إنما كما لا يلزم التائب أي رفع التبعة فيه كرفع التبعة عن التائب. وقوله (فاقرعوا ما تيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى) فتاب عليكم بما رغبتم فيه وذلك يقتضي التخفيف عنكم (وآخرون يضربون في الارض) أي ومنكم قوم آخرون يضربون أي يسافرون في الارض ومنكم قوم (آخرون يقاتلون في سبيل الله) وكل ذلك يقتضي التخفيف عنكم (فاقرعوا ما تيسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ومعناه اقيموا الصلاة بحدودها التي أوجبها الله عليكم واستمروا عليها وأعطوا ما وجب عليكم من الزكاة المفروضة (واقرضوا الله قرضا حسنا) أي وانفقوا في سبيل الله والجهات التي أمركم بها وندبكم إلى النفقة فيها، وسمي ذلك (قرضا) تلطفا في القول، لان الله تعالى من حيث أنه يجازيهم على ذلك بالثواب، فكأنه استقرض منهم ليرد عوضه وإنما قال (حسنا) أي على وجه لا يكون فيه وجه من وجوه القبح.

ثم قال (وما تقدموا لانفسكم من خير) أي ما فعلتم من الطاعات (تجدوه) أي تجدوا ثوابه جزاءه (عند الله) وقوله (هو خيرا وأعظم أجرا) أي تجدوه خيرا لكم، وهو أفضل واعظم ثوابا، وهو عطف على (خير). ثم قال (واستغفروا الله) على معاصيكم معاشر المكلفين (إن الله غفور) أي ستار لذنوبكم صفوح لاجرامكم إذا تبتتم واقلعتم ورجعتم اليه (رحيم) بكم منع عليكم. وقال ابن زيد: القرض في الآية النوافل سوى الزكاة.

(١٧١)

٧٤ - سورة المدثر:

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي خمسون وست آيات في الكوفي والبصري والمدني الاول، وخمس في المدني الاخير. وقال ابوسلمة ابن عبدالرحمن أول ما نزل من القرآن (يا أيها المدثر) وحكى ذات ابوسلمة عن جابر بن عبدالله. قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) (جاوزت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا فنظرت عن شمالي فلم أر شيئا فنظرت أمامي فلم أر شيئا فنظرت خلفي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فلم أر شيئا، فاتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء باردا قال فدثروني فصبوا علي ماء باردا فنزلت (يا أيها المدثر) وقال الزهري: أول ما نزل قوله (اقرأ باسم ربك الذي خلق).

بسم الله الرحمن الرحيم (يا أيها المدثر (١) قم فانذر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤) والرجز فاهجر (٥) ولا تمنن تستكثر (٦) ولربك فاصبر (٧) فاذا نقر في الناقور (٨) فذلك يومئذ يوم عسير (٩) على الكافرين غير يسير) (١٠) عشر آيات.

(١٧٢)

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) يقول له (يا أيها المدثر) واصله المتدثر بثيابه، فادغمت التاء في الدال، لانها من مخرجها مع أن الدال اقوى بالجهر فيها، يقال: تدثر تدثرا وتدثره تدثيرا، ودثر الرسم يدثر دثورا إذا محي أثره، فكأنه قال: يا أيها الطالب صرف الاذى بالدثار اطلبه بالانذار.

وقوله (قم فانذر) أمر من الله تعالى له أن يقوم وينذر قومه، والانذار الاعلام بموضع المخافة ليتقى، فلما كان لا مخافة أشد من الخوف من عقاب الله كان الانذار منه اجل الانذار، وتقديره قم إلى الكفار فانذر من النار.

وقوله (وربك) منصوب ب (كبر) والتكبير وصف الاكبر على اعتقاد معناه كتكبير المكبر في الصلاة بقوله الله اكبر، والتكبير نقيض التصغير، ومثله التعظيم. والكبير الشأن هو المختص باتساع المقدور والمعلوم من غير مانع من الجود فالله تعالى قادر لا يعجزه شئ، وعالم لا يخفى عليه شئ لا يمنعه من الجود على عباده شئ، فهو اكبر من كل كبير بما لا يساويه شئ، واختصاصه بالمقدور والمعلوم بأنه ما صح من مقدور او معلوم فهو قادر عليه عالم به فهو لنفسه كبير واكبر من كل كبير سواه.

وقوله (وثيابك فطهر) أي وطهر ثيابك فهو منصوب به. والطهارة النظافة بانتفاء النجاسة، لان النظافة قد تكون بانتفاء الوسخ من غير نجاسة، وقد تكون بانتفاء النجاسة. فالطهارة في الآية هو القسم الاخير. وقال ابن عباس (وثيابك فطهر) معناه من لبسها على معصيته، كما قال سلامة بن غيلان النخعي - انشده ابن عباس:

وإني بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدة أتقنع (١)

(١) مر في ٦ / ٤٨٩ (*)

(١٧٣)

وقال الزجاج: معناه لم أكن غادرا، قال يقال: للغادر دنس الثياب أي لم أعص قط وقيل: معناه شمر ثيابك - وفي رواية عن ابن عباس وإبراهيم وقتادة - ان معناه وثيابك فطهر من الذنوب. وقال ابن سيرين وابن زيد: اغسلها بالماء.

وقيل معناه شمر ثيابك، وقيل: معناه وثيابك فطهر للصلاة فيها.

وقوله (والرجز) منصوب بقوله (فاهجر) وقال الحسن: كل معصية رجز وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري: معناه فاهجر الاصنام. وقال إبراهيم والضحاك: الرجز الاثم. وقال

الكسائي: الرجز - بكسر الراء - العذاب، ويفتحها الصنم والوثن. وقالوا: المعنى اهجر ما يؤدي إلى العذاب، ولم يفرق احد بينهما.

وبالضم قرأ حفص ويعقوب وسهل. الباقرن بالكسر إما لانهما لغتان مثل الذكر والذكر او بما قاله الكسائي. وقال قوم: الرجز بالضم الصنم. وقال: كان الرجز صنمين: أساف ونائلة، نهى الله تعالى عن تعظيمهما.

وقوله (ولا تمنن تستكثر) قال ابن عباس و ابراهيم والضحاك وقتادة ومجاهد: معناه لا تعط عطية لتعطى أكثر منها، وقال الحسن والربيع وانس: معناه لا تمنن حسناتك على الله مستكثرا لها، فينصل ذلك عبدالله. وقال ابن زيد:

معناه لا تمنن ما أعطاك الله من النبوة والقرآن مستكثرا به الاجر من الناس.

وقال ابن مجاهد: معناه لا تضعف في عملك مستكثرا لطاعتك، وقال قوم: معناه لا تمنن على الناس بما تتعم به عليهم على سبيل الاستكثار لذلك. وقال جماعة من النحويين:

إن (تستكثر) في موضع الحال ولذلك رفع. وأجاز الفراء الجزم على أن يكون جوابا للنهي، والرفع هو الوجه. والمن ذكر النعمة بما يكدرها، ويقطع حق الشكر بها، يقال: من بعطائه يمن منا إذا فعل ذلك، فأما من على الاسير إذا أطلقه، فهو قطع أسباب الاعتقال عنه. ويقال: لمن أنعم على وجه المن، لانه بهذه المنزلة، وأصله

(١٧٤)

القطع من قوله (فلهم اجر غير ممنون) (١) أى غير مقطوع. والاستكثار طلب الكثرة يقال: استكثر فلان من المال والعلم، والمراد - ههنا - هو طلب ذكر الاستكثار للعطية.

وقوله (ولربك فاصبر) قال ابراهيم: من أجل ربك فاصبروا على عطيتك.

وقال مجاهد: لاجل الله فاصبر على أذى المشركين. وقيل: معناه (ولربك فاصبر)

على ما أمرك به من أداء الرسالة وتعليم الدين، وماينالك من الاذى والتكذيب، فاحتمله لتتال الفوز من الله بالنعيم والصبر الذى هو طاعة الله هو الصبر على الضرر الذى يدعو اليه العقل، لان ما يدعو اليه العقل فخالق العقل يريده، لانه بمنزلة دعاء المر إلى الفعل، والسبب الذى يتقوى به على الصبر هو التمسك بداعي العقل دون داعي الطبع، لان العقل يدعو بالترغيب فيما ينبغي أن يرغب فيه. والطبع داعي الهوى يدعو إلى خلاف ما في العقل.

وقوله (فاذا نقر في الناقر) معناه إذا نفخ في الصور، وهو كهياة البوق - في قول مجاهد - وقيل: ان ذلك في اول النفختين، وهو أول الشدة الهائلة العامة، والناقر على وزن (فاعول) من النقر، كقولك: هاضوم من الهضم وحاطوم من الحطم، وهو الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت به.

وقوله (فذلك يومئذ) يعني اليوم الذي ينفر فيه في الناقور (يوم عسير)
أى يوم شديد عسر (على الكافرين) لنعم الله الجاحدين لآياته (غير يسير)
فاليسير القليل الكلفة، ومنه اليسار وهو كثرة المال لقلة الكلفة به في الانفاق، ومنه تيسر الامر
لسهولته وقلة الكلفة فيه. وقال الزجاج: قوله (يوم عسير) مرتفع بقوله (فذلك) والمعنى فذلك
يوم عسير يوم النفخ في الصور، ويومئذ يجوز أن يكون

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦ (*)

(١٧٥)

نصبا على معنى فذلك يوم عسير في يوم ينفخ في الصور، ويجوز الرفع، وإنما بنى على
الفتح لاضافته إلى (إذ) لان (إذ) غير متمكنة.
قوله تعالى:

(ذرني ومن خلقت وحيدا (١١) وجعلت له مالا ممدودا (١٢)
وبنين شهودا (١٣) ومهدت له تمهيدا (١٤) ثم يطمع أن أزيد (١٥)
كلا إنه كان لآياتنا عنيدا (١٦) سار هقه صعودا (١٧) إنه فكر وقدر (١٨) فقتل كيف قدر
(١٩) ثم قتل كيف قدر (٢٠)
ثم نظر (٢١) ثم عبس وبسر (٢٢) ثم أدبر واستكبر (٢٣) فقال إن هذا إلا سحر يؤثر (٢٤)
إن هذا إلا قول البشر (٢٥) خمس عشرة آية.
يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) على وجه التهديد للكافر الذى وصفه (ذرني ومن خلقت
وحيدا) ومعناه دعني وإياه فاني كاف في عقابه كما تقول العرب: دعني وإياه لا أن الله تعالى
يجوز عليه المنع حتى يقول: ذرني وإياه. ولكن المعنى ما قلناه.
وقوله (وحيدا) قال الزجاج: يحتمل ان يكون من صفة الخالق، ويحتمل أن يكون من صفة
المخلوق، فاذا حملناه على صفة الخالق كان معناه دعني ومن خلقت متوحدا بخلقه لا شريك لي
في خلقه وجعلته على الاوصاف التي ذكرتها، وإذا حمل على صفة المخلوق، كان معناه ومن
خلقته في بطن أمه وحده لاشئ له ثم جعلت له كذا وكذا - ذكره مجاهد وقتادة - وقوله
(وجعلت له مالا ممدودا) أى مالا كثيرا له مدد يأتي شيئا بعد شئ، فوضفه بأنه ممدود يقتضي
هذا المعنى. وقال مجاهد

(١٧٦)

وسعيد بن جبير: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي. وقالوا: كان ماله الف دينار. وقال سفيان: كان ماله أربعة آلاف دينار. وقال النعمان بن سالم: كان أبرص. وقال عطاء عن عمر: كان غلة شهر شهر. وقال مجاهد: كان بنوه عشرة (وبنين شهودا) أي واولادا ذكورا معه يستمتع بمشاهدتهم، وينتفع بحضورهم. وقيل كان بنوه لا يغيبون عنه لغنائهم عن ركوب السفر في التجارة بخلاف من هو غائب عنهم.

وقوله (ومهدت له تمهيدا) أي سهلت له التصرف في الامور تسهيلا وقد يكون التسهيل من المصيبة ليخف الحزن بها، وقد يكون لما يتصرف فيه من المبالغة.

وقوله (ثم يطمع أن ازيد) أي لم يشكرني على هذه النعم، وهو مع ذلك يطمع أن ازيد في إنعامه. والتمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل نظائر.

ثم قال تعالى على وجه الردع والزجر (كلا) كأنه قال: ارتدع عن هذا وانزجر كما ان (صه) بمنزلة اسكت (ومه) بمنزلة اكفف. إنما هي أصولت سمي الفعل بها، فكأنه قال: انزجر، فليس الامر على ما تتوهم.

ثم بين لم كان كذلك فقال (إنه كان لا ياتنا) أي إنما لم أفعل به ذلك، لانه لحجبتنا وأدلتنا (عنيذا) أي معاندا، فالعنيد الذهاب عن الشئ على طريق العداوة له، يقال عند العرق يعند عنودا، فهو عاند إذا نفر، وهو من هذا، والمعاندة منافرة المضادة، وكذلك العناد، وهذا الكافر يذهب عن آيات الله ذهاب نافر عنها. وقيل معنى (عنيذ) عنود أي جحود بتكذيب المعاندة - في قول ابن عباس وقتادة - وقيل: معناه معاند، وبعبير عنود أي نافر قال الشاعر:

إذا نزلت فاجعلوني وسطا * إني كبير لا أطيق العندا (١)

(١) مر في ٦ / ١٤، ٢٨٣ (*)

(١٧٧)

أي نفرا، وقوله (سأرهقه صعودا) فالارهاق الاعجال بالعنف والصعود العقبة التي يصعب صعودها، وهي الكؤد والكود في ارتقائها ونقيض الصعود الهبوط، وقيل: صعود جبل من نار في جهنم يؤخذون بارتقائه، فاذا وضع يديه ذابت، فاذا رفعها عادت وكذلك رجلاه، في خبر مرفوع. وقيل: صعود جبل في جهنم من نار يضرب بالمقامع حتى يصعد عليه، ثم يضرب حتى ينزل ذلك دأبه ابداء.

ثم قال (إنه فكر) أي فكر فكرا يحتال به للباطل، لانه لو فكر على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموما بل كان ممدوحا، ولذلك مدح الله قوما فقال (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (١) أي على وجه طلب الحق. وقوله (وقدر) أي قدر فقال: إن قلنا شاعر كذبتنا العرب باعتبار ما أتى

به، وإن قلنا كاهن لم يصدقونا، لأن كلامه لا يشبه كلام الكهان، فنقول ساحر يأثر ما أتى به عن غيره من السحرة. فقال الله تعالى (فقتل) أي لعن (كيف قدر) هذا. ثم كرر تعالى فقال (ثم قتل كيف قدر) أي عوقب بعقاب آخر كيف قدر من ابطال الحق تقديرا آخر. وقيل: لعن بما يجري مجرى القتل، ومثله (قتل الخراصون) (٢)

وقال الحسن: هو شتم من الله لهذا الكافر.

وقوله (ثم نظر) نظر من ينكر الحق وبدفعه، ولو نظر طلبا للحق كان ممدوحا وكان نظره صحيحا. وقوله (ثم عبس) أي قبض وجهه تكرها للحق، يقال: عبس يعبس عبوسا، فهو عابس وعباس فالعبوس والتكليح والتقطيب نظائر

(١) سورة ١٣ الرعد آية ٣ وسورة ٣٠ الروم آية ٢١ وسورة ٣٩ الزمر آية ٤٢ وسورة ٤٥ الجاثية آية ١٢ (٢)
سورة ٥١ الذاريات آية ١٠ (ج ١٠ م ٢٣ من التبيان) (*)

(١٧٨)

في اللغة، وضده الطلاقة والبشاشة. وقوله (وبسر) فالبسور بدو التكره الذي يظهر في الوجه وأصله من قولهم: بسر بالامر إذا عجل به قبل حينه، ومنه البسر لتعجيل حاله قبل الارطاب قال توبة:

وقد رايني منها صدود رأيت * وإعراضها عن حاجتي وبسورها (١)
فكأنه قيل: قبض وجهه وبدي التكره فيه. وقوله (ثم أدبر) فالادبار الاخذ في جهة الدبر خلاف جهة الاقبال، فذلك ادبار وهذا إقبال، يقال: دبر يدبر دبورا وأدبر إدبارا، وتدبر نظر في عاقبة الامر، ودبره أى عمله على إحكام العاقبة وكل مأخوذ من جهة الخلف مدبر.
وقوله (واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى طلب كبيرا ليس له، ولو طلب كبيرا هو له لم يكن مذموما، وفي صفات الله تعالى (الجبار المتكبر) (٢)

لأن له الكبرياء، وهو كبير الشأن في أعلى المراتب لاختصاصه باتساع مقدوراته والمعلوم في أعلى المراتب. وقيل: ان الوليد قال في القرآن: والله ليعلو وما يعلا وما هو بشعر ولا كهانة، ولكنه سحر يؤثر من قول البشر، والسحر حيلة يخفى سببها فيوهم الشئ على خلاف ما هو به وذلك منفي عن كل ما يشاهد ويعلم انه قد خرج عن العادة مما لا يمكن عليه معارضة، ولو كان القرآن من قول البشر لا مكنهم أن يأتوا بمثله، كما لو كان قلب العصاحية من فعل ساحر لا مكن السحرة أن يأتوا بمثله. ثم قال يعني الوليد (إن هذا إلا قول البشر) أى ليس هذا إلا قول البشر وليس من كلام الله عنادا منه وبهتاننا.

(١٧٩)

قوله تعالى:

(سأصليه سقر (٢٦) وما أدريك ما سقر (٢٧) لا تبقي ولا تذر (٢٨) لواحة للبشر (٢٩) عليها تسعة عشر (٣٠) وما جعلنا أصحاب النار إلا ملئكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر (٣١) كلا والقمر (٣٢) والليل إذ أدبر (٣٣) والصبح إذا أسفر (٣٥) إنها لا حدى الكبر) (٣٥) عشر آيات.

قرأ نافع وحمزة وحفص عن عاصم (إذ أدبر) باسكان الذال وقطع الهمزة من (أدبر) الباقون بفتح الذال والالف معها (دبر) بغير الف. وقرأ ابن مسعود بزيادة الف، ومن قال (دبر، وأدبر) فهما لغتان. قيل: هو مثل قبل واقبل والاختيار عندهم (أدبر) لقوله (إذا أسفر) ولم يقل إذا سفر، لأن ابن عباس، قال لعكرمة: حين دبر الليل، لأن العرب تقول: دبر فهو دابر، وحجة نافع وحمزة قول النبي (صلى الله عليه وآله) (إذا قبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصيام) ثم قال ابو عبيدة: أدبر ولى، ودبرني جاء خلفي.

لما حكى الله تعالى صفات الكافر الذي ذكره، وهو الوليد بن المغيرة، وانه

(١٨٠)

فكر وقد ر إلى ان قال: هذا القرآن سحر مآثور، وهو قول البشر، قال الله تعالى مهددا له ومتوعدا (سأصليه سقر) أى ألزمه جهنم، والاصلاء إلزام موضع النار أصلا يصليه إصلاحه واصطلى فهو يصطلي اصطلاء، وصلاه يصليه، واصله اللزوم.

وسقر اسم من أسماء جهنم، ولم يصرف للتعريف والتأنيث وأصله من سقرته الشمس تستقره سقرا إذا ألمت دماغه. وقد سميت النار سقر لشدة إيلاهما، ومنه الصقر بالسين والصاد، لأن شدته في نفسه كشدة الألم في أذى صيده.

وقوله (وما أدراك ما سقر) إعظاما للنار وتهويلا لها أي ولم يعلمك الله سقر على كنهها وصفتها، ثم وصف بعض صفاتها فقال (لا تبقي ولا تذر) وقال مجاهد: معناه لا تبقي من فيها حيا، ولا تذر ميتا. وقال غيره: لا تبقي احدا من أهلها إلا تناولته، ولا تذر من العذاب.

والإبقاء ترك شئ مما أخذ، يقال أبقي شيئاً بيقية إبقاء، وأبقاه الله أي اطلال مدته. والباقي هو المستمر الوجود.

وقوله (لواحة للبشر) أي مغيرة لجلد الانسان الذي هو البشرة - في قول مجاهد - وقال المؤرج: لواحة بمعنى حراقة، وبه قال الفراء. وقال غيرهما: معناه تلوح لجميع الخلق حتى يروها، كما قال (وبرزت الجحيم لمن يرى) (١) لانه لا يجوز أن يصفها بأنها تسود البشرة مع قوله (إنها لا تبقي ولا تذر) والتلويح تغير اللون إلى الاحمر والتلويح بالنار تغير بشرة أهلها إلى الاحمرار، يقال: لوحته الشمس تلوحه تلويحا فهي لواحة على المبالغة في كثرة التلويح، والبشر جمع بشرة، وهي ظاهر الجلدة، ومنه سمي الانسان بشرا، لانه ظاهر الجلدة، بتعريه من الوبر والريش والشعر الذي يكون في غيره من الحيوان في غالب أمره. وقوله (عليها تسعة عشر) أي على سقر تسعة عشر من الملائكة. وإنما خص بهذه العدة لتوافق صحة الخبر لما جاء به الانبياء قبله (صلى الله عليه وآله)، ويكون في

(١) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٦ (*)

(١٨١)

ذلك مصلحة للمكلفين. وقد بين ذلك بقوله (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم) أي لم نجعل من يتولى تدبير النار إلا من الملائكة ولم نجعلهم على هذه العدة (إلا فتنة) ومحنة وتشديدا في التكليف (للذين كفروا) نعم الله ووجدوا ربوبيته ليلزمهم النظر في ذلك، فلما كانت هذه العدة التي جعلت عليها الملائكة يظهر عندها ما كان في نفس الكافر مما يقتضيه كفره، كان فتنة له، لان الفتنة هي المحنة التي تخرج ما في النفس من خير او شر باظهار حاله كاظهار الحكاية للمحكي والملك عبارة عما كان على خلاف صورة الجن والانس من المكلفين. وقال قوم: لا يكون ملكا إلا رسولا لانه من الرسالة، كما قال الهذلي:

الكني اليها وخير الرسو * ل أعلمهم بنواحي الخبر (١)

واصله ملاك بالهمز كما قال الشاعر:

فلست لا نسي ولكن بملاك * تنزل من جو السماء يصوب (٢)

والملك عظيم الخلق شديد البطش كريم النفس. والاصل نفسه منشرحة بالطاعة إنشراح الكريم بالجو، وأصله من النور، ووجه دلالة هذه العدة من الملائكة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) هو انه اذا كان الله - عزوجل - قد اخبر به في الكتب المتقدمة ولم يكن محمد (صلى الله عليه وآله) ممن قرأها ولا تعلمها من أحد من الناس دل على أن الله أعلمه وانزل عليه به وحيا أبانه به من جميع الخلق ليدل على صدقه مع انه احد الاشياء التي أخبر بها على هذه الصفة

(ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) والتقدير ليعلم أهل الكتاب يقينا ان محمدا صادق من حيث اخبر بما هو في كتبهم من غير قراءة لكتبهم ولا تعلم منهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) أي ويزداد بذلك ايضا المؤمنون الذين عرفوا الله إيمانا مضافا إلى إيمانهم. ووجه المحنة على الكفار بتكليفهم ان يستدلوا حتى

(١) مر في ٨ / ١١ ، ٢٩٩ (٢) اللسان (ملك) (*)

(١٨٢)

يعرفوا ان الله تعالى قادر ان يقوي هذه العدة من الملائكة بما يفى بتعذيب أهل النار على ما هم عليه من الكثرة (ولا يرتاب) أي لا يشك (الذين أوتوا الكتاب) في خبره ولا يرتاب أيضا (المؤمنون) في خبره. وقوله (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون) ومعناه لئلا يقول الذين في قلوبهم شك ونفاق (ماذا أراد الله بهذا مثلا) اي أي شئ اراد الله بهذا مثلا، وقيل اللام في قوله (وليقول الذين في قلوبهم مرض) لام العاقبة كما قال (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) (١) فقال الله تعالى (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي مثل ما فضح الله هؤلاء الكفار ودمهم مثل ذلك يضل من يشاء من الكفار. والاضلال - ههنا - اظهار فضيحة الكفار بما يوجب الذم، ومعناه الحكم عليهم بالضلال عن الحق، والاحبار بأنهم يستحقون اللعن بتكذيبهم النبي (صلى الله عليه وآله)، وما انزل عليه. ونقيضه الهداية أي ويحكم بهداية المؤمنين إلى الحق ومصيرهم إلى الطاعة، وتصديقهم بالحق عند نزوله وقبولهم له. وقال ابن عباس وقتادة والضحاك:

عدة الملائكة الموكلين بالنار في التوراة والانجيل تسعة عشر.

ثم اخبر تعالى فقال (وما يعلم جنود ربك إلا هو) أي لا يعلم جنود الله إلا الله. ثم قال (وما هي إلا ذكرى للبشر) قيل معناه إن النار في الدنيا تذكير بالنار في الآخرة. وقال قتادة ومجاهد: النار الموصوفة بهذه الصفة ذكرى للبشر وعظة لهم. وقال البلخي: إلا ذكرى للبشر أي الجنود ذكرى أي عظة للبشر، لان الله تعالى لا يحتاج إلى ناصر ومعين. ثم قال (كلا والقمر) أي حقا ثم اقسام بالقمر (والليل إذ ادبر) قيل معناه إذا ولى يقال: دبر وادبر، وقد قرئ بهما. وقيل: إنما دبر الليل بان جاء

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (*)

(١٨٣)

بعده النهار وآخره. وتقول العرب: قبح الله ما قبل منك وما دبر (والصبح إذا اسفر) أي اضاء وأنار - في قول قتادة - وهو قسم آخر. وقال قوم: التقدير ورب هذه الاشياء، لان اليمين لا يكون إلا بالله. وقال قوم: معنى قوله (والصبح إذا اسفر) أي كشف عن الظلام وأنار الاشخاص. وقوله (انها لاحدى الكبر)

جواب القسم. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: معناه إن النار لاحدي الكبر. وقال قوم: ان هذه الاية لاحدى الكبر. والكبر جمع الكبرى، وهي العظمى وروي عن ابن كثير أنه (قرأ إنها لاحدى الكبر) لا يهززه ولا يكسر يسقط الهمزة تخفيفاً، كقولهم في زيد الاحمر زيد احمر. وفي أصحاب الايكة اصحاب ليكة.

والاختيار قطع الالف، لان العرب اذا حذفوا مثل هذا نقلت حركة الهمزة إلى ما قبلها، واللام قبل هذه الهمزة متحركة، واللام في الاحمر لام التعريف ساكنة. قوله تعالى:

(نذيراً للبشر (٣٦) لمن يشاء منكم أن يتقدم أو يتأخر (٣٧))

كل نفس بما كسبت رهينة (٣٨) إلا أصحاب اليمين (٣٩) في جنات يتساءلون (٤٠) عن المجرمين (٤١) ما سلككم في سقر (٤٢) قالوا لم نك من المصلين (٤٣) ولم نك نطعم المسكين (٤٤) وكنا نخوض مع الخائضين (٤٥) وكنا نكذب ببيوم الدين (٤٦) حتى أتينا اليقين (٤٧) فما تنفعهم شفاعة الشافعين (٤٨) فما لهم عن التذكرة معرضين (٤٩) كأنهم حمر مستنفرة (٥٠) فرت من

(١٨٤)

قسورة (٥١) بل يريد كل امرئ منهم إن يؤتى صحفاً منشرة (٥٢) كلا بل لا يخافون الآخرة (٥٣) كلا إنه تذكرة (٥٤) فمن شاء ذكره (٥٥) وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة (٥٦) احدى وعشرون آية.

قرأ نافع وابن عامر وابوجعفر (مستنفرة) بفتح الفاء. الباقيون بكسرها ومعناها متقارب، لان من فتح الفاء أراد أنه نفرها غيرها، ومن كسر الفاء أراد أنها نافرة، وانشد الفراء:

امسك حمارك إنه مستنفر * في أثر أحمره عمدن لغرب (١)

والنفور الذهاب عن المخوف بانزعاج، نفر عن الشيء ينفر نفورا فهو نافر، والتنافر خلاف التلاؤم، واستنفر طلب النفور (ومستنفرة) طالبة للنفور. وقرأ نافع ويعقوب (وما تذكرون) بالتاء على الخطاب. الباقيون بالياء على الخبر.

لما اخبر الله تعالى ان الاية التي ذكرها لاحدى الكبر، بين أنه بعث النبي (نذيرا للبشر) أي منذرا مخوفا معلما مواضع المخافة، والنذير الحكيم بالتحذير عما ينبغي ان يحذر منه، فكل نبي نذير، لانه حكيم بتحذيره عقاب الله تعالى على معاصيه.
(ونذيرا) نصب على الحال. وقال الحسن: إنه وصف النار وقال ابن زيد: هو وصف النبي. وقال أبو رزين: هو من صفة الله تعالى، فمن قال: هو للنبي قال كأنه قيل: قم نذيرا. وقوله (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) معناه إن هذا الانذار متوجه إلى من يمكنه ان يتقي عذاب النار بأن يجتنب معاصيه ويفعل طاعاته، فيقدر

(١) اللسان (نفر)

(١٨٥)

على التقدم والتأخير في أمره بخلاف ما يقوله المجبرة الذين يقولون بتكليف ما لا يطاق لمنع القدرة. وقال قتادة: معناه لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر عنها بمعصيته. والمشية هي الارادة.

وقوله (كل نفس بما كسبت رهينة) معناه إن كل نفس مكلفة مطالبة بما عملته وكسبته من طاعة او معصية، فالرهن أخذ الشيء بأمر على أن لا يرد إلا بالخروج منه رهنه يرهنه رهنا قال زهير:

وفارقتك برهن لافكاك له * يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا (١)

وكذلك هؤلاء الضلال قد أخذوا برهن لا فكاك له. قال الرماني: في ذلك دلالة على القائلين باستحقاق الذم، لانه عم الارتهان بالكسب في هذا الموضع، وهم يزعمون انه يرتهن بأن لم يفعل ما وجب عليه من غير كسب شيء منه، فكانت الاية حجة على فساد مذهبهم. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لان الذي في الظاهر ان الانسان رهن بما كسبت يداه. ولم يقل: ولا يرهن إلا بما كسب له إلا من جهة دليل الخطاب الذي هو فاسد عند اكثر الاصوليين، على ان الكسب هو ما يجتلب به نفع او يدفع به ضرر، ويدخل في ذلك الفعل، وألا يفعل، فلا تعلق في الاية.

ولما ذكر تعالى أن (كل نفس بما كسبت رهينة) استثنى من جملة النفوس فقال (إلا اصحاب اليمين) والاستثناء منقطع، لان اصحاب اليمين ليسوا من الضلال الذين هم رهن بما كسبوه، وتقديره لكن أصحاب اليمين (في جنات) أي بساتين آجنها الشجر، واصحاب اليمين هم كل من لم يكن من الضالين: وقال الحسن:

هم اصحاب الجنة. وقال قوم: هم الذين ليس لهم شيء من الذنوب. وقال قوم:

(١) ديوانه ٣٩ (دار بيروت)

(ج ١٠ م ٢٤ من التبيان) (*)

(١٨٦)

هم اطفال المؤمنين. وقوله (يتساءلون) اى يسأل بعضهم بعضا (عن المجرمين) العصاه في طاعة الله، فيقولون لهم (ما سللكم في سقر) أي ما أدخلكم في جهنم فالمجرم هو القاطع بالخروج عن أمر الله ونهيه إلى إرتكاب الكبائر من القبيح، والجاروم القاطع. والسلوك الدخول. وسقر اسم من السماء جهنم. ثم حكى ما يجيبهم به اصحاب النار فانهم يقولون لهم: ادخلنا في النال لانا (لم نك من المصلين) أي لم نك نصلى ما أوجب علينا من الصلاة المفروضه على ما قررها الشرع، وفي ذات دلالة على ان الخلال بالواجب يستحق به الذم والعقاب، لانهم لم يقولوا انا فعلنا تركا للصلاة بل علقوا استحقاقهم للعقاب بالاخلال بالصلاة وفيها دلالة على أن الكفار مخاطبون بالعبادة.

لان ذلك حكاية عن الكفار بدلالة قوله في آخر الاية (كنا نكذب بيوم الدين).

وقوله (ولم نك نطعم المسكين) أي لم نكن نخرج الزكوات التي وجبت علينا، والكفارات التي يلزمنا دفعها إلى المساكين. وهم الفقراء. وهم الفقراء، فالمسكين الذي سكنته الحاجة إلى ما في ايدي الناس عن حال النشط. وحال الفقير اشد من حال المسكين. قال الله تعالى (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر) (١) فسامهم الله مساكين مع أن لهم مركبا في البحر قال الشاعر:

أنا الفقير الذي كانت حلوبته * وفق العيال فلم يترك له سبد (٢)

(وكنا نخوض مع الخائضين) قال قتادة: معناه كلما غوي غاويا لدخول في الباطل غوينا معه أي كنا نلوث انفسنا بالمرور في الباطل كتلويت الرجل بالخوض فلما كان هؤلاء يخرجون مع من يكذب بالحق مشيعين لهم في القول كانوا خائضين معهم (وكنا) مع ذلك (نكذب بيوم الدين) اي كنا نجحد يوم الجزاء وهو يو القيامة، فالتكذيب تنزير الخبر على انه كذب باعتقاد ذلك فيه أو الحكم به.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠ (٢) مر تخريجه في ٥ / ٢٨٣ (*)

(١٨٧)

فهؤلاء اعتقدوا ان الخبر يكون يوم الدين كذب. والدين الجزاء، وهو الايصال إلى كل من له شئ او عليه شئ ما يستحقه، فلذلك يوم الدين، وهو يوم الجزاء وهو يوم أخذ المستحق بالعدل. وقوله (حتى أتانا اليقين) معناه حتى جاءنا العلم واليقين الذي يوجد برد الثقة به في الصدر أو دليله، يقال: وجد فلان برد اليقين وتلج في صدره، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه متيقن، فقال الله تعالى لهم (فما تتفعم شفاعة الشافعين) الذين يشفعون لهم، لان عذاب الكفر لا يسقطه الله بالشفاعة بالاجماع. ثم قال (فما لهم عن التذكرة) أي أي شئ لهم؟ ولم أعرضوا وتولوا عن النبوة والرشد؟! ولم يتعظوا به إلى ان صاروا إلى جهة الضلال على وجه الانكار عليهم. ثم شبههم، فقال (كأنهم حمر مستنفرة) أي مثلهم في النفور عما تدعوهم اليه من الحق واعراضهم، مثل الحمر إذا نفرت ومرت على وجهها إذا (فرت من قسورة) وهو السبع يعني الاسد، يقال نفر، واستنفر، مثل علامته واستعلاه وسمع إعرابي رجلا يقرأ (كأنهم حمر مستنفرة) فقال: طلبها قسورة، فقيل له:

ويحك إن في القرآن (فرت من قسورة) قال (مستنفرة) إذا، فالفرار الذهاب عن الشئ خوفا منه، فريفر فرا وفرارا، فهو فار إذا هرب والفر الهارب.

والهرب نقيض الطلب، واصل الفرار الانكشاف عن الشئ، ومنه فر الفرس يفره فرا إذا كشف عن سنه. والقسورة الاسد. وقيل: هو الرامي للصيد. وأصله الاخذ بالشدّة من قسره يقسره قسرا أي قهره. وقال ابن عباس: القسورة الرماة وقال سعيد بن جبير: هم القناص. وفي رواية أخرى عن ابن عباس: جماعة الرجال وقال ابوهريرة: هو الاسد. وهو قول زيد بن اسلم، وفي رواية عن ابن عباس وابي زيد: القسور بغير هاء تأنيث.

وقوله (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) اخبار من الله

(١٨٨)

تعالى بأنهم ليسوا كالحمر المستنفرة الفارة من القسورة، بل لان كل رجل منهم يريد أن يعطى صحفا منشرة. قال قال الحسن وقتادة ومجاهد: انهم يريدون صحفا منشرة اي كتبنا تنزل من السماء كتبا إلى فلان وكتبا إلى فلان: أن آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وآله). وقيل: إنهم قالوا كانت بنو إسرائيل إذا اذنب منهم مدنب أنزل الله كتبا أن فلانا اذنب فما بالنا لا ينزل علينا مثل ذلك إن كنت صادقاً به؟ والصحف جمع صحيفة، وهي الورقة التي من شأنها ان تقلب من جهة إلى جهة، لما فيها من الكتابة، وتجمع الصحيفة صحفا وصحائف، ومنه مصحف ومصاحف. والنشر بسط ما كان مطويا او ملتفا من غير التحام. وقيل: معناه إنهم يريدون صحفا من الله تعالى بالبراءة من العقوبة واسباغ النعمة حتى يؤمنوا وإلا أقاموا على أمرهم.

وقيل: تفسيره ما ذكره الله تعالى في قوله (ولن نؤمن لرفيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) (١) فقال الله تعالى (كلا) أي حقا ليس الامر على ما قالوه (بل لا يخافون) هؤلاء الكفار (الآخرة) بجدهم صحته. ثم قال (انه تذكرة) يعني القرآن تبصرة وموعظة لمن عمل به واتعظ بما فيه، وهو قول قتادة. ثم قال (فمن شاء ذكره) أي من شاء أن يتعظ بما فيه وهو يتذكر به، فعل، لانه قادر عليه. ثم قال (وما يذكرون إلا ان يشاء الله) من قرأ بالتاء، فعلى الخطاب، ومن قرأ بالياء، فعلى الاخبار عنهم. ومعناه ليس يتذكرون ولا يتعظون بالقرآن إلا ان يشاء الله، ومعناه إلا والله شاءه له، لانه طاعة والله يريد الطاعات من خلقه. وقوله (هو اهل التقوى واهل المغفرة) معناه هو اهل ان يتقى عقابه، واهل ان يعمل بما يؤدي إلى مغفرته. وقيل: معناه هو اهل ان يغفر المعاصي إذا تاب المذنب من معاصيه.

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٣ (*)

(١٨٩)

٧٥ - سورة القيامة:

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي أربعون آية في الكوفي وتسع وثلاثون في البصري والمدنيين.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(لا أقسم بيوم القيمة (١) ولا أقسم بالنفس اللوامة (٢)

أيحسب الانسان أن نجم عظامه (٣) بلى قادرين على أن نسوي بنانه (٤) بل يريد الانسان ليفجر أمامه يسئل أيان يوم القيمة (٦) فاذا برق البصر (٧) وخسف القمر (٨) وجمع الشمس والقمر (٩) يقول الانسان يومئذ أين المفر) (١٠) عشر آيات.

قرأ (برق) بفتح الراء اهل المدينة وأبان عن عاصم، الباقر بكسر الراء وقرأ القواس عن ابن كثير (لا قسم) بآثبات القسم جعل اللام لام تأكيد، واقسم، والاختيار لمن قصد هذا (لا قسمن) وقد روي ذلك عن الحسن، قال: لان الله تعالى اقسام بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة. وقال مقاتل: لم يقسم الله تعالى

(١٩٠)

بالقيامة إلا في هذه السورة فقط. الباقرن (لا اقسام) التقدير بنفي اليمين في اللفظ واختلاف في ذلك النحويون فقال ابو عبيدة والكسائي (لا) صلة والتقدير اقسام.

وقال قوم (لا) تزيدها العرب لا ابتداء، لكن (لا) ههنا رد لقوم انكروا البعث وكفروا بالتنزيل. فقال الله (لا) أي ليس كما تقولون. ثم قال (اقسم بيوم القيامة) قال ابن خالويه: (لا) تنقسم اربعين قسما ذكرته في كل مفرد.

قوله (لا أقسم) معناه اقسام و (لا) صلة في قول سعيد بن جبير. وقال ابن عباس (لا) تأكيد كقولك: لا والله. بلى والله ما كان كذا، فكأنه قال لا، اقسام بيوم القيامة ما الامر على ما توهموه. والقسام تأكيد الخبر بما جعله في حيز المتحقق. والمعنى اقسام بيوم القيامة ويوم القيامة هو النشأة الاخيرة التي تقوم فيها الناس من قبورهم للمجازاة، وبذلك سميت القيامة، ويومها يوم عظيم، على خطر عظيم جسيم.

وقوله (ولا اقسام بالنفس اللوامة) قسم ثان، ومعناه معنى الاول. وقال الحسن: أقسم تعالى بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة، بل نفى ان يقسم بها. قال الرماني: وهذا يضعف، لانه يخرج عن تشاكل الكلام. وقيل: ان جواب القسم محذوف، وتقديره ما الامر على ما تتوهمون. وقال قوم: جواب القسم قوله (بلى قادرين) واللوامة الكثيرة اللوم لقللة رضاها بالامر وتمييز ما يرضى مما لا يرضى، وما يلام عليه مما لا يلام عليه. وقال ابن عباس: اللوامة من اللوم.

وقال مجاهد: تلوم على ما مضى وفات. وقال قتادة: اللوامة الفاجرة، كأنه قال ذات اللوام الكثير. وقال سعيد بن جبير: هي التي تلوم على الخير والشر وقيل: معناه لاصبر لها على محن الدنيا وشدائدها، فهي كثيرة اللوم فيها. وقال

(١٩١)

الحسن: اللوامة هي التي تلوم نفسها على ما ضيعت من حق الله يوم القيامة، وهي نفس الكافر. وقيل: معناها أنها تلوم نفسها في الاخرة على الشر لم عملته وعلى الخير هلا استكثرت منه.

وقوله (ايحسب الانسان أن لن نجمع عظامه) صورته صورة الاستفهام ومعناه الانكار على من أنكر البعث والنشور، فقال الله له ايظن الانسان الكافر أن لن نجمع عظامه ونعيده إلى ما كان أولا عليه. ثم قال: ليس الامر على ما ظنه (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) قال ابن عباس: يجعل بنانه كالحف والحافر فيتناول المأكول بفيه، ولكننا مننا عليه. وقال قتادة كخف البحر او حافر الدابة. ونصب (قادرين) على أحد وجهين:

احدهما - على تقدير بلى نجمعها قادرين.

والاخر - بلى نقدر قادرين إلا أنه لم يظهر (نقدر) لدلالة (قادرين)

عليه، فاستغني به. وقيل: معناه بلى قادرين على ان نسوي بنانه حتى نعيده على ما كان عليه خلقا سويا.

وقوله (بل يريد الانسان ليفجر أمامه) اخبار منه ان الانسان يفجر أمامه ومعناه يمضي أمامه راكبا رأسه في هواه - في قول مجاهد - أي فهذا الذي يحمله على الاعراض عن مقدرات ربه، فلذلك لا يقر بالبعث والنشور. وقال الزجاج:

إنه يسوف بالتوبة ويقدم الاعمال السيئة. قال: ويجوز أن يكون المراد ليكفر بما قدامه من البعث بدلالة قوله (يسأل أيان يوم القيامة) فهو يفجر أمامه بأن يكذب بما قدامه من البعث. وقوله (يسأل أيان يوم القيامة) معناه ان الذي يفجر أمامه يسأل متى يكون يوم القيامة؟ فمعنى (أيان) (متى) إلا ان السؤال ب (متى) اكثر من السؤال ب (أيان)، فلذلك حسن ان يفسر بها لما دخلها من الابهام الذي يحتاج

(١٩٢)

فيه إلى بيان ما يتصل بها من الكلام. والسؤال على ضربين: سؤال تعجيز، وسؤال طلب للتبيين.

وقوله (فاذا برق البصر) فالبرق اللمعان بالشعاع الذي لا يلبث، لانه مأخوذ من البرق، يقال: برق يبرق برقا، وإنما قيل (برق البصر) لان ذلك يلحقه عند شدة الامر، والبارقة الذين تلمع سيوفهم إذا جردوها كالبرق، وانشد ابو عبيدة للكلابي:

لما اتاني ابن عمير راغبا * اعطيته عيسا صهابا فبرق (١)
بكسر الراء وانشد الفراء:

نعاني حنانة طوبا له * يسف يبسا من العشرق

فنفسك فانع ولا تتعنى * وداو الكلوم ولا تبرق (٢)

بالفتح، أي لا تفزع من هول الجراح، و (حنانة) اسم رجل و (طوبا) له نعجة، وقال ابن خالويه: من كسر قال: لان (برق) بالفتح لا يكون إلا في الضوء يقال برق البرق إذا لمع، وبرق الحنظل، فاما برق بالكسر، فمعناه تحير والذي قاله اهل اللغة إنهما لغتان، وتقول العرب، لكل داخل: برقة أي دهشة. وقال الزجاج: برق إذا فزع وبرق إذا حار.

وقوله (وخسف القمر) أي ذهب نوره بغيبة النور عن البصر، وخسف وكسف بمعنى كأنه يذهب نوره في خسف من الارض فلا يرى.

وقوله (وجمع الشمس والقمر) أي جمعا في ذهاب نورهما بما يراه الانسان والجمع جعل احد الشئيين مع الاخر. والجمع على ثلاثة اقسام: جمع في المكان، وجمع

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٧ والقرطبي ١٩ / ٩٤ (٢) فائله طرفة بن العبد ديوانه ٧٠ (دار بيروت) البيت الثاني فقط
(*)

(١٩٣)

في الزمان، وجمع الاعراض في المحل. وجمع الشئيين في حكم او صفة مجاز، وقوله (يقول الانسان يومئذ اين المفر) اخبار من الله تعالى بأن الانسان يقول في ذلك الوقت: اين المهرب؟ والفرار بفتح الفاء. وروي عن ابن عباس (أين المفر) بكسر الفاء، قال الزجاج: المفر بفتح الفاء مصدر، وبالكسر مكان الفرار. وهذا سؤال تعجيز عن وجود مفر يهرب اليه من عذاب الله في ذلك اليوم.

وقيل فيه معنى جواب هذا السائل، كأنه قيل يوم القيامة إذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر. والمفر مصدر. ويجوز فيه الكسر، ومثله مدب ومدب وقال البصريون: الكسر لمكان الفرار. وقال الفراء الفتح والكسر لغتان.
قوله تعالى:

(كلا لا وزر (١١) إلى ربك يومئذ المستقر (١٢) ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر (١٣) بل الانسان على نفسه بصيرة (١٤) ولو ألقى معاذيره (١٥) لا تحرك به لسانك لتعجل به (١٦) إن علينا جمعه وقرآنه (١٧) فاذا قرأناه فاتبع قرآنه (١٨)
ثم إن علينا بيانه (١٩) كلا بل تحبون العاجلة (٢٠) وتذرون الآخرة (٢١) وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (٢٣) ووجوه يومئذ باسرة (٢٤) تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥) خمس عشرة آية قرأ (كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة) بالياء فيهما ابن كثير (ج ١٠ م ٢٥ من التبيان)

(١٩٤)

وابوعمر و ابن عامر على وجه الاخبار عنهم. الباؤون بالتاء على وجه الخطاب لهم، لما حكى الله تعالى عن الكافر انه يقول يوم القيامة (اين المفر) والمهرب حكى ما يقال له، فانه يقال له (كلا لا وزر) أي لا ملجأ. والوزر الملجأ من جبل يتحصن به او غيره من الحصون المنيعه. ومنه الوزير المعين الذي يلجأ اليه في الامور، يقال وزرت الحائط إذا قويته بأساس يعتمد عليه. وقال ابن عباس ومجاهد: لا وزر، معناه لا ملجأ. وقال الحسن: لا جبل، لان العرب إذا دهمتهم الخيل بغته، قالوا: الوزر، يعنون الجبل، قال ابن الدمينه:

لعمرك ما للفتى من وزر * من الموت ينجو به والكبر (١)

وقال الضحاك: معناه لا حصن. وقيل معناه لا منجا ينجو اليه، وهو مثل الملجأ. ثم قال تعالى (إلى ربك يومئذ المستقر) أي المرجع الذي يفر فيه. ومثله المأوى والمثوى، وخلافه المرتحل. والمستقر على وجهين: مستقر إلى أمد، ومستقر على الأبد. وقوله (ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم واخر) أي يخبر بجميع ما عمله، وما تركه من الطاعات والمعاصي، فالنبأ الخبر بما يعظم شأنه، وحسن في هذا الموضع لان ما جرى مجرى اللغو والمباح لا يعتد به في هذا الباب. وإنما الذي يعظم شأنه من عمل الطاعة والمعصية هو ما يستحق عليه الجزاء. فأما ما وجوده كعدمه، فلا اعتبار به. والتقديم ترتيب الشئ قبل غيره. وضده التأخير وهو ترتيب الشئ بعد غيره، ويكون التقديم والتأخير في الزمان، وفي المكان، وفي المرتبة، كتقديم المخبر عنه في المرتبة، وهو مؤخر في الذكر، كقولك: في الدار زيد، وكذلك الضمير في (غلامه ضرب زيد) وهو مقدم في اللفظ ومؤخر في المرتبة. وقال ابن عباس: ينبأ بما قدم

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٧ والقرطبي ١٩ / ٩٦ (*)

(١٩٥)

من المعصية وأخر من الطاعة. وقال مجاهد: يعني بأول عمله وآخره. وقال ابن زيد: ما أخذ وترك. وفي رواية عن ابن عباس، وهو قول ابن مسعود: بما قدم قبل موته، وما اخر من سنة يعمل بها بعد موته، وقيل ما قدم وأخر جميع أعماله التي يستحق بها الجزاء. وقوله (بل الانسان على نفسه بصيرة) أي شاهد على نفسه بما تقوم به الحجة - ذكره ابن عباس - كما يقال: فلان حجة على نفسه. وقد قال تعالى (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (١) وقال الزجاج: معناه بل الانسان تشهد عليه جوارحه كما قال (يوم تشهد عليهم) (٢) والهاء في (بصيرة) مثل الهاء في (علامة) للمبالغة. وقيل شهادة نفسه عليه اولى من اعتذاره. وقيل تقديره بل الانسان على نفسه من نفسه بصيرة: جوارحه شاهدة عليه يوم القيامة ولو اعتذر كان شاهدا عليه من يكذب عذره. وقوله (ولو القى معاذيره) معناه ولو اقام الاعتذار عند الناس، وفي دار التكليف واستنسر بالمعاصي بارخاء الستر. وقال ابن عباس: معناه ولو اعتذر. وقال السدي: معناه ولو ارخى الستور وأغلق الابواب. وقال الزجاج: معناه لو أتى بكل حجة عنده. والمعاذير التتصل من الذنوب بذكر العذر، واحدها معذرة من قوله (لا ينفع الظالمين معذرتهم) (٣) وقيل: المعاذير ذكر مواقع تقطع عن الفعل المطلوب. والعذر منع يقطع عن الفعل بالامر الذي يشق. والاعتذار الاجتهاد في تثبيت العذر.

وقوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به) قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك: كان النبي (صلى الله عليه وآله) إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه،

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤ (٢) سورة ٢٤ النور آية ٢٤ (٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٥٢ (*)

(١٩٦)

فنهاه الله عن ذلك. والتحريك تغيير الشئ من مكان إلى مكان أو من جهة إلى جهة بفعل الحركة فيه والحركة ما به يتحرك المتحرك. والمتحرك هو المنتقل من جهة إلى غيرها. واللسان آلة الكلام. والعجلة طلب عمل الشئ قبل وقته الذي ينبغي أن يعمل فيه. ونقيضه الإبطاء، والسرعة عمل الشئ في أول وقته الذي هو له، وضده الإناة.

وقوله (إن علينا جمعه وقرآنه) قال ابن عباس والضحاك: معناه إن علينا جمعه في صدرك، وقرأته عليك حتى يمكنك تلاوته. وقال قتادة: معناه إن علينا جمعه في صدرك وتأليفه على ما نزل عليك. وقال ابن عباس - في رواية أخرى - إن معناه إن علينا بيانه من حاله وحرامه بذكره لك. وقال قتادة: معناه نذكر احكامه ونبين لك معناه إذا حفظته. وقال البلخي: الذي أختاره انه لم يرد القرآن وإنما اراد قراءة العباد لكتيبهم يوم القيامة، لأن ما قبله وبعده يدل على ذلك، وليس فيه شئ يدل على انه القرآن، ولا على شئ من أحكام الدنيا، وفي ذلك تقرير للعبد وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة. والقرآن من الضم والتأليف، قال عمرو بن كلثوم:

زراعي عيطل أدماء بكر * هجان اللون لم تقرأ جنينا (١)

أي لم تضم رحماً على ولد. وقوله (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) قال ابن عباس:

معناه إذا قرأناه أي تلوناه فاتبع قراءته بقرائتك، وقال قتادة والضحاك: معناه بأن يعمل بما فيه من الاحكام والحلال والحرام. وقيل: معناه فاذا قرأه جبرائيل عليك فاتبع قراءته. والاتباع مراجعة الثاني للاول في ما يقتضيه، ومثله الاقتداء والاحتذاء والائتمام، ونقيضه الخلف. والبيان إظهار المعنى للنفس بما يتمير به من غيره بان الشئ يبين إذا ظهر وأبانه غيره أي أظهره بيانا وإبانة، ونقيض البيان

(١) مر تخريجه في ٢ / ٢٣٨ (*)

(١٩٧)

الاخفاء والاعماض. وقال قتادة (ثم إن علينا بيانه) معناه إنا نبين لك معناه إذا حفظته.

وقوله (كلا بل تحبون العاجلة) معناه الاخبار من الله تعالى أن الكفار يريدون المنافع العاجلة ويركنون اليها ويريدونها (وتذرون الآخرة) أي وتتركون عمل الآخرة الذي يستحق به الثواب، وتفعلون ما يستحق به العقاب من المعاصي والمحارم.

ثم قسم تعالى اهل الآخرة فقال (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) أي مشرقة مضيئة، فالنضرة الصورة الحسنة التي تملأ القلب سرورا عند الرؤية نضر وجهه ينضر نضرة ونضارة فهو ناضر. والنضرة مثل البهجة والطلاقة، وضده العبوس والبسور، فوجوه المؤمنين المستحقين للثواب بهذه الصفة بما جعل الله عليها من النور علامة للخلق، والملائكة على انهم مؤمنون مستحقون الثواب. وقوله (إلى ربها ناظرة) معناه منتظرة نعمة ربها وثوابه ان يصل اليهم. وقيل (ناضرة)

أي مشرفة (إلى) ثواب ربها (ناظرة) وليس في ذلك تنغيص لان الانتظار إنما يكون فيه تنغيص إذا كان لا يوثق بوصوله إلى المنتظر أو هو محتاج اليه في الحال. والمؤمنون بخلاف ذلك، لانهم في الحال مستغنون منعمون، وهم ايضا وانفقون انهم يصلون إلى الثواب المنتظر. والنظر هو تقليب الحدقة الصحية نحو المرئي طلبا للرؤية ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى (واني مرسله اليهم بهدية فناظرة) (١) أي منتظرة وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات * إلى الرحمن تأتي بالفلاح (٢)
أي منتظرة للرحمة التي تنزل عليهم، وقد يقول القائل: انما عيني ممدودة

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٣٥ (٢) مر في ١ / ٢٢٩ (*)

(١٩٨)

إلى الله، والى فلان، وانظر اليه أي انتظر خيره ونفعه وأؤمل ذلك من جهته، وقوله (ولا ينظر اليهم يوم القيامة) (١) معناه لا ينيلهم رحمته. ويكون النظر بمعنى المقابلة، ومنه المناظرة في الجدل، ومنه نظر الرحمة أي قابله بالرحمة، ويقال: دور بني فلان تتناظر أي تتقابل، وهو وينظر إلى فلان أي يؤمله وينتظر خيره، وليس النظر بمعنى الرؤية اصلا، بدلالة انهم يقولون: نظرت إلى الهلال فلم أراه فلو كان بمعنى الرؤية لكان متناقضا، ولانهم يجعلون الرؤية غاية للنظر يقولون: مازلت أنظر إليه حتى رأيت، ولا يجعل الشيء غاية لنفسه لا يقال: مازلت أراه حتى رأيت، ويعلم الناظر ناظرا ضرورة، ولا يعلم كونه رائيا بل يسأل بعد ذلك هل رأيت أم لا؟ ودخل (إلى) في الآية لا يدل على ان المراد بالنظر الرؤية، ولا تعليقه بالوجوه يدل على ذلك، لانا أنشدنا البيت، وفيه تعليق النظر بالوجه وتعبه بحرف (إلى)

والمراد به الانتظار، وقال جميل بن معمر:

وإذا نظرت اليك من ملك * والبحر دونك جدتني نعماء (٢)

والمراد به الانتظار والتأمل، وايضا، فانه في مقابلة قوله في صفة اهل النار (تظن أن يفعل بها فاقرة) فالمؤمنون يؤمنون بتجديد الكرامة وينتظرون الثواب، والكفار يظنون الفاقرة، وكله راجع إلى فعل القلب، ولو سلمنا أن النظر يعد الرؤية لجاز أن يكون المراد أنها رؤية ثواب ربها، لان الثواب الذي هو انواع اللذات من المأكول والمشروب والمنكوح تصح رؤيته. ويجوز ايضا أن يكون إلى واحد إلا لاء وفي واحدها لغات (ألا) مثل قفا، و (ألى) مثل معى و (إلى) مثل حدى و (ألى)

مثل حسى، فاذا اضيف إلى غيره سقط التنوين، ولا يكون (إلى) حرفا في الاية وكل ذلك يبطل قول من أجاز الرؤية على الله تعالى.

(١) سورة آل عمران آية ٧٧ (٢) مر في ١ / ٢٢٩ (*)

(١٩٩)

وليس لاحد ان يقول: إن الوجه الاخير يخالف الاجماع، أعني اجماع المفسرين، وذلك لانا لا نسلم لهم ذلك، بل قد قال مجاهد وابوصالح والحسن وسعيد بن جبير والضحاك: إن المراد نظر الثواب. وروي مثله عن علي (عليه السلام)، وقد فرق اهل اللغة بين نظر الغضبان ونظر الراضي، يقولون: نظر غضبان، ونظر راض، ونظر عداوة ونظر مودة، قال الشاعر:

تخبرني العينان ما الصدر كاتم * ولا حن بالبعضاء والنظر الشزر

والرؤية ليست كذلك فانهم لا يضيفونها، فدل على أن النظر غير الرؤية، والمرئي هو المدرك، والرؤية هي الادراك بالبصر، والرائي هو المدرك، ولا تصح الرؤية وهي الادراك إلا على الاجسام او الجوهر او الالوان. ومن شرط المرئي أن يكون هو او محله مقابلا او في حكم المقابل، وذلك يستحيل عليه تعالى، فكيف تجيز الرؤية عليه تعالى؟! !! ثم ذكر القسم الاخر فقال (وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة)

يعني وجوه اهل الكفر. والبسور ظهور حال الغم في الوجه معجلا قبل الاخبار عنه ومثله العبوس إلا انه ليس فيه معنى التعجيل. والفاقرة الكاسرة لفقار الظهر بشدة ومثل الفاقرة الداهية والابدة. وقال الحسن: ناظرة بهجة حسنة. وقال مجاهد:

مسرورة. وقال ابن زيد: ناعمة. وقال مجاهد وقتادة: معنى باسرة كاشرة كالحة.

وقال مجاهد: الفاقرة الداهية. وقال ابن زيد الابدة بدخول النار.

قوله تعالى:

(كلا إذا بلغت التراقي (٢٦) وقيل من راق (٢٧) وظن أنه الفراق (٢٨) والتفت الساق بالساق (٢٩) إلى ربك يومئذ

(٢٠٠)

المساق (٣٠) فلا صدق ولا صلى (٣١) ولكن كذب وتولى (٣٢)
ثم ذهب إلى أهله يتمطى (٣٣) أولى لك فأولى (٣٤) ثم أولى لك فأولى (٣٥) أحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من مني يمى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (٣٩) أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى (٤٠) خمس عشرة آية.

قرأ ابن عامر وحفص ورويس (من مني يمى) بالياء على التذكير ردوه إلى المنى. الباقرن بالتاء حملا على النطفة.

يقول الله تعالى (كلا إذا بلغت) يعني النفس أو الروح، ولم يذكر لدلالة الكلام عليه كما قال (ماترك على ظهرها) (١) يعني على ظهر الأرض. وإنما لم يذكر لعلم المخاطب به، و (التراقي) جمع ترقوة وهي مقدم الحلق من أعلى الصدر، تترقى إليه النفس عند الموت، واليهما يترقى البخار من الجوف، وهناك تقع الحشرجة، وقوله (وقيل من راق) فالراق طالب الشفاء يقال: رقاه يرقيه رقية إذا طلب له شفاء باسماء الله الجليلة وآيات كتابه العظيمة. وأما العوذة فهي رفع البلية بكلمات الله تعالى. وقال ابوقلابة والضحاك وابن زيد وقتادة: معنى (راق) طيبب شاف.

أي اهله يطلبون له من يطيبه ويشفيه ويداويه فلا يجدونه. وقال ابن عباس وابو الجوزاء: معناه قالت الملائكة: من يرقا بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العقاب.

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٥ (*)

(٢٠١)

وقال الضحاك: أهل الدنيا يجهزون البدن، وأهل الآخرة يجهزون الروح.
وقوله (وظن أنه الفراق) معناه علم عند ذلك انه فراق الدنيا والاهل والمال والولد. والفراق بعد الالاف وهو ضد الوصال يقال: فارقه يفارقه فراقا.
وقد صار علما على تفرق الاحباب وتشتت الالاف.
وقوله (والتفت الساق بالساق) قال ابن عباس ومجاهد: معناه التفت شدة أمر الآخرة بأمر الدنيا. وقال الحسن: التفت حال الموت بحال الحياة. وقال الشعبي وابومالك: التفت ساقا

الانسان عند الموت - وفي رواية أخرى عن الحسن - انه قال: إلتفات الساقين في الكفن.
وقيل: ساق الدنيا بساق الاخرة. وهو شدة كرب الموت بشدة هول المطلاع. وقال الحسن: معناه
التفت شدة أمر الدنيا بشدة أمر الاخرة. وقيل: معناه اشتداد الامر عند نزع النفس حتى التفت
ساق على ساق عند تلك الحال، يقولون: قامت الحرب على ساق عند شدة الامر قال الشاعر:
فاذا شممت لك عن ساقها * فويها ربيع ولا تسأم (١)
وقوله (إلى ربك يومئذ المساق) معناه إن الخلائق يساقون إلى المحشر الذي لا يملك فيه
الامر. النهي غير الله. والمساق مصدر مثل السوق.
وقوله (فلا صدق ولا صلى) قال الحسن: معناه لم يتصدق ولم يصل (ولكن كذب) بالله
(وتولى) عن طاعته. وقال قوم (فلا صدق) بربه (ولا صلى)
وقال قتادة: معناه فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله (ولكن كذب) به (وتولى)
عن طاعته. وقال قوم: معناه (فلا صدق) بتوحيد الله، ولا نبيه بل كذب به.
والصدقة العطية للفقراء والزكاة الصدقة الواجبة على المال المعلق بنصاب مخصوص.

(١) تفسر الطبري ٢٩ / ١٠٧ وقد مر في ١٠ / ٨٧ (ج ١٠ م ٢٦ من التبيان) (*)

(٢٠٢)

والصلاة عبادة أولها التكبير وآخرها التسليم، وفيها قراءة وأركان مخصوصة. والتولي هو
الاعراض عن الشيء، فلما كان هذا الجاهل معرضاً عن الحق بتركه إلى خلافه من الباطل
لزمه الذم بهذا الوصف.
وقوله (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) فالتمطي تمدد البدن من الكسل إما كسل مرض او كسل
تثاقل عن الامر. والذم بكسل التثاقل عن الداعي إلى الحق. وقال مجاهد وقاتادة: معنى يتمطى
بتختر. وقيل: الاصل في يتمطى يلوي مطاه، والمطاء الظهر، ونهي عن مشية المطيطيا،
وذلك ان يلقي الرجل بدنه مع التكفي في مشيه.
وقيل: نزلت الاية في أبي جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي.
وقوله (أولى لك فاولى ثم اولى لك فاولى) قال قتادة: هو وعيد على وعيد. وقيل معنى (أولى
لك) وليك الشر يا أبا جهل، وقيل: معناه الذم اولى لك من تركه إلا انه حذف، وكثر في الكلام
حتى صار بمنزلة الويل لك. وصار من المتروك المحذوف الذي لا يجوز اظهاره. وقيل أولى
لك، فاولى لك على الاول والذم لك على الثاني والثالث. والاولى في العقل هو الاحق بالقرب
من داعي العقل، كأنه أحق بوليه.

ثم قال على وجه الوعيد والتهديد للكفار (ايحسب الانسان) ومعناه أیظن الانسان الكافر بالبعث والنشور الجاحد لنعم الله (أن يترك سدى) ومعناه أن يترك مهملا عن الامر والنهي، فالسدى همل من غير أمر يؤخذ به، ويكون فيه تقويم له، واصلاح لما هو أعود عليه في عاقبة أمره واجمل به في دنياه وآخرته.

وقال ابن عباس ومجاهد: معنى (أن يترك سدى) أي هملا لا يؤمر ولا ينهى.

وقيل: أیحسب الانسان أن يترك مهملا فلا يؤمر ولا ينهى مع كمال عقله وقدرته.

ثم قال على وجه التنبيه على أن الله خلقه للتكليف والعبادة، وعلى انه قادر

(٢٠٣)

على اعداته واحيائه بعد موته (ألم يك نطفة من مني يماني) فالمني نطفة الذكر التي يجيئ منها الولد (ثم كان علقة) أي قطعة من الدم المنعقد جامدة لا تجري فخلق الله منها هذا الانسان الذي هو في احسن تقويم، فسبحان من قدر على ذلك. وقوله (فخلق فسوى) أي خلق من العلقة خلق سويًا شق له السمع والبصر. وقال الفراء:

معنى (فسوى) فسواه (فجعل منه) من ذلك المني (الزوجين الذكر والانثى)

فمن قدر على ذلك لا يقدر على ان يحيي الموتى بعد ان كانوا أحياء؟! بلى والله قادر على ذلك، لان جعل النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما وكسو العظم لحما ثم إنشاؤه خلقا آخر حيا سليما مركبا فيه الحواس الخمس كل واحدة منها يصلح لما لا يصلح له الاخرى، وخلق الذكر والانثى اللذين يصح منهما التناسل على ما قدره الله أعجب وابدع من اعادة الميت إلى ما كان من كونه حيا، فمن قدر على الاول أولى بأن يكون قادرا على الثاني، فالاحياء ايجاد الحياة، والاماتة ايجاد الموت عند من قال أن الموت معنى، ومن قال: ليس بمعنى، قال: هو نقض بنية الحي على وجه الاختراع.

وقوله (فجعل منه) قيل يعني من الانسان (الزوجين الذكر والانثى) وقيل من المني (أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى) وقال قتادة: كان رسول الله صلى الله عليه واه له إذا ختم السورة، يقول: سبحانك الله بلى، وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبد الله (عليهما السلام) وفي الآية دلالة على صحة القياس العقلي، وهو أن من قدر على احياء الانسان قادر على احيائه بعد الاماتة، وقال الفراء: يجوز في العربية يحيي الموتى بالادغام بأن ينقل الحركة إلى الحاء وتدغم احدى اليائين في الاخرى وانشد:

وكانها بين النساء سبيكة * تمشي بسدة بيتها بتعي (١)

وتسمى سورة الانسان، وتسمى سورة الابرار، وهي مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما. وقال قوم: هي مدنية وهي احدى وثلاثون آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا (١) إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا (٢) إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا (٣) إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا (٤) إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا (٥) عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا (٦) يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا (٧) ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨) إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٩) إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا (١٠) عشر آيات.

قرأ (سلاسل) منونا نافع والكسائي وابوبكر عن عاصم اتباعا للمصحف

ولتشاكل ما جاوره من رأس الآية. الباقون بغير تنوين، لان مثل هذا الجمع لا ينصرف في معرفة ولا في نكرة، لانه على (فعائل) بعد الفه حرفان. يقول الله تعالى (هل أتى على الانسان) قال الزجاج: معناه ألم يأت على الانسان (حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) يعني قد كان شيئا إلا انه لم يكن مذكورا، لانه كان ترابا وطينا إلى أن نفخ فيه الروح. وقال قوم (هل) يحتمل معناه أمرين: احدهما - أن يكون بمعنى (قد أتى) والثاني أن يكون معناها أتى على الانسان، والاغلب عليها الاستقهام والاصل فيها معنى (قد) لتجرى على نظائرها بمعنى ضمن معنى الالف واصله من ذلك قول الشاعر:

أم هل كبير بكى لم تقض عبرته * أثر الاحبة يوم البين مشكوم
والمعنى بالانسان - ههنا - آدم - في قول الحسن - والمعنى قد أتى على آدم (حين من الدهر) وبه قال قتادة وسفيان. وقيل: ان آدم لما خلق الله جنته بقي أربعين سنة لم تلج فيه الروح كان شيئا، ولم يكن مذكورا، فلما نفخ فيه الروح وبلغ إلى ساقه كاد ينهض للقيام، فلما بلغ عينيه ورأى ثمار الجنة بادر اليها ليأخذها فلذلك قال الله تعالى (خلق الانسان من عجل) (١) وقال غيره: هو واقع على كل إنسان، والانسان في اللغة حيوان على صورة الانسانية، وقد تكون الصورة الانسانية، ولا إنسان، وقد يكون حيوان ولا إنسان، فاذا حصل المعنيان صح إنسان لا محالة. والانسان حيوان منتصب القامة على صورة تنفصل من كل بهيمة.

و (الحين) مدة من الزمان، وقد يقع على القليل والكثير. قال الله سبحانه (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) (٢) أي وقت تمسون ووقت تصبحون. وقال (تؤتي أكلها كل حين) يعني كل ستة أشهر، وقال قوم: كل سنة. وقال - ههنا

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٧ (٢) سورة ٣٠ الروم آية ١٧ (*)

(٢٠٦)

(هل أتى على الانسان حين) أي مدة طويلة. والدهر مرور الليل والنهار وجمعه أدهر ودهور، والفرق بين الدهر والوقت أن الوقت مضمن بجعل جاعل، لان الله جعل لكل صلاة مفروضة وقتا، وجعل للصيام وقتا معيناً، وقد يجعل الانسان لنفسه وقتا يدرس فيه ما يحتاج إلى درسه ووقتا مخصوصا لغذائه.

وقوله (لم يكن شيئاً مذكوراً) أي لم يكن ممن ذكره ذاكراً، لانه كان معدوماً غير موجود، وفي الآية دلالة على أن المعدوم لا يسمى شيئاً، وإنما سمي زلزلة الساعة شيئاً مجازاً. والمعنى إنها إذا وجدت كانت شيئاً عظيماً.

وقوله (إنا خلقنا الانسان من نطفة) اخبار من الله تعالى أنه خلق الانسان سوى آدم وحواء من نطفة، وهو ماء الرجل والمرأة الذي يخلق منهما الولد، فالنطفة الماء القليل في أناء كان او غير إناء قال الشاعر:

وما النفس إلا نطفة بقراره * إذا لم تكدر صار صفواً غديرها

وقوله (امشاج) قال ابن عباس أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة. وقال الحسن والربيع بن أنس ومجاهد مثل ذلك. وقال قتادة: معنى أمشاج أطوار طورا نطفة وطورا مضغة وطورا عظما إلى أن صار إنسانا ليختبره بهذه الصفات. وقال مجاهد: معناه ألوان النطفة. وقال عبدالله: عروق النطفة وواحد الامشاج مشيج، وهو الخلط، وسمى النطفة بذلك، لانه جعل فيها اخلاطاً من الطبائع التي تكون في الانسان من الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة. ثم عداها له، ثم بناه البنية الحيوانية المعدلة الاخلاط. ثم جعل فيها الحياة ثم شق له السمع والبصر فنتبارك الله رب العالمين، وذلك قوله (فجعلناه سميعاً بصيراً).

وقوله (نبتليه) أي نختبره بما نكلفه من الافعال الشاقة لننظر ما طاعته وما عصيانه فنجازيه بحسب ذلك، ويقال مشجت هذا بهذا إذ اخلطته به، وهو ممشوج به

(٢٠٧)

ومشيج أي مخلوط به قال رؤبة:

يطرحن كل معجل نشاج * لم تكس جلدا في دم أمشاج (١)

وقال ابو ذؤيب:

كأن الريش والفوقين منه * خلاف النصل سيط به مشيج (٢)

وقوله (إنا هديناه السبيل) معناه انا أرشدناه إلى سبيل الحق وبيناه له ودللناه عليه. وقال الفراء: معناه هديناه إلى السبيل أو للسبيل. والمعنى واحد.

وقوله (اما شاكرا واما كفورا) قال الفراء: معناه إن شكر وإن كفر على الجزاء ويجوز أن يكون مثل قوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) (٣) والمعنى اما يختار يحسن اختياره الشكر لله تعالى والاعتراف بنعمه فيصيب الحق، واما أن يكفر نعمه ويجحد إحسانه فيكون ضالا عن الصواب، وليس المعنى انه مخير في ذلك، وإنما خرج ذلك مخرج التهديد، كما قال (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٤) بدلالة قوله (انا اعتدنا للظالمين نارا) وإنما المراد البيان عن انه قادر عليهما فابهما اختار جوزي بحسبه.

وفي الاية دلالة على انه تعالى قد هدى جميع خلقه المكلفين، لان قوله (انا هديناه السبيل) عام في جملتهم وذلك يبطل قول المجبرة: إن الله لم يهد الكافر بنصب الدلالة له على طريق الحق واجتتاب الباطل، وليس كل من ترك الشكر كان كافرا، لانه قد يترك في بعض الاحوال على سبيل التطوع، لان الشكر قد يكون تطوعا كما يكون واجبا، وإنما لم يذكر الله الفاسق، لانه اقتصر على اعظم الحاليين

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٩ والطبرى ٢٩ / ١٠٩ (٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٩ والقرطبي ١٩ / ١١٩ (٣) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧ (٤) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩ (*)

(٢٠٨)

وأحق الادون على التبع، ويجوز أن يدخل في الجملة، ولا يفرد، فليس للخوارج أن يتعلقوا بذلك في انه ليس بين الكفر والايمان واسطة. ثم بين انه تعالى إنما ذكره على وجه التهديد بقوله (انا اعتدنا للكافرين) أي ادخرنا لهم جزاء على كفرهم ومعاصيهم وعقوبة لهم (سلاسل وأغلالا وسعيرا) يعذبهم بها يعاقبهم فيها، والسلاسل جمع سلسلة والاغلال جمع غل، والسعير هي النار المسعرة الملهبة.

ولما اخبر بما للكافرين من العقوبات على كفرهم، ذكر ايضا ما للمؤمنين على ايمانهم فقال (إن الابرار) وهو جمع البر، وهو المطيع لله المحسن في أفعاله (يشربون من كأس) والكاس اناء الشراب إذا كان فيه، ولا يسمى كأسا إذا لم يكن فيه شراب - ذكره الزجاج - قال الشاعر:

صددت الكأس عنا أم عمرو * وكان الكأس مجراها اليمينا (١)

وقوله (كان مزاجها كافورا) قيل ما يشم من ريحها لا من جهة طعمها وقوله (عينا يشرب بها عباد الله) قوله (عينا) نصب على البدل من (كافورا) ويجوز أن يكون على تقدير ويشربون عينا، ويجوز أن يكون نصبا على الحال من (مزاجها)
وقال الزجاج: معناه من عين. وقال الفراء: شربها وشرب منها سواء في المعنى كما يقولون: تكلمت بكلام حسن وكلاما حسنا. وقيل: يمزج بالكافور، ويختم بالمسك وقيل: تقديره يشربون بها وأنشد الفراء:

شربن بماء البحر ثم ترفعت * متى لجج خضر لهن نثيج (٢)
متى لجج. أي من لجج. وعين الماء حفيرة في الأرض ينبع منها، وهذه العين المذكورة في أرض الجنة في كونها فوارة بالماء متعة، لا أهلكها. ثم يفجر فيجري لهم

(١) القرطبي ١٩ / ١٢٣ والشوكاني ٥ / ٣٣٦ (٢) الطبري ٢٩ / ١١٢ والقرطبي ١٩ / ١٢٥ (*)

(٢٠٩)

إلى حيث شأوا منها. قال مجاهد: معناه إنهم يقودونها حيث شأوا والتفجير تشقيق الأرض بجري الماء ومنه انفجار الصبح، وهو انشقاقه من الضوء، ومنه الفجور، وهو الخروج من شق الائتنام إلى الفساد. وعباد الله المراد به المؤمنون المستحقون للثواب ثم وصف هؤلاء المؤمنين فقال (يوفون بالندر ويخافون) ويجوز أن يكون ذلك في موضع الحال، فكأنه قال يشرب بها عباد الله الموفون بالندر الخائفون (يوما كان شره مستطيرا) فالمستطير الظاهر. والتقدير القائلون إنما نطعمكم القائلون إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا فمطريرا، ويجوز أن يكون على الاستئناف، وتقديره هم الذين يوفون بالندر وكذلك في ما بعد، فالوفاء بالندر هو أن يفعل ما نذر عليه فالوفاء إمضاء العقد على الأمر الذي يدعو إليه العقل، ومنه قوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) (١) أي الصحيحة، لأنه لا يلزم أحدا أن يفي بعقد فاسد، وكل عقد صحيح يجب الوفاء به، يقال أوفي بالعقد، ووفى به، فأوفي لغة أهل الحجاز وهي لغة القرآن، و (وفى) لغة أهل تميم وأهل نجد، وقد بينا فيما مضى شواهد.

والندر عقد على فعل على وجه البر بوقوع أمر يخاف ألا يقع، نذر ينذر نذرا فهو ناذر، وقال عنتر:

الشامي عرضي ولم أشتمها * والناذرين إذا لم ألقهمادمي (٢)
أي يقولان: لئن لقينا عنتر لنقتلنه، ومنه الإنذار وهو الإعلام بموضع المخافة ليعقد على التحرز منها. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال (لانذر في معصية)

وعند الفقهاء إن كفارة النذر مثل كفارة اليمين. والذي رواه أصحابنا إن كفارة النذر مثل كفارة الظهار، فإن لم يقدر عليه كان عليه كفارة اليمين. والمعنى انه إذا

(١) سورة ٥ المائدة آية (١) مر في ٤ / ٥٢٦ (ج ١٠ م ٢٧ من التبيان) (*)

(٢١٠)

فات الوقت الذي نذر فيه صار بمنزلة الحنث. وقوله (ويخافون يوما) من صفة المؤمنين (كان شره مستطيرا) أي منتشرا فاشيا ذاهبا في الجهات بلغ أقصى المبالغ، قال الاعشى:

فبانئت وقد أورثت في الفؤا * د صدعا على نأيها مستطيرا (١)

والمراد بالشر - ههنا - أهوال القيامة وشدائدها.

وقوله (ويطعمون الطعام على حبه) قال مجاهد: معناه على شهوتهم له، ويحتمل أن يكون المراد على محبتهم لله (مسكينا) أي يطعمونه فقيرا (ويتيما)

وهو الذي لا والد له من الاطفال (واسيرا) والاسير هو المأخوذ من أهل دار الحرب - في قول قتادة - وقال مجاهد: وهو المحبوس. وقوله (إنما نطعمكم لوجه الله) اخبار عما يقوله المؤمنون بأننا إنما نطعمكم معاشر الفقراء واليتامى والاسرى لوجه الله، ومعناه الله، وذكر الوجه الذكره بأشرف الذكر تعظيما له، ومنه قوله (فاينما تولوا فثم وجه الله) وقيل: معناه فثم جهة الله التي ولاكم اليها ومنه قوله (ويبقى وجه ربك) (٢)

أي ويبقى الله. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: علم الله مافي قلوبهم فأنتى عليهم من غير أن يتكلموا به (لا نريد منكم جزاء) أي لا نطلب بهذا الاطعام مكافأة عاجلة (ولا شكورا) أي لا نطلب أن تشكرونا عليه عند الخلاق بل فعلناه لله (إننا نخاف من ربنا) أي من عقابه (يوما عبوسا) أي مكفهر عابسا (قمطيرا) أي شديدا، والقمطير الشديد في الشر. وقد اقمطر اليوم اقمطرا، وذلك أشد الايام وأطولها في البلاء والشر، ويوم قمطير وقماطير كأنه قد التف شر بعضه على بعض، قال الشاعر:

(١) ديوانه ٨٥ (دار بيروت)

(٢) سورة ٥٥ الرحمن آية ٢٧ (*)

(٢١١)

بني عمنا هل تذكرون بلاعنا * عليكم إذا ما كان يوم قماطر (١)

وقد روت الخاصة والعامة أن هذه الايات نزلت في علي (عليه السلام) وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، فانهم آثروا المسكين واليتيم والاسير ثلاث ليال على إفطارهم وطووا (عليهم السلام)، ولم يفطروا على شئ من الطعام فأثنى الله عليهم هذا الثناء الحسن، وأنزل فيهم هذه السورة وكفاك بذلك فضيلة جزيلة تتلى إلى يوم القيامة، وهذا يدل على أن السورة مدنية. قوله تعالى:

(فوقهم الله شر ذلك اليوم ولقيهم نضرة وسرورا (١١))

وجزيهم بما صبروا جنة وحريرا (١٢) متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا (١٣) ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا (١٤) ويطاق عليهم باثية من فضة وأكواب كانت قواريرا (١٥) قوارير من فضة قدروها تقديرا (١٦) ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (١٧) عينا فيها تسمى سلسبيلا (١٨) ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا (١٩) وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا (٢٠) عشر آيات. قرأ الشعبي وعبيد بن عمير (قدروها) بضم القاف. الباقر بفتحها. من فتح القاف قال معناه قدروها في أنفسهم، فجاءت كما قدروا، ومن ضم أراد ان

(١) الشوكاني ٥ / ٣٣٨ والقرطبي ١٩ / ١٣٣ (*)

(٢١٢)

ذلك قدر لهم أي قدره الله لهم كذلك. قرأ نافع والكسائي وابوبكر عن عاصم (قواريرا قواريرا) بالتثوين فيهما. وقرأ بغير تثوين ولا الف في الوقف حمزة وابن عامر، وقرأ الاولى بالتثوين والثانية بغير تثوين ابن كثير. وقرأ ابو عمرو فيهما بغير تثوين إلا انه يقف عليه بالالف. من نون الاولى اتبع المصحف، ولانه رأس آية، ثم كرهوا أن يخالفوا بينهما فنونوا الثانية، وكذلك قرأ الكسائي (ألا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) (١) صرفهما لثلا بخالف بينهما مع قربهما، ومن لم يصرفهما فعلى موجب العربية، لانه جمع على (فواعيل) بعد ألفه حرفان. ومن صرف الاولى فلانها رأس آية ولم يصرف الثانية على أصل العربية.

لما اخبر الله تعالى عن المؤمنين الذين وصفهم في الايات الاولى وما اوفوا به من النذر في إطعامهم لوجه الله ما اطعموه وإيثارهم على نفوسهم المسكين واليتيم والاسير وإنهم فعلوا ذلك لوجه الله خالصا، ومخافة من عذاب يوم القيامة، اخبر بما أعد لهم من الجزاء على ذلك، فقال (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) أي كفاهم الله ومنع عنهم أهوال يوم القيامة وشدائده، فالوقاء المنع من الاذى يقال: وقاه يقيه وقاء، فهو واق، ووقاه توقية قال رؤبة.

إن الموقى مثل ما وقيت (٢)

ومنه اتقاء اتقاء وتوقاه توقيا، والشر ظهور الضر، وأصله الظهور من قولهم:

وحتى أشرت بالاكف المصاحف (٣)

أي اظهرت، ومنه شررت الثوب إذا اظهرته للشمس او الريح، ومنه شرار

(١) سورة ١١ هود آية ٦٨ (٢) اللسان (وقى)

(٣) قاتله كعب بن جعيل، مقاييس اللغة ٣ / ١٨١ وصدده:

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم (*)

(٢١٣)

النار لظهوره بتطاييره وانتشاره، وقيل: الشر الضر والقبيح، ويستعار في غيره، وليس ما
يوجب هذا. والمراد - ههنا - أهوال يوم القيامة وشدائده فالوقاء المنع من الاذى يقال: وقاه
يقيه وقاه فهو واق ووقاه توقية وقوله (ولقاهم نضرة وسرورا)

معنى لقاهم استقبلهم به، والنضرة حسن الالوان، ومنه نبت نضر وناصر ونضر والنضار
الذهب. وقيل: ناضرة ناعمة. وقيل: حسنة الصورة. والسرور اعتقاد وصول المنافع اليه في
المستقبل. وقال قوم: هو لذة في القلب بحسب متعلقه بما فيه النفع، سره يسره سرورا وكل
سرور فلا بدله من متعلق، كالسرور بالمال والولد والسرور بالاكرام والالجال، والسرور
بالشكر والحمد، والسرور بالثواب.

وقوله (وجزاهم بما صبروا) أي كافاهم واثابهم على صبرهم على محن الدنيا وشدائدها وتحمل
مشاق التكليف (جنة) أي بستانا أجنة الشجر (وحريرا)

يلبسونه. وقوله (متكئين) نصب على الحال (فيها) يعني في الجنة (على الارائك) وهي الحبال
فيها الاسرة - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - واحدها اريكة وهي الحجلة سرير عليه
شبه القبة. وقال الزجاج: الاريكة كل ما يتكأ عليه من مسورة أو غيرها، وقد شوق الله تعالى
إلى تلك الحال وهي غاية الرفاهية والامتع (لايرون فيها) يعني في الجنة (شمسا) يتأذون
بحرها (ولازمهيريرا)

يتأذون ببرده، فالزمهيريرا شد ما يكون من البرد، وقال مجاهد: الزمهيرير البرد الشديد وقوله
(ودانية عليهم ظلالها) يعني افياء اشجار تلك الجنة قريبة منهم، ونصب (دانية) بالعطف على
(متكئين) ويجوز ان يكون عطف على موضع (لايرون فيها شمسا) فان موضعها النصب على
الحال، ويجوز على المدح كقولهم عند فلان جارية جميلة وشابة طرية. وقوله (وذلت قطوفها

تذليلاً) معناه إن قام ارتفعت بقدره الله وإن قعد نزلت حتى ينالها وإن اضطجع نزلت حتى ينالها - ذكره مجاهد - وقيل: معناه لا يرد

أيديهم عنها بعد ولا شوك.

وقوله (ويطاف عليهم) يعني على هؤلاء المؤمنين الذين وصفهم الله (بأنية من فضة واكوب) وهو جمع كوب وهو إناء الشراب من غير عروة. وقال مجاهد: الاكواب الاقداح. وقال ابن عباس ومجاهد: هي صغار القوارير وهي فضة، فلذلك قال (كانت قواريرا) وقيل: الاكواب الاباريق التي ليس لها خراطيم. وقيل: الاكواب من فضة في صفاء القوارير لا تمنع الرؤية. وقوله (قوارير من فضة) أي هي من فضة. وقوله (قدروها تقديرا) معناه إنها على قدر ما يشتهون من غير زيادة ولا نقصان حتى تستوفي الكمال، ويجوز ان يكونوا قدروها قبل مجيئها على صفة فجاءت على ما قدرها جنسه لشبه التمني، وقال الحسن: على قدرهم، والتقدير وضع المعنى على المقدار الذي يتخيل فيه المساواة للاعتبار بالمعاني العقلية بقدر عرف التقدير على طريقة لو كان كذا لكان كذا، وإذا كان كذا كان كذا، وبهذا يظهر القياس يميز به ما يلزم على الاصل مما لا يلزم، والطوف الدور بالنقل من واحد إلى واحد. وقد يكون الدور بالطبع من غير تنقل من واحد إلى آخر، فلا يكون طوفا، طاف يطوف طوفا، واطاف بها إطفافة وتطوف تطوفا واطوف اطوفا وقوله (ويسقون فيها) يعني في الجنة (كأسا) وهي الانية إذا كان فيها شراب (كان مزاجها زنجبيل) فالزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعم يلذع اللسان يربى بالعسل يستدفع به المضار إذا مزج به الشراب فاق في الالذاذ. والعرب تستطيب الزنجبيل جدا قال الشاعر:

كأن القرنفل والزنجبي * ل باتا بفيها واريا مشورا (١)

قيل: إن هذا الشراب في برد الكافور وذكاء المسك ولذع الزنجبيل، كما

(١) قاتله الاعشى ديوانه ٨٥ واللسان (شور) وفيه اختلاف في الرواية. (*)

قال في صفة القوارير إنها في صفاء الفضة وجوهرها يرى ما وراءها كالقوارير. وقيل: الكافور والزنجبيل من اسماء العين التي يسقون منها وقوله (عينا) نصب على انه بدل من الزنجبيل (فيها تسمى سلسبيلا) فالسلسبيل الشراب السهل اللذيذ، وقيل: سلسبيل معناه منقاد ماؤها حيث شأوا - عن قتادة - وقيل شديد الحربة.

وقيل: يتسلسله. وقيل: سمي سلسبيلا من لزوم الطيب والالذاذ بها، وانشد يونس:

صفراء من نبع يسمى سهمها * من طول ماصرع الصيود الصيب (١)

فرغ الصيب على صفة السهم. وقيل: اسم العين معرفة إلا أنه نون لانه رأس آية. ثم قال (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) قال قتادة: لا يموتون. وقال الحسن: خلدوا على هيئة الوصفاء، فلا يشبون أبدا. وقيل: مخلدون مستورون بلغة حمير قال بعض شعرائهم:

ومخلدات باللجين كأنما * اعجازهن اقواز الكتبان (٢)

وكانه يرجع إلى بقاء الحسن (إذا رأيتهم) يعني إذا رأيت هؤلاء الولدان (حسبتهم لؤلؤا منثورا) أي من كثرتهم وحسنهم، فكأنهم اللؤلؤ المنثور - ذكره قتادة - وقوله (وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا) تقديره وإذا رأيت الأشياء ثم رأيت نعيما لاهل الجنة عظيما وملكا كبيرا. قال سفيان: من الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم واستقبالهم لهم بالتحية. وقوله (وإذا رأيت ثم ف (ثم)

يريد به الجنة. والعامل فيه معنى (رأيت) وتقديره وإذا رأيت ببصرك ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا. وقال الفراء: وإذا رأيت ما ثم رأيت نعيما. وانكره الزجاج وقال (ما) موصولة يتم على تفسيره، ولا يجوز اسقاط الموصول مع بقاء الصلة، ولكن (رأيت) متعد في المعنى إلى (ثم).

(١) تفسير الطبري ٢٩ / ١١٨ (٢) مقاييس اللغة ٢ / ٢٠٨ واللسان (خلد، قوز) (*)

(٢١٦)

قوله تعالى:

(عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقيهم ربهم شرابا طهورا (٢١) إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا (٢٢) إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا (٢٣) فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٢٤)

واذكر اسم ربك بكرة واصيلا (٢٥) ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا (٢٦) إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (٢٧) نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا (٢٨) إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا (٢٩) وماتشؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما (٣٠)

يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما (٣١)

أحدى عشرة آية.

قرأ (عاليهم) باسكان الياء أهل المدينة وحمزة وعاصم - في رواية حفص وأبان والمفضل - جعلوه اسما لا ظرفا كما تقول: فوقك واسع ومنزلك باب البرد، بأن يجعل الباب هو المنزل، وكذلك يجعل الثياب هي العالي. الباقون بالنصب على الظرف، لانه ظرف مكان. وهو

الاحسن، لأن الثاني غير الأول. وإنما يجوز في مثل ما كان آخر الكلام هو الأول كقولهم:
أمامك صدرك، وفوقك رأسك،

(٢١٧)

فان قلت فوقك السقف وأمامك الاسد بالنصب لا غير. وقرأ نافع وحفص عن عاصم (خضر
واستبرق) بالرفع فيهما. وقرأ حمزة والكسائي بالجر فيهما. وقرأ ابن كثير وعاصم - في
رواية أبي بكر (خضر) جراً (واستبرق) رفعا. وقرأ ابن عامر وابوعمر و (خضر) رفعا و
(استبرق) جراً، من رفعهما جعل (خضر) نعتاً للثياب، وعطف عليه (واستبرق) ومن جرهما
جعل (خضر) من نعت (سندس) وعطف عليه (استبرق) وتقديره عاليهم ثياب استبرق. ومن
رفع الأول جعله من نعت الثياب وجر الثاني على انه عطف على (سندس) كأن عاليهم ثياب
سندس. ومن جعل (خضر) نعتاً ل (سندس)، فلانه اسم جنس يقع على الجميع، فلذلك قال
(خضر) ومن جعله نعتاً للثياب فعلى اللفظ. وقرأ ابن كثير وابوعمر و (وما يشاؤون) بالياء على
الخبر عن الغائب. الباقر بالتاء على الخطاب.

لما قال الله تعالى على وجه التعظيم لشأن المؤمنين الذين وصفهم وعظم ما اعطوا من أنواع
النعيم والولدان وأنواع الشراب وغير ذلك مما وصف، ووصف ذلك بأنه ملك كبير قال
(عاليهم) وقيل معناه عالي حجالهم السندس. وفي نصب (عاليهم) قولان: قال الفراء: هو
نصب على الظرف كقولك: فوقهم، وحكى ان العرب تقول: قومك داخل الدار. وانكر الزجاج
ذلك وقال نصبه لا يجوز إلا على الحال من الضمير في (عاليهم) او من ضمير الولدان في
(رايتهم) وانما انكر ذلك لانه ليس باسم مكان كقولك هو خارج الدار وداخل الدار، وهذا
لايجوز على الظرف عند سيبويه، وما حكاه الفراء شاذلاً يعول عليه. ومن أسكن الياء أراد
رفعه على الابتداء وخبره (ثياب سندس) والسندس الديباج الرقيق الفاخر الحسن (ج ١٠ م ٢٨
من التبيان)

(٢١٨)

وهو (فعل) مثل برثن. وقوله (خضر) فمن جر جعله صفة ل (سندس) خضر ووصف
(سندس) بخضر وهو لفظ جمع، لان سندس اسم جنس يقع على الكثير والقليل. ومن رفعه جعله
نعتاً ل (ثياب) كأنه قال: ثياب خضر من سندس.

وقوله (واستبرق) من رفعه عطفه على (ثياب سندس) فكأنه قال عاليهم ثياب سندس، وعاليهم
استبرق. ومن جر عطفه على (سندس) فكأنه قال: عاليهم ثياب سندس وثياب استبرق.

والاستبرق الديباج الغليظ الذي له بريق، فهم يتصرفون في فاخر اللباس كما يتصرفون في لذيذ الطعام والشراب. وقيل الاستبرق له غلظ الصفاقة لا غلظ السلك كغلظ الديبقي، وإن كان رقيق السلك.

وقوله (وحلوا اساور من فضة) فالتحلية الزينة بما كان من الذهب والفضة والتحلية تكون للانسان وغير الانسان كحلية السيف وحلية المركب والفضاضة الشفافة هي التي يرى ما وراءها كما يرى البلورة، وهي أفضل من الدر والياقوت، وهما افضل من الذهب فتلك الفضة افضل من الذهب، والفضة والذهب في الدنيا هما أثمان الاشياء، وإن كان قد ثمن بغيرهما شاذًا. وقيل: يحلون الذهب تارة وتارة الفضة ليجمعوا محاسن الحلية، كما قال تعالى (يحلون فيها من اساور من ذهب) (١) والفضة وإن كانت دنية في الدنيا، فهي في غاية الحسن خاصة إذا كانت بالصفة التي ذكرها والغرض في الاخرة ما يكثر الالتذذ والسرور به لا باكثر الثمن، لانه ليست هناك أثمان. وفي الناس من ترك صرف (استبرق) وهو غلط، لان الاعجمي إذا عرب في حال تنكيره انصرف، ودليله الاستبرق، وهما مما يحكى عن ابن محيص.

وقوله (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) قيل معناه يسقون شرابا طهورا ليس

(١) سورة الكهف آية ٣١ وسورة الحج آية ٢٢ وسورة ٢٣ وسورة ٣٥ فاطر آية ٣٣ (*)

(٢١٩)

كالذي يخالطه الانجاس من أنهار الدنيا. وإن قل ذلك وكان مغمورا. وقيل انه ليس كشراب الدنيا الذي قد نجسه الفساد الذي فيه، وهو السكر الداعي إلى القبائح، فقد طهره الله في الجنة من ذلك لتخلص به اللذة، كما قال (من خمر لذة للشاربين) (١) وقيل: شرابا طهورا لا ينقلب إلى البول بل يفيض من أعراضهم كرشح المسك ذكره ابراهيم التيمي.

وقوله (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) اخبار من الله تعالى انه يقال للمؤمنين إذا فعل بهم ما تقدم من انواع اللذات وفنون الثواب: إن هذا كان لكم جزاء على طاعاتكم واجتتاب معاصيكم في دار التكليف، وإن سعيكم في مرضات الله وقيامكم بما أمركم الله به كان مشكورا أي جوزيتم عليه، فكأنه شكر لكم فعلكم.

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال (إنا نحن نزلنا عليك) يا محمد (القرآن تنزيلا) فيه شرف وتعظيم لك. ثم أمره بالصبر على ما أمره من تحمل اعباء الرسالة فقال (فاصبر) يا محمد (لحكم ربك ولا تطع منهم) يعني من قومه الذين بعث اليهم (آثما او كفورا) وهو نهى عن الجمع والتفريق

أي لا تطع آثما ولا كفورا، كما يقول القائل: لا تفعل معصية صغيرة او كبيرة أي لا تفعلهما ولا واحدة منهما.

ثم امره بان يذكر الله بما يستحقه من الصفات والاسماء الحسنی، فقال (واذكر اسم ربك بكرة واصيلا) والبكرة الغداة والاصيل العشي، وهو اصل الليل وجمعه آصال. وقوله (ومن الليل فاسجد) دخلت (من) للتبويض بمعنى فاسجد له في بعض الليل، لانه لم يأمره بقيام جميع الليل، كما قال (إن ربك يعلم أنك تقوم ادنى من

(١) سورة ٤٧ محمد آية ١٥ (*)

(٢٢٠)

تثني الليل ونصفه وتثته) (١) والسجود وضع الجبهة على الارض على وجه الخضوع وأصله الانخفاض كما قال الشاعر:

ترى الاكم فيها سجدا للحوافر (٢)

والسجود من العبادة التي اكد الله الامر بها لما فيها من صلاح العباد. ثم قال (وسبحه ليلا طويلا) أي نزهه عمالا يليق به في الليل الطويل. ثم قال (إن هؤلاء) يعني الكفار والذين يجحدون نبوتك (يحبون العاجلة) أي يؤثرون اللذات والمنافع العاجلة في دار الدنيا من ارتكاب شهواتهم. والعاجلة المقدمة قبل الكرة الثانية (ويذرون) أي ويتركون (وراءهم) أي خلفهم (يوما ثقيلًا) أي هو ثقيل على اهل النار أمره، وإن خف على اهل الجنة للبشارة التي لهم فيه. والتفيل ما فيه اعتمادات لازمة إلى جهة السفلى على جهة يشق حمله. وقد يكون ثقيلًا على انسان خفيفا على غيره بحسب قدرته، فيوم القيامة مشبه بهذا. وقيل: معنى (وراءهم) أي خلف ظهورهم العمل للاخرة. وقيل (وراءهم) أمامهم الاخرة، وكلاهما محتمل، والاول أظهر.

ثم قال تعالى (نحن خلقناهم) أي نحن الذين اخترعنا هؤلاء الخلائق (وشددنا أسرهم) قال ابن عباس الاسر الخلق، وهو من قولهم: أسر هذا الرجل فأحسن اسره أي خلق فأحسن خلقه أي شد بعضه إلى بعض أحسن الشد، وقال ابوهريرة:

الاسر المفاصل. وقال ابن زيد: الاسر القوة. وقولهم: خذ بأسره أي بشده قبل ان يحل، ثم كثر حتى جاء بمعنى خذ جميعه قال الاخطل:

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠ (٢) مر في ١ / ١٤٨، ٢٦٣، ٣١١ و ٤ / ٢٣٣، ٣٨٣ و ٦ / ٩٥ وغيرها (*)

(٢٢١)

من كل مجتلب شديد أسره * سلس القياد تخاله مختالا (١)

واصل الاسر الشد، ومنه قتب مأسور أي مشدود، ومنه الاسير، لانهم كانوا يشدونهم بالقيد، وجاء في التفسير وشددنا مفاصلهم. ثم قال (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) معناه إذا شئنا أهلكتنا هؤلاء وأمثالهم وجئنا بقوم آخرين بدلهم نخلفهم ونوجدهم.

وقوله (إن هذه تذكرة) قال قتادة: معناه إن هذه السورة تذكرة، والتذكرة دلالة تخص بها المعاني الحكمية، وكل موعظة تدعو إلى مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال تذكرة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أي اتخذ إلى رضا ربه طريقا بأن يعمل بطاعته وينتهي عن معصيته، وذلك يدل على انه قادر على ذلك قبل ان يفعله بخلاف ما يقوله المجرية.

وقوله (وما تشاؤون إلا ان يشاء الله) أي وليس تشاؤون شيئا من العمل بطاعته وبما يرضاه ويوصلكم إلى ثوابه إلا والله يشاؤه ويريده لانه يريد من عباده أن يطيعوه، وليس المراد أن يشاء كل ما يشاؤه العبد من المعاصي والمباحات، لان الحكيم لا يجوز أن يريد القبائح ولا المباح، لان ذلك صفة نقص ويتعالى الله عن ذلك. وقد قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (٢) والمعصية والكفر من اعظم العسر فكيف يكون الله تعالى مشيئا له وهل ذلك إلا تناقض ظاهر؟! وقوله (إن الله كان عليما حكيما) اخبار بأنه - عزوجل - كان عالما بجميع المعلومات وبما يفعله عباده من الطاعة والمعصية (حكيما) في جميع ما يفعله ويأمر به.

ثم قال (يدخل من يشاء في رحمته) من الجنة وثوابها اذا أطاعوه في عمل ما رغبهم

(١) القرطبي ١٩ / ١٤٩ والطبري ٢٩ / ١٢٢ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٥ (*)

(٢٢٢)

فيه (والظالمين أعد لهم عذابا اليما) نصب (الظالمين) على تقدير وعاقب الظالمين باعداد العذاب الاليم أي أعد للظالمين اعد لهم، وحذف لدلالة الثاني عليه ولا يظهر ذلك، لان تفسيره يغني عن إظهاره.

٧٧ - سورة المرسلات:

مكية في قول ابن عباس وهي خمسون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم والمرسلات عرفا (١) فالعاصفات عصفا (٢) والناشرات نشرا (٣) فالفارقات فرقا (٤) فالملقيات ذكرا (٥) عذرا أو نذرا (٦) إنما توعدون لواقع (٧) فاذا النجوم طمست (٨) وإذا السماء فرجت (٩) وإذا الجبال نسفت (١٠) وإذا الرسل أقتت (١١)

لاي يوم أجلت (١٢) ليوم الفصل (١٣) وما أدريك ما يوم الفصل (١٤) ويل يومئذ للمكذبين (١٥) خمس عشرة آية.

قرأ (عذرا) مثقل ابوجعفر والبرجمي وقرأ (اونذرا) خفيف أهل الكوفة غير ابي بكر وابوعمر. من ثقل الاول فلان الثاني مثقل، ومن خفف الثاني فلان

(٢٢٣)

الاول مخفف. والعذر بالتخفيف والنذر بمعنى الاعذار والانذار. ومن ثقل (نذرا) أراد جمع نذير. والعذر والمعذرة والتعذير بمعنى قال ابوعلي النحوي: النذر بالثقل والنذير مثل النكر والنكير جميعا مصدران، ويجوز في النذر أمران: احدهما - ان يكون معناه المنذر. والثاني - أن يكون مصدر. وقرأ ابوعمر وحده (وقنت) بالواو على الاصل، وافقه ابوجعفر في ذلك إلا انه خفف الواو. الباقيون (أقنت) بالهمزة أبدلوا من الواو كراهة الضمة على الواو، كما قالوا في (وحد) وقال الشاعر:

يحل أخذه ويقال ثعل * بمثل تمول منه افتقار (١)

هذا قسم من الله تعالى بالمرسلات، كما اقسام بصاد وقاف ويس وغير ذلك وقال قوم: تقديره ورب المرسلات، لانه لا يجوز القسم إلا بالله. وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وابوصالح: المرسلات - ههنا - الرياح، وفي رواية اخرى عن ابن مسعود وأبي صالح انها الملائكة. وقال قوم (المرسلات عرفا)

الانبياء جاءت بالمعروف. والارسال نقيض الامساك ومثله الاطلاق ونقيضه التقييد والارسال ايضا انفاذ الرسول. وقوله (عرفا) أي متتابعة كعرف الفرس. وقيل:

معروفا إرسالها. وإرسال الرياح اجراء بعضها في أثر بعض (فالعاصفات عسفا)

يعني الرياح الهابة بشدة. والعصوف مرور الريح بشدة، عسفت الريح تعصف عسفا وعصوفا إذا اشتدت هبوبها، فعصوف الريح شدة هبوبها. وقوله (والناشرات نشرا) قال ابن مسعود ومجاهد وقتادة وابوصالح: هي الرياح، لانه تنشر السحاب للغيث، كما تلحقه للمطر. وقال ابوصالح - في رواية - هي الملائكة تنشر الكتب عن الله. وفي رواية اخرى عن ابي صالح إنها الامطار لانه تنشر النبات. وقيل الرياح تنشر السحاب في الهواء.

(١) الطبرى ٢٩ / ١٢٦ *

(٢٢٤)

وقوله (فالفارقات فرقا) قال ابن عباس وابوصالح: هي التي تفرق بين الحق والباطل، وهي الملائكة وقال قتادة: هي آيات القرآن. وقال الحسن: هي آي القرآن تفرق بين الهدى والضلال (فالمليقات ذكرا) قال ابن عباس وقتادة هم الملائكة. واللقاء طرح الشئ على غيره، واللقاء الشئ على غيره، فالذكر يلقي بالبيان والافهام وهو من صفة الملائكة فيما تلقيه إلى الانبياء، ومن صفة الانبياء فيما تلقيه إلى الامم، ومن صفة العلماء فيما تلقيه إلى المتعلمين وقيل لما جمعت الاوصاف للرياح لاختلاف فوائدها. وقال بعضهم (المرسلات عرفا) الانبياء جاءت بالمعروف (فالعاصفات عصفا) الرياح (والناشرات نشرا) الامطار نشرت النبات (فالفارقات فرقا) آي القرآن (فالمليقات ذكرا) الملائكة تلقي كتاب الله تعالى إلى الانبياء.

وقوله (عذرا او نذرا) يحتمل نصبه وجهين:

احدهما - على انه مفعول له أي للاعذار والانداز.

والثاني - مفعول به أي ذكرت العذر والنذر. واختار ابو علي أن يكون بدلا من قوله (ذكرا) وقيل معناه اعذارا من الله وانذارا إلى خلقه ما القته الملائكة من الذكر إلى أنبيائه والعذر أمر في امر ظهوره دفع اللوم بأنه لم يكن يستحق لاجل تلك الحال مع وقوع خلاف المراد. فالعقاب على القبيح بعد الانذار يوجب العذر في وقوعه. وإن كان بخلاف مراد العبد الذي استحقه. قال الحسن (عذرا) معناه يعتذر به إلى عباده في العقاب أنه لم يكن الا على وجه الحكمة. والنذر والانداز وهو الاعلام بموضع المخافة ليتقي. ومن خفف (عذرا) كره توالى الضميتين.

وقوله (إنما توعدون لواقع) جواب القسم ومعناه إن الذي وعدكم الله به من البعث والنشور والثواب والعقاب: كائن لا محالة. وقيل: الفرق بين الواقع

(٢٢٥)

والكائن أن الواقع لا يكون إلا حادثا تشبيها بالحائط الواقع، لانه من أبين الاثياء في الحدوث، والكائن أعم منه لانه بمنزلة الموجود الثابت يكون حادثا وغير حادث.

وقوله (فاذا النجوم طمست) معناه محيت آثارها وذهب نورها. والطمس محو الاثر الدال على الشئ فالطمس على النجوم كالطمس على الكتاب، لانه يذهب نورها والعلامات التي كانت تعرف بها (وإذا السماء فرجت) أي شقت وصدعت (وإذا الجبال نسفت) نسف الجبال إذهابها حتى لا يبقى لها في الارض أثر، والنسف تحريك الشئ بما يخرج ترابه وما اختلط به مما ليس منه، ومنه سمي المنسف ونسف الحبوب كلها تجري على هذا الوجه، وقوله (نسفت) من قولهم: أنسفت الشئ اذا اخذته بسرعة.

وقوله (وإذا الرسل أقتت) أي أعلمت وقت الثواب ووقت العقاب، فالتوقيت تقدير الوقت لوقوع الفعل، ولما كانت الرسل (عليهم السلام) قد قدر أرسالها لاوقات معلومة بحسب صلاح العباد فيها كانت قد ووقت لتلك الاوقات بمعنى أعلمت وقت الثواب ووقت العقاب. وقال مجاهد وابراهيم وابن زيد: أقتت بالاجتماع لوقتها يوم القيامة قال تعالى (يوم يجمع الله الرسل) (١) والمواقيت الاجال ومثله (يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج) (٢) وقيل: معنى اقتت اجلت لوقت ثوابها، وهو يوم الفصل. وقيل: معناه أجلت فيما بينها وبين أمتها (ليوم الفصل) ثم بين تعالى فقال (لاي يوم اجلت) أي أخرت إلى اجل فالتأجيل التأخير إلى أجل، فالرسل قد أجلت بموعودها إلى يوم الفصل، وهو يوم القيامة وسمي يوم الفصل، لانه يفصل فيه بين حال المهتدي والضال بما يعلم الله لاحدهما من

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٢ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٩ (ج ١٠ م ٢٩ من التبيان) (*)

(٢٢٦)

حال الثواب بالاجلال والاكرام، وللآخر من حال العقاب بالاستخفاف والهوان بما لا يخفى على انسان. وقيل: الوجه في تأجيل الموعود إلى يوم الفصل تحديد الامر للجزاء على جميع العباد فيه بوقوع اليأس من الرد إلى دار التكليف، لان في تصور هذا مايتأكد به الدعاء إلى الطاعة والانزجار عن المعصية.

وقوله (ويل يومئذ للمكذبين) تهديد ووعيد لمن جحد يوم القيامة وكذب بالثواب والعقاب، وإنما خص الوعيد في الذكر بالمكذبين لان التكذيب بالحق يتبعه كل شيء، فخصال المعاصي تابعة له وإن لم يذكر معه، مع أن التكذيب قد يكون في القول والفعل المخالف للحق، ومنه قولهم: حمل فما كذب حتى لقي العدو فهزمه.

قوله تعالى:

(ألم نهلك الاولين (١٦) ثم نتبعهم الاخرين (١٧) كذلك نفعل بالمجرمين (١٨) ويل يومئذ للمكذبين (١٩) ألم نخلقكم من ماء مهين (٢٠) فجعلناه في قرار مكين (٢١) إلى قدر معلوم (٢٢)

فقدرونا نعم القادرون (٢٣) ويل يومئذ للمكذبين (٢٤) ألم نجعل الارض كفاتا (٢٥) أحياء وأمواتا (٢٦) وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا (٢٧) ويل يومئذ للمكذبين (٢٨)

ثلاث عشرة آية.

قرأ أهل المدينة والكسائي (فقدرونا) مشددة. الباقون بالتخفيف وهما لغتان. ومن اختار التخفيف فلقوله (فنعم القادرون).

يقول الله تعالى على وجه التهديد للكفار (ألم نهلك الاولين) يعني قوم نوح

(٢٢٧)

وعاد وشمود، والآخرون قوم لوط وابراهيم إلى فرعون ومن معه من الجنود أهلكتهم الله تعالى بأنواع الهلاك جزاء على كفرهم لنعم الله وجحدهم لتوحيده واخلاص عبادته وقوله (ثم نتبعهم الاخرين) إنما رفعه عطفًا على موضع (ألم) كأنه قال:

لكنا نهلك الاولين ثم نتبعهم الاخرين. وقال المبرد تقديره ثم نحن نتبعهم لا يجوز غيره. لان قوله (ألم نهلك) ماض، وقوله (ثم نتبعهم) مستقبل فلا يكون عطفًا على الاول ولا على موضعه. والاهلاك يبطال الشئ بتصويره إلى حيث لا يدري اين هو إما باعدامه او باخفاء مكانه. وقد يكون الاهلاك بالاماتة، وقد يكون بالنقل إلى حال الجمادية. والاول هو الكائن قبل غيره. والثاني هو الكائن بعد غيره.

والاول قبل كل شئ هو الله تعالى الذي لم يزل. (والاولين) في الاية هم الذين تقدموا على أهل العصر الثاني، والآخر الكائن بعد الاول من غير بقية منه، وبهذا ينفصل عن الثاني، لان الثاني قد يكون بعد بقية من الشئ ثالثًا ورابعًا وخامسًا إلى حيث انتهى، فاذا صار إلى الآخر فليس بعده شئ كالكتاب الذي هو أجزاء كثيرة وقوله (كذلك نعمل بالمجرمين) أي مثل ما فعلنا بأولئك نعمل مثله بالعصاة ثم قال (ويل يومئذ) يعني يوم الجزاء والثواب والعقاب (للمكذبين) فانهم يجازون بأليم العقاب. والاتباع الحاق الثاني بالاول بدعائه اليه، والتبع الحاق الثاني بالاول باقتضائه له، تبع تبعًا فهو تابع وأتبع اتباعًا.

وقوله (ألم نخلقكم من ماء مهين) والمهين القليل الغناء، ومثله الحقير الذليل وفي خلق الانسان على هذا الكمال من الحواس الصحيحة والعقل والتميز من ماء مهين أعظم الاعتبار وأبين الحجة على ان له مدبرًا وصانعًا وخالقًا خلقه وصنعه فمن جده كان كالمكابر لما هو من دلائل العقول.

ثم قال الله تعالى مبينًا انه جعل ذلك الماء المهين الحقير (في قرار مكين)

(٢٢٨)

فالقرار المكان الذي يمكن أن يطول فيه مكث الشئ، ومنه قولهم: قر في المكان إذا ثبت على طول المكث فيه يقر قرارًا، ولا قرار لفلان في هذا المكان أي لا ثبات له.

وقوله (إلى قدر معلوم) فالقدر المقدار المعلوم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان وكأنه قال إلى مقدار من الوقت المعلوم، والقدر مصدر من قولهم: قدر يقدر قدرا وقد يقدر - بالتخفيف، والتشديد - إلا أن التشديد للتكثير. وقوله (فقدنا فنعم القادرون) معناه في قول من خفف فقدنا من القدرة، فنعم القادرون على تدبيره. ومن شدد أراد فقدنا، فنعم المقدرون لاحوال النطفة ونقلها من حال إلى حال حتى صارت إلى حال الانسان. والعرب تقول: قدر عليه الموت وقدر: بالتخفيف والتشديد. ومن شدد وقرأ القادرون جمع بين اللغتين كما قال الاعشى:

وانكرتني وما كان الذي نكرت * من الحوادث إلا الشيب والصلعا (١)

وقوله (ألم نجعل الارض كفاتا) نصب (كفاتا) على الحال، وتقديره ألم نجعل الارض لكم ولهم كفاتا، والكفات الضمام فقد جعل الله الارض للعباد تكفتهم (احياء وامواتا) أي تضمهم في الحاليين كفت الشيء يكفته كفتا وكفاتا إذا ضمه وقيل (كفاتا) وعاء وهذا كفته أي وعاءه، ويقال كفته أيضا، وقال الشعبي ومجاهد: فظهرها للاحياء وبتناتها للاموات، وهو قول قتادة ونصب أحياء وامواتا على الحال، ويجوز على المفعول به، قال ابو عبيدة وغيره (كفاتا) أي اوعية يقال:

هذا النحي كفت هذا وكفته.

وقوله (احياء وامواتا) أي منه ما ينبت، ومنه ما لا ينبت.

وقوله (وجعلنا فيها رواسي شامخات) أي وجعلنا في الارض جبالا ثابتة

(١) مر في ٦ / ٢٨ (*)

(٢٢٩)

عالية، فالشامخات العاليات، شمش يشمخ شمخا، فهو شامخ، ومنه شمش بأنف إذا رفعه كبيرا، وجبل شامخ وشاهق وبازخ كله بمعنى واحد والرواسي الثوابت.

وقوله (واسقيناكم ماء فراتا) أي وجعلنا لكم شرابا من الماء الفرات، وهو العذاب وهو صفة يقال: ماء فرات وماء زلال وماء غدق وماء نمير كله من العذوبة والطيب، وبه سمي النهر العظيم المعروف بالفرات قال الشاعر:

إذا غاب عنا غاب عنا فراتنا * وإن شهد أجدى فضله وجداوله (١)

وقال ابن عباس أصول الانهار العذبة أربعة: جيحان ومنه دجلة، وسيحان نهر بلخ، وفرات الكوفة، ونيل مصر. وقوله (ويل يومئذ للمكذبين)

قد فسرناه.

قوله تعالى:

(إنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون (٢٩) إنطلقوا إلى ظل ذي ثلث شعب (٣٠) لا ظليل ولا يغني من اللهب (٣١) إنها ترمي بشرر كالقصر (٣٢) كأنه جمالت صفر (٣٣) ويل يومئذ للمكذبين (٣٤) هذا يوم لا ينطقون (٣٥) ولا يؤذن لهم فيعتذرون (٣٦) ويل يومئذ للمكذبين (٣٧) هذا يوم الفصل جمعناكم والاولين (٣٨) فان كان لكم كيد فكيديون (٣٩) ويل يومئذ للمكذبين (٤٠) اثنتا عشرة آية.

(١) مر في ٤ / ١٩٤ (*)

(٢٣٠)

قرأ رويس (انطلقوا إلى ظل) على فتح اللام بلفظ الماضي. وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر (جمالة) وضم الجيم يعقوب. الباقون (جمالات) من قرأ (جمالة) على لفظ الواحد قال معناه الجمع لقوله (صفر) ومن قرأ (جمالات).

بكسر الجيم قال: جمالة وجمالات جميعا جمعان، كأنه جمع الجمع مثل: رجال ورجالات، وبيوت وبيوتات، والهاء في قوله (كأنه) كناية عن الشرر.

وهذا حكاية ما يقول الله تعالى للكفار المكذبين بيوم الدين يوم القيامة فانه يقول لهم (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) من العقاب على الكفر ودخول النار جزاء على المعاصي، فكنتم تجحدون ذلك وتكذبون به ولا تعترفون بصحته، فامضوا اليوم اليه. فالانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث الاعتقال، وهو من الاطلاق خلاف التقييد، والانتقال من حال إلى حال، ومن اعتقاد إلى اعتقاد لا يسمى انطلاقا. ثم ذكر الموضع الذي أمرهم بالانطلاق اليه، فقال (انطلقوا إلى)

ظل ذي ثلاث شعب) قيل: معناه يتشعب من النار ثلاث شعب: شعبة فوقه، وشعبة عن يمينه وشعبة عن شماله فيحيط بالكافر. وقال مجاهد وقتادة (ظل) دخان من جهنم ينقسم ثلاث شعب كما قال تعالى (أحاط بهم سرادقها) (١) أي من الدخان الأخذ بالانفاس (لا ظليل) معناه غير مانع من الأذى يسترعه، فالظليل المانع من الأذى بستره عنه، ومثله الكنين، فالظليل من الظلة، وهي السترة، والكنين من الكن، فظل هذا الدخان لا يغني الكفار من حر النار شيئا. وبين ذلك بقوله (ولا يغني من اللهب) والاعناء إيجاد الكفاية بما يكون وجود غيره وعدمه سواء يقال: أغنى عنه أي كفى في الدفع عنه. واللهب إرتفاع الشرر، وهو اضطرام النار، إلتهب يلتهب إلتهاها وألتهبها إلتهاها ولهاها.

(٢٣١)

وقوله (انها) يعني النار (ترمي بشرر) وهي قطع تطاير من النار في الجهات وأصله الظهور من شررت الثوب إذا اظهرته للشمس والشرر يظهر متبددا من النار. وقوله (كالقصر) أي ذلك الشرر كالقصر أي مثله في عظمه، وهو يتطاير على الكافرين من كل جهة - نعوذ بالله منه - والقصر واحد القصور من البنيان - في قول ابن عباس ومجاهد - وفي رواية أخرى عن ابن عباس وقتادة والضحاك: القصر أصول الشجر واحدته قصرة مثل جمرة وجمر، والعرب تشبه الابل بالقصور، قال الاخطل:

كأنه برج رومي يشيده * لز بجص وأجر وأحجار (١)

والقصر في معنى الجمع إلا انه على طريق الجنس. ثم شبه القصر بالجمال، فقال (كأنه جمالات صفر) قال الحسن وقتادة: كأنها انيق سود، لما يعتري سوادها من الصفرة. وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: قلوس السفن، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: هي قطع النحاس. قال الزجاج (جمالات) بالضم جمع جمالة وهو القلس من قلوس البحر، ويجوز أن يكون جمع (جمل) وجمالات، كما قيل (رحال) جمع (رحل) ومن كسر فعلى انه جمع جمالة، وجمالة جمع جمل مثل حجر وحجارة، وذكر وذكارة. وقرئ في الشواذ (كالقصر) بفتح الصاد جمع كأنها أعناق الابل (وجمالات) جمع جمل كرجل ورجالات، وبيت وبيوتات، ويجوز أن يكون جمع جمالة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (جملة) بغير الالف على التوحيد لانه لفظ جنس يقع على القليل والكثير. الباكون جمالات بألف، مكسور الجيم.

وقوله (ويل يومئذ للمكذبين) قد فسرناه ثم قال تعالى (هذا يوم لا ينطقون

(١) مر في ٧ / ٥٣ (*)

(٢٣٢)

ولا يؤذن لهم فيعتذرون) اخبار من الله تعالى أن ذلك اليوم لا ينطق الكفار. وقيل في معناه قولان:

احدهما - ان ذلك اليوم مواطن، فموطن لا ينطقون، لانهم ملبسون من هول مايرونه، وموطن يطلق فيه عن ألسنتهم فينطقون، فلذلك حكى عنهم أنهم (قالوا ربنا أمتنا إثننتين واحييتنا إثننتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) (١)

وقد يقال هذا يوم لا ينطقون إذا لم ينطقوا في بعضه كما يقال: كان كذا يوم قدم فلان وإن كان قدم في بعضه، لان المعنى مفهوم.

والثاني - انهم ينطقون بنطق لا ينتفعون به، وكأنهم لم ينطقوا، وازداد الزمان إلى الافعال كقولك أتيتك يوم قدم زيد، وأتيتك يوم يخرج عمرو، وأجاز النحويون هذا يوم لا ينطقون بالنصب على انه يشير إلى الجزاء، ولا يشير إلى اليوم وقوله (ولا يؤذن لهم) فالاذن الاطلاق في الفعل، تقول: يسمع بالاذن فهذا أصله وقد كثر استعماله حتى صار كل دليل ظهر به أن للقادر أن يفعل كذا فهو أذن له، وكل ما اطلق الله فيه بأي دليل كان، فقد أذن فيه.

وقوله تعالى (فيعتذرون) فالاعتذار الانتفاء من خلاف المراد بالمانع من المراد، وليس لاحد عذر في معصية الله، لانه تعالى لا يكلف نفسا ما لا يطاق. وقد يكون له عذر في معصية غيره، لانه قد يكلف خلاف الصواب وقد يكلف ما لا يمكن لعارض من الاسباب. وقوله (فيعتذرون) رفع عطا على قوله (لا يؤذن) قال الفراء: تقديره لا ينطقون ولا يعتذرون، وقد يجوز في مثله النصب على جواب النفي، ومعنى الآية لا يؤذن لهم في الاعتذار فكيف يعتذرون.

(١) سورة ٤٠ المؤمن آية ١١ (*)

(٢٣٣)

وقوله (هذا يوم الفصل) يعني يفصل بين الخلائق بالحكم لكل أحد بما له وعليه. والفصل قطع علق الامور بتوفية الحقوق، وهذا الفصل الذي هفصل القضاء يكون ذلك في الاخرة على ظاهر الامر وباطنه، وأما في الدنيا، فهو على ظاهر الامر، لان الحاكم لا يعرف البواطن. وقوله (جمعناكم والاولين) معناه إن الله يجمع فيه الخلائق في يوم واحد في صعيد واحد، والجمع جعل الشيء مع غيره إما في مكان واحد أو محل واحد أو في يوم واحد أو وقت واحد، أو يجعل مع غيره في حكم واحد أو معنى واحد كجمع الجماد والحيوان في معنى الحدوث. وقوله (فان كان لكم كيد فكيدون) معناه توبيخ من الله تعالى وتقريع للكفار واطهار عجزهم عن الدفع عن أنفسهم فضلا عن أن يكيدوا غيرهم، وإنما هو على أنكم كنتم في دار الدنيا تعملون ما يغضبني، فالان عجزتم عن ذلك وحصلتم على وبال ما عملتم. وقيل: المعنى إن كان لكم حيلة تحتالونها في التخلص فاحتالوا. والكيد الحيلة و (ويل يومئذ للمكذبين) قد مضى تفسيره.

قوله تعالى:

(إن المتقين في ضلال و عيون (٤١) وفواكه مما يشتهون (٤٢))

كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون (٤٣) إنا كذلك نجزي المحسنين (٤٤) ويل يومئذ للمكذبين (٤٥) كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون (٤٦) ويل يومئذ للمكذبين (٤٧) وإذا قيل لهم (ج ١٠ م ٣٠ من التبيان)

(٢٣٤)

اركعوا لا يركعون (٤٨) ويل يومئذ للمكذبين (٤٩) فبأي حديث بعده يؤمنون (٥٠) عشر آيات.

لما ذكر الله تعالى الكفار وما أعد لهم من ضرور العقاب وانواع العذاب ترهيباً وترهيدا في مثله، ذكر المؤمنين المتقين للمعاصي وبين ما أعد لهم من أنواع النعيم وضرور اللذات فقال (إن المتقين) ومعناه الذين اتقوا عقاب الله باجتتاب معاصيه وطلبوا ثوابه بفعل طاعاته (في ظلال) وهو جمع ظل، وهو الحجاب العالي المانع من كل أذى، فلاهل الجنة حجاب من كل أذى لان هواء الجنة مناف لكل أذى، فهم من طيبة على خلاصة. وقيل في ظلال من قصور الجنة وأشجارها (وعيون) وهي ينابيع الماء التي تجري في ظل الاشجار. وقيل: ان تلك العيون جارية في غير أخدود، لان ذلك امتع بما يرى من حسنه وصفأته على كنهه من غير ملابسة شئ له، وليس هناك شئ إلا على أحسن صفاته، لان الله تعالى قد شوق اليه أشد التشويق ورغب فيه أتم الترغيب (وفواكه) وهي جمع فاكهة، وهي ثمار الاشجار التي من شأنها أن تؤكل، وقد يكون من الثمر ما ليس كذلك كالتمر المر، فانه ليس من الفاكهة.

وقوله (مما يشتهون) يعني لهم فاكهة من جنس ما يشتهونه.

ثم قال تعالى (كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون) صورته صورة الامر والمراد به الاباحة. وقال قوم: هو أمر على الحقيقة، لان الله تعالى يريد منهم الاكل والشرب في الجنة، وإنهم إذا علموا ذلك زاد في سرورهم، فلا تكون إرادته لذلك عبثاً، والهنئ هو الذي لا أذى فيه فيما بعد. وقيل: الهنئ النفع الخالص من شائب الأذى. والشهوة معنى في القلب إذا صادفت المشتهى كان لذة، وضده النفار إذا

(٢٣٥)

صادفه كان ألماً، وجاء الكلام على التقابل للكافرين من قوله (في ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب) مقابل أهل الجنة في ظلال قصور الجنة واشجارها وقوله (إنا كذلك نجزي المحسنين) اخبار منه تعالى أنه كما جازى هؤلاء المتقين بما ذكره من النعيم مثل ذلك يجازي كل محسن عامل بطاعة الله. وفي ذلك دلالة على أن كل احسان خالص للعبد فله به

الثواب والحمد، وانه طاعة لله، وإن ما ليس باحسان من فعل خارج عن هذا الحكم. وقوله (ويل يومئذ للمكذابين) قد مضى تفسيره.

ثم عاد إلى خطاب الكفار فقال لهم على وجه التهديد والوعيد (كلوا وتمتعوا) في دار الدنيا وتلذذوا بما تريدون وانتفعوا بما انتشتمون (قليلا) لان أيام الدنيا قليلة، فالتمتع الحصول في أحوال تلذذ، تمتع تمتعا واستمتع استمتاعا وأمتعته غيره امتاعا والتمتع والتلذذ واحد ونقيضه التألم.

وقوله (إنكم مجرمون) اخبار منه تعالى للكفار بأنكم وإن تمتعتم قليلا في الدنيا فانكم عصاة وكفار وما لكم إلى النار وعذابها. والاجرام فعل ما يقطع المدح ويحصل بدلله الذم، يقال: أجرم إجراما واجترم اجتراما وتجرم عليه أي تطلب له الجرم (ويل يومئذ للمكذابين) بينا معناه.

وقوله (وإذا قيل لهم إركعوا لا يركعون) فالركوع هو الانخفاض على وجه الخضوع، ويعبر به عن نفس الصلاة ويقال: قد ركعت وبقي على ركوع أي صلاة والمراد به ههنا - الصلاة، والمعنى إن هؤلاء الكفار إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون لجهلهم بما في الصلاة من الخير والبركة. وقيل: انه يقال لهم ذلك في الاخرة كما قال (يدعون إلى السجود فلا يستطيعون) ذكره ابن عباس. وقال قتادة، يقال لهم ذلك في الدنيا، فان الصلاة من الله بمكان. وقال مجاهد: عنى بالركوع - هنا - الصلاة

(٢٣٦)

وقوله (ويل يومئذ للمكذابين) قد فسرناه، فكأنه قيل لهم يجب عليكم الركوع بالخضوع لله فاركعوا فأخبر عنهم أنهم لا يركعون تكذيبا بهذا الخبر، فلذلك قال عقيب ذلك (ويل يومئذ للمكذابين) وإلا فقوله (اركعوا) أمر من الله تعالى، ولا يقال فيمن أمر بالشئ فلم يفعل انه كذب، وقيل: إن ما تكرر في هذه السورة من قول (ويل يومئذ للمكذابين) ليس على وجه التكرار في المعنى، لان معناه ويل للمكذابين بما ذكره قبله من الاخبار، وقيل يريد أنه كذب بالمخبر الذي يليه، وهو وجه القول الثاني والثالث والرابع إلى آخر السورة، على هذا المنهاج من أنه يلزمه الويل بالتكذيب بالذي يليه والذي قبله على التفصيل لا على الاجمال في أنه لا يلزمه حتى يكذب بالجميع. وقوله (فبأي حديث بعده يؤمنون) معناه إنه اذا أتى القرآن باظهر البرهان وكفروا به فليس ممن يفلح بالايمان بكلام غيره، لان من لم يؤمن بما فيه المعجزة الظاهرة والاية الباهرة لا يؤمن بغيره.

(٢٣٧)

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي أربعون آية في الكوفي والمدنيين واحدى وأربعون في البصري بسم الله الرحمن الرحيم (عم يتساءلون (١) عن النبا العظيم (٢) الذي هم فيه مختلفون (٣) كلا سيعلمون (٤) ثم كلا سيعلمون (٥) ألم نجعل الارض مهادا (٦) والجبال أوتادا (٧) وخلقناكم أزواجا (٨) وجعلنا نومكم سباتا (٩) وجعلنا الليل لباسا (١٠) وجعلنا النهار معاشا (١١) وبنينا فوقكم سبعا شدادا (١٢) وجعلنا سراجا وهاجا (١٣) وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا (١٤) لنخرج به حبا ونباتا (١٥) وجنات ألفافا) (١٦) ست عشرة آية. وقف يعقوب على (عم) بالهاء، الباقون بلا هاء وقرأ ابن عامر (كلا ستعلمون) بالتاء على الخطاب فيهما أي قل لهم ستعلمون عاقبة أمركم الباقون - بالياء - على الغيبة، وهو الاقوى لقوله (عم)

(٢٣٨)

يتساءلون) وقوله (الذي هم فيه مختلفون) ولم يقل أنتم، وإن كانت التاء جائزة لان العرب تنتقل من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة.

قيل في سبب نزول هذه الآية: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان إذا حدث قريشا وعرفهم أخبار الامم السالفة ووعظهم كانوا يهزؤون بذلك، فنهاه الله تعالى أن يحدثهم فقال (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزء)

إلى قوله (حتى يخوضوا في حديث غيره) (١) فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يحدث أصحابه فاذا أقبل واحد من المشركين أمسك فاجتمعوا على بكرة أبيهم وقالوا: والله يا محمد إن حديثك عجب، وكنا نشتهي أن نسمع كلامك وحديثك، فقال إن رب نهاني أن أحدثكم، فأنزل الله تعالى (عم يتساءلون عن النبا العظيم) وقوله (عم يتساءلون) أصله عن ما، فحذفت الالف لاتصالها بحرف الجر حتى صارت كالجزء منه لتدل على شدة الاتصال مع تخفيف المركب في الكلام، فحذف حرف الاعتلال وأدغمت النون في الميم لقربها منها من غير أخلال، وصورته صورة الاستفهام والمراد تفخيم القصة والانكار والتهديد. وقوله (يتساءلون) معناه عن ماذا يسأل بعضهم بعضا، فالتساؤل سؤال احد النفيسين للاخر، تساءلا تساؤلا وسأله مسألة، والسؤال طلب الاخبار بصيغة مخصوصة في الكلام، وكل ما يزجر العقل عنه بما فيه من الداعي إلى الفساد لا يجوز السؤال عنه كسؤال الجدل لدفع الحق ونصرة الباطل، وكالسؤال الذي يقتضي فاحش الجواب، لانه كالامر بالقبيح. والنبأ معناه الخبر العظيم الشأن كمعنى الخبر عن التوحيد في صفة الاله وصفة الرسول، والخبر عما يجوز عليه وما لا يجوز. وقال مجاهد: النبأ العظيم الشأن القرآن، وقال قتادة وابن زيد:

هو السؤال عن البعث بعد الموت، لأنهم كانوا يجمعون على التكذيب بالقرآن

(١) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ وقريب منه في سورة ٦ الانعام آية ٦٨ (*)

(٢٣٩)

(الذي هم فيه مختلفون) قال قتادة: معناه الذي هم فيه بين مصدق ومكذب، فقال الله سبحانه مهدد الهم ومتوعدا (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) ومعنى (كلا) ردع وزجر، كأنه قال أرتدعوا وانزجروا واليس الامر كما ظننتم. وقال قوم: معناه حقا سيعلمون عاقبة أمرهم وعائد الوبال عليهم. وقال الضحاك: معناه كلا سيعلم الكفار عاقبة تكذبيهم، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم. وقال قوم: كلا سيعلمون ما ينالهم يوم القيامة من العذاب، ثم كلا سيعلمون ما ينالهم في جهنم من العذاب، فلا يكون تكرارا.

والاختلاف ذهاب كل واحد من النفيسين إلى نقيض ما ذهب إليه الاخر، يقال:

اختلفا في المعنى فذهب أحدهما إلى كذا، وذهب الاخر إلى كذا.

ثم نبههم على وجه الاستدلال على صحة ذلك فقال (ألم نجعل الارض مهادا)

أي وطاء، وهو القرار المهيأ للتصرف فيه من غير أذية. وقال قتادة: للهاد البساط ومهد الارض تمهيدا مثل وطأه توطئة، لان ذلك لا يقدر عليه غير الله، لانه الذي يسكن الارض حالا بعد حال حتى يمكن الاستقرار عليها والتصرف فيها (والجبال أوتادا) أي وجعلنا الجبال أوتادا للارض لئلا تميد بهم، فالجبال جمع جبل، وهو بغلظه وثقله يبلغ أن يكون ممسكا للارض عن أن تميد بثقله، فعلى ذلك دبره الله، وذكر العباد به وما فيه من العبرة بعظمة من يقدر عليه. والوتد المسمار إلا أنه اغلظ منه، لذلك يقال: مسامير العناء إذا دقت كالمسمار من الحديد في القوة والدقة، ولو غلظت صارت أو تادا فكذلك وصفت الجبال بأنها أوتاد للارض إذ جعلت بغلظها ممسكة لها عن أن تميد باهلها.

وقوله (وجعلناكم أزواجا) أي اشكالا كل واحد يشاكل الاخر. وقيل:

معناه ذكرا وأنثى حتى يصح منكم التناسل.

وقوله (وجعلنا نومكم سباتا) أي نعاسا في أوله تطلب النفس الراحة به.

(٢٤٠)

وقيل: معناه جعلنا نومكم راحة. وقيل: معناه جعلنا نومكم طويلا ممتدا تعظم به راحة أبدانكم ويكثر به انتفاعكم، ومنه سبت من الدهر أي مدة طويلة منه. وقال ابو عبيدة: معناه جعلنا نومكم سباتا ليس بموت، ورجل مسبوت فيه روح، والسبات قطع العمل للراحة، ومنه سبت

أنفه إذا قطعه، ومنه يوم السبت أي يوم قطع العمل للراحة على ما جرت به العادة في شرع موسى، وصار علما على اليوم الذي بعد الجمعة بلا فصل. وقوله (وجعلنا الليل لباسا) فاللباس غطاء ساتر مماس لما ستر، فالليل ساتر للاشخاص بظلمته مماس لها بجسمه الذي فيه الظلمة قال الشاعر:

فلما لبسنا الليل أوجن نصبت * له من هذا آذانها وهي جنح (١)

(وجعلنا النهار معاشا) أي متصرفا للعيش والعيش الانعاش الذي تبقى معه الحياة على حال الصحة عاش يعيش عيشا والنهار اتساع الضياء المنبث في الافاق وأصله من انهر الدم إذا وسع مجراه، ومنه النهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء، ومنه الانتهار الاتساع في الاغلاظ، وفي خلق النهار تمكين من التصرف للمعاش وفي ذلك أعظم النعمة واكبر الاحسان. وقوله (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) يعني سبع سموات. والبناء جعل الطاق الاعلى على الادنى، فالسما مبنية كهيئة القبة مزينة بالكواكب المضيئة، فسبحان الذي زينها وخلقها وبنائها على هذه الصفة لعباده. وإنما جعلها سبع سموات لما في ذلك من الاعتبار للملائكة، ولما في تصور الطبقات من عظم القدرة، وهول تلك الامور، وما فيه من تمكين البناء حتى وقفت سماء فوق سماء، فسبحان من يمسكها بما هو قادر عليها ومدبر لها.

(١) الطبرى ٣٠ / ٣ (*)

(٢٤١)

وقوله (وجعلنا سراجا وهاجا) يعني الشمس جعلها الله سراجا للعالم يستضيئون به، فالنعمة عامة لجميع الخلق. والوهاج الوقاد، وهو المشتعل بالنور العظيم وقال مجاهد وقتادة: يعني وهاجا متلا لنا.

وقوله (وأنزلنا من المعصرات) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني الرياح، كأنها تعصر السحاب. وقيل هي السحاب تتحلب بالمطر. وقوله (ماء ثجاجا) فالثجاج الدفاع في انصابه كتحج دماء البدن، يقال تحجبت دمه أثجه ثجا، وقد ثج الدم يثج ثجوجا (لنخرج به حبا ونباتا) أي نخرج بذلك الماء حبا وهو كل ما تضمنه الزرع الذي يحصد. والنبات الكلا من الحشيش والزرع (وجنات الفافا) أي بساتين ملتفة بالشجر يخرجها الله تعالى لعباده بالمطر. وإنما قال (جنات) لان الشجر يجنها أي يسترها و (الالفاف) الاخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض واحدها (لف) يقال: شجر ملتف وأشجار ملتفة. والمعاني الملففة المتداخلة باستتار بعضها ببعض حتى لا تبين إلا في خفى. وقيل: واحده لف ولفف. وقيل: في واحده شجرة لفا، وشجر

لف. وقال مجاهد وقتادة وابن عباس: ألفافا ملتفة. والتقدير فيه ويخرج به شجر جنات الفافا ملتفة إلا انه حذف لدلالة الكلام عليه.
قوله تعالى:

(إن يوم الفصل كان ميقاتا (١٧) يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا (١٨) وفتحت السماء فكانت أبوابا (١٩) وسيرت الجبال فكانت سرابا (٢٠) إن جهنم كانت مرصادا (٢١) للطاغين (ج ١٠ م ٣١ من التبيان)

(٢٤٢)

مأبا (٢٢) لا بثين فيها أحقابا (٢٣) لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا (٢٤) إلا حميما وغساقا (٢٥) جزاء وفاقا (٢٦) إنهم كانوا لا يرجون حسابا (٢٧) وكذبوا بآياتنا كذابا (٢٨) وكل شئ أحصيناه كتابا (٢٩) فذقوا فلن نزيدكم إلا عذابا (٣٠) اربع عشرة آية. قرأ (وفتحت) بالتخفيف أهل الكوفة إلا الاعشى والبرجمي. الباوق بالتشديد. وقرأ حمزة وروح (لبثين فيها) بغير الف مثل (مزجين، وفرهين) الباوق (لا بثين) بألف على اسم الفاعل، وهو الاجود، لانه من (لبث) فهو (لابث) وحجة حمزة أنه مثل (طمع) و (طامع). واللبث البطئ. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما عن المفضل (غساقا) مشددة. الباوق بالتخفيف، وهما لغتان.

فالغساق صديد أهل النار - في قول ابراهيم وقتادة وعكرمة وعطية - وقال أبو عبيدة:

الغساق ماء وهو من الغسل أي سيال. وقال غيره: هو البارد. وقيل: المنتن.

يقول الله تعالى (إن يوم الفصل) يعني يوم الدين وهو يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بالحكم بين الخلائق (كان ميقاتا) أي جعله الله وقتا للحساب والجزاء فالميقات منتهى المقدار المضروب لوقت حدوث أمر من الامور، وهو مأخوذ من الوقت، كما أن الميعاد من الوعد، والميزان من الوزن والمقدار من القدر. والمفتاح من الفتح.

وقوله (يوم ينفخ في الصور) فالنفخ إخراج ريح الجوف من الفم، ومنه نفخ الزق، والنفخ في البوق، ونفخ الروح في البدن يشبه بذلك، لانهما تجري فيه كما تجري الريح، يجرى مجرى الريح في الشئ، والصور قرن ينفخ فيه في حديث مرفوع عن النبي (صلى الله عليه وآله)

(٢٤٣)

وقال الحسن: هو جمع صورة. وبه قال قتادة. ومعناه: إذكر يوم ينفخ في الصور (فتأتون أفواجا) فالفوج جماعة من جماعة. والافواج جماعات من جماعات، فالناس يأتون على تلك

الصفة إلى أن يتكاملوا في أرض القيامة. وكل فريق يأتي مع شكله. وقيل تأتي كل أمة مع نبيها، فذلك جاؤا أفواجا أي زمرا.

وقوله (وفتحت السماء فكانت أبوابا) معناه وشققت السماء، فكانت كقطع الابواب. وقيل: صار فيها طرق ولم يكن كذلك قبل.

وقوله (وسيرت الجبال فكانت سرابا) معناه زيلت الجبال عن أماكنها وأذهب بها حتى صارت كالسراب.

وقوله (ان جهنم كانت مرصادا) إخبار منه تعالى بأن جهنم تكون يومئذ مرصادا. والمرصاد هو المعد لامر على ارتقابه الوقوع فيه، وهو مفعال من الرصد.

وقيل: المعنى ذات ارتقاب لاهلها تراصدهم بنكالها. والرصد عمل ما يتربق به الاختطاف.

وقوله (للطاغين) يعني جهنم للذين طغوا في معصية الله وتجاوزوا الحد (مآبا) أي مرجعا، وهو الموضوع الذي يرجع اليه، فكأن المجرم قد كان باجرامه فيها ثم رجع اليها، ويجوز أن يكون كالمنزل الذي يرجع اليه.

وقوله (لابئين فيها أحقابا) أي ما كثر فيها أزمانا كثيرة، وواحد الاحقاب حقب من قوله (او أمضي حقا) (١) أي دهرًا طويلا. وقيل واحده حقب، وواحد الحقب حقبة، كما قال الشاعر:

وكنا كندمانى جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا وإنما قال (لابئين فيها احقابا) مع انهم مخلدون مؤبدون: لا انقضاء لها

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٦١ (*)

(٢٤٤)

إلا انه حذف للعلم بحال أهل النار من الكفار باجماع الامة عليه (لابئين فيها احقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا) ثم يعذبون بعد ذلك بضرب آخر كالزقوم والزمهرير ونحوه من أصناف العذاب، ومن قرأ (البئين) بلا الف استشهد في تعدي (فعل) بقول الشاعر:

ومسحل سح عضاده سحج * بسراتها ندب له وكلوم (١)

وقال ابن عباس: الحقب ثمانون سنة. وقال الحسن: سبعون سنة. وقال قوم: هو اكثر من ذلك.

وقوله (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) قال ابو عبيدة: البرد ههنا النوم قال الكندي:

فيصدني عنها وعن قبلتها البرد أي النوم، فكأنهم لا ينامون من شدة ما هم فيه من العذاب، ولا يجدون شرابا يشربوه (إلاحميما وغساقا) فالحميم الحار الشديد الحرارة والغساق صديد أهل النار - في قول إبراهيم وقتادة وعطية وعكرمة - يقال: غسقت القرحة غسقا إذا سال صديدها، وكذلك الجروح، ومنه قوله (ومن شر غاسق إذا وقب) (٢)

والغاسق الليل إذا لبس الاشياء بظلمته. كأنه يسيل عليه بظلامه، وقال الحسن:
الجنة والنار مخلوقتان في الايام الستة الاول، وهي الجنة التي سكنها آدم، وهي الجنة التي
يسكنها المتقون في الآخرة. ثم يفنيها الله لهلاك الخلائق. ثم يعيدها، فلا يفنيها أبدا. وقال قوم:
المخلوقتان، ولا يفنيهما الله. وقال آخرون: هما غير مخلوقتين.
والجنة التي كان فيها جنة أخرى ليست جنة الخلد.
وقوله (جزاء وفاقا) قال ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة: معناه وافق

(١) تفسير الطبري ٣٠ / ٧ / (٢) سورة ١١٣ الفلق آية ٣ (*)

(٢٤٥)

الجزاء أعمالهم، فالوفاق الجاري على المقدار، فالجزاء وفاق لأنه جار على مقدار الاعمال في
الاستحقاق، وذلك أنه يستحق على الكفر أعظم مما يستحق على الفسق الذي ليس بكفر.
ويستحق على الفسق أعظم مما يستحق على الذنب الصغير.
وقوله (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) أي لا يرجون المجازاة على الاعمال ولا يتوقعونه - وهو
قول الحسن وقتادة - وقيل: معناه إنهم كانوا: لا يرجون حسن الجزاء في الحساب لتكذيبهم
فالرجاء التوقع لوقوع أمر يخاف ألا يكون، فهو لاء كان يجب عليهم أن يتوقعوا الحساب على
يقين أنه يكون، فلم يفعلوا الواجب في هذا، ولا قاربوه لا عقادهم أنه لا يكون فاللوم أعظم لهم
والتقريع لهم أشد. وقيل:
معنى لا يرجون لا يخافون كما قال الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وحالفها في بيت نوب عوامل (١)

وقوله (وكذبوا بآياتنا كذابا) معناه جحدوا بآيات الله وحججه، ولم يصدقوا بها. وإنما جاء
المصدر على فعال للمبالغة مع اجرائه على نظيره الذي يطرد قبل آخره الف نحو الانطلاق
والاقتدار والاستخراج والقتال والكرام، والمصدر الجاري على فعل التفعيل نحو التكذيب
والتحسين والتقديم، وقد خرج التفعيل عن النضير لما تضمن من معنى التكثر، كما خرج
التفاعل والمفاعلة للزيادة على أقل الفعل، فانه من اثنين. ومثل كداب، حملته حمالا وحرقتة
حراقا.

وقوله (وكل شئ احصيناه كتابا) معناه وأحصينا كل شئ أحصيناه في كتاب، فلما حذف حرف
الجر نصبه، وقيل: إنما نصبه لان في احصيناه معنى كتبناه، فكأنه قال كتبناه كتابا، ومثل
كذبتة كذابا قصيته قصاء قال الشاعر:

(١) مرفي ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١ و ٨ / ١٨٧ (*)

(٢٤٦)

لقد طال ما تبطنتي عن صحابتي * وعن جوح قضاؤها من شقائيا (١) والوجه في إحصاء الاشياء في الكتاب ما فيه من الاعتبار للملائكة بموافقة ما يحدث لما تقدم به الاثبات مع أن تصور ذلك يقتضي الاستكثار من الخير والاجتهاد فيه، كما يقتضي إذا قيل للانسان ما عمله فانه يكتب لك وعليك. وقوله (فذوقوا) أي يقال لهؤلاء الكفار ذوقوا ما كنتم فيه من العذاب (فلن نزيدكم إلا عذابا) لان كل عذاب يأتي بعد الوقت الاول فهو زائد عليه. قوله تعالى:

(إن للمتقين مفازا (٣١) حدائق وأعنابا (٣٢) وكواعب أترابا (٣٣) وكأسا دهاقا (٣٤) لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا (٣٥)

جزاء من ربك عطاء حسابا (٣٦) رب السموات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا (٣٧) يوم يقوم الروح والملئكة صفا لا يتكلمون إلا من أذنت له الرحمن وقال صوابا (٣٨) ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذنا إلى ربه مآبا (٣٩) إنا أنذرناكم عذابا قريبا * يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) (٤٠) إحدى عشرة آية في البصري وعشر آيات عند الباقرين قرأ (ولا كذابا) خفيفا الكسائي (رب السموات) بالرفع محارب وابو بكر، و (الرحمن) جرا عن عاصم وابن عامر ويعقوب وسهل.

(١) القرطبي ١٩ / ١٧٩ والطبري ٣٠ / ١٠ (*)

(٢٤٧)

لما ذكر الله تعالى حال الكفار وما أعده لهم من أنواع العقاب ذكر ما للمؤمنين المتقين لمعاصي الله تعالى، فقال (إن للمتقين) الذين يتقون عقاب الله باجتنب معاصيه وفعل طاعته (مفازا) وهو موضع الفوز بخلوص الملاذ. وأصل الفوز النجاة إلى حال السلامة والسرور، ومنه قيل للمهلكة مفازة على وجه التفاؤل، لانه قيل منجاة وقيل مفازا منجى إلى مبرة. ثم بين ذلك فقال (حدائق واعنابا) فالحدائق جمع حديقة، وهي البستان المحوط، ومنه أحرق به حائطه. والحديقة الجنة المحوطة، ومنه أحرق القوم بفلان إذا أطافوا به، وسميت الحديقة حدقة لما يحيط

بها من جفنها والاعناب جمع عنب، وهو ثمر الكرم قبل أن يجف فإذا جف فهو الزبيب، ونظيره الرطب ثمر النخل قبل أن يصير تمرا فإذا صار تمرا زال عنه اسم الرطب. وقوله (وكواعب أترابا) قال ابن عباس: الكواعب النواهد، والكاعب الجارية قد نهد ثدياها، يقال: كعب ثدي الجارية ونهد إذا ابتداء بخروج حسن. والاتراب جمع ترب، وهي التي تنشأ مع لدتها على سن الصبي الذي يلعب بالتراب فكأنه قيل هم على سن واحدة قال قتادة: أترابا يعني في سن واحدة. وقوله (وكأسا دهاقا) فالكأس الاناء إذا كان فيه شراب. وقيل الكاس أناء الخمر الذي يشرب منه، قال الشاعر:

يلذه بكأسه الدهاق (١)

فان لم يكن فيه الخمر لم يسم كأسا، والدهاق ملاى بشدة الضغط، والدهق شدة الضغط في الكأس ملاى مترعة ليس فيها فرجة ليستوفي حال اللذة. وقال قتادة: دهاقا مترعة. وقال مجاهد: معناه متتابعة على شاربها مأخوذ من متابعة الشد في الدهن.

(١) القرطبي ١٩ / ١٨١ (*)

(٢٤٨)

وقوله (لا يسمعون فيها لغوا) أي لا يسمعون في الجنة كلاما لا فائدة فيه (ولا كذابا) أي ولا تكذب بعضهم لبعض. ومن قرأ (كذابا) بالتخفيف أراد مصدر كاذبه مكاذبة، وكذابا قال الشاعر:

فصدقتني وكذبتني * والمرء ينفعه كذابه (١)

وقال الفراء: قال اعرابي في طريق مكة: يارب القصار أحب اليك أم الحلق يريد أقصر شعري أم احلق.

وقوله (جزاء من ربك عطاء حسابا) أي فعلنا بالمؤمنين المتقين ما فعلنا جزاء على تصديقهم بالله ونبيه، فالجزاء إعطاء المستحق بعمل الطاعة أو المعصية.

وقوله (عطاء حسابا) أي بحساب العمل كل إنسان على قدر عمله من النبيين والصدّيقين والشهداء الصالحين، ثم سائر أختيار المؤمنين، وعند الله المزيد.

وقيل: معناه عطاء كافيا من قولهم: أعطاني ما أحسبني أي كفاني، وحسبك أي اكتف، وحسبي الله أي كفاني الله. وقال الحسن: معناه إنه أعطاهم ذلك محاسبة.

وقوله (رب السموات والارض) من رفع استأنف الكلام وجعله مبتدأ.

وقوله (الرحمن) خير، ومن جره رده على قوله (من ربك) رب السموات، وجعل (الرحمن) جراً بأنه نعت. ومن رفع الرحمن وجر الاول قطعه عن الاول وتقديره: هو الرحمن. والمعنى إن الذي يفعل بالمؤمنين ما تقدم ذكره هو الله رب السموات والارض ومديرهما، ومدبر ما بينهما، والمصرف لهما على ما يريده (لا يملكون منه خطاباً) ومعناه لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه، كما قال (لا يشفعون إلا لمن ارتضى) (٢) وفي ذلك أتم التحذير من الاتكال. والخطاب توجيه الكلام إلى مدرك بصيغة مبينة كاشفة عن المراد بخلاف صيغة الغائب عن الإدراك

(١) مر في ٨ / ٣٩٠ و ٩ / ٤٢٥ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٢٨ (*)

(٢٤٩)

على طريقة أنت وبك. والاضمار على ثلاثة أضرب: إضمار المتكلم، وإضمار المخاطب وإضمار الغائب.

وقوله (يوم يقوم الروح والملائكة) معناه إذكر يوم يقوم الروح، قال الضحاك والشعبي: الروح هو جبرائيل (عليه السلام) وقال ابن مسعود وابن عباس: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً، وهو المروي في أخبارنا. وقال الحسن وقتادة: الروح بنو آدم وقال ابن عباس: أرواح بني آدم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل رد الأرواح إلى الاجساد.

وقوله (والملائكة صفا لا يتكلمون) أي مصطفين لا يتكلم احد بشئ (إلا من أذن له الرحمن) أي أذن الله له في الكلام (وقال صواباً) والصواب موافقة الغرض الحكمي كأنه إصابة ذلك الغرض الذي تدعو اليه الحكمة. ونقيضه الخطأ، وهو مخالفة الغرض الحكمي ولما كانت الحكمة قد تدعو إلى أمر بأوكد مما تدعو إلى أمر، كدعائها إلى الفعل الاصلح، والفعل الادون، صح ان صواباً أصوب من صواب.

ثم قال (ذلك اليوم) يعني اليوم الذي وصفه وأخبر عنه هو (الحق) الذي لا شك في كونه وحصوله.

وقوله (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً) فيه دلالة على أن العباد قادرون على اتخاذ المآب وتركه. وإنما قال (فمن شاء اتخذ) لأنه قادر عليه ومزاح العلة فيه.

والمآب المرجع، وهو (مفعل) من آب يؤب أوبا. وقال سفيان: معناه مرجعاً.

قال عبيد:

وكل ذي غيبة يؤوب * وغائب الموت لا يؤوب (١)

(١) مرفي ٦ / ٤٦٨ (ج ١٠ م ٣٢ من التبيان) (*)

(٢٥٠)

وقوله (إنا انذرناكم عذابا قريبا) معناه الاخبار من الله تعالى أنه خوف عباده وأعلمهم المواضع التي ينبغي أن يحذروها. ثم بين ما يكون بعد ذلك فقال (يوم ينظر المرؤ ما قدمت يداه) ومعناه ينتظر جزاء ما قدمه، فان قدم طاعة انتظر الثواب، وإن قدم معصية انتظر العقاب (ويقول الكافر) في ذلك اليوم (ياليتني كنت ترابا) أى يتمنى أن لو كان ترابا لا يعاد ولا يحاسب ليتخلص من عقاب ذلك اليوم، لانه ليس معه شئ يرجوه من الثواب. وقيل: ان الله يحشر البهائم وينتصف للجماء من القرناء فاذا انصف بينها جعلها ترابا فيتمنى الكافر عند ذلك لو كان مثل أولئك ترابا. وقيل: هو مثل قوله (ياليتني لم أوت كتابيه) (١)

٧٩ - سورة النازعات مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي ست وأربعون آية في الكوفي وخمس وأربعون في البصري والمدنيين.

بسم الله الرحمن الرحيم (والنازعات غرقا (١) والناشطات نشطا (٢) والسابحات سبحا (٣) فالسابقات سبقا (٤) فالمدبرات أمرا (٥) يوم ترجف

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢٥ (*)

(٢٥١)

الراجعة (٦) تتبعها الرادفة (٧) قلوب يومئذ واجفة (٨) أبصارها خاشعة (٩) يقولون إنا لمردودون في الحافرة (١٠) فإذا كنا عظاما نخرة (١١) قالوا تلك إذا كرة خاسرة (١٢) فانما هي زجرة واحدة (١٣) فاذا هم بالساهرة) (١٤) أربع عشرة آية.

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا (عظاما ناخرة) بألف، الباقون (نخرة) بلا ألف من قرأ (ناخرة) اتبع رؤس الاي نحو (الساهرة، والحافرة) ومن قرأ نخرة - بلا ألف - قال لانه الاكثر في كلام العرب، ولما روي عن علي (عليه السلام) انه قرأ (نخرة) وقال النحويون: هما لغتان مثل ياخذ وبخل، وطامع وطمع وقال الفراء النخرة البالية والناخرة المجوفة.

وقوله (والنازعات) قسم من الله تعالى بهذه الاشياء التي عددها. وقال قوم: تقديره ورب النازعات وما ذكر بعدها، لانه لا يجوز اليمين إلا بالله تعالى.

وهو ترك الظاهر. وقد روينا عن أبي جعفر وأبي عبدالله (عليهما السلام) أن الله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به. وإنما كان كذلك، لانه من باب المصالح

التي يجوز أن تختلف به العبادات، وإنما جاز أن يقسم هو تعالى بما شاء من خلقه، للتنبية على موضع العبرة فيه إذ القسم يدل على عظم شأن المقسم به. ومعنى (النازعات) الملائكة تنزع الارواح من الابدان، فالنازعات الجاذبات الشئ من أعماق ما هو فيه. وقال الحسن وقتادة: هي النجوم أي تنزع من أفق السماء إلى أفق آخر. وقال عطاء: هي القسي تنزع بالسهم. وقال السدي: هي النفوس تنزع بالخروج من البدن.

(٢٥٢)

وقوله (غرقا) معناه إغراقا أي ابعادا في النزاع. وقوله (والناشطات نشطا) قيل: هي الخارجات من بلد إلى بلد بعيد الاقطار ينشط كما ينشط الوحش بالخروج من بلد إلى بلد. والهموم تنشط بصاحبها أي تخرج به من حال إلى حال، قال هيبان بن قحافة:

أمست همومي تنشط المناشطا * الشام طورا ثم طورا واسطا (١)
وقال ابن عباس: هي الملائكة أي تنشط بأمر الله إلى حيث كان. وقال قوم: هو ملك الموت ينشط روحه من خلقه، وقال قوم: هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب. وقال عطاء: هي الوحش تنشط من بلد إلى بلد قال رؤية:
تنشط منها كل معلاه الوهق.

يعني بقر الوحش. قال الفراء: تنشط نفس المؤمن كما ينشط العقل من يد البعير. قال ابن خالويه، وأكثر ما سمعته أنشطته بالالف، قالوا: كأنه انشط من عقل. فاذا شددت الحبل في يد البعير قلت: نشطته وإذا حللته قلت أنشطته.

وقوله (والسابحات سبحا) معناه المارات بغوص معظمها في المائع وقد يكون ذلك في الماء وقد يكون فيما جرى مجراه، وذلك كسبح دود الخل، وقد يكون السبح في الهواء تشبيها بالماء. وقال مجاهد: السابحات الملائكة، لأنها تسبح في نزولها بأمر الله كما يقال: الفرس يسبح في جريه إذا أسرع. وقال قتادة: هي النجوم أي تسبح في فلکها. وقال عطاء: هي السفن. وقال قوم: هو ملك الموت يقبض روح المؤمن وحده سهلا سرحا كالسباح في الماء.

وقوله (فالسابقات سبقا) يعني الكائنات قبل غيرها على معنى صفة من الصفات. وقال مجاهد: هي الملائكة، لأنها سبقت إلى طاعة الله. وقال قوم: لأنها

(١) القرطبي ١٩ / ١٩٠ ومجاز القرآن ٢ / ٢٨٤ (*)

(٢٥٣)

تسبق الشياطين إلى الوحي. وقال عطاء: هي الخيل السابقة. وقيل: هي النجوم - ذكره قتادة - أي يسبق بعضها بعضا في السير.

وقوله (فالمدبرات أمرا) قال ابن عباس وقتادة وعطاء بن السائب: هي الملائكة تدبر الاشياء. وقيل: تدبير الملائكة في ما وكلت به من الرياح والامطار ونحو ذلك من الامور. وجواب القسم محذوف، كأنه قال: ليبعثن للجزاء والحساب ثم بين أي وقت يكون الجزاء والثواب والعقاب، فقال (يوم ترجف الراجفة)

فالرجف حركة الشئ من تحت غيره بترديد واضطراب، وهي الزلزلة العظيمة رجف يرجف رجفا ورجفا ورجوفا، وأرجفوا إذا أزعجوا الناس باضطراب الامور، كما ينزعج الذي يرجف ما تحته، ومنه الرجفة وهي الزعزعة الشديدة من تحت ما كان من الحيوان. وقيل: ان الارض مع الجبال تنزعزع.

وقوله (تتبعها الرادفة) ومعناه تتبع الراجفة الرادفة أي تجئ بعدها، وهي الكائنة بعد الاول في موضع الردف من الراكب، ردفهم الامر ردفا فهو رادف، وارتدف الراكب إذا اتخذ رديفا، وقال الحسن وقتادة: هما النفختان: أما الاولى فتميت الاحياء، وأما الثانية فتحي الموتى باذن الله.

وقوله (قلوب يومئذ واجفة) أي كائنة على الانزعاج والاضطراب، وجفت تجف وجفا ووجيفا وأوجف في السير إذا أزعج الركاب فيه. وقال ابن عباس: معنى (واجفة) أي خائفة.

وقوله (أبصارها خاشعة) أي خاضعة ذليلة من هول ذلك اليوم قال الشاعر:
لما اتى خبر الزبير تهدمت * سور المدينة والجبال الخشع (١)
وقوله (يقولون أننا لمرددون في الحافرة) حكاية عما قاله الكافرون

(١) مر في ١ / ٣١٢، ٢٠٤ و ٧ / ١٥٢، ٢٠٩ و ٨ / ٣٦٩ (*)

(٢٥٤)

المنكرون للبعث والنشور، فانهم ينكرون النشور ويتعجبون من ذلك، ويقولون على وجه الانكار أننا لمرددون في الحافرة. وقيل: حافرة، بمعنى محفورة، مثل (ماه دافق) (١) بمعنى مدفوق. وقال ابن عباس والسدي: الحافرة الحياة الثانية.

وقيل: الحافرة الارض المحفورة. أي نرد في قبور نابعد موتنا احياء؟! قال الشاعر:

احافرة على صلح وشيب * معاذ الله من جهل وعار (٢)

فالحافرة الكائنة على حفر أول الكرة يقال: رجع في حافرته إذا رجع من حيث جاء، وذلك كرجوع القهقري، فردوا في الحافرة أي ردوا كما كانوا أول مرة، ويقال: رجع فلان على حافرته أي من حين جاء. وقولهم: النقد عند الحافرة معناه إذا قال بعثك رجعت عليه بالثمن. وقال قوم: معناه النقد عند حافر الدابة.

وقوله (فانما هي زجرة واحدة) أي النفخة الثانية (فاذاهم بالساهرة) أي على وجه الأرض، فالعرب تسمي وجه الأرض من الفلاة ساهرة أي ذات سهر لأنه يسهر فيها خوفا قال أمية بن أبي الصلت:

وفيهما لحم ساهرة وبحر * وما فاهوا به لهم مقيم (٣)
وقال آخر:

فانما قصرك ترب الساهره * ثم تعود بعدها في الحافره
من بعد ما كانت عظاما ناخره (٤)

وقال الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك: الساهرة وجه الأرض. وقال قوم

(١) سورة ٨٦ الطارق آية ٨ (٢) تفسير القرطبي ١٩ / ١٩٥ والطبري ٣٠ / ١٩ (٣) القرطبي ١٩ / ١٩٧ (٤) اللسان (نخر) (*)

(٢٥٥)

(بالساهرة) أي من بطن الأرض إلى ظهرها. وقالوا أيضا منكبين للبعث (أثنا كنا عظاما نخرة) نرد ونبعث. والعظام جمع عظم، وهي مأخوذة من العظم وذلك لعظم صلابتها وعظمتها في نفسها والنخرة البالية بما حدث فيها من التغيير وإختلال البنية، جذع نخر إذا كان بهذه الصفة، وإذا لم تختل بنيته لم يكن نخرا وإن بلي بالوهن والضعف وقيل: ناخرة مجوفة ينخر الرياح فيها بالمرور في جوفها وقيل: ناخرة ونخرة سواء، مثل ناخلة ونخل، ونخرة أوضح في المعني، وناخرة اشكل برؤس الاى. وقيل: نخرة بالية مجوفة بالبلى.

ثم حكى أيضا ما قالوه، فانهم (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) فالكرة المرة من المر وهي الواحدة من الكر، كر يكر كرة، وهي كالضربة الواحدة من الضرب، والخاسر الذاهب رأس ماله فتلك الكرة كأنه قد ذهب رأس المال منها، فكذا الخسران. وإنما قالوا (كرة خاسرة) أي لا يجيئ منها شيء كالخسران الذي لا يجيئ منه فائدة. وكأنهم قالوا: هو كالخسران يذهب رأس المال، فلا يجيئ به تجارة، فكذا لا يجيئ بتلك الكرة حياة. وقيل معنا (تلك إذا كرة خاسرة) على ما تعدنا من العذاب. وقال الحسن: معناه كاذبة ليست كائنة.

قوله تعالى:

(هل أتيتك حديث موسى (١٥) إذ ناديه ربه بالواد المقدس طوى (١٦) إذهب إلى فرعون إنه طغى (١٧) فقل هل لك إلى أن تزكى (١٨) وأهديك إلى ربك فتخشى (١٩) فإريه الآية الكبرى (٢٠) فكذب وعصى (٢١) ثم أدبر يسعى (٢٢) فحشر

(٢٥٦)

فنادى (٢٣) فقال أنا ربكم الاعلى (٢٤) فأخذ الله نكال الآخرة والاولى (٢٥) احدى عشرة آية.

قرأ ابن كثير وابوعمر و نافع (طوى اذهب) غير منونة. الباقر (طوى اذهب) منونة. وقرأ نافع (تزكى) مشددة الزاي بمعنى تزكى، فادغم التاء في الزاي. الباقر خفيفة الزاي، فحذفت احدى التاعين. قال ابو عمرو:

يقال: تزكى مشددا إذا أردت تتصدق، ولم يدع موسى فرعون إلى ان يتصدق، وهو كافر. وإنما قال له هل لك ان تصير زاكيا، قال: فالتخفيف هو الاختيار.

ومن نون (طوى) جعله اسم واد، ومن لم ينون جعله اسم الارض، لانه معدول من (طاو). ومن كسر الطاء قال: قدس مرتين، وتبين فيه البركة مرتين، مثل ثنى وعدى.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) يقول له (وهل اتاك) يامحمد (حديث موسى) فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به التقرير (إذ ناداه ربه) أى حين ناداه الله (بالواد المقدس طوى) فالنداء الدعاء على طريقة يافلان، والندا مد الصوت بنداؤه، فمعنى (ناداه) قال له ياموسى. ثم أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي و (الوادى المقدس) يعنى المطهر و (طوى) قال مجاهد وقتادة: واد، وقيل طوى التقديس. وقرأ الحسن (طوى) بكسر الطاء. وقيل طوي بالبركة والتقديس بنداؤه مرتين، قال طرفة بن العبد:

أعاذل إن اللوم في غير كنهه * علي طوى من غيك المتردد (١)
أى اللوم المكرر، و (طوى) غير مصروف، لانه اسم البقعة من الوادي

(١) مر في ٧ / ١٦٥ (*)

(٢٥٧)

وهو معرفة، ويجوز أن يكون معدولا من (طاوى) في قول الزجاج. وقوله (إذهب إلى فرعون إنه طغى) اخبا رمن الله - عزوجل - عن حال فرعون بأنه طغى، ومعناه تجاوز الحد في الاستعلاء، والتمرد والفساد، يقال طغى يطغى طغيانا فهو طاغ،

ونظيره البغي، بغى على الناس يبغي بغيا فهو باغ وهم البغاة والطغاة، ونظير الطغيان العدوان، وهو المجاوزة لحد الصغيرة، وكل من طغى فقد عتا واستدى.
ثم ذكر ما أمره أن يقول له بأن قال (فقل هل لك إلى أن تزكى) أي ادعوه إلى الله وطريق الجنة، و (قل) على وجه التلطف في الكلام (هل لك إلى أن تزكى) وتطهر من المعاصي، فالتركي طلب الطالب أن يصير زاكيا، تركي يتزكى تزكيا، والزاكى النامي في الخير، والزكاء النماء في الخير، ولو نمت في الشر لم يكن زاكيا (وأهديك إلى ربك فتخشى) معناه وأهديك إلى طريق الحق الذي إذا سلكته وصلت إلى رضى الله وثوابه، فالهداية الدالة على طريق الرشد من الغي.

وقد يكون دلالة على معنى ليس برشد ولاغي كالدلالة على الحركة فقط. وقوله (فتخشى) فالخشية توقع المضرة من غير قطع بها لا محالة، والخشية والخوف والتقية نظائر، يقال: خشى يخشى خشية، فهو خاش، وذاك مخشى. وفي الكلام حذف وتقديره فأناه فدعاه (فأراه الآية الكبرى) وقوله (فكذب وعصى) حكاية عن فرعون أنه كذب موسى في ما دعاه إليه وجدد نبوته وعصاه في ما أمره به من طاعة الله (ثم أدبر يسعى) أي ولى فرعون الدبر بعد ذلك، فالادبار تولية الدبر، ونقيضة الاقبال وأقبل فلان إذا استقامت له الامور على المثل أي هو كالمقبل إلى الخير، وأدبر فلان إذا اضطربت عليه حاله، ففرعون ولى الدبر ليطلب ما يكسر به حجة (ج ١٠ م ٣٣ من التبيان)

(٢٥٨)

موسى (عليه السلام) في الآية الكبرى، وهي المعجزة العظيمة، فما ازداد إلا غواية، لانه لا يقاوم الضلال الحق.

وقوله (ثم ادبر يسعى، فالسعي الاسراع في المشي، وفي إدباره يسعى في هذه الحال دليل على خوفه. وقيل: إنه لما رأى العصا انقلبت حية في عظمها خاف منه، فادبر يسعى.

وقوله (فحشر فنادى) فالحشر الجمع من كل جهة، وقد يكون الجمع بضم جزء إلى جزء، فلا يكون حشرا، فاذا جمع الناس من كل جهة، فذلك الحشر، ولهذا سمي يوم الحشر. والحاشر الذي يجمع الناس من كل جهة إلى الخراج، وإنما طلب السحرة، فلما اجتمعوا ناداهم فقال لهم (أنا ربكم الاعلى) فالاعلى المختص بعلو معنى صفته على غيره مما لا يناله بكيد وينال هو به، ومن هنا خرج بالغلو إلى التعظيم، ولم يكن مثل ذلك في جهة من الجهات، وكأنه قال: أنا الذي أنال بالضرر من شئت ولا ينالني غيري. وكذب - لعنه الله - إنما هذه صفة الذي خلقه وخلق جميع الخلق، ومعنى (نادى) ههنا قال: يامعشر الناس أنا ربكم الاعلى، إذ نادى بهذا

القول. وقيل: كلمته الاولى (ما علمت لكم من إله غيري) (١) وقوله الاخر هذا (أنا ربكم الاعلى) ذكره ابن عباس ومجاهد والشعبي والضحاك.

ثم حكى تعالى ما عامله به من العقاب فقال (فأخذ الله نكال الاخرة والاولى) فالنكال عقاب بنكل من الاقدام على سببه بشدته، نكل به تنكيلا إذا شوه به في عقابه بما يكون زاجرا لغيره عن مثل حذيه أشد الزجر الذي يزعج النفس. وقال الحسن وقتادة: معناه عذاب الدنيا وعذاب الاخرة. وقال مجاهد: أول عمله وآخره وقال بعضهم: نكاله فعلته الاولى، وهو قوله (ما علمت لكم من إله غيري)

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٣٨ (*)

(٢٥٩)

وفعلته الاخيرة هو قوله (أنا ربكم الاعلى) وقال قوم: معناه نكال الدنيا بالغرق ونكال الاخرة ما صار اليه بعد الموت من العقاب. وقال الحسن (الاية الكبرى) اليد البيضاء. وقال غيره: قلب العصا حية. قوله تعالى:

(إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) (٢٦) ءأنتم أشد خلقا أم السماء بنيتها (٢٧) رفع سمكها فسويها (٢٨) وأغطش ليلها وأخرج ضحيتها (٢٩) والارض بعد ذلك دحيها (٣٠) أخرج منها ماءها ومرعيها (٣١) والجال أرسبها (٣٢) متاعا لكم ولا نعمكم (٣٣) ثمان آيات.

يقول الله تعالى بعد ما ذكر ما تقدم من قصة موسى وفرعون وما فعله الله بقوم فرعون من الاهلاك والدمار (إن في ذلك لعبرة) يعني فيما قصه واخبر به دلالة يمكن أن يعتبر بها العامل العاقل، فيعرف الحق ويميز بينه وبين الباطل، يقال: اعتبرته اعتبارا وعبرة، ومنه العبارة لأنه يعبر بالمعنى فيها إلى نفس المخاطب للافهام، ومنه عبور النهر وتعبير الرؤيا باخراج ما فيها بعبورها المعنى إلى النفس السائلة عنها.

وقوله (لمن يخشى) إنما خص من يخشى بالعبرة، لأنه الذي يعتبر بها وينتفع بالنظر فيها دون الكافر الذي لا يخشى عذاب الله، كما قال (هدى للمتقين) (١).

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢ (*)

(٢٦٠)

ثم خاطب الكفار الجاحدين بالله تعالى على وجه التبكيت لهم والتوبيخ (أنتم اشد خلقا) ومعناه أنتم اشد أمرا بصغر حالكم (أم السماء) في عظم جرمها وشأنها في وقوفها وسائر نجومها وافلاكها. قال بعض النحويين (بناها) من صلة السماء.

والمعنى أم التي بناها. وقال آخرون (السماء) ليس مما يوصل، ولكن المعنى أنتم اشد خلقا أم السماء اشد خلقا. ثم بين كيف خلقها فقال (بناها) والله تعالى لا يكبر عليه خلق شئ اشد من خلق غيره، وإنما أراد انتم اشد خلقا عندكم وفي ظنكم مع صغركم أم السماء مع عظمها وشدّة إحكامها؟ وبين انه تعالى بنى السماء و (رفع سمكها) يعني ارتفاعها، فالسمك مقابل للعمق، وهو ذهاب الجسم بالتأليف في جهة العلو، وبالعكس منه العمق. والطول ذهاب الجسم في جهة الطول. والعرض ذهابه في جهة العرض، وهو بالاضافة إلى ما يضاف اليه.

وقوله (فسواها) فالتسوية جعل أحد الشئيين على مقدار الاخر على نفسه او في حكمه، وكل ما جعل في حقه على ترتيبه مع غيره فقد سوي، فلما كان كل شئ من السماء مجعولا في صفة على ترتيبه مع غيره كانت قد سويت على هذا الوجه.

وقوله (واغطش ليلها) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: معناه اظلم ليلها. وقال ابو عبيدة: كل أغطش لا يبصر. وقال: ليلها اضاف الظلام إلى السماء لان فيها ينشأ الظلام والضياء بغروب الشمس وطلوعها على ما دبرها الله. وقوله (واخرج ضحاها) قال مجاهد والضحاك أخرج نورها.

وقوله (والارض بعد ذلك دحاها) قال مجاهد والسدي: معناه دحاها مع ذلك، كما قال (عتل بعد ذلك) أي مع ذلك. وقال ابن عباس: ان الله دحا الارض بعد السماء، وإن كانت الارض خلقت قبل السماء، ومعناه دحاها بسطحها دحا يدحو دحوا ودحيت ادحي دحيا لغتان، قال أمية بن أبي الصلت:

(٢٦١)

دار دحاها ثم أمر بابها * واقام بالآخرى التي هي أمجد (١)
وقال اوس بن حجر:

ينفي الحسا عن جديد الارض مبترك * كأنه فاحص أو لاعب داح (٢)
وقوله (اخرج منها) يعني من الارض (ماءها) يعني المياه التي تخرج من الارض وفيها منافع جميع الحيوان، وبه قوام حياتهم كما قال (وجعلنا من الماء كل شئ حي) (٣) (ومرعاها) أي واخرج المرعى من الارض، وهو النبات الذي يصلح أن ترعاه الماشية، فهي ترعاه بأن تأكله في موضعه، رعت ترعى رعيًا ومرعى، وسمي النبات الذي يصلح أن يرعى به.

وقوله (والجبال أرساها) أي واثبت الجبال في الارض. والارساء الاثبات بالثقل. فالسفينه ترسو أي تثبت بثقلها فلا تزول عن مكانها، وربما ارست بالبحر بما يطرح لها. فأما الجبال فانها أوتاد الارض، وأرسيت بثقلها، وفي جعلها على الصفة التي هي عليها اعظم العبرة. وقوله (متاعا لكم ولا نعماكم) أي خلقنا ما ذكرناه من الارض وما يخرج منها من المياه والمراعي نفعاً ومنتعة تنتفعون بها معاشر الناس وينتفع بها أنعامكم: الابل والبقر والغنم، ففي الاشياء التي عددها اعظم دلالة ووضح حجة على توحيد الله، لان الارض مع ثقلها الذي من شأنه ان يذهب سفلا هي واقفة بامسك الله تعالى، وهي على الماء. ومن شأن الماء أن يجري في المنحدر، وهي واقفة بامسك الله تعالى فقد خرجت عن طبع الثقيل، وذلك لا يقدر عليه غير القادر لنفسه الذي يخترع

(١) تفسير الطبري ٣٠ / ٢٦ (٢) ديوانه ١٦ ومقاييس اللغة ١ / ٢٣٠ (٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٠ (*)

(٢٦٢)

الاشياء إختراعا، دون القادر بقدره الذي لا يقدر أن يفعل في غيره إلا على وجه التولية بأن يعتمد عليه، فدل ذلك على ان الفاعل لهذه الاشياء لا يشبه الاشياء ولا تشبهه. وفي اخراج الماء من الارض عبر لا تحصي كثرة بما فيه من المنفعة، وما له من المادة على موضع الحاجة، وسد الخلة مع ما فيه من المنفعة والتوفيق في السير إلى المكان البعيد بالسهولة، كل ذلك من الله تعالى به على خلقه وأنعم به عليهم. وقوله (متاعا) نصب على المفعول له، وتقديره اخرج منها ماءها ومرعاها للامتاع لكم لان معنى أخرج منها ماءها ومرعاها امتع بذلك. قوله تعالى:

(فاذا جاءت الطامة الكبرى (٣٤) يوم يتذكر الانسان ما سعى (٣٥) وبرزت الجحيم لمن يرى (٣٦) فأما من طغى (٣٧) وآثر الحياة الدنيا (٣٨) فان الجحيم هي المأوى (٤٠) وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى (٤٠) فان الجنة هي المأوى (٤١) يستلونك عن الساعة أيان مرسيتها (٤٢) فيم أنت من ذكريها (٤٣) إلى ربك منتهيها (٤٤) إنما أنت منذر من يخشيها (٤٥) كانهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحيتها) (٤٦) ثلاث عشرة آية.

قرأ أبو جعفر وعياش عن أبي عمرو (إنما أنت منذر من يخشاها) بالتثوين. الباقر على الاضافة. والمعنى واحد. فمن نون جعل (من) في موضع النصب.

(٢٦٣)

وإنما اختار ذلك، لأنه جعله (منذرا) في الحال. ومن اضافته استخف ذلك كما استخف في قوله (عارضاً مستقبلاً أوديتهم) (١) والتتوين مقدر، لأن المعنى إنه منذر في الحال، وفيما بعد. ومن اضاف جعلها في موضع جر. والمنذر النبي (صلى الله عليه وآله) قال الله تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) (٢) قال قوم: المنذر النبي (صلى الله عليه وآله) والهادي علي (عليه السلام). وقيل (لكل قوم هاد) داع يدعوهم إلى الخلق.

يقول الله تعالى مهدياً للمكلفين من خلقه (فإذا جاءت الطامة الكبرى)

قال ابن عباس: الطامة القيامة. وقال الحسن: الطامة هي النفخة الثانية. وقيل: هي الصيحة التي تظم على كل شيء، وهي الصيحة التي يقع معها البعث والحساب والعقاب والثواب وقيل هي الطامة الغامرة الهائلة، وفي المثل: ما من طامة إلا وفوقها طامة قال الفراء: تظم على كل شيء يطم. وقال قوم: الطامة الغامرة، لما يتدفق بغلظها وكثرتها. وقيل: هي الغاشية المجللة التي تدفق الشيء بالغلظ، ثم بين متى مجيئها فقال (يوم يتذكر الإنسان ما سعى) ومعناه تجيئ الطامة في يوم يتذكر الإنسان ما عمله في دار التكليف من خير أو شر وسعى فيه، ويعلم ما يستحقه من ثواب وعقاب (وبرزت الجحيم لمن يرى) أي لمن يراها ويصيرها شاهداً، فالتبريز اظهار الشيء بمثل التكشيف الذي يقضي اليه بالاحساس، ويقال: فلان مبرز في الفضل إذا ظهر به اتم الظهور، وبارز قرنه أي ظهر اليه من بين الجماعة.

ثم قسم احوال الخلق في ذلك اليوم من العصاة والمطيعين، فقال (فأما من طغى) بأن تجاوز الحد الذي حده الله، وارتكب المعاصي والطغيان والعصيان بمجاوزة الحد فيه إلى الافراط فيه، فكل كافر طاغ بافراطه في ظلم نفسه، وظلم النفس كظلم غيرها في التعاضم، وقوله (وأثر الحياة الدنيا) معناه اختار منافع الحياة الدنيا

(١) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٤ (٣) سورة ١٣ الرعد آية ٨ (*)

(٢٦٤)

بارتكاب المعاصي وترك ما وجب عليه، فالإيثار إرادة الشيء على طريقة التفضيل له على غيره، ومثله الاختيار، لأنه يختاره على أنه خير من غيره، فمن أثر الأدنى على الأولى فهو منقوص بالحاجة، كما ان من أثر القبيح على الحسن كان منقوصاً.

وقيل: المعنى من أثر نعيم الحياة الدنيا على نعيم الآخرة والحياة حياتان: حياة الدنيا وهي المنقطعة الفانية، وحياة الآخرة، وهي الدائمة، فمن أثر الباقي الدائم على الفاني المنقطع كان حسن الاختيار، ومن أثر الفاني على الباقي كان سيئ الاختيار مقبحاً.

ثم بين تعالى ما له في الآخرة فقال (فإن الجحيم هي المأوى) أي النار مثواه ومستقره وموضع مقامه.

ثم ذكر من هو بصد ذلك فقال (وأما من خاف مقام ربه) ومعناه من خاف مقام مسألة ربه عما يجب فعله أو تركه وعمل بموجب ذلك بأن فعل الطاعة وأمتنع من المعصية (ونهى نفسه عن الهوى) وما تدعو إليه شهواته، فالهوى أريحية في النفس تدعو إلى ما لا يجوز في العقل، فاتباع الهوى مذموم، وليس يجوز أن يعمل شيئاً لداعي الهوى وإن عمل لداعي العقل على موافقة الهوى لم يضره. وقيل:

هم قوم صغرت الدنيا في عينهم حين رأوا الآخرة - ذكره قتادة - وقيل: الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة هو التمسك بطاعة الله وأجتنب معصيته.

ثم بين تعالى ما له في مقابلة ذلك من الثواب فقال (فإن الجنة هي المأوى) أي هي مقره ومأواه، فالآلف واللام تعاقب الضمير كقولهم مررت بحسن الوجه أي حسن وجهه. وقال الزجاج: تقديره هي المأوى له ولا يكون بدلاً من الهاء كما لا يكون بدلاً من الكاف في قولك غض الطرف، وقال: وقال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير * فلا سعدا بلغت ولا كلابا (١)

(١) مر في ٩ / ٣٤١ (*)

(٢٦٥)

ويروى (فلا كعباً) والجنة البستان الذي يجنه الشجر فجنة الخلد بهذه الصفة على ما فيها من القصور والابنية الحسنة التي قد جمعت كل تحفة وطرفة مما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، من غير أذى ملحق بحال في عاجل ولا آجل. وروي أن قصورها مبنية بفاخر الجواهر من الياقوت والزبرجد، ومنه ما هو بلبنة من فضة ولبنة من ذهب، فتعظيم الله لها وتشويقه إليها يدل على أنها على أجل حال تشتهي فيها مع أنه لا يتعاضم في مقدور الله - عز وجل -.

ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله)، فقال (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) أي متى يكون قيامها على ما وصفها ف (أيان) بمعنى (متى) إلا أن (متى) أكثر استعمالاً في السؤال عن الزمان ونظيرها (أين) في السؤال عن المكان. ولذلك فسرت (أيان) ب (متى) والارساء الثبوت من قولهم: رست السفينة ترسو رسوا فهي راسية إذا ثبتت ومنه. قوله (أرساها) ويجوز أن يكون المراد بالمرسى المصدر.

ويجوز أن يكون وقت الارساء والمعنى متى ثبت أمرها بقيامها.

وقوله (فيم أنت من ذكراها) أى انه ليس عندك علم متى تكون، وإنما عندك علم أنها تكون - ذكره الحسن - وقال غيره: هي حكاية قولهم، أى قد اكثرت من ذكرها، فمتى تكون؟. وقوله (إلى ربك منتهاها) أى قل لهم إلى الله تعالى إجراؤها، فالمنتهى موضع بلوغ الشئ، وكأنه قيل: إلى ربك منتهى أمرها باقامتها لأن منتهى أمرها بذكرها ووصفها والاقرار بها إلى الرسول باقامتها، ومنتهى أمرها اقامتها إلى الله تعالى لا يقدر عليه إلا الله تعالى. وقيل: المعنى إلى ربك منتهى علمها أى لا يعلم إلا هو متى وقت قيامها - ذكره الحسن - وقوله (إنما انت منذر من يخشاها) خطاب من الله للنبي (صلى الله عليه وآله) بأنه إنما (ج ١٠ م ٣٤ من التبيان)

(٢٦٦)

يخوف من يخاف ذلك اليوم وهو يوم القيامة، وإنما خص الانذار بمن يخشى، لانه لما كان المنتفع بالانذار من يخشى فكأنه خص بالانذار. والكافر لما لم ينتفع بذلك فكأنه لم ينذر أصلا. ثم بين تعالى سرعة مجيئها وقرب حضورها فقال (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال قتادة: معناه إنهم إذا رأوا الاخرة صغرت الدنيا في أعينهم حتى كأنهم لم يقيموا بها إلا مقدار عشية أو مقدار ضحاها يعني ضحى العشية. وأضيف الضحى إلى العشية، وضحوة الضحى اليوم الذي يكون فيه، فاذا قلت أتيتك صباحا ومساء، فالمعنى أتيتك العشية أو غداتها، قال الفراء: وانشدني بعض بني عقيل:
نحن صبحنا عامرا في دارها * عشية الهلال أو سرارها.
قبل اصفرار الشمس واحمرارها (١)
أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية فهذا أشد من ذلك،

(١) القرطبي ١٩ / ٢٠٨ والطبري ٣٠ / ٢٨ (*)

(٢٦٧)

٨٠ - سورة عبس مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي اثنتان واربعون آية في الكوفي والمدنيين واحدى وأربعون في البصري.
بسم الله الرحمن الرحيم (عبس وتولى (١) أن جاءه الاعمى (٢) وما يدريك لعله يزكى (٣) أو يذكر فتنفعه الذكرى (٤) أما من استغنى (٥)
فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى) (١٠) عشر آيات.

قرأ عاصم وحده (فتنفعه الذكرى) بالنصب على أنه جواب (لعل) فجري مجرى جواب الامر والنهي، لان (لعل) للترجمي فهي غير واجبة، كما أن الامر غير واجب في حصول ما تضمنه. الباقون بالرفع عطا على (يذكر). وقرأ نافع وابن كثير (تصدى) مشددة الصاد على أن معناه تتصدى فأدغم، إحدى التائين في الصاد لقرب مخرجهما. الباقون (تصدى) بتخفيف الصاد باسقاط إحدى التائين.

وقرأ ابن ابي بزة وابن فليح عن ابن كثير (تلهى) بتشديد اللام بمعنى تتلهى، فأدغم إحدى التائين في اللام. الباقون بتخفيف اللام وحذف إحدى التائين

(٢٦٨)

يقول الله تعالى (عبس وتولى) ومعناه قبض وجهه وأعرض، فالعبوس تقبض الوجه عن تكرهه، والعبوس البسور وهو التقطيب وعبس فلان في وجه فلان مثل كلعج، ومنه اشتق اسم عباس، ومعنى (تولى) أعرض وذهب بوجهه عنه فصرفه عن ان يليه يقال: تولى عنه بمعنى أعرض عنه، وتولاه بخلاف تولى عنه، فان تولاه بمعنى عقد على نصرته، وتولى عنه أعرض.

وقوله (أن جاءه الاعمى) معناه عبس لان جاءه الاعمى، وقال ابن خالويه:

تقديره إذ جاءه الاعمى المراد به عبدالله بن أم مكتوم - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد - وقال الفراء: كانت أم مكتوم أم ابيه.

وقال غيره: كانت أمه. وقال ابن خالويه ابوه يكنى أبا السرج. واختلفوا فيمن وصفه الله تعالى بذلك، فقال كثير من المفسرين وأهل الحشو: إن المراد به النبي (صلى الله عليه وآله) قالوا وذلك أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان معه جماعة من أشرف قومه ورؤسائهم قد خلابهم فاقبل ابن أم مكتوم ليسلم فأعرض النبي (صلى الله عليه وآله) عنه كراهية أن تكره القوم إقباله عليه فعاتبه الله على ذلك. وقيل: إن ابن أم مكتوم كان مسلماً، وإنما كان يخاطب النبي (صلى الله عليه وآله) وهو لا يعلم أن رسول الله مشغول بكلام قوم، فيقول يا رسول الله.

وهذا فاسد، لان النبي (صلى الله عليه وآله) قد أجل الله قدره عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب، وقد وصفه بأنه (على خلق عظيم) (١) وقال (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) (٢) وكيف يعرض عن تقدم وصفه مع قوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) (٣) ومن عرف النبي (صلى الله عليه وآله) وحسن أخلاقه وما خصه الله تعالى به من مكارم الاخلاق وحسن

(١) سورة القلم آية ٤ (٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ (٣) سورة الانعام آية ٥٢ (*)

الصحة حتى قيل إنه لم يكن يصافح احدا قط فينزع يده من يده، حتى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده. فمن هذه صفته كيف يقطب في وجه أعمى جاء يطلب الاسلام، على أن الانبياء **(عليهم السلام)** منزهون عن مثل هذه الاخلاق واما هو دونها لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والاصغاء إل دعائهم، ولا يجوز مثل هذا على الانبياء من عرف مقدارهم وتبين نعمتهم. وقال قوم: إن هذه الايات نزلت في رجل من بني أمية كان واقفا مع النبي **(صلى الله عليه وآله)**، فلما اقبل ابن أم مكتوم تنفر منه، وجمع نفسه وعبس في وجهه وأعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك وانكره معاتباً على ذلك.

وقوله (وما يدريك) خطاب للنبي **(صلى الله عليه وآله)** وتقديره (قل) يا محمد (وما يدريك لعله يزكى) وإنما اضاف العبوس إلى النبي **(صلى الله عليه وآله)** من اضاف (وما يدريك) أنه رآه متوجها اليه ظن انه عتب له دون أن يكون متوجها اليه على أن يقول لمن فعل ذلك ويوبخه عليه. ومعنى قوله (يزكى) أي يتزكى بالعمل الصالح، فأدغم التاء في الزاي، كما أدغمت في الذال في قوله (يذكر) ومعناه يتذكر، ولا يجوز وإدغام الزاي في التاء، لأنها من حروف الصفير، وهي الصاد والسين والزاي.

وقوله (او يذكر) معناه أو يتذكر ما أمره الله تعالى به، ويفكر فيما أمره بالفكر فيه. وقد حث الله تعالى على التذكير في غير موضع من القرآن فقال) وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) (١) وقال (إنما يتذكر أولو الالباب) (٢) وينبغي للانسان أن يستكثر من ذكر ما يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل.

ثم بين انه متى يذكر (فتنفعه الذكرى) أي الفكر فيما أمره الله به من

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥ (٢) سورة ٢٣ الرعد آية ٢١ وسورة الزمر آية ٩ (*)

(٢٧٠)

القرآن وغيره من الأدلة.

وقوله (أما من استغنى) معناه أما من كان غنياً أو وجدته موسراً، فالاستغناء الاكتفاء بالأمر فيما ينفي الضرر وقد يكتفى الإناء في ملئه بما فيه، فلا يستغنى استغناء في الحقيقة. وقوله (فانت له تصدى) فالتصدي هو التعرض للشئ كتعرض العطشان للماء. وأصله الصدى، وهو العطش. ورجل صديان أي عطشان والصدى الصوت الذي يردده الجبل أو الحمام ونحوهما، قال مجاهد: المراد ب (من استغنى) عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. وقال سفيان: نزلت في العباس، فقال الله تعالى (وما عليك ألا يتزكى) أي قل له وما عليك ألا يتزكى، فالتزكى هو التطهر من الذنوب، وأصله الزكاء وهو النماء، فلما كان الخير ينمي للإنسان بالتطهر من الذنوب كان تزكياً.

ثم قال (وأما من جاءك يسعى وهو يخشى) يعني عبدالله بن أم مكتوم جاء إلى النبي صلى الله عليه واله، وهو يخشى معصية الله والكفر، والخشية هي الحذر من مواجهة المعصية خوفاً من عقاب الله تعالى (فانت عنه تلهى) أي تعرض عنه فالتلهي عن الشئ هو التروح بالأعراض عنه والتلهي به التروح والاقبال عليه ومنه قولهم إذا استأثر الله بشئ فاله عنه أي تركه وأعرض عنه.

قوله تعالى:

(كلا إنها تذكرة (١١) فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦) قتل الإنسان ما أكفره (١٧) من أي شئ خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته

(٢٧١)

فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره (٢٢) كلا لما يقض ما أمره

(٢٣) ثلاث عشرة آية.

يقول الله تعالى (كلا) أي ليس الأمر ينبغي أن يكون على هذا، وقوله (إنها تذكرة) أي كلا إن السورة تذكرة (فمن شاء ذكره) أي التنزيل أو الوعظ.

وقال قوم: الهاء عماد، والمبتدأ محذوف وتقديره إنها هي تذكرة. والتذكرة حضور الموعظة ففيها أعظم الفائدة وفي الغفلة أكبر الإفة.

والفرق بين التذكرة والمعرفة أن التذكرة ضد الغفلة والمعرفة تضاد الجهل والسهو، فكلاهما يتعاقبان على حال الذكر دون السهو، كتعاقب العلم وأضداده على حال الذكر دون السهو، والذكر معظم، لأنه طريق إلى العلم بالحق من الباطل والصحيح من الفاسد. وقيل: إن قوله

(كلا) دال على أنه ليس له ان يفعل ذلك في ما يستأنف. فاما الماضي فلم يدل على انه معصية، لانه لم يتقدم النهي عنه.

وقوله (فمن شاء ذكره) دليل على بطلان مذهب المجبرة في أن القدرة مع الفعل، وأن المؤمن لا قدرة له على الكفر، وأن الكافر لا يقدر على الايمان، لانه تعالى: بين أن من شاء ان يذكره ذكره لانه قادر عليه.

وقوله (في صحف مكرمة) أي ما ذكرناه تذكرة في صحف مكرمة أي معظمة مبدولة، ووصفت الصحف بأنها مكرمة تعظيما لما تضمنته على الحكمة. وقوله (مرفوعة مطهرة) أي مصونة عن ان تتالها أيدي الكفار الانجاس. وقال الحسن:

مطهرة من كل دنس. وقوله (مرفوعة مطهرة) أي رفعها الله عن دنس الانجاس ونزهاها عن ذلك. وقوله (بأيدي سفرة) قيل السفرة ملائكة موكلون بالاسفار من كتب الله. والسفرة الكتبة لاسفار الحكمة، واحدهم سافر، كقولك كاتب

(٢٧٢)

وكتبة، وواحد الاسفار سفر. وأصله الكشف من الامر، سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، فالكاتب يسفر بالكتاب عما في النفس. وقال ابن عباس: السفرة الكتبة، وفي رواية أخرى عنه إنها الملائكة. وقال قتادة: هم القراء: وقيل: هم الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله، وسفير القوم الذي يسفر بينهم في الصلح، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم، قال الشاعر:

ولم أدع السفارة بين قومي * وما أمشي بغش إن مشيت (١)

واسفر الصبح إذا أضاء. وقوله (كرام بررة) من صفة السفرة، وصفهم الله بأنهم كرام، وهو جمع كريم، وهو الذي من شأنه أن يأتي بالخير من جهته مهنا من غير شائب يكدره. وهي صفة مدح ومنه أخذت الكرامة لشرف ثمرتها، والكرم يتعاطم فالنبي أكرم ممن ليس بنبي، والمؤمن اكرم ممن ليس بمؤمن. و (البررة)

جمع بار، تقول بر فلان فلانا يبره فهو بار إذا أحسن اليه ونفعه. والبر فعل النفع اجتلابا للمودة. والبار فاعل البر، وجمعه بررة مثل كاتب وكتبة. وأصله اتساع النفع منه ومنه البر سمي به تفاؤلا باتساع النفع به، ومنه البر لاتساع النفع به.

ورجل بر، وامرأة برة والجمع بررة ولا يجمع الا على هذا استغنا به.

وقوله (قتل الانسان ما اكفره) معناه لعن الانسان، قال مجاهد: وهو الكافر. وقيل: معناه إنه حل محل من يدعى عليه بالقتل في ما له بقبح الفعل، فيخرجه مخرج الدعاء عليه ولا يقال: إن الله دعا عليه بالقتل لقبح اللفظ بذلك لما يوهم من تمنى المدعو به. ومعنى (ما اكفره) أي

شئ اكفره؟! على وجه التقرير له والتوييح. وقيل معناه النفي، وتقديره ما أجده لنعم الله مع ظهورها (من أى

(١) الطبرى ٣٠ / ٣٠ والقرطبي ١٩ / ٢١٤ (*)

(٢٧٣)

شئ خلقه) تعجيباً له، لانه يعلم أن الله خلقه من نطفة، ثم بين تعالى مماذا خلقه فقال (من نطفة خلقه فقدره) فالتقدير جعل الشئ على مقدار غيره، فلما كان الانسان قد جعل على مقدار ما تقتضيه الحكمة في أمره من غير زيادة ولا نقصان كان قد قدر أحسن التقدير، ودبر أحسن التدبير (ثم السبيل يسره) أي سهل له سبيل الخير في دينه ودنياه بأن بينه له وأرشده اليه ورغبه فيه، فهو يكفر هذا كله ويجده ويضيع حق الله عليه في ذلك من الشكر وإخلاص العبادة. وقال ابن عباس وقتادة والسدي: يسر خروجه من بطن أمه. وقال مجاهد: سهل له طريق الخير والشر، كقوله (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) (١). وقال الحسن: سبيل الخير، وقال ابن زيد: سبيل الثواب، وقال الحسن (يسره) معناه بصره طريق الهدى والضلال. وقيل يسر خروجه من بطن أمه، فانه كان رأسه إلى رأس أمه ورجلاه إلى رجليها، فقلبه الله عند الولادة ليسهل خروجه منها. وقالوا: يسرى ويسراة جمعوه على (فعل) وأجروه مجرى (فاعل) من الصحيح.

وقوله (ثم اماته فاقبره) فالاماتة أحداث الموت. وفي الناس من قال:

الاماتة عرض يضاد الحياة مضادة المعاقبة على الحال الواحدة، وهي حال تعديل البنية الحيوانية، وذلك أن ما لا يصح أن تحله حياة لا يصح أن يحله موت. وقال قوم: الموت عبارة عن نقض البنية الحيوانية أو فعل ما ينافي ما تحتاج اليه الحياة من الرطوبات والمعاني. وقوله (فاقبره) الاقبار جعل القبر لدفن الميت فيه، يقال:

أقبره إقباراً، والقبر الحفر المهيأ للمدفن فيه، ويقال: أقبرني فلانا أي جعلني اقبره فالمقبر هو الله تعالى يأمر عباده أن يقبروا الناس إذا ماتوا، والقاير الدافن للميت

(١) سورة ٧٦ الانسان آية ٣ (ج ١٠ م ٣٥ من التبيان) (*)

(٢٧٤)

بيده قال الاعشى:

لو اسندت ميتاً إلى نحرها * عاش ولم ينقل إلى قاير

حتى يقول الناس مما رأوا * يا عجباً للميت الناشر (١)
وقوله (ثم إذا شاء انشره) فالانشار الاحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي انشر
الله الموتى فنشروا كقولهم احياءهم فحيوا، والمشية هي الارادة والمعنى إذا شاء الله تعالى أن
يحيي الميت احياء - وهو قول الحسن - للجزاء بالثواب والعقاب.
وقوله (كلا لما يقض ما أمره) معناه كلا لما لم يقض ما عليه مما أمره الله به، لانه قد أمره
بأشياء واجبة فلم يفعلها: من إخلاص عبادته وشكره بحسب مقتضى نعمه. وقال مجاهد: لا
يقضي أحد أبدا كل ما افترض الله عليه.
قوله تعالى:

(فلينظر الانسان إلى طعامه (٢٤) أنا صببنا الماء صبا (٢٥)
ثم شققنا الارض شقا (٢٦) فأنبتنا فيها حبا (٢٧) وعنبا وقصبا (٢٨) وزيتونا ونخلا (٢٩)
وحدائق غلبا (٣٠) وفاكهة وأبا (٣١) متاعا لكم ولانعامكم) (٣٢) تسع آيات.
قرأ اهل الكوفة (أنا صببنا) بفتح الالف على البدل من (طعامه) أو على انه خبر مبتدأ
محذوف. الباكون بالكسر على الاستئناف.
يقول الله تعالى لخلقه منبها لهم على قدرته على احياء الخلق بعد موتهم ونشرهم

(١) قد مر في ٤ / ٤٦٠ و ٧ / ٤٩٦ وهو في ديوانه ٩٣ (*)

(٢٧٥)

ومجازاتهم بأن أمره ان ينظر إلى طعامه الذي يأكله ويتقوته، ويفكر كيف يخلقه الله ويوصله
اليه ويمكنه من الانتفاع به. وبين كيفية ذلك فقال (إنا صببنا الماء صبا) أي انزلنا الغيث إنزالا
(ثم شققنا الارض شقا) فالشق قطع الشيء طولا ومثله الصدع والفرج والفطر، ومن ذلك شق
الارض وشق الخشبة وشق الشعرة فأما قطع اللبنة، وقطع الشجر، فعلى خلاف ذلك، فبين
تعالى أنه يشق الارض ويخرج منها ما أنبته من أنواع النباتات. ومن فتح (أنا) على البدل،
فعلى انه بدل اشتمال، ويكون موضعه جرا فتقديره فلينظر إلى أنا صببنا. وقال آخرون:
موضعه نصب، لان الاصل ب (أنا) و (لانا) فلما أسقط الخافض نصب على المعنى، فتقديره
فلينظر الانسان إلى حدوث طعامه او نبات طعامه، لانه موضع الاعتبار.
وقال المبرد: تقديره فلينظر الانسان إلى طعامه، لانا صببنا فأخرجنا أي لهذه العلة كان
طعامه، لان قوله (إنا صببنا) ليس من الطعام في شيء، وقال ابو علي:
وهو بدل الاشتمال، لان ما ذكره يشتمل على الطعام فهو بمنزلة قوله (قتل اصحاب الاخدود
النار) (١).

وقوله (فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا...) فالانبات إخراج النامي حالا بعد حال، يقال أنبتته الله انباتا فنبت نباتا، ففاعل النبات والانبات واحد إلا أن الانبات يؤخذ منه صفة المنبت، والنبات يؤخذ منه النابت. وليس النبات فاعلا لكنه الصائر على تلك الصفة بتصيير غيره، غير انه لما أسند الفعل اليه اشتق له منه اسم الفاعل. والحب جمع الحبة مثل الشعير والحنطة والسسم والدخن والارز وغير ذلك، وكذلك يسمى حب اللؤلؤ تشبيها بذلك في تدويره. والقضب الرطبة - في قول الضحاك، والفراء - وأهل مكة يسمون القث قضبا. وأصله فيما يقطع رطبا من

(١) سورة ٨٥ البروج آية ٤ - ٥ (*)

(٢٧٦)

قولهم: قضبته وأقضبته قضبا إذا قطعه رطبا، ومنه القضيب والمقضب. والزيتون معروف. وإنما ذكره الله تعالى لعظم النفع به والدهن الذي يكون منه (ونخلا) أي وانبتنا من الارض نخلا وهو شجر الرطب والتمر (وحقائق غلبا) فالحديقة البستان المحوط وجمعه حدائق، ومنه أحدق به القوم إذا أحاطوا به، ومنه الحدقة لماحاط بها من جفنها. والغلب جمع أغلب وغلبا، وهي الغلاظ بعظم الاشجار، وشجرة غلباء إذا كانت غليظة قال الفرزدق:

عوى فاثار اغلب ضيغميا * فويل ابن المراغة ما استنارا (١)

وقوله (وفاكهة وأبا) يعني ثمر الاشجار التي فيها النفع والالذاذ، يقال تفكه بكذا إذا استعمله للاستمتاع به والفاكهة تكون رطبة ويابسة. والاب المرعى من الحشيش وسائر النبات الذي ترعاه الانعام والدواب، ويقال أبا إلي سيفه فاستله كقولك هب اليه وبدر اليه، فيكون كبدور المرعى بالخروج قال الشاعر:

جدنا قيس ونجد دارنا * ولنا الاب بها والمكرع (٢)

وقوله (متاعا لكم ولانعامكم) فالمتاع كل شئ فيه الذاذ الامساس من مأكلا او منظر أو مشتم أو ملمس، وأصله المصدر من قولهم: امتعته متاعا ومتاعا ومتع النهار إذا ارتفع، لان ارتفاعه يستمتع به. فبين تعالى انه خلق ما خلق وانبت ما انبت من الارض لامتاع الخلق به من المكلفين وأنعامهم التي ينتفعون بها.

والانعام الماشية بنعمة المشي من الابل والبقر والغنم بخلاف الحافر بشدة وطئه بحافره من الخيل والبغال والحمير.

قوله تعالى:

(فاذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤)

(١) ديوانه ٢ / ٤٤٣ (٢) القرطبي ١٩ / ٢٢٠ (*)

(٢٧٧)

وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه (٣٧) وجوه يومئذ مسفرة (٣٨) ضاحكة مستبشرة (٣٩) ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ترهقها قطرة (٤١) أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢) عشر آيات.

قوله (فاذا جاءت الصاخة) قال ابن عباس: هي القيامة. وقيل: هي النفخة الثانية التي يحيا عندها الناس. وقال الحسن: الصاخة هي التي يصيح لها الخلق، وهي النفخة الثانية. والصاخة هي الصاخة بشدة صوتها الاذان فتصمها، صخ يصخ صيخا، فهو صاخ. وقد قلبها المضاعف باكراهه التضعيف، فقال: أصاخ يصيح اصاخة قال الشاعر:

يصيح للنبأة أسماعه * إصاخة الناخذ للمنشد (١)

ومثله تظنيت، والاصل تظننت. ثم بين شدة أهوال ذلك اليوم فقال (يوم يفر المرء من أخيه و) من (أمه وأبيه و) من (صاحبته) التي هي زوجته في الدنيا (وبنيه) يعني أولاده الذكور نفر من هؤلاء حذرا، من مظلمة تكون عليه. وقيل: لئلا يرى ما ينزل به من الهوان والذل والعقاب. وقيل: نفر منه ضجرا به لعظم ما هو فيه. وقيل: لانه لا يمكنه ان ينفعه بشئ ولا ينتفع منه بشئ وقوله (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) فالمراد به الذكر من الناس وتأنيثه امرأة، فالمعنى إن كل انسان مكلف مشغول بنفسه لا يلتفت إلى غيره، من صعوبة الامر وشدة أهواله. والشأن الامر العظيم، يقال: لفلان شأن من

(١) القرطبي ١٩ / ٢٢٢ (*)

(٢٧٨)

الشأن أي له أمر عظيم، وأصله الواحد من شؤون الرأس، وهو موضع الوصل من متقابلاته التي بها قوام أمره. ومعنى (يغنيه) أي يكفيه من زيادة عليه أي ليس فيه فضل لغيره لما هو فيه من الامر الذي قد اكتنفه وملا صدره، فصار كالغني عن الشئ في أمر نفسه لا تتازع اليه.

ثم قسم تعالى احوال العصاة والمؤمنين، فقال (وجوه يومئذ مسفرة) أي مكشوفة مضيئة، فالاسفار الكشف عن ضياء من قولهم: أسفر الصبح إذا أضاء، وسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها، ومنه السفر، لانه يكشف عن أمور تظهر به، قال توبة الحميري.

وكننت إذا فاجأت ليلي تبرقعت * فقد رابني منها الغداة سفورها (١)

أي كشفها قناعها. وقوله (ضاحكة مستبشرة) أي من فرحها بما اعدنا لها من الثواب تكون ضاحكة مسرورة. والضحك الاستبشار وإن إضيف إلى الوجه، فالمراد به أصحاب الوجوه، فأما الاسفار والاشراف فيجوز ان يكون للوجوه خاصة بما جعل الله فيها من النور، لتفرق الملائكة بين المؤمنين والكفار.

ثم قال (وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) أي يكون على تلك الوجوه غبار وجمعه غبرة (ترهقها) أي تغشاها (قترة) وهي ظلمة الدخان، ومنه قترة الصائد موضع الذي يدخن فيه للتدفي به.

ثم اخبر أن من كان على وجهه الغبرة التي تغشاها القترة (هم الكفرة) جمع كافر (الفجرة) جمع فاجر، كما أن كاتباً يجمع كتبة، وساحراً يجمع سحرة. وليس في ذلك ما يدل على مذهب الخوارج من ان من ليس بمؤمن لابد أن يكون كافراً من حيث أن الله قسم الوجوه هذين القسمين. وذلك انه تعالى ذكر قسمين من

(١) الطبري ٣٠ / ٣٤ (*)

(٢٧٩)

الوجوه متقابلين، وجوه المؤمنين ووجوه الكفار، ولم يذكر وجوه الفساق من أهل الملة. ويجوز ان يكون ثم صفة اخرى بخلاف ما لهذين، بان يكون عليها غبرة لا يغشاها قترة او يكون عليها صفرة، ولو دل ذلك على ما قالوه لوجب أن يدل قوله (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) (١) على أن كل من لا يبيض وجهه من المؤمنين يجب ان يكون مرتداً، لانه تعالى قال لهم (لكفرتم بعد إيمانكم) (٢)

والخوارج لا تقول ذلك، لان من المعلوم ان - ههنا - كفارا في الاصل ليسوا مرتدين عن الايمان.

٨١ - سورة التكويد مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (إذا الشمس كورت (١) وإذا النجوم انكدرت (٢) وإذا الجبال سيرت (٣) وإذا العشار عطلت (٤) وإذا الوحوش حشرت (٥)

وإذا البحار سجرت (٦) وإذا النفوس زوجت (٧) وإذا الموءدة

(٢٨٠)

سئلت (٨) بأي ذنب قتلت (٩) وإذا الصحف نشرت (١٠) وإذا السماء كشطت (١١) وإذا الجحيم سعرت (١٢) وإذا الجنة أزلفت (١٣) علمت نفس ما أحضرت (١٤) أربع عشرة آية.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة (سجرت) خفيفة الجيم. الباقون بتشديدها وقرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص عن عاصم (نشرت) خفيفة الشين. الباقون بالتشديد. وقرأ نافع وباقي أهل المدينة وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم إلا يحيى ورويس (سعرت) بتشديد العين. الباقون بتخفيفها. وقرأ أبو جعفر (قتلت)

مشددة التاء، الباقون بتخفيفها.

يقول الله تعالى مخبراً عن وقت حضور القيامة وحصول شنائدها (إذا الشمس كورت) فاللفظ وإن كان ماضياً فالمراد به الاستقبال، لأنه إذا أخبر تعالى بشئ فلا بد من كونه، فكأنه واقع. والفعل الماضي يكون بمعنى المستقبل في الشرط والجزاء، وفي أفعال الله، وفي الدعاء إذا تكرر كقولك حفظك الله وأطال بقاءك.

ومعنى كورت) - في قول ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة والضحاك - ذهب نورها. وقال الربيع بن خيثم: معناه رمي بها، والتكوير تليف على جهة الاستدارة ومنه كور العمامة، كور يكور تكويراً، ومنه الكارة، ويقال: كورت العمامة على رأسي اكورها كورا وكورتها تكويراً. ويقال: طعنه فكوره أى رمى به، ذكره الأزهري، ومنه قولهم: اعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من النقصان بعد الزيادة فالشمس تكور بأن يجمع نورها حتى يصير كالكاراة الملقاة فيذهب ضوءها ويجدد الله - عز وجل - للعباد ضياء غيرها.

وقوله (وإذا النجوم انكدرت) فالنجوم جمع نجم، وهو الكوكب وجمعه

(٢٨١)

كواكب. ومنه نجم النبات إذا طلع ينجم نجماً فهو ناجم، وكذلك نجم القرن، ونجم السن. والانكدار انقلاب الشئ حتى يصير الأعلى الأسفل بما لو كان ماء لتكدر. وقيل: أصل الانكدار الانصباب. قال العجاج:

ابصر خربان فضاء فانكدر (١)

وقال مجاهد والربيع بن خيثم وقتادة وابوصالح وابن زيد: انكدرت معناه تناثرت. وقوله (وإذا الجبال سيرت) فمعنى تسيير الجبال تصييرها هباء وسرابا وقوله (وإذا العشار عطلت) فالعشار جمع عشاء، وهي الناقة التي قد أنى عليها عشرة أشهر من حملها، وهو مأخوذ من العشرة. والناقة إذا وضعت لتمام ففي سنة، وقال الفراء: العشار لقح الابل التي عطلها أهلها الاشتغالهم بأنفسهم. وقال الجبائي:

معناه ان السحاب يعطل ما يكون فيها من المياه التي ينزلها الله على عباده في الدنيا. وحكى الازهري عن ابي عمرو انه قال: العشار الحساب. قال الازهري: وهذا لا اعرفه في اللغة. والمعنى ان هذه الحوامل التي يتنافس اهلها فيها قد اهملت وقوله (وإذا الوحوش حشرت) قال عكرمة: حشرها موتها. وغيره قال: معناه تغيرت الامور بأن صارت الوحوش التي تشرد في البلاد تجتمع مع الناس وذلك ان الله تعالى يحشر الوحوش ليوصل اليها ما تستحقه من الاعواض على الالام التي دخلت عليها، وينتصف لبعضها من بعض، فاذا عوضها الله تعالى، فمن قال:

العوض دائم قال تبقى منعمة على الابد. ومن قال: العوض يستحق منقطعاً اختلفوا فمنهم من قال: يديمها الله تفضلاً لئلا يدخل على العوض غم بانقطاعه. ومنهم من قال: إذا فعل بها ما تستحقه من الاعواض جعلها ترابا.

(١) مر في ٨ / ١٤٦ (ج ١٠ م ٣٦ من التبيان) (*)

(٢٨٢)

وقوله (وإذا البحار سجرت) معناه ملئت نارا كما يسجر التنور، وأصل السجر الملا قال لبيد: فتوسطا عرض السري وصدعا * مسجورة متجاوز أقدامها (١) أي مملوءة، ومنه (البحر المسجور) (٢) قال ابن عباس وأبي بن كعب: سجرت او قدت، فصارت نارا. وقال شمر بن عطية: صارت بمنزلة التنور المسجور وقال الحسن ووالضحاك: معناه ملئت حتى فاضت على الارضين فتنسقا حتى تكون لحج البحار ورؤس الجبال بمنزلة واحدة، وقيل: معنى (سجرت) جعل ماؤها شرابا يعذب به أهل النار. وقال الفراء: معناه افضي بعضها إلى بعض فصارت بحرا واحدا. ومن ثقل أراد التكثر، ومن خفف، فلانه يدل على القليل والكثير.

وقوله (وإذا النفوس زوجت) معناه ضم كل واحد منها إلى شكله، والنفوس قد يعبر به عن الانسان ويعبر به عن الروح، وقال عمر بن الخطاب وابن عباس ومجاهد وقتادة: كل إنسان بشكله من أهل النار وأهل الجنة. وقال عكرمة والشعبي: معنى زوجت ردت الارواح إلى

الاجساد. وقيل: معناه يقرن الغاوي بمن اغواه من شيطان أو إنسان وقوله (وإذا الموؤدة سئلت) فالموؤدة المقتولة بدفنها حية، فكانت العرب تئد البنات خوف الاملاق، وأدها يئدها وأدا، فهي موؤدة أي مدفونة حية، وعلى هذا جاء قوله (ولا تقتلوا أولادكم من املاق) (٣) وقال قتادة: جاء قيس ابن عاصم التميمي إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: اني وأدت ثماني بنات في الجاهلية، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) (فاعتق عن كل واحدة رقبة) قال اني صاحب أبل. قال (فاهد إلى

(١) مر في ٧ / ١١٨ و ٩ / ٤٠٣ (٢) سورة ٥٢ الطور اية ٦ (٣) سورة ٦ الانعام آية ١٥١ (*)

(٢٨٣)

من شئت عن كل واحدة بدنة) وقيل موؤدة للثقل الذي عليها من التراب وقوله (ولا يؤوده حفظهما) (١) أي لا يتقله، قال الفرزدق:

ومنا الذي منع الوائدا * ت وأحيا الوئيد فلم يوأد (٢)

وإنما يسأل عن الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها، وهو أبلغ من سؤاله، لأن هذا مما لا يصلح إلا بذنب، فإي ذنب كان لك، فإذا ظهر انه لا ذنب لها جاءت الطامة الكبرى على قاتلها، لانه رجع الامر اليه بحجة يقربها. وقال قوم:

تقديره سئلت قتلها بأي ذنب قتلت، فالكناية عنها أظهر. وروي في الشواذ، وهو المروي عن ابن عباس وغيره من الصحابة أنهم قرعوا (وإذا الموؤدة سألت بأي ذنب قتلت) جعلوها هي السائلة عن سبب قتلها لا المسئولة وهو المروي في اخبارنا وقوله (وإذا الصحف نشرت) فالنشر بسط المطوي، والنشر للصحف والثياب ونحوها. والصحف جمع صحيفة وهي الصحيفة التي فيها اعمال الخلق من طاعة ومعصية، فتتشر عليه ليقف كل انسان على ما يستحقه.

وقوله (وإذا السماء كشطت) فالكشط القلع عن شدة التزاق كشط جلدة الرأس يكشطها كشطاً إذا قلعها وفقلع السماء عن مكانها على شدة ما فيها من اعتماد كقلع جلدة الرأس عن مكانها، والكشط والنشط واحد. وفي قراءة عبدالله (وإذا السماء نشطت).

وقوله (وإذا الجحيم سعرت) معناه اشتعلت واضرمت، فالتسعير تهيج النار حتى تتأجج، ومنه السعر، لانه حال هيج الثمن بالارتفاع والانحاط، واسعرت الحرب والشربين القوم من هذا ومن شدد أراد التكثر، ومن خفف فلانه يدل على القليل والكثير. وقال قتادة: يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٥ (٢) ديوانه ١ / ٢٠٣ واللسان (أد) (*)

(٢٨٤)

وقوله (وإذا الجنة أزلفت) أى قربت من أهلها يوم القيامة فالأزلاف إثناء ما يجب، ومنه الزلفة القريبة، وأزدلف إلى الأمر اقترب منه. ومنه المزدلفة لأنها قريب من مكة. وقوله (علمت نفس ما أحضرت) هو جواب (إذا الشمس كورت) وما بعدها من الشروط، والمعنى إن عند ظهور الأشياء التي ذكرها وعددها تعلم كل نفس ما عملته من طاعة أو معصية، وقد كان غافلا عنه. وهو كقوله (أحصاه الله ونسوه) (١)، قوله تعالى:

(فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لقول رسول كريم (١٩)

ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين (٢١) وما صاحبكم بمجنون (٢٢) ولقد رآه بالأفق المبين (٢٣) وما هو على الغيب بضنين (٢٤) وما هو بقول شيطان رجيم (٢٥) فأين تذهبون (٢٦)

إن هو إلا ذكر للعالمين (٢٧) لمن شاء منكم أن يستقيم (٢٨) وما تشاؤون إن شاء الله رب العالمين (٢٩) خمس عشرة آية.

قرأ ابن كثير وابوعمره والكسائي ورويس (بظنين) بالطاء أي ليس على الغيب، بمتهم، والغيب هو القرآن، وما تضمنه من الأحكام وغير ذلك من أخباره عن الله. الباقون بالضاد - بمعنى انه ليس بخيلا لا يمنع أحدا من تعليمه ولا يكتمه

(١) سورة ٥٨ المجادلة آية ٦ (*)

(٢٨٥)

دونه. وفي المصحف بالضاد.

قوله (فلا أقسم بالخنس) معناه إقسم و (لا) صلة. وقد بينا نظائره فيما مضى. و (الخنس) جمع خانس، وهو الغائب عن طلوع، خنست الوحشية في الكناس إذا غابت فيه بعد طلوع. وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): أن الخنس

النجوم لأنها تخنس بالنهار وتبدو بالليل. وقيل: تخنس في مغيبها بعد طلوعها، وبه قال الحسن ومجاهد. وقال ابن مسعود وسعيد بن جبير والضحاك: هي الظباء.

وقيل: القسم بالنجوم الخنس بهرام وزحل والمشتري وعطارد والزهرة. وقوله (الجوار الكنس) معناه النجوم التي تجري في مسيرها ثم تغيب في مغاربها على ما دبره تعالى فيها ففي طلوعها، ثم جريها في مسيرها، ثم غيبتها في مواقعها من الآية العظيمة والدلالة الباهرة المؤدية إلى معرفته تعالى ما لا يخفى على متأمل معرفته وعظيم شأنه، فالجارية النجوم السيارة، والجارية السفن في البحار، والجارية المرأة الشابة.

وقوله (الكنس) نعت ل (الجوار) وهو جمع (كانس) وهي الغيب في مثل الكناس، وهو كناس الوحشية بيت تتخذه من الشجرة تختفي فيه، قال طرفة:

كأن كناسي ضالة مكنفانها * واطرقسي تحت صلب مؤيد (١)

وقوله (والليل إذا عسعس) قسم آخر، ومعنى (عسعس) أدبر بظلامه - في قول أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد - وقال الحسن ومجاهد في رواية والفضل بن عطية: أقبل بظلامه، وتقول العرب:

عسعس الليل إذا أدبر بظلامه. قال علقمة بن قرط:

حتى إذا الصبح لها تنفسا * وانجاب عنها ليلها وعسعسا (٢)

(١) ديوانه ٢٥ وتفسير القرطبي ١٩ / ٢٣٦ (٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٨٨ والطبري ٣٠ / ٤٣ (*)

(٢٨٦)

وقيل: عسعس دنا من أوله واطلم، والعس طلب الشيء بالليل، عس يعس عسا، ومنه أخذ العسس. وقال صاحب العين: العس نقض الليل عن أهل الريبة والعس قدح عظيم من خشب أو غيره، وكأن أصله امتلاء الشيء بما فيه، فقدح اللبن من شأنه أن يمتلئ به، ويمتلئ، الليل بما فيه من الظلام، وعسعس أدبر بامتلاء ظلامه. وقال الحسن (والليل إذا عسعس) معناه إذا أظلم والصبح إذا تنفس إذا أسفر.

وقوله (والصبح إذا تنفس) قسم آخر بالصبح إذا أضاء وامتد ضوءه يقال:

تنفس الصبح وتنفس النهار إذا امتد بضوئه، والتنفس امتداد هواء الجوف بالخروج من الفم والانف يقال: تنفس الصعداء وقوله (إنه لقول رسول كريم) جواب الاقسام التي مضت، ومعنى (إنه لقول) يعني القرآن (رسول كريم) وهو جبرائيل (عليه السلام) - في قول قتادة والحسن - بمعنى إنه سمعه من جبرائيل، ولم يقله من قبل نفسه. وقال: يجوز أن يراد به محمد (صلى الله عليه وآله) فإنه أتى به من عند الله. وقوله (ذي قوة) معناه قوي على أمر الله. وقيل: معناه قوي في نفسه - في قول من قال: عنى به جبرائيل - لان من قوته قلبه قريات لوط بقوادم اجنحته.

وقوله (عند ذي العرش) معناه عند الله صاحب العرش (مكين) أى متمكن عنده وفي الكلام تعظيم للرسول بأنه كريم، وأنه مكين عند ذي العرش العظيم وأن الله تعالى أكد ذلك اتم التأكيد. وقوله (مطاع ثم أمين) من قال المراد بالرسول جبرائيل، قال معناه إنه مطاع في الملائكة، أمين على وحي الله. وقال: عنى به الرسول (صلى الله عليه وآله) قال: معناه إنه يجب أن يطاع وأن من أطاعه فيما يدعوه اليه كان فائزاً بخير الدنيا والاخرة. ويرجو بطاعته الثواب ويأمن

(٢٨٧)

من العقاب، وإنه (صلى الله عليه وآله) كان يدعى الامين قبل البعث فالامين هو الحقيق بأن يؤتمن من حيث لا يخون، ولا يقول الزور، ويعمل بالحق في الامور. ثم خاطب تعالى جماعة الكفار فقال (وما صاحبكم بمجنون) أي ليس صاحبكم الذي يدعوكم إلى الله وإخلاص عبادته بمؤف العقل على ما ترمونه به من الجنون. والمجنون المغطى على عقله حتى لا يدرك الامور على ما هي به للافة الغامرة له، فيغمور الافة يتميز من النائم، لان النوم ليس بأفة ولا عاهة.

وقوله (ولقد رآه بالافق المبين) معناه إن النبي (صلى الله عليه وآله) رأى جبرائيل (عليه السلام) على صورته التي خلقه الله عليها بالافق المبين، فالافق ناحية من السماء يقال: هو كالنجم في الافق، وفلان ينظر في أفق السماء. وقوله (مبين) أي هو ظاهر انه في أفق السماء من غير تخيل لا يرجع إلى يقين. وقال الحسن وقتادة: الافق المبين حيث تطلع الشمس. وقوله (وما هو على الغيب بضنين) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وابراهيم والضحاك:، معناه ليس على وحي الله وما يخبر به من الاخبار بمتهم أي ليس ممن ينبغي أن يظن به الريبة، لان أحواله ناطقة بالصدق والامانة، ومن قرأ بالضاد معناه ليس ببخيل على الغيب.

وقوله (وما هو بقول شيطان رجيم) معناه أنه ليس هذا القرآن قولاً لشيطان رجيم، قال الحسن: معناه رجمه الله باللعة. وقيل رجيم بالشهب طرداً من السماء، فهو (فعيل) بمعنى (مفعول). وقوله (فأين تذهبون) معناه أين تذهبون عن الحق الذي قد ظهر أمره وبدت أعلامه إلى الضلال الذي فيه البوار والهلاك، وهو استبطاء لهم في القعود عن النبي (صلى الله عليه وآله)، والعمل بما يوجبه القرآن، فالذهاب هو المصير عن شئ إلى شئ بالنفوذ في الامر. قال بعض بني عقيل:

(٢٨٨)

تصيح بنا حنفة إذ رأتنا * وأي الارض نذهب بالصباح (١)

يعني إلى أي الارض، وقيل معناه فأى طريق يسلكون أبين من الطريق الذي بينه لكم (إن هو إلا ذكر للعالمين) يمكنكم أن تتوصلوا به إلى الحق. والذكر ضد السهو وعليه يتضاد العلم وأضداده، لان الذاكر لا يخلو من أن يكون عالما او جاهلا مقلدا أو شاكا، ولا يصح شئ من ذلك مع السهو الذي يضاد الذكر.

وقال الرماني: الذكر إدراك النفس الذي يضاد للمعنى بما يضاد السهو. و (العالمين) جمع عالم. وقد فسرناه في ما مضى.

وقوله (لمن شاء منكم ان يستقيم) على أمر الله ووعظ. وقوله (وما تشاؤه إلا أن يشاء الله رب العالمين) قيل في معناه ثلاثة اقوال:

احدها - وما تشاؤون من الاستقامة إلا وقد شاءها الله، لانه قد جرى ذكرها فرجعت الكناية اليها، ولا يجوز أن يشاء العبد الاستقامة إلا وقد شاءها الله، لانه أمر بها ورغب فيها أتم الترغيب، ومن ترغيبه فيه إرادته له.

والثاني - وما تشاؤون شيئا إلا أن يشاء الله تمكينكم منه، لان الكلام يقتضي الاقتدار على تمكينهم إذا شاء ومنعهم إذا شاء.

الثالث - وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ان يلطف لكم في الاستقامة لما في الكلام من معنى النعمة.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال شيبتي (هود) وأخواتها (الواقعة) و (إذا الشمس كورت) وهو جميع ما وعظ الله به عباده.

فان قيل: اليس ان أنسا لما سئل هل اختضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال ما شأنه الشيب، فقال: أو شين هو يابأ حمزة. فقال كلكم يكرهه؟

(١) تفسير القرطبي ١٩ / ٢٤١ (*)

(٢٨٩)

قيل عنه جوابان احدهما - أنه روي أن عليا (عليه السلام) لما غسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجد في لحيته شعرات بيضاء، وما لا يظهر إلا بعد التفتيش لا يكون شيبا. الثاني - أنه أراد لو كان أمر يشيب منه إنسان لشبت من قراءة ما في هذه السورة، وما فيها من الوعيد كما قال (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) (١) وإنما أراد عظم الاهوال على ما بيناه.

٨٢ - سورة الانفطار مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت

(٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥) يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم (٦) الذي خلقك فسويك فعدلك (٧) في أي صورة ما شاء ركبك (٨) كلا بل

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢ (ج ١٠ م ٣٧ من التبيان) (*)

(٢٩٠)

تكذبون بالدين (٩) وإن عليكم لحافظين (١٠) كراما كاتبين (١١) يعلمون ما تفعلون) (١٢) اثنتا عشرة آية.

قرأ أهل الكوفة (فعدلك) خفيفا. الباقر مشددا. وقرأ أبو جعفر (بل يكذبون) بالياء على الخبر الباقر بالتاء على الخطاب. وادغم حمزة والكسائي اللام في التاء ووافقهم الحلواني عن هشام.

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من عباده، وفيه تهديد ووعد فانه يقول (إذا السماء انفطرت) يعني انشقت، فالانفطار انقطاع الشئ من الجهات مثل تفرط، ومنه الفطير قطع العجين قبل بلوغه بما هو مناف لا ستوائه، فطره يفطره اذا أوجده بما هو لقطع ما يصد عنه. والانفطاره والانشقاق والانصداع واحد.

وقوله (وإذا الكواكب انتثرت) معناه إذا النجوم تساقطت وتواقعت، فالانتثار تساقط الشئ من الجهات يقال: انتثر ينثر انتثارا ونثره ينثره نثرا، واستنثر استنثارا والنثر من الكلام خلاف النظم (وإذا البحار فجرت) أي خرقت بعض مواضع الماء إلى بعض يقال فجر الانهار يفجرها تفجيرا، ومنه الفجر لا انفجاره بالضياء، ومنه الفجور الانحراق لا نخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب. وقال قتادة معنى فجرت أي تفجر عذبتها في مالحتها، ومالحتها في عذبتها وقوله (وإذا القبور بعثرت) معناه بعثت يقال: بعثت فلان حوضه وبعثته بمعنى واحد إذا جعل اسفله أعلاه، والبعثرة إثارة الشئ بقلب باطنه إلى ظاهره.

وقل ابن عباس: بعثرت بعثت.

وقوله (علمت نفس ما قدمت وأخرت) جواب الشرط في قوله (إذا السماء انفطرت) وما بعده من الشروط. ومعنى (ما قدمت وأخرت) ما اخذت

(٢٩١)

وتركت مما يستحق به الجزاء. وقيل: معناه كل ما يستحق به الجزاء مما كان في اول عمره أو آخره. وقيل: معناه ما قدمت من عملها وما أخرت من سنة سنتها يعمل بها - ذكره القرطبي - وقال ابن عباس وقتادة: معناه ما قدمت من طاعة أو تركت وقيل ما قدمت بعمله.

وقوله (ياأيها الانسان) خطاب لجميع الناس من المكلفين يقول الله لهم لكل واحد منهم (ما غرك بربك الكريم) أي شيء غرك بخالقك حتى عصيته فيما أمرك به ونهاك عنه، فالغرور ظهور أمر يتوهم به جهل الامان من المحذور تقول:

غر يغر غرورا واغتره يغتره اغترارا قال الطوث ابن حلزة:

لم يغروكم غرورا ولكن * رفع الال جمعهم والضحاء (١)

والكريم القادر على التكرم من غير مانع، ومن هذه صفته لا يجوز الاغترار به، لان تكرمه على ما يقتضيه الحكمة من مجازاة المحسن باحسانه والمسيئ باساءته.

قال قتادة: غر الشيطان غرورا، وقيل: غره بجهله الوجه في طول الامهال، وقوله (الذي خلقك فسواك) نعت ل (ربك)، وهو في موضع الجر. وقوله (فسواك)

التسوية التعديل، والمراد - ههنا - تسوية الله تعالى آتته من اليدين والرجلين والعينين ونحو ذلك (فعدلك) في المزاج على وجه يصح معه وجود الحياة. ومن خفف الدال أراد صرفك إلى أي صورة شاء من حسن أو قبح، ومن ثقل أراد جعلك معدل الخلق معتدلا. واختار الفراء التشديد، لان (في) مع التعديل أحسن و (إلى) مع العدل.

قوله (في أي صورة ما شاء ركبك) فالصورة البنية التي تميل بالتأليف إلى ممايلة الحكاية وهي من صاره يصوره صورا إذا ماله، ومنه قوله (فصرهن

(١) مر في ٨ / ٣٢٢ (*)

(٢٩٢)

اليك) (١) أي املهن اليك، ولو كانت بنية من غير ممايلة لم يكن صورة. وقال مجاهد: معناه (في أي صورة ما شاء ركبك) من شبه أب أو أم أو خال أو عم.

وقال قوم: معناه في أي صورة ما شاء ركبك من ذكر أو أنثى وجسيم اونحيف وطويل او قصير ومستحسن أو مستقبح، ومن قال: الانسان غير هذه الجملة أستدل بقوله (في أي صورة ما شاء ركبك) قالوا لانه بين أنه يركب القابل في أي صورة شاء، فدل على أنه غير الصورة. وقد بينا القول في تأويل ذلك، على أن عندهم أن ذلك الحي لا يصح عليه التركب والله تعالى بين أنه يركبه كيف شاء، وفي أي صورة شاء وذلك خلاف مذهبهم.

ثم قال (كلا بل تكذبون بالدين) ومعنى (كلا) الردع والزجر أي ارتدعوا وانزجروا، وقيل: معناه حقا بل تكذبون معاشر الكفار بالدين الذي هو الجزاء من الثواب والعقاب لانكاركم البعث والنشور - ذكره مجاهد وقتادة - وقيل: بل تكذبون بالدين الذي جاء به محمد (صلى الله عليه

وآله) ثم قال مهديا لهم (واين عليكم لحافظين)

يعني من الملائكة يحفظون عليكم ما تعملون من الطاعة والمعصية. ثم وصفهم فقال (كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) أي لا يخفى عليهم شيء من الذي تعملونه فيثبتون ذلك كله. وقيل: إن الملائكة تعلم مايفعله العبد إما باضطرار كما تعلم أنه يقصد إلى خطابنا وأمرنا ونهينا وإما باستدلال إذا رآه وقد ظهر منه الامور التي لا تكون إلا عن علم وقصد من نحو التحري في الوزن والكيل، ورد الوديعة وقضاء الدين مما يتعمد فيه أهل الحقوق دون غيرهم، وقال الحسن: يعلمون ما تفعلون من الظاهر دون الباطن. وقيل: بل هو على ظاهر العموم لان الله تعالى يعلمهم إياه.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠ (*)

(٢٩٣)

قوله تعالى:

(إن الأبرار لفي نعيم (١٣) وإن الفجار لفي جحيم (١٤))

يصلونها يوم الدين (١٥) وما هم عنها بغائبين (١٦) وما أدريك ما يوم الدين (١٧) ثم ما أدريك ما يوم الدين (١٨) يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله (١٩) سيع آيات. قرأ ابن كثير وأهل البصرة (يوم لا تملك) برفع الميم. الباقي بالنصب على الظرف، ويجوز أن ينصبه باضمار فعل أي نقول يوم لا تملك، ومن رفع استأنف ويجوز أن يجعله بدلا مما يفعله. وقيل: إن (يوم) إذا أضيف إلى فعل مضارع رفع وإذا أضيف إلى فعل ماض نصب، نحو قولهم: يوم يفعل، ويوم فعل، وقال ابو علي: من رفع جعله خبر ابتداء محذوف، وتقديره هو يوم: ومن نصب فعلى أن يكون الخبر على الجزاء، فكأنه قال الجزاء يوم لا تملك نفس.

يقول الله تعالى مخبرا (إن الأبرار لفي نعيم) وهم الذين يفعلون الطاعات التي يستحقون بها الجنة والثواب بأنواع اللذات جزاء على طاعتهم، واخبر أيضا (وإن الفجار) وهم الذين خرجوا عن طاعة الله إلى معصيته والمراد به - ههنا - الكفار (لفي جحيم) جزاء على كفرهم ومعاصيهم (يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين)

يعني لا يكونون غائبين عن الجحيم بل يكونون مؤبدين فيها، وليس يدل ذلك على أن فساق أهل الملة لا يخرجون من النار، لانا بينا أن الآية مخصوصة بالكفار من حيث بينا في غير موضع أن معهم ثوابا دائما على - إيمانهم لم ينحبط لبطلان القول بالتحابط، فاذا لا بد من إخراجهم من النار ليوفوا ثوابهم. وقوله (يصلونها يوم

(٢٩٤)

الدين) معناه إن الفجار يصلون في الجحيم يوم الجزاء على الاعمال. وسمي الاسلام ديننا لانه يستحق به الجزاء لان أصل الدين الجزاء، ودين اليهودية وغيرها يستحق بها العقاب. ومعنى قوله (يصلونها) يلزمونها بكونهم فيها ومنه المصطلح الملازم للنار متدفيا، صلى يصلي صلا واصطلي يصطلي اصطلاء.

وقوله (وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين) تعظيم ليوم الجزاء بلفظ الاستفهام، والغرض فيه التنبيه على عظم حاله وما يستحق به من ثواب وعقاب ليعمل العباد بما يؤديهم إلى الثواب والجنة والنجاة من العقاب، وعظم يوم الدين لشدة الحاجة إلى نعيم الجنة، والنجاة من النار ومن جملة العصاة، فلا يوم أعظم من ذلك.

ثم فسر تعالى ذلك وبينه بعد أن عظمه فقال (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) ومعناه لا يملك أحد الدفاع عن غيره ممن يستحق العقاب كما يملك كثير من الناس ذلك في الدنيا، فان الامر في ذلك اليوم لله وحده لم يملك أحدا شيئا من الامور كما ملكهم اشياء كثيرة في دار الدنيا. وقيل: معناه إنه لا يمكن أحدا أن يجازي احدا إلا بالحق بأمر الله تعالى.

(٢٩٥)

٨٣ - سورة المطففين مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي ست وثلاثون آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (ويل للمطففين (١) الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أووزنوهم يخسرون (٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين) (٦) ست آيات.

(ويل) كلمة موضوعة للوعيد والتهديد، ويقال ذلك لمن وقع في هلاك وعقاب. وقيل: إن ويلا واد في جهنم قعره سبعون سنة. وقيل (ويل) دعاء عليهم. وقال ابن عباس: كان أهل المدينة من أحبب الناس كلا إلى أن انزل الله تعالى (ويل للمطففين) فاحسنوا الكيل، فهدد الله تعالى بهذا الخطاب كل من بخرس غيره وحقه ونقصه ماله من مكيل او موزون، فالمطفف المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. والطفيف النزر القليل، وهو مأخوذ من طف الشيء وهو جانبه، والتطفيف التتقيص على وجه الخيانة في الكيل أو الوزن، وأما التتقيص

(٢٩٦)

في ما يرجع إلى مقدار الحق فلا يكون تطفيفا، ولفظة (المطفف) صفة ذم لا تطلق على من طفف شيئا يسيرا إلى أن يصير إلى حال تتفاحش، وفي الناس من قال: لا يطلق حتى يطفف أقل ما يجب فيه القطع في السيرقة، لانه المقطوع على أنه كبيرة.

وقوله (الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون) فالاکتئال الاخذ بالکيل ونظيره الاتزان وهو الاخذ بالوزن، والاعتداد الاخذ بالعدد، يقال: اکتان يکتال اکتئالا، وکاله يکیله کیلا وکایله مکایلة وتکایل تکایلا، وإنما ذکر في الذم (إذا اکتالوا على الناس يستوفون) لیبين منزلتهم في تعدي الحق بأنهم لم ینقصوا الناس عن طریق مسامحة يعاملون الناس بمثل ذلك بل على محض الظلم في البخس. ويقال:

اکتالوا ما عليهم بمعنی اخذوا ما عليهم، واکتالوا منهم أى استوفوا منهم. وقيل: على الناس، فکنى عنهم. وقوله (وإذا کالوهم أووزنوهم یخسرون) کان عیسی ابن عمر یجعل (هم) فصلا في موضع رفع بمعنی الفاعل. والباقون یجعلونه في موضع نصب، وهو الصحيح، وهو قول اکثر المفسرين. وأهل الحجاز یقولون:

وزننک حقک وکنتک طعامک. وغيرهم یقولون: کالوهم ووزنوا لهم، وفي الکتاب (کالوهم أووزنوهم) بلا الف. ومن قال تقديره: کالوهم أووزنوا لهم، قال حذف (لهم) للايجاز من غير اخلال بالمعنی، ويقال أخسر وخسر لغتان إذا نقص الحق.

وقوله (ألا یظن أولئک انهم مبعوثون لیوم عظیم) تبکیت للکافر ولکل ظالم وبأخس حق غیره في صورة الاستفهام. و (الظن) ههنا بمعنی العلم، وتقديره ألا یعلم انه یبعث یوم القيامة ویجازى على افعاله من طاعة او مصیة فیجازى بحسبها في الیوم الذی وصفه بأنه یوم عظیم. ویحتمل أن یكون المراد بالظن الحسبان ایضا من ظن الجزاء والبعث وقوي في نفسه ذلك، وإن لم یکن عالما یجب علیه أن

(٢٩٧)

یتحرز ویجتنب المعاصي خوفا من العقاب الذی یجوزه ویظنه، كما أن من ظن العطب في سلوك طریق وجب أن یتجنب السلوك فيه. قال البلخي: قال قوم:، المعنی افما یوقنون انهم مبعوثون، جعله خطایا للمؤمنین المصدقین بالبعث. ثم زاد في صفة یوم القيامة الذی وصفه بأنه یوم عظیم وبینه فقال (یوم یقوم الناس لرب العالمین) أي یوم یبعثون یوم تقوم الناس من قبورهم ویجتمعون في ارض المحشر، وإنما یقومون من قبورهم إلى ارض المحشر لجزاء رب العالمین، وحذف ذلك الدلالة علیه، ویحتمل (یوم یقوم) ثلاث أوجه: النصب على ذلك الیوم یقوم او مبعوثون یوم یقوم. والرفع على الاستئناف، والجر على البذل من (لیوم عظیم) وقال قتادة: یقومون مقدار ثلثمائة سنة ویقصر على المؤمنین حتی یكون كأحدی صلاة المکتوبة، وروي في الخبر عن النبی (صلی الله علیه وآله) ان أحدهم لیغیب في رشجه إلى انصاف أذنيه.

قوله تعالى:

(كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (٧) وما أدريك ما سجين (٨) كتاب مرقوم (٩) ويل يومئذ للمكذبين (١٠) أذنين يكذبون بيوم الدين (١١) وما يكذب به إلا كل معتد أثيم (١٢) إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١٣) كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١٤) كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (١٥) ثم إنهم لصالوا الجحيم (١٦) ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون (١٧) احدى عشرة آية.
(ج ١٠ م ٣٨ من التبيان)

(٢٩٨)

روى حفص عن عاصم والمسيبي إلا هبة (بل ران) باظهار اللام. الباقون بالادغام. وأمال اهل الكوفة إلا الاعشى والبرجمي (ران) قيل في اصل قوله (كلا) قولان:

احدهما - إنها كلمة واحدة من غير تركيب وضعت المردع والزجر، وجرى ذلك مجرى الاصوات من نحو (صه، ومه) وما اشبههما والثاني - أن يكون الكاف للتشبيه دخلت على (لا) وشدت للمبالغة في الزجر مع الايذان بتركيب اللفظ.

ومعنى الآية ارتدعوا أيها الكفار والعصاة وانزجروا عن المعاصي معاشر الكفار، ليس الامر على ما تظنون بل (إن كتاب الفجار) يعني كتابهم الذي نبتت أعمالهم من المعاصي والفجور (لفي سجين) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني في الارض السابعة السفلى، وهو قول الضحاك. وقال مجاهد: تحت صخرة في الارض السابعة السفلى، وروي في الخبر أن (سجين) جب في جهنم. وقال ابو عبيدة: سجين شديد، وأنشد:

ضربا توأسى به الابطال سجيناً (١)

يعني شديداً، فكأنه كشدة السجن، ويكون معناه شديد عذابه. وقيل:

السجين هو السجن على التخليد فيه، فهو (فعليل) من سجنته أسجنه سجناء، وفيه مبالغة، كما يقال: شريب من الشرب، وسكير من السكر، وشريير من الشر.

وقيل: الوجه في جعل كتاب الفجار في سجين أن تخليده فيه يقوم مقام النقرع وإن عقابهم لايفنى ولا يبيد كما لا يفنى كتاب سيئاتهم ولا يبيد، ثم قال على وجه التعظيم والتفخيم و (ما أدراك ما سجين) أي تفصيله لاتعلمه وإن علمته

(١) مر في ٦ / ٤٥ (*)

(٢٩٩)

مجملاً. ثم قال مفسراً لذلك (كتاب مرقوم) فالرقم طبع الخط بما فيه علامة لامر يقال: رقمه يرقمه رقماً فهو راقم والشئ مرقوم ومنه قمت الثوب بعلامة لئلا يختلط، والمعنى إن هذا الكتاب الذي هو في السجن كتاب قد كتب فيه جميع أفعاله من المعاصي والكفر. ثم قال (ويل يومئذ للمكذبين) فهو تهديد لمن كذب بيوم الجزاء ولم يصدق بصحة الخبر بكونه، ثم فسر من عنى من المكذبين، فقال (الذين يكذبون بيوم الدين) يعني يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، لأن من كذب بالباطل وجده لا يتوجه إليه الوعيد بل هو ممدوح فلو أطلق كان فيه إيهام. ثم قال (وما يكذب به) أي ليس يكذب بيوم الجزاء (الا كل معتد أثيم) فالمعتدي المتجاوز الحق إلى الباطل، يقال: اعتدى اعتداءً، فهو معتد. والعادي الخارج عن الحق، عدا يعدو عدواناً وأصله مجاوزة الحد ومن ذلك العداوة وهي مجاوزة الحد في الإبغاض، والعدو مجاوزة الحد في اسراع المشي، والأثيم مكتسب القبيح أثم يأثم إنما فهو أثم وأثمه تأثيماً إذا نسبه إلى الأثم، وتأثم من فعل كذا كقولك تخرج منه للأثم به وقال قتادة: أثيم في مريته، ثم وصف المعتدي الأثيم، فقال (إذا تتلى عليه آياتنا)

أي إذا قرئت عليه حجج الله من القرآن وما فيه من الأدلة (قال الساطير الأولين)

فواحد الأساطير أسطورة مثل أحداثه وأحاديثه. وقيل: معناه أباطيل الأولين.

وقيل: معناه هذا ما سطره الأولون أي كتبوه، ولا أصل له. ثم قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم) معناه ليس الأمر على ما قالوه بل غلب على قلوبهم يقال منه: رانت الخمر على عقله ترين رينا إذا سكر فغلبت على عقله، فالرين غلبة السكر على القلب. قال ابوزبيد الطائي:

ثم لما رأوه رانت به الخمر * وإن لا يرينه بالقاء

أي مخافة يسكر، فهي لا تبقيه وقال الراجز:

(٣٠٠)

لم تروحنى نكرت ورين بي * ورين بالسافي الذي أمسى معي

وقال الحسن: وقتادة: الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب. وقال ابن زيد: غلبت الذنوب

على القلوب، فلا يخلص إليها خير العلوم. وقيل: معنى (ران)

غطى وعشى. وقوله (ما كانوا يكسبون) (ما) في موضع رفع، لأنها الفاعلة لران وما يكسبون

يعني من المعاصي، لان الطاعات وان كسيوها فما رانت على قلوبهم قال البلخي: وفي ذلك

دلالة على صحة ما يقوله أهل العدل في تفسير الطبع والختم والاضلال، لانه تعالى اخبر انهم

الذين يجعلون الرين على قلوبهم.

ثم قال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قال الحسن وقتادة: هم محجوبون عن احسانه. وقيل: عن كرامته. وقيل: لممنوعون. وأصل الحجب المنع. ومنه قولهم: الاخوة تحجب الام عن التثت إلى السدس.

ثم بين تعالى ما يفعل بهم فقال (ثم انهم لصالوا الجحيم) ومعناه لازموا الجحيم بكونهم فيها لا يغيبون عنها يقال: صلى بالنار يصلي صلياً، فهو صال والمصطلي الملازم للنار للتدفي بها. ثم حكي انه يقال لهم على وجه التقريع والتبكييت: هذا الذي فعل بكم من العقاب (هو الذي كنتم به تكذبون) في دار التكليف، وانما سمي مثل هذا الخطاب تقريعا لانه خبر بما يقرع بشدة الغم على وجه الذم، فكل خبر على هذا الوصف فهو تقريع وتوبيخ. قوله تعالى:

(كلا إن كتاب الابرار لفي عليين (١٨) وما أدريك ما عليون (١٩) كتاب مرقوم (٢٠) يشهده المقربون (٢١) إن الابرار

(٣٠١)

لفي نعيم (٢٢) على الارائك ينظرون (٢٣) تعرف في وجوههم نضرة النعيم (٢٤) يسقون من رحيق مختوم (٢٥) ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (٢٦) ومزاجه من تسنيم (٢٧) عينا يشرب بها المقربون (٢٨) احدى عشرة آية. قرأ الكسائي وحده (خاتمه مسك) بألف قبل التاء. الباقر (ختامه مسك) فالخاتم مصدر، والخاتم صفة، ونظيره: رجل كريم الطابع والطباع قال الفرزدق:

فبتن خبابتي مصرعات * وبت افض اغلاق الختام (١)

وقرأ ابوجعفر ويعقوب (تعرف) بضم التاء وفتح الراء (نضرة) بالرفع على ما لم يسم فاعله. الباقر بفتح التاء وكسر الراء ونصب (نضرة).

لما ذكر الله تعالى الفجار وما أعده لهم من أنواع العقاب وأليم العذاب ذكر الابرار وهو جمع بر مثل جبل واجبال. والابرار الذين فعلوا الطاعات واجتنبوا المعاصي، واخبر (إن كتاب الابرار لفي عليين) أي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، فقد عظمها الله تعالى بما يدل على عظم شأنها في النعمة، وجمعت بالواو والنون تشبيها بمن يعقل في الفضل وعظم الشأن. وقال ابن عباس: العليون الجنة. وقال كعب وقتادة ومجاهد والضحاك: أرواح المؤمنين في السماء السابعة، وقال الضحاك - في رواية - عليون سدرة المنتهى، وهي التي اليها ينتهي كل شئ من أمر الله تعالى.

وقيل: عليون علو على مضاعف، ولهذا جمع بالواو والنون تفخيما لشأنه

(٣٠٢)

قال الشاعر:

فاصبحت المذاهب قد أذاعت * به الاعصار بعد الوابلينا
يريد مطرا بعد مطر غير محدود العدد، وكذلك تفخيم شأن العد الذي ليس على الواحد، نحو
ثلاثين إلى تسعين، وجرت العشرون عليه. وقيل: عليون أعلى الامكنة. وقال الحسن: معنى
في عليين في السماء. وقال الجبائي: معناه في جملة الملائكة العيين، فلذلك جمع بالواو
والنون.

ثم قال تعالى على وجه التعظيم لشأن هذه المنازل وتفخيم أمرها (وما ادراك ما عليون) لان
تفصيلها لا يمكن العلم بها إلا بالمشاهدة دون علم الجملة. ثم قال (كتاب مرقوم) أي الكتاب
الذي ثبت فيه طاعتهم (مرقوم) أي مكتوب فيه جميع طاعاتهم بما تقربه أعينهم وتوجب
سرورهم بصد الكتاب الذي للفجار، لان فيه ما يسؤهم ويسخن أعينهم (يشهده المقربون) أي
يشهد هذا الكتاب الملائكة المقربون أي يشاهدون جوائزهم ويرونها. ومعنى المقربون - ههنا
- هم الذين قربوا إلى كرامة الله في أجل المراتب.

ثم اخبر تعالى (إن الأبرار) وهم أهل البر الذين فعلوه لوجهه خالصا من وجوه القبح، فالبر
النفع الذي يستحق به الشكر والحمد يقال: بر فلان بوالده فهو بار به وبر به، وجمعه أبرار
(لفي نعيم) أي ويحصلون في ملاذ وأنواع من الفنع (على الأرائك ينظرون) قال ابن عباس:
الأرائك الاسرة. وقال مجاهد: هي من اللؤلئ والياقوت، واحدها أريكة، وهو سرير في حجلة
ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الملك والكرامة، والحجلة كالقبة على الاسرة، ثم قال (تعرف
في وجوههم نضرة النعيم) أي تتبين في وجوههم إشراق النعمة والسرور بها.
وقوله (يسقون من رحيق) فالرحيق الخمر الصافية الخالصة من كل غش.

(٣٠٣)

قال الخليل: هي أفضل الخمر وأجودها قال حسان:

يسقون من ورد البريص عليهم * بردا يصفق بالرحيق السلسل
وقوله (مختوم) قيل إن هذا الخمر مختوم في الانية بالمسك، وهو غير الذي يجري في
الانهار. وقوله (ختامه مسك) قيل في معناه قولان:
أحدهما - ان مقطعه مسك بأن يوجد ريح المسك عند خاتمة شربه - ذكره ابن عباس والحسن
وقتادة والضحاك.

والثاني - أنه ختم اناؤه بالمسك بدل الطين الذي يختم بمثله الشراب في الدنيا - ذكره مجاهد وابن زيد - ومن قرأ (خاتمه) مسك أراد آخر شرابه مسك ويفتح التاء في (خاتمه لان العرب تقول: خاتم وخاتم وخاتام وخيتام. ومن قرأ (ختامه) أراد شرابهم مختوم بالمسك. والمسك معروف، وهو أجل الطيب سمي مسكا، لانه يمسك النفس لطيب ريحه والمسك - بالفتح - الجلد لامساكه ما فيه (وفي ذلك) يعني في ذلك النعيم الذي وصفه الله (فليتنافس المتنافسون) فالتنافس تمنى كل واحد من النفسين مثل الشئ النفيس الذي للنفس الاخرى أن يكون له تنافسوا في الشئ تنافسا ونافسه فيه منافسة، والجليل الذي ينفس بمثله نفيس، ونفس عليه بالامر ينفس نفاسة إذا ضن به لجلالته.

وقوله (ومزاجه) أي مزاج ذلك الشراب الذي وصفه (من تسنيم) فالمزاج خلط المائع بالمائع كما يمزج الماء الحار بالبارد، والشراب بالماء. يقال أمزجه مزجا وامتزج امتزاجا ومزاجه ممزاجة وتمازجا تمازجا. والتسنيم عين الماء يجري من علو إلى سفلى يتسنى عليهم من الغرف، واشتقاقه من السنام، وقال عكرمة: من تشريف، ويقال: سنام البعير لعلوه من بدنه.

وقوله (عينا يشرب بها المقربون) قيل في نصب (عين) وجوه:

(٣٠٤)

أولها - أن (تسنيم) معرفة و (عينا) قطع منها، أو حال.
الثاني - أن يكون (تسنيم) مصدرا فيجري مجرى (أو إطعام في يوم ذى مسغبة يتيما) (١).
الثالث - على تقدير أعني عينا، مدحا.
الرابع - يسقون عينا، والباء زائدة، يقال: شربت عينا وشربت العين وقد فسرناه في (هل أتى).

قوله تعالى:

(إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون (٢٩)

وإذا مروا بهم يتغامزون (٣٠) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (٣١) وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون (٣٢) وما أرسلوا عليهم حافظين (٣٣) فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون

(٣٤)

على الارائك ينظرون (٣٥) هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون (٣٦)

ثمان آيات.

قرأ حفص (فكهين) بغير الف بمعنى فرحين مرحين. الباقر (فاكهين)

بألف بمعنى لاهين، وهو بمنزلة طامع وطمع، فالفاكه الطالب ما يتفكه به من نوادر الامور والفاكه الناعم المعجب بحاله والتفكه التمتع بالمأكل من غير أخذه للقوت. وقرأ ابو عمرو - في رواية هارون - وحمزة والكسائي (هل ثوب) بالادغام، لقرب مخرج اللام من الناء، الباقون واليزيدي عن ابي عمرو بالاظهار.

(١) سورة ٩ البلد آية ١٥ (*)

(٣٠٥)

قيل إن هذه الآية نزلت في جماعة من كفار قريش كانوا يعيرون جماعة من المسلمين الذين سبقوا إلى الايمان، ويهزؤون منهم، فقال الله تعالى مخبراً بأن المجرمين كانوا من الذين آمنوا بالله. وودوه وأخلصوا له العبادة وصدقوا أنبياءه (يضحكون) على وجه الاستهزاء بهم والسخرية منهم (وإذا مروا بهم) يعني إذا مر بهم المؤمنون وجازوا عليهم غمز بعضهم بعضاً عليهم على وجه التعجب منهم والسخرية (وإذا انقلبوا إلى أهلهم) يعني الكفار إذا انقلبوا إلى أهلهم واصحابهم (انقلبوا فاكهين) أي لاهين. ومن قرأ (فكهين) أراد مرجين (معجبين) بحالهم (وإذا رأوهم) يعني الكفار إذا رأوا المؤمنين في دار الدنيا (قالوا) يعني بعضهم لبعض (إن هؤلاء) وأشاروا به إلى المؤمنين (لضالون) عن طريق الحق وعادلون عن الاستقامة، فقال الله تعالى (وما أرسلوا عليهم حافظين) أي لم يرسل هؤلاء الكفار حافظين على المؤمنين، فيحفظون ما هم عليهم، والمراد بذلك الذم لهم بعيب المؤمنين بالضلال من غير أن كلفوا منعهم من المراد وأن ينطقوا في ذلك بالصواب، فضلوا بالخطأ في نسبهم إياهم إلى الضلال، فكانوا ألوم منهم لو اخطئوا فيه، وقد كلفوا الاجتهاد.

ثم قال (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون) معناه إن يوم القيامة الذي يجازي الله تعالى كل احد على عمله فيجازي المؤمن بالثواب والنعيم، ويجازي الكافر بالعذاب والجحيم، ففي ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفار، كما كان الكفار يضحكون من المؤمنين في الدنيا، وقيل الوجه في ضحك أهل الجنة من أهل النار أنهم لما كانوا أعداء الله تعالى وأعداءهم جعل لهم سرورا في تعذيبهم ولو كان العفو قد وقع عنهم لم يجز أن يجعل السرور في ذلك، لانه مضمن بالعداوة (ج ١٠ م من ٣٩ من التبيان)

(٣٠٦)

وقد زالت بالعفو.

وقوله (على الارائك ينظرون) معناه إن المؤمنين على سرر في الحجال واحدها أريكة ينتظرون ما يفعله الله بهم من الثواب والنعيم في كل حال، وما ينزل بالكفار من اليم العقاب وشديد النكال.

ثم قال (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) وقيل في معناه قولان:

احدهما - هل جوزي الكفار إذا فعل بهم هذا الذي ذكر بما كانوا يفعلون.

الثاني - ينظرون هل جوزي الكفار، فيكون موضعه نصبا ب (ينظرون) والاول استئناف لا موضع له. وإنما قال (هل ثوب) لان الثواب في أصل اللغة الجزاء الذي يرجع على العامل بعمله، وإن كان الجزاء بالنعيم على الاعمال في العرف، يقال: ثاب الماء يثوب ثوبا إذا رجع، وثاب اليه عقله إذا رجع. ومنه التثاؤب.

وقال قوم: يقول المؤمنون بعضهم لبعض: هل جوزي الكفار ما كانوا يفعلون سرورا بما ينزل بهم. ويجوز أن يكون ذلك من قول الله أو قول الملائكة للمؤمنين تنبيها لهم على أنه جوزي الكفار على كفرهم وسخريتهم بالمؤمنين وهزئهم، بأنواع العذاب ليزدادوا بذلك سرورا إلى سرورهم.

(٣٠٧)

٨٤ - سورة الانشقاق مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمس وعشرون آية في الكوفي والمدنيين وثلاث في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم (إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الارض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥) يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه (٦)

فأما من أوتي كتابه بيمينه (٧) فسوف يحاسب حسابا يسيرا (٨) وينقلب إلى أهله مسرورا (٩) تسع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه وهو متوجه إلى جميع المكلفين على وجه الوعيد لهم والتخويف من عقابه والتنبيه لهم على قرب أو ان مجيئه (إذا السماء انشقت) وتقديره إنك إذا السماء انشقت، ومعناه إذا انفطرت السماء وتصدعت وانفجرت، فالانشقاق افتراق إمتداد عن إلتئام، فكل انشقاق افتراق وليس كل افتراق انشقاقا وقيل: الانشقاق الانفطار، والانصداع الانفراج.

وقوله (وأذنت لربها وحقت) قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد

(٣٠٨)

وقتادة: معناه سمعت وأطاعت أي كأنها سمعت بأذن وأطاعت بانقياد لتدبير الله.

تقول العرب أذن لك هذا الامر أذنا بمعنى أسمع لك قال عدي بن زيد:

ايها القلب تغلل بددن، إن همي في سماع وأذن وقال آخر:

صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به * وإن ذكرت بسوء عندهم اذنوا (١)

أي سمعوا وقال عدي بن زيد:

في سماع يأذن الشيخ له * وحديث مثل ما ذي مشار (٢)

وقيل إن معنى و (حقت) حق لها أن تأذن بالانقياد لامر ربها، يقال: حق له أن يكون على هذا الامر بمعنى جعل ذلك حقا.

وقوله (وإذا الارض مدت روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (تمد الارض يوم القيامة مثل الاديم) ومعنى (مدت) بسطت إن الله تعالى يأمر بأن تمد مد الاديم العكاظي حتى يزيد في سعتها. وقيل معناه إنها تبسط بانديكك جبالها وآكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء.

وقوله (والقت ما فيها وتخلت) معناه القت ما فيها من المعادن وغيرها، وتخلت منها، وذلك مما يؤذن بعظم الامر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة وقال قتادة ومجاهد: أخرجت الارض أنقالها. وقوله (وأذنت لربها وحقت) قد فسرناه وليس هذا على وجه التكرار، لان الاول في صفة السماء والثاني في صفة الارض فليس بتكرار وهذا كله من أشرط الساعة وجلائل الامور التي تكون فيها. وجواب (إذا السماء انشقت) محذوف وتقديره إذا كانت هذه الاشياء التي ذكرها وعددها رأى الانسان ما قدم من خير او شر، وقيل جوابه في (إنك كادح) قال ابن خالويه الفاء مقدره

(١) مر في ٥ / ٤٤ (٢) مر في ٥ / ٢٨٧ (*)

(٣٠٩)

والتقدير إذا السماء انشقت إلى قوله (وحقت) فيا أيها الانسان إنك كادح. وقال البلخي: السواو زائدة وجواب قوله (أذنت لربها) (وحقت) وهو كقوله (حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها) والاول هو الوجه.

وقوله (يا أيها الانسان) خطاب لجميع المكلفين من البشر من ولد آدم يقول الله لهم ولكل واحد منهم (يا أيها الانسان إنك كادح) والكدح السعي الشديد في الامر يقال: كدح الانسان في أمره يكدح، وفيه كدوح وخدوش أي آثار من شدة السعي في الامر، ومعنى (كادح إلى ربك كدحا) ايها الانسان إنك في امرك بشدة ومشقة إلى أن تلقى جزاء عمك من ربك، فانت لا تخلو في الدنيا من مشقة، فلا تعمل لها، واعمل لغيرها فيما تصير به إلى الراحة من الكدح، فالغني والفقير كل واحد منهما يكدح ما يقتضيه حاله. وقوله (فملاقيه) تفخيم لشأن الامر الذي يلقي

من جهته، فجعل لذلك لقاء جزائه، لقاءه وهذا من المعاني العجيبة والحكمة البالغة والهاء في (فملاقيه) يحتمل أمرين: أن تكون كناية عن الله، وتقديره فملاقي ربك أي تلاقى جزاء ربك، ويحتمل أن تكون كناية عن الكدح، وتقديره فملاقي كدحك الذي هو عملك. وقال تميم بن مقبل:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما * أموت واخرى ابتغى العيش اكدح (١)
أي ادؤب وأسعى في طلب العيش. ثم قسم تعالى أحوال الخلق يوم القيامة فقال (فأما من أوتي كتابه بيمينه) يعني من أعطي كتابه الذي فيه ثبت أعماله من طاعة أو معصية بيده اليمنى (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) أي يواقف على ما عمل من الحسنات وماله عليها من الثواب، وماحط عنه من الاوزار إما بالتوبة أو المغفرة، فالحساب اليسير التجاوز عن السيئات، والاحتساب بالحسنات. ومن

(١) مر في ٣ / ٢١٢ و ٤ / ٧٧ و ٨ / ٢٤٣ (*)

(٣١٠)

نوقش بالحساب هلك، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وقوله (وينقلب إلى أهله مسرورا أي فرحا مستبشرا. وقيل المراد بالاهل - ههنا - هم الذين أعد الله لهم من الحور العين، ويجوز أن يكون المراد أقاربه إذا كانوا من أهل الجنة والسرور هو الاعتقاد أو العلم بوصول نفع اليه في المستقبل أو دفع ضرر عنه وقال قوم: هو معنى في القلب يلتذ لاجله بنيل المشتهى يقال: سر بكذا من مال أو ولد أو بلوغ أمل يسر سرورا.
قوله تعالى:

(وأما من أوتي كتابه وراء ظهره (١٠) فسوف يدعو ثورا (١١)
ويصلي سعيرا (١٢) إنه كان في أهله مسرورا (١٣) إنه ظن أن لن يحور (١٤) بلى إن ربه كان به بصيرا) (١٥) ست آيات.

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير والكسائي (يصلى) بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام. الباقر بفتح الياء وإسكان الصاد خفيفة. وأماله أهل الكوفة إلا عاصما.

لما ذكر الله تعالى حكم من يعطى كتابه بيمينه من المؤمنين وأهل الطاعات وما أعد لهم من أنواع النعيم وإنقلابه إلى أهله مسرورا، ذكر حكم الكفار الذين يعطون كتاب أعمالهم وراء ظهورهم، وروي أنه يخرج شماله من ظهره، ويعطى كتابه فيه. والوجه في ذلك ما قدمناه من كون ذلك امارة للملاكة والخلائق أنه من أهل النار كما أن إعطاء الكتاب باليمين علامة على أنه من أهل الجنة.

ثم حكى ما يحل به فقال (فسوف يدعو ثورا) فالثبور الهلاك أى يقول واهلاكاه. والمثبور الهالك. وقيل: إنه يقول واثبورا. وقال الضحاك يدعو

(٣١١)

بالحلاك. وأصل الثبور الهلاك يقال: ثبره الله يثبره ثبرا إذا أهلكه. ومثبر الناقة الموضع الذى تطرح ولدها فيه، لأنها تشفى به على الهلاك، وثبر البحر إذا جزر لهلاكه بانقطاع مائه، يقال: تثاربت الرجال في الحرب إذا توارثت، لاشفائها على الهلاك بالمواتبة. والمثابر على الشئ المواظب عليه لحمله نفسه على الهلاك بشدة المواظبة.

وثبير جبل معروف والمثيرة تراب شبيهة بالنورة إذا وصل عرق النخل اليه وقف، لأنه يهلكه، وإنما يقول: واويلاه والهفاه واهلاكاه، لأنه ينزل به من المكروه لاجله مثل ما ينزل بالمتفجع عليه.

وقوله (ويصلى سعيرا) معناه إن من هذه صفته يلزم الكون في السعير، وهي النار المتوقدة على وجه التأييد.

وقوله (إنه كان في أهله مسرورا) معناه إنه اقتطعه السرور بأهله عما يلزمه أن يقدمه. فهو ذم له بهذا المعنى، ولو لم يكن إلا السرور بأهله لم يذم عليه وقيل: معناه إنه كان في أهله مسرورا بمعاصي الله ثم أخبر عنه (إنه ظن) في دار التكليف (أن لن يحور) أى لن يبعثه الله للجزاء، ولا يرجع حيا بعد أن يصير ميتا يقال: حار يحور حورا إذا رجع، وتقول: كلمته فما أحر جوابا أى مارد جوابا. وفي المثل (نعوذ بالله من الحور بعد الكور) أى من الرجوع إلى النقصان بعد التمام، وحوره إذا رده إلى البياض والمحور البكرة، لأنه يدور حتى يرجع إلى مكانه، والمعنى إنه ظن أن لن يرجع إلى حال الحياة في الآخرة، فلذلك كان يرتكب المآثم وينتهك المحارم. فقال الله ردا عليه ليس الأمر على ما ظنه (بلى)

إنه يرجع حيا ويجازي على أفعاله.

وقوله (إنه كان به بصيرا) معناه إنه يخبر عن أنه لن يجوز، بلى ويقطع الله عليه بأنه يجوز على أنه بصير به وبجميع الأمور.

(٣١٢)

قوله تعالى:

(فلا أقسم بالشفق (١٦) والليل وما وسق (١٧) والقمر إذا اتسق (١٨) لتركين طبقا عن طبق

(١٩) فما لهم لا يؤمنون (٢٠)

وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون (٢١) بل الذين كفروا يكذبون (٢٢) والله أعلم بما يوعون
(٢٣) فبشرهم بعذاب أليم (٢٤)
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٢٥)
عشر آيات.

قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي بفتح الباء من (لتركبن) ومعناه لتركبن أنت يا محمد. الباقر
بضم الباء على أن يكون خطابا للجميع.
يقول الله تعالى مقسما بالشفق، وقد بينا أن (لا) صلة في مثل هذا، والتقدير أقسم، وقد بينا أن
الله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لاحد أن يقسم إلا بالله. وقال بعضهم: أقسم برب
الشفق، والشفق هو الحمرة التي تبقى عند المغرب في الأفق، وقال الحسن وقتادة: الشفق
الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة. وقال قوم: هو البياض. والصحيح أن الشفق هو الحمرة
الرفيعة في المغرب بعد مغيب الشمس وأصله الشفق في العمل، وهو الرقة على خلل فيه،
وأشفق على كذا إذا رق عليه وخاف هلاكه. واشفق إذا رق بالخوف من وقوعه. قال الفراء:
سمعت بعض العرب يقول: علي ثوب كأنه الشفق يريد حمرة. والاعتبار بالشفق أنه علامة
لوقت بعينه لا يختلف اقتضى اثبات علم به.
وقوله (والليل وما وسق) قسم آخر بالليل وإتساقه. وقيل: معنى وسق

(٣١٣)

جمع إلى مسكنه ما كان منتشرا بالنهار في تصرفه، يقال: وسقته أسقه وسقا إذا جمعته، وطعام
موسوق أى مجموع في الغرائر والأوعية. والوسق الطعام المجتمع وقدره ستون صاعا.
وقوله (والقمر إذا اتسق) قسم آخر بالقمر واتساقه أى اجتماعه على تمام وهو افتعال من
الوسق، فإذا تم نور القمر واستمر في ضيائه، فذلك الاتساق له.
وقال قتادة: معناه إذا استدار. وقال مجاهد: إذا استوى.
وقوله (لتركبن طبقا عن طبق) جواب القسم، ومعناه منزلة عن منزلة وطبقة عن طبقة وذلك
أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه، لأن
كل شئ يحن إلى شكله. وقيل: معنى (طبقا عن طبق) جزاء عن عمل. وقيل: معناه شدة عن
شدة. وقيل: طبقات السماء بعروج الأرواح. وقيل: معناه حالا عن حال من أحياء وإماتة، ثم
أحياء. وقيل:

معناه لتصيرن إلى الآخرة عن الدنيا. وقال ابو عبيدة: معناه لتركبن سنة الأولين ومن كان
قبلكم. ثم قال على وجه التبكيت لهم والتفريع (فما لهم لا يؤمنون) أى أى شئ لهم لاجله لا
يصدقون بالله واليوم الآخر ولا يعترفون بالثواب والعقاب.

وقيل: معناه ما لهم لا يؤمنون أى ما وجه الارتياب الذى يصرفهم عن الايمان.
وقوله (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) عطف على قوله (لا يؤمنون)
والمعنى ما الذى يصرفهم عن الايمان وعن السجود لله والخضوع له والاعتراف بوحدانيته إذا
بلي عليهم القرآن الذى أنزلته على محمد (صلى الله عليه وآله) الذى يلين القلب للعمل من الوعظ
والوعد والوعيد يميز به بين الحق والباطل، وهو مع ذلك معتذر عليهم الاتيان بمثله، فهو
معجز له (صلى الله عليه وآله).
(ج ١٠ م ٤٠ من التبيان)

(٣١٤)

ثم قال تعالى (بل الذين كفروا يكذبون) معناه إن الذى يمنعهم من السجود عند تلاوة القرآن
تكذيبهم جهلا بما عليهم وعدولا عن الحق. وفي ذلك التحذير من الجهل والحث على طلب
العلم. وقيل: معناه ما لهم لا يؤمنون، ولا بد من الجزاء على الاعمال ثم قال: تكذيبهم عن
جهل منهم يصرفهم عن ذلك.
وقوله (والله اعلم بما يوعون) قال قتادة ومجاهد: معناه بما يوعون في صدورهم وإنما قال:
يوعون، لانهم يحملون الاثام في قلوبهم، فشبه ذلك بالوعاء، يقال:
أوعيت المتاع ووعيت العلم، قال الفراء: الاصل جعل الشئ في وعاء، والقلوب شبه أوعية لما
يحصل فيها من معرفة او جهل.
ثم قال للنبي (صلى الله عليه وآله) (فبشرهم) يا محمد جزاء على كفرهم (بعذاب اليم) أي مؤلم.
ثم استثنى من جملة من يخاطبه فقال (إلا الذين آمنوا) بالله (وعملوا)
الاعمال (الصالحات لهم أجرا غير ممنون) أي غير منقوص، في قول ابن عباس وقال غيره:
غير مقطوع، وقيل: غير منغص بالمن الذى يؤذي. وإنما قيل له:
من، لانه قطع له عن شكر النعمة. قال الزجاج: تقول العرب: مننت الحبل إذا قطعتة قال لبيد:
لمعفر قهد تنازع شلوه * غبس كواسب ما يمن طعامها (١)
أى ما ينقص، وقيل ما يكدر، وكان ابن مجاهد ومحمد بن القاسم الانبارى يقفان على قوله
(فبشرهم بعذاب اليم) ويبتدؤن بقوله (إلا الذين آمنوا) قال ابن خالويه: فسألتهما عن ذلك فقالا:
الاستثناء منقطع ومعناه (لكن).
(الهامش) مر في ١ / ٣٢٢ (*)

(٣١٥)

٨٥ - سورة البروج مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي اثنتان وعشرون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم (والسماوات ذات البروج (١) واليوم الموعود (٢) وشاهد ومشهود (٣) قتل اصحاب الاخذ (٤) النار ذات الوقود (٥)

إذ هم عليها قعود (٦) وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (٧) وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٨) الذي له ملك السموات والارض والله على كل شئ شهيد (٩) إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق (١٠) عشر آيات.

قوله: (السماوات ذات البروج) قسم من الله تعالى بالسماوات، ومنهم من قال تقديره برب السماوات. وقد بينا ما في ذلك في غير موضع. ثم وصف السماء بأنها ذات البروج. فالبروج المنازل العالية. والمراد - ههنا - منازل الشمس والقمر - في قول المفسرين - ومثل ذلك قوله (ولو كنتم في بروج مشيدة) (١) أى في

(١) سورة النساء آية ٧٧ (*)

(٣١٦)

منازل عالية. وقيل: السماء اثني عشر برجاً يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاثاً، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً. ثم يستتر ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر. وقيل: البروج النجوم التي هي منازل الشمس والقمر.

وقوله (واليوم الموعود) قسم آخر بهذا اليوم. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه اليوم الذى يجازى فيه ويفصل فيه القضاء، وهو يوم القيامة - وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد - . قوله (وشاهد ومشهود) قسم آخر بالشاهد والمشهود، فالشاهد النبي (صلى الله عليه وآله) والمشهود يوم القيامة - في قول الحسن بن علي (عليه السلام) وتلا قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) (١) وقال (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) (٢)، وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب، وفي رواية اخرى عن ابن عباس إن الشاهد هو الله، والمشهود يوم القيامة. وقال قتادة:

الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة. وقال الجبائي: الشاهد هم الذين يشهدون على الخلائق، والمشهود هم الذين يشهدون عليهم، قال: ويجوز أن يكون المراد المدركين والمدركات. وجواب القسم محذوف، وتقديره الامر حق في الجزاء على الاعمال. وقيل الجواب قوله (قتل اصحاب الاخذود) وقال الاخفش: يجوز أن يكون على التقديم والتأخير،

وتقديره (قتل اصحاب الاخدود.. والسماء ذات البروج) وقوله (قتل أصحاب الاخدود) معناه لعن. وقيل لعنوا بتحريقهم في الدنيا قبل الاخرة. وقال الجبائي: يحتمل أن يكون المعنى بذلك القاتلين، ويحتمل أن يكون المقتولين، فاذا حمل على القاتلين، فمعناه لعنوا بما فعلوه من قتل المؤمنين وإن حمل على المقتولين، فالمعنى انهم قتلوا بالاحراق بالنار. وذكر الله هؤلاء.

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٠ (٢) سورة ١١ هود آية ١٠٤ (*)

(٣١٧)

المؤمنين بحسن بصيرتهم في الصبر على دينهم حتى أحرقوا بالنار، لا يعطون النقية بالرجوع عن الايمان. والاكخدود هو الشق العظيم في الارض، ومنه ما روي في معجزة النبي (صلى الله عليه وآله) أن الشجرة دعاها النبي (صلى الله عليه وآله) فجعلت تخذ الارض خذا، حتى انته. ومنه الخد المجاري الدموع. والمخدة لوضع الخد عليها، وتحدد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

وقوله (النار ذات الوقود) فجر النار على البديل من الاخدود، وهو بدل الاشتمال، ووصفها بأنها ذات الوقود، فالوقود - بفتح الواو - ما يشعل من الحطب وغيره - وبضم الواو - الايقاد. وإنما وصفها بأنها ذات الوقود مع ان كل نار ذات وقود لامرين: أحدهما - انه قد يكون نار ليست ذات وقود كنار الحجر ونار الكبد.

والثاني - انه أراد بذلك وقودا مخصوصا، لانه معروف، فكأنه أراد الوقود بأبدان الناس، كما قال (وقودها الناس والحجارة) (١)

وقوله (إذ هم عليها قعود) أي حين هم قعود عليها أي بالقرب منها، وقال الربيع بن أنس: الكفار الذين كانوا قعودا على النار خرج لسان منها فأحرقهم عن آخرهم. وروي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) (أنهم كانوا من المجوس) وقال الضحاك:

كانوا من بني إسرائيل. وقيل: كانوا من اليمين. ومعناه هم عليها قعود حين كان أولئك الكفار قعودا عند النار. والقعود جمع قاعد كقولك: شاهد وشهود، وراكع وركوع، والقعود أيضا مصدر قعد يقعد قعودا.

وقوله (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) أي حضور على مشاهدتهم لهم، فكل حاضر على ما شاهده إما بسمع أو بصر، فهو شاهد. والمشاهد هو

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤ وسورة ٦٦ التحريم آية ٦ (*)

المدرک بحاسة.

وقوله (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) معناه انه لم ينقم هؤلاء الكفار من أولئك المؤمنين الذين أحرقوهم بالنار إلا لايمانهم بالله تعالى القاهر الذي لا يقهر (الحميد) في جميع أفعاله، فالنقمة ايجاب مضرة على حال مذمومة. ونقيض النقمة النعمة، فهؤلاء الجهال نقموا حال الايمان، لانهم جعلوها بجهلهم حالاً مذمومة قال الشاعر:

ما نقموا من بني أمية * إلا أنهم يحلمون إن غضبوا (١)

والداعي لهم إلى ان ينقموا من الايمان الجهل والخلاف، لان ما سبقوا اليه من الجهل يدعوهم إلى عداوة من خالفهم وسخف آرائهم، وإن ذلك يفسد عليهم ملكهم. ويصرف الوجوه عنهم. وقوله (الذي له ملك السموات والارض) صفة (العزى الحميد) والمعنى ان هؤلاء الكفار نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله تعالى العزيز، ومعناه القاهر الذي لا يغالب الحميد ومعناه المستحق للحمد على جميع أفعاله (الذي له ملك السموات والارض)

ومعناه له التصرف في السموات والارض ولا اعتراض لاحد عليه. ثم قال (والله على كل شئ شهيد) أي عالم بجميعه لا يخفى عليه شئ من ذلك. وقوله (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) قال ابن عباس وقتادة والضحاك:

حرقوهم بالنار (ثم لم يتوبوا) إنما شرط عدم التوبة، لانهم لو تابوا لما توجه اليهم الوعيد، وإن لم يتوبوا توجه اليهم الوعيد بقوله (فلهم عذاب جهنم) يعني في الاخرة (ولهم عذاب الحريق) في الدنيا - في قول الربيع - قال الفراء: لما خددوا للمؤمنين الاخايد وطرحوا فيها النار وطرحوا فيها المؤمنين أرتفعت النار عليهم،

(١) مر في ٣ / ٥٥٩، ٥٧٠ و ٥ / ٣٠٤ (*)

فأحرقتهم فرق الاخايد ونجا المؤمنون.

وقال قوم (إن الذين فتنوا المؤمنين) جواب القسم في أول السورة، وهذا غير صحيح، لان الكلام قد طال وانقطع بالاخبار ما بينها، وقال الزجاج: لهم عذاب بكفرهم، وعذاب باحراقهم المؤمنين قوله تعالى:

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير (١١))

إن بطش ربك لشديد (١٢)

إنه هو يبدئ ويعيد (١٣) وهو الغفور الودود (١٤) ذو العرش المجيد (١٥) فعال لما يريد (١٦) هل أتيتك حديث الجنود (١٧) فرعون وثمود (١٨) بل الذين كفروا في تكذيب (١٩) والله من ورائهم محيط (٢٠) بل هو قرآن مجيد (٢١) في لوح محفوظ (٢٢) اثنتا عشرة آية.

قرأ حمزة والكسائي إلا قتيبة وخلف (المجيد) بالخفض جعلوه نعتا للعرش. الباقر بالرفع على أنه نعت لله تعالى، وقرأ نافع (محفوظ) بالرفع. الباقر بالخفض نعتا للوح. ومن رفع جعله نعتا للقرآن. اخبر الله تعالى عن صفة المؤمنين، فقال (إن الذين آمنوا) أي صدقوا بتوحيد الله وإخلاص عبادته (وعملوا الصالحات) من الاعمال، واجتنبوا القبائح (لهم جنات تجري من تحتها الانهار) أي لهم بساتين تجري من تحت أشجارها

(٣٢٠)

الانهار (ذلك الفوز الكبير) فالفوز النجاة بالنفع الخالص، وأصله النجاة، وقيل للمهلكة مفازة تفاعل كأنه قيل: منجاة، وفاز فلان بكذا أي خالص له نفعه، يفوز فوزا. ولا يقال إلا في تعظيم النفع الذي صار له، وإنما ذكر الكبير - ههنا - لان النعيم لهؤلاء العاملين كبير بالإضافة إلى نعيم من لا عمل له ممن يدخل الجنة، لما فيه من الاجلال والاكرام والمدح والاعظام. وقيل: الفوز الحظ الواقع من الخير.

ثم قال متوعدا ومتهددا للكفار والعصاة (إن بطش ربك لشديد) يا محمد والبطش الاخذ بالعنف، بطش به يبطش بطشا ويبطش ايضا، فهو باطش، وإذا وصف بالشدة فقد تضاعف مكروهه وتزايد إيلامه. وقوله (إنه هو يبدئ ويعيد) قال ابن عباس: معناه إنه يبدأ العذاب ويعيده لاقتضاء ما قبله ذلك. وقال الحسن والضحاك وابن زيد: يبدأ الخلق ويعيده لان الاظهر في وصفه تعالى بأنه المبدئ المعيد العموم في كل مخلوق (وهو الغفور) يعني الستار على خلقه معاصيهم (الودود) أي وادلهم ومحب لمنافع خلقه (ذو العرش المجيد) ومعناه صاحب العرش، العظيم المجيد وقال ابن عباس: معناه الكريم. وقرأ اهل الكوفة إلا عاصما المجيد بالجر جعلوه نعتا للعرش. ومعناه ذو العرش الرفيع. الباقر بالرفع جعلوه نعتا للغفور أي هو الغفور الودود المجيد ذو العرش، قال المبرد: يجوز أن يكون نعتا لقوله (ان بطش ربك....

المجيد) فيكون قد فصل بينهما، وفيه بعد لانه قال (لشديد) وقال (أنه هو يبدئ ويعيد، وهو الغفور الودود ذو العرش) وفصل بهذا كله، يقال: مجدت الابل تمجد مجودا إذا رعيتها فرعت

وشبعت. ولا فعل لك، أو أمجدتها أمجدها إمجادا إذا اشبعتها من العلف ومالات بطونها ولا فعل لها في ذلك، وفي المثل في كل شجر نار واستمجد المرح والغفار. ومعناه كثر ناره لانه ليس في الشجر أكثر نارا من الغفار.

وقوله تعالى (فعال لما يريد) معناه ما يشاؤه ويريده من أفعال نفسه يفعله

(٣٢١)

لا يمنعه من ذلك مانع ولا يعترض عليه معترض، ولا يجوز أن يكون المراد إنه فعال لكل ما يريد لان ذلك يقتضي انه فعال لكل ما يريد أن يفعله العباد، وذلك انه يستحيل أن يفعل ما يريد أن يفعله العباد، لان في ذلك ابطال الامر والنهي والطاعة والمعصية والثواب والعقاب، إذ لا يأمرهم أن يفعلوا ما قد فعله، ولا ينهاهم عنه، ولانه قد أراد من الكفار أن يؤمنوا، لانه قد أمرهم بالايمان وما فعل إيمانهم وقد قال الله تعالى (وما الله يريد ظلما للعالمين) (١) ولو فعل ظلمهم لكان قد أراد ظلمهم. وقوله (هل اتاك حديث الجنود فرعون وثمود) معناه تذكر يا محمد حديثهم تذكر معتبر، فانك تنتفع به، وهذا من الايجاز الحسن والتفخيم الذي لا يقوم مقامه

التصريح لما يذهب الوهم في أمرهم كل مذهب ويطلب الاعتبار كل مطلب.

وقوله (بل الذين كفروا في تكذيب) معناه بل هؤلاء الكفار الذين كفروا كذبوا بالبعث والنشور فاعرضوا عما يوجبه الاعتبار بفرعون وثمود، واقبلوا على ما يوجبه الكفر والتكذيب من التأكيد، ولم يعلموا أن (الله من ورائهم محيط) يقدر أن ينزل بهم ما انزل بفرعون. وقيل المعنى (هل أتاك حديث الجنود) وما كان منهم إلى انبيائهم فاصبر كما صبر الرسل قبلك (بل الذين كفروا في تكذيب) ايثارا منهم لاهوائهم واتباعا لسنن آبائهم.

وقوله (والله من ورائهم محيط) أي هم مقدور عليهم كما يكون فيما احاط الله بهم، وهذا من بلاغة القرآن.

وقوله (بل هو قرآن مجيد) أي كريم فالمجيد الكريم العظيم الكريم بما يعطي من الخير، فلما كان القرآن يعطي المعاني الجليلة والدلائل النفيسة كان كريما مجيدا بما

(١) سورة آل عمران ١٠٨ (ج ١٠ م ٤١ من التبيان) (*)

(٣٢٢)

يعطي من ذلك، لان جميعه حكم. وقيل: الحكم على ثلاثة أوجه لارابع لها: معنى يعمل عليه فيما يخشى ويتقى، وموعظة تلين القلب للعمل بالحق، وحجة تؤدي إلى تمييز الحق من الباطل في علم دين أو دنيا، وعلم الدين أشرفهما وجميع ذلك موجود في القران. وقوله (في لوح محفوظ) عن التغيير والتبديل والنقصان والزيادة. وقال مجاهد: المحفوظ أم الكتاب، وقيل: انه اللوح المحفوظ الذي كتب الله جميع ما كان ويكون فيه - ذكره أنس بن مالك - أي كأنه بما ضمن الله من حفظه في لوح محفوظ ومن رفع (محفوظ) جعله صفة القران. ومن قرأه بالخفض جعله صفة اللوح.

٨٦ - سورة الطارق مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي سبع عشرة آية في الكوفي والبصري والمدني الاخير وست عشرة آية في المدني الاول بسم الله الرحمن الرحيم (والسما والطارق (١) وما أدريك ما الطارق (٢) النجم الثاقب (٣) إن كل نفس لما عليها حافظ (٤) فلينظر الانسان مم خلق (٥) خلق من ماء دافق (٦) يخرج من بين الصلب

(٣٢٣)

والترائب (٧) إنه على رجه لقادر (٨) يوم تبلى السرائر (٩) فما له من قوة ولا ناصر) (١٠) عشر ايات.

قرأ (لما) بالتشديد عاصم وحمزة وابن عامر بمعنى (إلا) وقد جاء (لما) مشددا بمعنى (إلا) في موضعين: إن، والقسم، كقولهم سئلتك لما فعلت بمعنى إلا فعلت قال قوم: تقديره لمما، فحذفت إحدى الميمات كراهة اجتماع الامثال. وقرأ الباكون بالتخفيف جعلوا (ما) صلة مؤكدة. وتقديره لعلها حافظ، واللام لام الابتداء التي يدخل في خبر (إن) و (أن) مخففة من الثقيلة.

هذا قسم من الله تعالى بالسما وبالطارق، وقد بينا القول فيه فالطارق هو الذي يجيء ليلا وقد فسره الله تعالى وبينه بأنه (النجم الثاقب) فالنجم هو الكوكب قال الحسن: المراد بالنجم جميع النجوم. وقال ابن زيد: هو زحل.

وقوله (وما أدراك) معناه أنه لم تدر حتى أعلمتك، وكل ما يعلمه الانسان فالله أعلمه بالضرورة أو بالدليل قال قتادة: طروق النجم ظهورها بالليل وخفاؤها بالنهار.

وقوله (والطارق) تبين عن معنى وصفه بالطارق. وقوله (النجم الثاقب) تبين عن ماهيته نفسه يقال: طرقتي فلان إذا أتاني ليلا وأصل الطرق الدق، ومنه المطرقة، لانه يدق بها، والطريق لان المارة تدقه بارجلها، والطارق لانه يحتاج إلى الدق للتبنيه، والنجم هو الكوكب الطالع في السماء، يقال لكل طالع ناجم تشبيها به، ونجم النجم إذا طلع، وكذلك

السن والقرن. ويوصف بالطالع والغارب، لانه إذا طلع من المشرق غاب رقيه من المغرب، والثاقب المضى المنير، وثقوبه توقده وتنوره، تقول العرب: انقب نارك أي اشعلها حتى تضى. وثقب لسانها

(٣٢٤)

بخروج الشعاع منها والثاقب أيضا العالي الشديد العلو، تقول: العرب للطائر اذا ارتفع ارتفاعا شديدا قد ثقب. كله كأنه ثقب الجو الاعلى. وقال مجاهد وقتادة وابن عباس: الثاقب المضى. وقال ابن زيد: هو العالي وهو زحل.

وقوله (إن كل نفس لما عليها حافظ) جواب القسم و (إن) ههنا المخففة من الثقيلة التي يتلقى بها القسم، والمعنى إن كل نفس لها حافظ - فيمن خفف - ومن شدد قال: (إن) بمعنى (ما) وتقديره ليس كل نفس إلا عليها حافظ. وقال قتادة: حافظ من الملائكة يحفظون عمله ورزقه وأجله، فالحافظ المانع من هلاك الشئ يحفظه يحفظه حفظا واحتفظ به احتفاظا فأما أحفظه فمعناه أغضبه، وتحفظ من الامر إذا أمتنع بحفظ نفسه منه وحافظ عليه إذا واطب عليه بالحفظ.

وقوله (فليظنر الانسان مم خلق) أمر من الله تعالى للمكلفين من الناس أن يفكروا ويعتبروا مماذا خلقهم الله. ثم بين تعالى مماذا خلقهم فقال (خلق من ماء دافق) فالدفق هو صب الماء الكثير باعتماد قوي، ومثله الدفع، فالماء الذي يكون منه الولد يكون دافقا وهي النطفة التي يخلق الله منها الولد إنسانا أو غيره، وماء دافق معناه مدفوق، ومثله شر كاتم، وعيشة راضية. ثم بين ذلك من أي موضع يخرج هذا الماء، فقال (يخرج من بين الصلب والترائب) فالصلب هو الظهر، والترائب جمع تربية وهو موضع القلادة من صدر المرأة - في قول ابن عباس - وهو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب. قال المنقب.

ومن ذهب يشن إلى تريب * كلون العاج ليس بذي غصون (١)
وقال آخر:

والزعران على ترائبها * شرقا به اللبات والنحر (٢)

(١) اللسان والتاج (ترب) ومجاز القرآن ٢ / ٢٩٤ (٢) قائله المخبل تفسير القرطبي ٢٠ / ٥ (*)

(٣٢٥)

وقيل: إن نطفة الرجل تخرج من ظهره، ونطفة المرأة من صدرها، فاذا غلب ماء الرجل خرج الولد إلى شبه أهل بيت أبيه وإذا غلب ماء المرأة خرج إلى شبه أهل بيت أمه.

وقوله (إنه على رجعه لقادر) قال عكرمة ومجاهد: معناه إنه تعالى على رد الماء في الصلب قادر. وقال الضحاك: إنه على رد الإنسان ماء كما كان قادر، والرجع الماء وأنشد ابو عبيدة:
للمنخل في صفة سيف:

أبيض كالرجع رسوب إذا * ما تاخ في محتفل يختلي (١)
ومعنى الآية إن الذي ابتداء الخلق من ماء دافق أخرجه من بين الصلب والترائب حيا قادر على اعادته (يوم تبلى السرائر) لان الاعادة أهون من ابتداء.
النشأة، وقال الحسن وقتادة معناه أنه على رجع الانسان بالاحياء بعد الممات قادر.
وقوله (يوم تبلى السرائر) معناه تختبر باظهارها وإظهار موجبها لان الابتلاء والاختبار والاعتبار كله إنما هو باظهار موجب المعنى، ففي الطاعة الحمد والثواب وفي المعصية الذم والعقاب، وواحد السرائر سريرة وهي الطوية في النفس، وهو اسرار المعنى في النفس، وقد يكون الاسرار من واحد بعينه مع إطلاع غيره عليه فلا يكون سريرة. وقيل: إن الله يفضح العاصي بما كان يستر من معاصيه ويجل المؤمن باظهار ما كان يسره من طاعته ليكرمه الناس بذلك ويجلوه.

ثم بين تعالى أنه لاقدرة لهذا الانسان الذي يعيده الله - على معاصيه - ويعاقبه على دفع ذلك عن نفسه ولا ناصر له يدفعه فالقدرة هي القوة بعينها.

(١) تفسير القرطبي ٢٠ / ١٠ (*)

(٣٢٦)

قوله تعالى:

(والسماوات ذات الارجح (١١) والارض ذات الصدع (١٢)
إنه لقول فصل (١٣) وما هو بالهزل (١٤) إنهم يكيدون كيدا (١٥)
وأكيد كيدا (١٦) فمهل الكافرين أمهلهم رويدا (١٧) سبع آيات.
هذا قسم من الله تعالى بالسماوات ذات الارجح. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ذات المطر. وقال ابن زيد: يعني شمسها وقمرها ونجومها تغيب ثم تطلع.
وقيل: رجح السماء إعطاؤها الخير يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الازمان رجعه يرجعه رجعا إذا أعطاه مرة بعد مرة. وقيل: الرجح الماء الكثير تردده بالرياح التي تمر عليه
قال المنخل في صفة سيف:

أبيض كالرجع رسوب إذا * ما تاخ في محتفل يختلي.

وقال الفراء: تبتدئ بالمطر ثم ترجع به في كل عام. وقوله (والارض ذات الصدع) قسم آخر بالارض ذات الصدع. وقال ابن عباس وقتادة والضحاك

وابن زيد: ذات الصدع انشقاقها بالنبات لضروب الزروع والاشجار: صدع يصدع صدعا وتصدع الشيء تصدعا وانصدع انصدعا وصدعه تصديعا (وقوله إنه لقول فصل) جواب القسم، ومعناه ان ما ذكره من اعادة الخلق وإنشائهم النشأة الثانية قول فصل أي هو قول يفصل الحق من الباطل. ومثله فصل القضاء، وكل معنى فانه يحتاج فيه إلى فصل حقه من باطله. ثم قال (وما هو بالهزل) أي مع أنه فصل ليس بهزل والهزل نقيض الجد ومثله اللهو واللعب والعبث

(٣٢٧)

يقال: هزل يهزل هزلا.

ثم اخبر تعالى عن الكفار فقال (إنهم يكيدون كيدا) أي يحتالون في رفع الحجج وإنكار الايات ويفعلون ما يوجب الغيظ يقال: كاده يكيدا كيدا وكايدته مكايده وتكايد القوم تكايدا أي يحتالون في رفع الحجج وإنكار الايات، فقال تعالى (وأكيد كيدا) أي أجازيهم على كيدهم، وسمي الجزاء على الكيد باسمه لازدواج الكلام. وقيل: المعنى أنهم يحتالون لهلاك النبي وأصحابه، وأنا أسبب لهم النصر والغلبة وأقوي دواعيهم إلى القتال، فسمى ذلك كيدا من حيث يخفى عليهم ذلك.

وقوله (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) بأن يمهلهم قليلا وأجرى المصدر على غير لفظه كما قال (أنبتكم من الارض نباتا) (١) و (رويدا) معناه إمهالا يقال: أرودته اروادا وتصغيره رويد. وقال قتادة: معناه قليلا، والمعنى لا تعجل على طلب هلاكهم بل اصبر عليهم قليلا، فان الله يهلكهم لا محالة بالقتل والذل في الدنيا وما ينزل عليهم في الآخرة من أنواع العقاب، وإن ما وعدتك لا يبعد عنهم.

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧ (*)

(٣٢٨)

٨٧ - سورة الاعلى مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (سبح اسم ربك الاعلى (١) الذي خلق فسوى (٢) والذي قدر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غثاء أحوى (٥) سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧)

ونيسرك لليسرى (٨) فذكر إن نفعت الذكرى (٩) سيذكر من يخشى) (١٠) عشر آيات.
قرأ الكسائي وحده (قدر فهدي) خفيفا. الباكون بالتشديد وهما لغتان على ما فسرناه فيما مضى.
هذا امر من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) ويدخل في ذلك جميع امته يأمرهم بأن يسبحوا
الله، ومعناه ان ينزهوه عن كل ما لا يليق به من الصفات المذمومة والافعال القبيحة والاخلال
بالواجبات، لان التسبيح هو التنزيه لله عما لا يجوز عليه كوصفه بأنه لا إله إلا هو، فينفي ما
لا يجوز في صفته من شريك في عبادته مع الاقرار بأنه

(٣٢٩)

لا إله إلا هو وحده. وقال ابن عباس وقتادة: معنا (سبح...) قل سبحان ربي الاعلى، وروي
أنه لما نزلت هذه السورة، قال النبي (صلى الله عليه وآله) ضعوا هذا في سجودكم وقيل: معناه أن
نزه اسم ربك بأن لاتسمى به سواه. وقيل: معناه نزه ربك عما يصفه به المشركون وأراد
بالاسم المسمى، وقيل معناه صل باسم ربك الاعلى.

وقيل: ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمى، كما قال الشاعر:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (١)

والاعلى معناه القادر الذي لا قادر أقدر منه. وصفة الاعلى منقولة إلى معنى الاقدر حتى لو
بطل معنى علو المكان لم يبطل أن يفهم بحقيقتها او هي غير مضمنة بغيرها ولم ينقل إلى
صفة الارتفاع وإنما يعرف في رفعة المكان.

وقوله (الذي خلق فسوى) نعت لقوله (ربك) وموضعه الجر ومعناه الذى خلق الخلق فسوى
بينهم في باب الاحكام. وقيل: معنا فسوى أي عدل خلقهم، فالتسوية الجمع بين الشئيين بما هما
فيه (والذى قدر فهدي) فالتقدير تنزيل الشئ على مقدار غيره، فانه تعالى خلق الخلق وقدرهم
على ما اقتضته الحكمة (فهدي) معناه أرشدهم إلى طريق الرشده من الغي، وهدى كل حيوان
إلى ما فيه منفعة ومضرته حتى انه تعالى هدى الطفل إلى ثدي أمه وميزه من غيره، واعطى
الفرخ حتى طلب الرزق من أبيه وأمه. والعصفور على صغره يطلب مثل ذلك بهداية الله
تعالى له إلى ذلك (والذي اخرج المرعى) معناه الذى أنبت الحشيش من الارض لمنافع جميع
الحيوان (فجعله غناء أحوى) فالغناء ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش
والنبات. والاحوى الاسود، والحوة السوداء قال ذو الرمة:

(١) مر في ٥ / ٥٦٩ (ج ١٠ م ٤٢ من التبيان) (*)

(٣٣٠)

لمياء في شفتيها حوة لعس * وفي اللثات وفي أنيابها شنب (١)
وقيل: أحوى معناه يضرب إلى السواد وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير وتقديره الذي أخرج
المرعى أحوى، فجعله غثاء، وقيل: الغثاء الهشيم اليابس المتفتت اسود من احتراقه بعد
خضرته ونعمته، قال ذو الرمة:

فرخاء حواء أشرطية وكفت * فيها الذهاب وحفتها البراعيم (٢)
وقوله (سنقرئك فلا تنسى) معناه سنأخذ عليك قراءة القرآن، فلا تنسى ذلك، فالاقراء اخذ
القراءة على القاري بالاستماع لتقويم الزلل، والقراءة التلاوة والقاري التالي، والنسيان ذهاب
المعنى عن النفس بعد ان كان حاضرا لها، ونقيضه الذكر، ومثله السهو، يقال: نسي ينسى
نسيانا فهو ناس، والشئ منسي.

والتذكير لما نسي والتنبية لما غفل. وقيل (فلا تنسى إلا ما شاء الله) أي ما شاء نسيانه مما لا
يكلفك القيام بأدائه، لان التكليف مضمن بالذكر. وقيل: إلا ما شاء الله كالاستثناء في الايمان،
وإن لم يقع مشيئة النسيان وقيل: معناه إلا ما شاء الله.

أن يؤخر انزاله. وقال الفراء: لم يشأ الله أن ينسى شيئا فهو كقوله (خالدين فيها ما دامت
السموات والارض إلا ما شاء ربك) ولا يشاء. ويقول القائل: لا عطيتك كل ما سألت إلا ما
شئت وإلا أن اشاء أن امنعك، والنية ألا يمنعه، ومثله الاستثناء في الايمان.
وقوله (إنه يعلم الجهر وما يخفى) معناه إن الله تعالى يعلم السر والعلانية، فالجهر رفع
الصوت ونقيضه الهمس، وهو ضعف الصوت أي يحفظ عليك ما جهرت به وما أخفيته مما
تريد أن تعيه، جهر بالقراءة يجهر جهرا. ومنه قوله (ولا تجهر

(١) مر في ١ / ١٥ و ٥ / ٣٠٨ (٢) اللسان والصاح والتاج (ذهب، برعم) (*)

(٣٣١)

بصلاتك ولا تخافت بها) (١).
قوله (ونيسرك لليسرى) أي نسهل لك العمل المؤدي إلى الجنة فاليسرى عبارة عن الجنة هنا،
واليسرى الكبرى في تسهيل الخير بها واليسرى الفعلى من اليسر، وهو سهولة عمل الخير.
وقوله (فذكر) أمر للنبي (صلى الله عليه وآله) أن يذكر الخلق ويعظهم (إن نفعت الذكرى) وإنما
قال ذلك، وهى تنفع لا محالة في عمل الايمان والامتناع من العصيان، كما يقال: سله إن نفع
السؤال أي فيما يجوز عندك، وقيل:

معناه ذكرهم ما بعثتك به قبلوا أولم يقبلوا، فان إزاحة علتهم تقتضي اعلامهم وتذكيرهم وإن لم يقبلوا. وقوله (سيذكر من يخشى) معناه سيتعظ وينتفع بدعائك وذكرك من يخاف الله ويخشى عقابه: لان من لا يخافه لا ينتفع بها. قوله تعالى:

(ويتجنبها الأشقى (١١) الذي يصلي النار الكبرى (١٢))

ثم لا يموت فيها ولا يحيى (١٣) قد أفلح من تزكى (١٤) وذكر اسم ربه فصلى (١٥) بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخره خير وأبقى (١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إيرهيم وموسى) (١٩) تسع آيات.

قرأ أبو عمر ووحمة (بل يؤثرون) بالياء على الخبر عن الغائب. الباقر بالتاء على الخطأ للمواجهين، وأدغم اللام في التاء حمزة والكسائي إلا قتيبة والحلوائي عن هشام في كل موضع.

لما أمر الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) بالذكورة وبين انه ينتفع بها من يخاف عقابه

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١٠ (*)

(٣٣٢)

ذكر - ههنا - يتجنبها أي يتجنب الذكرى الأشقى، فالتجنب المصير في جانب عن الشئ بما ينافي كونه، فهذا الشقي تجنب الذكرى بأن صار بمعزل عنها بما ينافي كونها، فالشقوة حالة تؤدي إلى شدة العقاب ونقيضها السعادة، شقي يشقى شقوة وشقاء وأشقاء الله يشقيه اشقاء عقابه عقابا بكفره وسوء عمله.

ثم بين ان هذا الشقي هو (الذي يصلي النار الكبرى) يعني نار جهنم، ووصفها بالكبرى لان الحاجة إلى اتقائها أشد وذلك من كبر الشأن إذ الكبير الشأن هو المختص بشدة الحاجة اليه أولى باتقائه، فكلما كان اكبر شأنًا فالحاجة اليه أشد. وقال الحسن: النار الكبرى نار جهنم، والنار الصغرى نار الدنيا، وقال الفراء: النار الكبرى التي في الطبقة السفلى من جهنم.

وقوله (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) معناه إن هذا الشقي لا يموت في النار فيتخلص من العذاب، ولا يحيى حياة له فيها لذة، بل هو في ألوان العذاب وفنون العقاف. وقيل: لا يجد روح الحياة. وقوله (قد أفلح من تزكى) معناه قد فاز من تزكى يعني صار زاكيا بأن عمل الطاعات - في قول ابن عباس والحسن - وقال ابو الاحوص وقتادة: يعني من زكى ماله (وذكر اسم ربه) على كل حال (وصلى) على ما أمره الله به. ثم خاطب الخلق فقال (بل

تؤرون الحياة الدنيا) أي تختارون الحياة الدنيا على الآخرة بأن تعملوا الدنيا ولا تعملوا للآخرة، وذلك على وجهين:

أحدهما - يجوز للرخصة. والآخر - محذور معصية الله ثم قال تعالى (والآخرة خير وأبقى) أي منافع الآخرة من الثواب وغيره خير من منافع الدنيا وأبقى، لأنها باقية وهذه فانية منقطعة. وقوله (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) يعني ما ذكره الله وفصله من حكم المؤمن والكافر وما أعد الله لكل واحد من الفريقين مذكور في

(٣٣٣)

كتب الأولين في الصحف المنزلة على إبراهيم والتوراة المنزلة على موسى: وقيل من قوله (قد أفلح من تزكى) إلى آخر السورة هو المذكور فيها، وقيل (من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) فهو ممدوح في الصحف الأولى، كما هو ممدوح في القرآن.

وقيل: كتب الله كلها أنزلت في شهر رمضان فأما القرآن فإنه أنزل لاربع عشرة منه. وفي ذلك دلالة على أن إبراهيم كان قد أنزل عليه كتاب بخلاف قول من ينكر نبوته ويزعم أنه لم ينزل عليه كتاب، ولا يكون نبي إلا ومعه كتاب، حكى ذلك عن النصارى أنهم قالوا: لم يكن إبراهيم نبيا، وإنما كان رجلا صالحا.

٨٨ - سورة الغاشية مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ست وعشرون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم (هل أتيتك حديث الغاشية (١) وجوه يومئذ خاشعة (٢)

عاملة ناصبة (٣) تصلى نارا حامية (٤) تسقى من عين أنية (٥)

ليس لهم طعام إلا من ضريع (٦) لا يسمن ولا يغني من جوع (٧)

وجوه يومئذ ناعمة (٨) لسعيها راضية (٩) في جنة عالية (١٠)

عشر آيات.

(٣٣٤)

قرأ أهل البصرة وأبو بكر عن عاصم (تصلى) بضم التاء على مالم يسم فاعله يعني تصلى الوجوه (نارا حامية) الباقيون بفتح التاء على أن تكون الوجوه هي الفاعلة هذا خطاب من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول له هل أتاك يا محمد ومعناه قد أتاك (حديث الغاشية) قال ابن عباس والحسن وقتادة: الغاشية يوم القيامة تغشى الناس بالاهوال. وقال سعيد بن جبیر: الغاشية النار تغشى وجوه الكفار بالعذاب والشواظ. والغاشية المجللة لجميع الجملة، غشيت تغش غشيانا فهي غاشية، وأغشاها غيرها إغشاء إذا جعلها تغشى. وغشاها تغشية، وتغشى بها تغشيا.

وقوله (وجوه يومئذ خاشعة) معناه إن وجوه العصاة والكفار في ذلك ذليلة خاضعة من ذلك المعاصي التي فعلتها في دار الدنيا. والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه وإنما ذكر الوجوه، لأن الذل والخضوع يظهر فيها.

وقوله (عاملة ناصبة) قال الحسن وقتادة: معناه لم تعمل لله في الدنيا، فاعمالها في النار. وقال قوم: معناه عاملة ناصبة في دار الدنيا بما يؤديها إلى النار، وهو مما اتصلت صفتهم في الدنيا بصفتهم في الآخرة. ومعنى الناصبة والنسبة التعبه وهي التي اضعفها الانتصاب للعمل يقال: نصب الرجل ينصب نصباً إذا تعب في العمل ثم بين تعالى ما يعمل بمن وصفه من ذوي الوجوه، فقال (تصلى ناراً حامية).

أي تلزم الاحراق بالنار الحامية التي في غاية الحرارة و (تسقى) أيضاً (من عين آنية) قال ابن عباس وقتادة: آنية بالغة النهاية في شدة الحر.

وقوله (ليس لهم طعام الا من ضريع) فالضريع نبات تأكله الابل يضر ولا ينفع كما وصفه الله (لا يسمن ولا يغني من رجوع) وإنما يشتبه الامر عليهم فيتوهموا انه كغيره من النبات الذي ينفع، لان المضارعة المشابهة، ومنه أخذ الضرع وقيل: الضريع الشرق. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: هو سم. وقال الحسن:

(٣٣٥)

لا أدري ما الضريع لم أسمع من اصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) فيه شيئاً. وقال قوم: ضريع بمعنى مضرع أي يضرعهم يذلهم. وقيل: من ضريع يضرع آكله في الاعفاء منه لخشونته وشدة كراهته.

ثم بين وجوه المطيعين المؤمنين الذين عملوا الطاعات فقال (وجوه يومئذ ناعمة) أي منعمة في أنواع اللذات (لسعيها راضية) بما أداها اليه من الثواب والجزاء والكرامة جزاء لطاعته التي عملها في الدنيا. وقوله (في جنة عالية) أي في بستان أجنه الشجر على الشرف والجلالة وعلو المكان والمنزلة، بمعنى أنها مشرفة على غيرها من البساتين وهي انزه ما يكون.

قوله تعالى:، (لا تسمع فيها لاغية (١١) فيها عين جارية (١٢) فيها سرر مرفوعة (١٣) وأكواب موضوعة (١٤) ونمارق مصفوفة (١٥)

وزرابي مبثوثة (١٦) أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت (١٧)

وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩)

وإلى الأرض كيف سطحت) (٢٠) عشر آيات.

قرأ (لا يسمع) بالياء المضمومة (فيها لاغية) رفعا على ما لم يسم فاعله لان التأنيث ليس بحقيقي وقد فصل بينهما ب (فيها) ابن كثير وأب وعمرو وريس. وقرأ نافع وحده (لا تسمع) بالتاء مضمومة (لاغية) مرفوعة، لان اللفظ لفظ التأنيث. الباقون بفتح التاء على الخطاب (لاغية) منصوبة، لانها مفعول بها. لما ذكر الله تعالى ان المؤمنين يحصلون في جنة عالية في الشرف والمكان

(٣٣٦)

بين انه (لا يسمع فيها) في تلك الجنة (لاغية) وهي كلمة لا فائدة فيها قال الشاعر:
عن اللغا ورفث التكلم (١)

واللغو واللغا بمنزلة واحدة، ولغي يلغي، ولغا يلغو، والغاه الغاه. وقيل (لاغية) بمعنى ذات لغو، كقولهم نابل ودارع أي ذو نبل ودرع، وتامر ذو تمر قال الحطيئة:
وغررتي وزعمت إنك * لابن باليضف تامر (٢)
وقيل: إنها المصدر مثل العاقية. ويجوز أن يكون نعتا، وتقديره لا يسمع فيها كلمة لاغية والاول أصح، لقوله (لا لغو فيها ولا تأثيم) (٣) وإنم انفى اللاغية عن الجنة، لان في سماع ما لا فائدة فيه ثقلا على النفس، ثم بين أن فيها أيضا أي في تلك الجنة عينا من الماء جارية، لان في العين الجارية متعة ليس في الواقف.

وقوله (فيها سرر مرفوعة) ليرى المؤمن بجلوسه عليها جميع ما حوله من الملك.
وقوله (واكواب موضوعة) أي على حافة العين الجارية، كلما أراد شربها وجدها مملوءة، فالاكواب جمع ركوب، وهي الاباريق التي ليس لها خراطيم، فهي للشراب من الذهب والفضة والجوهر يتمتعون بالنظر اليها بين أيديهم ويشربون بها ما يشتهون من لذيذ الشراب، وهي كأفخر الاكواز التي توضع بين يدي الملوك.

وقيل: الاكواب كالا باريق لاعرى لها ولا خراطيم وهي أنية تتخذ للشراب فاخرة حسنة الصورة. وقوله (ونمارق مصفوفة) قال قتادة: النمارق الوسائد واحدها نمركة وهي الوسادة، وهي تصلح للراحة، ورفع المنزلة. وقوله (وزرابي مبنوثة) فالزرابي البسط الفاخرة واحد هما زربية. وقيل قد سمع (نمرقة) بضم النون والراء وكسرهما

(١) مر في ٢ / ١٣٢، ١٦٤، ٢٣٠ و ٧ / ٣٨ و ٨ / ١٩٣ و ٩ / ١٢٠ (٢) مر في ٨ / ٤٦٨ (٣) سورة ٥٢ الطور آية ٢٣ (*)

(٣٣٧)

ثم نيه تعالى على الأدلة التي يستدل بها على توحيده ووجوب إخلاص العبادة له فقال (أفلا ينظرون) أي أفلا يتفكرون بنظرهم (إلى الأبل كيف خلقت) ويعتبرون بما خلقه الله عليه من عجيب الخلق، ومع عظمه وقوته يذلل الصبي الصغير فينقاد له بتسخير الله ويبركه ويحمل عليه ثم يقوم، وليس ذلك في شئ من الحيوان، بتسخير الله لعباده ونعمته به على خلقه (وإلى السماء) أي وينظرون إلى السماء (كيف رفعت) رفعها فوق الأرض وجعل بينهما هذا الفضاء الذي به قوام الخلق وحياتهم. ثم ما خلقه فيه من عجائب الخلق من النجوم والشمس والقمر والليل والنهار الذي بجميع ذلك ينتفع الخلق وبه يتم عيشهم ونفعهم (والى الجبال كيف نصبت) * أي ويفكرون في خلق الله تعالى الجبال أوتاد الأرض ومسكها لها ولولاها لمادت الأرض بأهلها، ولما صح من الخلق التصرف عليها (وإلى الأرض كيف سطحت) أي وينظرون إلى الأرض كيف بسطها الله ووسعها ولولا ذلك لما صح الانتفاع بها والاستقرار عليها، وهذه نعم من الله تعالى على خلقه لا يوزيها نعمة منعم، ولا يقاربها إحسان محسن فيجب أن يقابل ذلك بأعظم الشكر.

قوله تعالى:

(فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمسيطر (٢٢))

إلا من تولى وكفر (٢٣) فيعذبه الله العذاب الأكبر (٢٤) إن إلينا إيباهم (٢٥) ثم إن علينا حسابهم (٢٦) ست آيات.

قرأ أبو عمرو والكسائي بمسيطر بالسین باختلاف عنهما. الباقون بالصاد إلا حمزة، فإنه أشم الصاد زايًا.

(ج ١٠ م ٤٣ من التبيان)

(٣٣٨)

لما بين الله تعالى الدلالة على وحدانيته ونبه على الاستدلال بها، قال لنبيه محمد صلى الله عليه وآله (فذكر) يا محمد (إنما أنت مذكر) فالتذكير التعريف للذكر بالبيان الذي يقع به الفهم، والنفع بالتذكير عظيم، لانه طريق للعلم بالأمور التي نحتاج إليها وملين القلب للعمل بها، ومذكر يعني بنعم الله تعالى عندهم وما يجب عليهم في مقابلتها من الشكر والعبادة فقد أوضح الله تعالى طريق الحجج في الدين وأكد غاية التأكيد بما لا يسع فيه التقليد بقوله (إنما أنت مذكر) وقوله (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) (١) وقوله (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون) (٢) و (آية لقوم يتفكرون) (٣) و (آية لقوم يذكرون) (٤) و (لايات لاولى الالباب) (٥) وقوله (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (٦) وقوله (وجادلهم بالتى هي احسن) (٧) ومحاجة إبراهيم (عليه السلام) للكافر بربه (٨) وقوله (فاعتبروا يا اولى الابصار) (٩)

وقوله (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (١٠)
وقوله (لست عليهم بمسيطر) فالمسيطر المسلط على غيره بالقهر له يقال تسيطر فلان على فلان، وسيطر إذا تسلط، وعلى وزن مسيطر مبيطر. وقال ابو عبيدة:
لا ثالث لهما من كلام العرب، وقيل: كان هذا قبل فرض الجهاد، ثم نسخ،

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٧ (٣) سورة ١٦ النحل آية ١١، ٦٩ (٤) سورة ١٦ النحل آية ١٣ (٥) سورة ٣ آل عمران آية ١٩٠ (٦) سورة ٢ البقرة آية ١١١ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٤ (٧) سورة ١٦ النحل آية ٢٥ (٨) انظر ٢ / ٣١٦ من هذا الكتاب (٩) سورة ٥٩ الحشر آية ٢ (١٠) سورة ٤٧ محمد آية ٢٤ (*)

(٣٣٩)

ويجوز أن يكون غير منسوخ، لان الجهاد ليس باكره القلوب.
وقوله (إلا من تولى وكفر) قيل في هذا الاستثناء قولان:
احدهما - انه منقطع وتقديره، لكن من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر الثاني - إلا من تولى فانك مسلط عليه بالجهاد، فان الله يعذبه العذاب الاكبر.
وقال الحسن المعنى: إلامن تولى وكفر، فكله إلى الله. وقيل معناه إلامن تولى وكفر فلست له بمذكر، لانه لا يقبل منك، فكذلك لست تذكره.
وقوله (إن الينا إيابهم) فالإياب الرجوع، أب يؤب أوبا وإيابا وتأوب وتأوبا وأوب يؤوب تأويبا، ويقال: أيب إيابا على (فيعل، فيعالا) من الأوب وعلى هذا قرئ في الشواذ (أيابهم) بالتشديد، قال عبيد:
وكل ذي غيبة يؤوب * وغائب الموت لا يؤوب (١)
والمعنى ان مرجع الخلق يوم القيامة - إلى الله فيحاسبهم ويجازي كل واحد منهم على قدر عمله، فحساب الكفار مقدار ما لهم وعليهم من استحقاق العقاب، وحساب المؤمن بيان ما له وعليه حتى يظهر استحقاق الثواب.

(١) مرفي ٦ / ٤٦٨ (*)

(٣٤٠)

٨٩ سورة الفجر مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي ثلاثون آية في الكوفي وتسع وعشرون في البصري واثنان وثلاثون في المدنيين بسم الله الرحمن الرحيم (والفجر (١) وليال عشر (٢) والشفع والوتر (٣) والليل إذا يسر (٤) هل في ذلك قسم لذي

حجر (٥) ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٦) إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد (٨)

وتمود الذين جابوا الصخر بالواد (٩) وفرعون ذي الاوتاد (١٠)
الذين طغوا في البلاد (١١) فأكثرُوا فيها الفساد (١٢) فصب عليهم ربك سوط عذاب (١٣) إن ربك لبالمرصاد (١٤) أربع عشرة آية قرأ حمزة والكسائي وخلف (والوتر) بكسر الواو. الباقر بفتحها وهما لغتان. قال ابو عبيدة: الشفع الزكا والوتر الخسا. وقرأ نافع وابوعمر (يسري)

بياء في الوصل دون الوقف. وقرأ ابن كثير بياء في الوصل والوقف، وكذلك (بالوادي) الباقر بغير ياء في وصل ولا وقف. من أثبت الياء، فلانها الاصل ومن حذفها، فلانها رأس آية والفواصل تحذف منها اليآت.

(٣٤١)

هذا قسم من الله تعالى بالفجر وليال عشر، وقسم منه بالشفع والوتر والليل إذا يسري، وجواب القسم قوله (إن ربك لبالمرصاد) و (الفجر) شق عمود الصبح فجره الله لعباده يفجره فجرا إذا أظهره في أفق المشرق ومبشرا بادبار الليل المظلم وإقبال النهار المضيء، والفجر فجران: احدهما المستطيل، وهو الذي يصعد طولا كذنب السرحان، ولا حكم له في الشرع، والآخر هو المستطير، وهو الذي ينشر في افق السماء، وهو الذي يحرم عنده الاكل والشرب لمن أراد الصوم في شهر رمضان، وهو ابتداء اليوم. وقال عكرمة والحسن: الفجر فجر الصبح. وقوله (وليال عشر) قال ابن عباس والحسن وعبدالله بن الزبير ومجاهد ومسروق والضحاك وابن زيد: وهي العشر الاول من ذي الحجة شرفها الله تعالى ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير واتقاء الشر على طاعة الله في تعظيم ما عظم وتصغير ما صغره، وينالون بحسن الطاعة الجزاء بالجنة. وقال قوم: هي العشر من أول محرم، والاول هو المعتمد. وقوله (والشفع والوتر) قال ابن عباس وكثير من أهل العلم: الشفع الخلق بما له من الشكل والمثل، والوتر الخالق الفرد الذي لا مثل له، وقال الحسن: الشفع الزوج، والوتر الفرد من العدد، كأنه تنبيه على ما في العدد من العبرة بما يضبط لانه من المقادير التي يقع بها التعديل. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفه، ووجه ذلك أن يوم النحر مشفع بيوم نحر بعده، وينفرد يوم عرفه بالموقف وفي رواية أخرى عن ابن عباس ومجاهد ومسروق وابي صالح: أن الشفع الخلق، والوتر الله تعالى. وقال ابن زيد: الشفع والوتر كله من الخلق.

فقال عمران بن حصين: الصلاة فيها شفع وفيها وتر، وقال ابن الزبير: الشفع:

اليومان الاولان من يوم النحر والوتر اليوم الثالث. وفي رواية أخرى عن ابن

(٣٤٢)

عباس: الوتر آدم والشفع زوجته. قال ابو عبيدة: يقال أوترت ووترت.
وقوله (والليل اذا يسري) معناه يسير ظلما حتى ينقضي بالضياء المبتدئ ففي تسييره على
المقادير المرتبة، ومجيئه بالضياء عند تقضيه في الفصول أدل دليل على أن فاعله يختص
بالعز والاقترار الذي يجلب عن الاشباه والامثال.

وقوله (هل في ذلك قسم لذي حجر) أي لذي عقل - في قول ابن عباس ومجاهد وقيادة
والحسن - وقيل العقل الحجر، لانه يعقل عن المقبحات ويزجر عن فعلها، يقال: حجر يحجر
حجرا إذا منع من الشئ بالتضييق، ومنه حجر الرجل الذي يحجر على ما فيه، ومنه الحجر لا
متناعه بصلابته.

وقوله (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد) خطاب من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه
وآله)، وتنبية للكفار على ما فعل بالامم الماضية لما كفروا بوحدانية الله، واعلام لهم كيفية
إهلاكهم. وقيل: عاد الاولى عاد ابن آرم. وقيل: إن (إرم) بلد منه الاسكندرية - في قول
القرطي - وقال المعري: هو دمشق. وقال مجاهد: هم أمة من الامم. وقال قتادة: هم قبيلة من
عاد. وقوله (ذات العماد) قال ابن عباس ومجاهد: ذات الطول من قولهم: رجل معمد إذا كان
طويلا. وقيل ذات عمد للبيات ينتقلون من مكان إلى مكان، للانتجاع - ذكره قتادة - وقال
ابن زيد: ذات العماد في إحكام البنيان. وقال الضحاك: معناه ذات القوى الشداد.
وقال الحسن: العماد الابنية العظام. وقيل: ان (إرم) هو سام بن نوح، وترك صرفه لانه
أعجمي معرفة.

وقوله (التي لم يخلق مثلها في البلاد) يعني في عظم أجسامهم وشدة قوتهم وقوله (وتمود الذين
جابوا الصخر بالوادي) موضع (تمود) جر بالعطف على قوله (بعاد) أي وتمود ولم يجره لانه
أعجمي معرفة، ومعنى (جابوا الصخر) أي

(٣٤٣)

قطعوا الصخر من الجبال بشدة قوتهم، يقال: جاب يجوب إذا قطع قال النابغة:

اتاك ابوليلي يجوب به الدجى * دجى الليل جواب الغلاة غشمشم

قال مجاهد: قطعوا الجبال ببوتا كما قال (وتتحتون من الجبال ببوتا فارهين) (١) وقوله
(وفرعون ذى الاوتاد) قال ابن عباس: معناه ذى الجنود الذين كانوا يشدون أمره. وقال
مجاهد: كان يوتد الاوتاد في ايدي الناس. وقال قتادة: ملاعب كان يلعب له فيها، ويضرب

تحتها بالآوتاد. وقيل: ذى الآوتاد لكثرة الآوتاد التي كانوا يتخذونها للمضارب ولكثرة جموعهم، وكان فيهم أكثر منه في غيرهم، وقيل: إن فرعون كان إذا غضب على الرجل مده بين أربعة آوتاد حتى يموت.

وقوله (الذين طغوا في البلاد) معناه إن هؤلاء الذين ذكرناهم تجاوزوا في الظلم الحد في البلاد، وخرجوا عن حد القلة وفسر ذلك بقوله (فاكثروا فيها الفساد) يعني اكثروا في البلاد الفساد، ثم بين ما فعل بهم عاجلا فقال (فصب عليهم ربك) يا محمد (صلى الله عليه وآله) (سوط عذاب) أى قسط عذاب كالعذاب بالسوط الذى يعرف إلا أنه اعظم، ويجوز أن يكون عنى قست عذاب يخالط اللحوم والدماء كما يخالط بالسوط من قولهم: ساطه يسوطه سوطا فهو سائط قال الشاعر:

أحارث إنا لو تساط دماؤنا * تزايلن حتى لا يمس دم دما (٢)

وقيل: المعنى إنه جعل سوطه الذى ضربهم به انه صب عليهم العذاب. وقوله (إن ربك لبالمرصاد) معناه إن ربك يا محمد لا يفوته شئ من اعمال العباد كما لا يفوت من بالمرصاد. والمرصاد مفعال من رصده يرصده رصدا، فهو راصد إذا راعى ما يكون منه ليقابله بما يقتضيه، وقيل لامير المؤمنين (عليه السلام) اين كان ربنا قبل

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٤٩ (٢) تفسير الشوكاني ٥ / ٤٢٤ (*)

(٣٤٤)

أن يخلق السموات والارض؟ فقال: (أبن) سؤال عن مكان، وكان الله ولا مكان. وقيل لا عرابي: أين ربك يا عرابي؟ ! قال بالمرصاد. وقال ابن عباس معناه إنه يسمع ويرى أعمال العباد. وقال الحسن والضحاك: لبالمرصاد بانصاف المظلوم من الظالم، ومعناه لا يجوزه ظلم ظالم حتى ينصف المظلوم منه.

قوله تعالى:

(فأما الانسان إذا ما ابتليه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن (١٥) وأما إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن (١٦) كلا بل لا تكرمون اليتيم (١٧) ولا تحاضون على طعام المسكين (١٨) وتأكلون التراث أكلا لما (١٩)

وتحبون المال حبا جما (٢٠) كلا إذا دكت الارض دكا دكا (٢١) وجاء ربك والملك صفا صفا (٢٢) وجئ يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى (٢٣) يقول ياليتني قدمت لحياتي (٢٤) فيومئذ لا يعذب عذابه أحد (٢٥) ولا يوثق وثاقه أحد (٢٦) يا أيتها النفس

المطمئنة (٢٧) إرجعي إلى ربك راضية مرضية (٢٨) فادخلي في عبادي (٢٩) وادخلي
جنتي (٣٠)

ست عشرة آية.

قرأ ابن عامر وابوجعفر (فقدر) مشدد الدال. وقرأ ابوعمرو واهل

(٣٤٥)

البصرة (بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث)
ثلاثتهن بالياء. الباقون ثلاثتهن بالتاء. والاول على وجه الخبر عن الذين تقدم ذكرهم من
الكفار. والثاني على وجه الخطاب، وتقديره قل لهم يا محمد (صلى الله عليه وآله). وقرأ اهل
الكوفة (تحاضون) بالتاء والالف. الباقون بغير الف والياء في جميع ذلك مفتوحة يقال:

حضضته وحثثته و (تحاضون) مثل فاعلته وفعالته إلا أن المفاعلة بين إثنين فأكثر وقرأ
الكسائي ويعقوب (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد)
على ما لم يسم فاعله، والفعل مسند إلى (أحد)، والمعنى لا يعذب عذابه أحد فداء له من
العذاب، لانه المستحق له، فلا يؤخذ بذنب غيره. الباقون بكسر الذال (ولا يوثق) بكسر التاء
وتأويله لا يعذب عذاب الله أحد، ولا يوثق وثاقه احد وهو قول الحسن وقتادة.

لما توعد الله تعالى الكفار وجميع العصاة بما قدمه من الوعيد على المعاصي وأخبرهم بما فعل
بالامم الماضية جزاء على كفرهم. وحكى أنه لبالمرصاد لكل عاص قسم أحوال الخلق من
البشر، فقال (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه) أي اختبره والابتلاء هو إظهار ما في العبد من
خير أو شر من الشدة والرخاء والغنى والفقر حسب ما تقتضيه المصلحة، فان عمل بداعي
العقل ظهر الخير، وإن عمل بداعي الطبع ظهر الشر. ومثل الابتلاء الامتحان والاختبار.

وقوله (فاكرمه ونعمه) معناه أعطاه الخير وأنعم عليه به، والاكرام إعطاء الخير للنفع به على
ما تقتضيه الحكمة إلا إنه كثر فيما يستحق بالاحسان، ونقيض الاكرام الهوان (فيقول) العبد
عند ذلك (ربي أكرمني) أي أنعم علي وأحسن الي. ومن أثبت الياء، فلانها الاصل ومن حذفها
فلانها رأس آية، واجتزأ بكسرة والنون الدالة على حذفها.

(ج ١٠ م ٤٤ من التبيان)

(٣٤٦)

ثم قال (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) أي اختبره بعد ذلك بأن يضيق عليه رزقه قدر
البلغة والاصل القدر، وهو كون الشئ على مقدار، ومنه تقدير الشئ طلب قدره من مقدار
غيره (فيقول) العبد عند ذلك (ربي اهانني) فقال الله تعالى ردا لتوهم من ظن أن الاكرام

بالغنى والاهانة بالفقر بأن قال (كلا) ليس الامر على ما توهمه. وإنما الاكرام في الحقيقة بالطاعة، والاهانة بالمعصية، وقوله (كلا) معناه ليس الامر على ما ظن هذا الانسان الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر - ذكره قتادة - ثم بين ما يستحق به الهوان بقوله (بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين) أي الهوان لهذا، لا لما توهمتم، تقول: حضضته بمعنى حثثته و (تحاضون) بمعنى تحضون فاعلته وفعلته إلا أن المفاعلة بين اثنين فأكثر. وقال الفراء: لا تحاضون بمعنى لا تحافضون، واصله تتحاضون، فحذف إحدى التائين.

وقوله (وتأكلون التراث، أكلا لما) أي جمعا، يقال لممت ما على اهوان ألمه لما إذا أكلته اجمع، والتراث الميراث. وقيل: هو من يأكل نصيبه ونصيب صاحبه. وقوله (وتحبون المال حبا جما) قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: معناه كثيرا شديدا يقال: جم الماء في الحوض إذا أجمع وكثر قال زهير:

فلما وردن الماء زرقا جماعه * وضعن عصي الحاضر المتخيم (١)

وقوله (كلا إذا دكت الارض دكا دكا) معناه التهديد والوعيد الشديد أي حقا إذا دكت الارض بأن جعلت مثل الدكة مستوية لا خلل فيها ولا تلؤل، كما قال (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) (٢) وهو يوم القيامة، فالدك حط المرتفع باليسط، يقال اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره وناقاة دكاء إذا كانت كذلك، ومنه الدكان لاستوائه فكذلك

(١) مر في ٧ / ١٤٣ (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٠٧ (*)

(٣٤٧)

الارض إذا دكت استوت في فراشها فذهبت دورها، وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصحراء الملساء بها. قال ابن عباس: يوم القيامة تمد الارض مدا كالاديم. وقوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) معناه وجاء أمر الله أو عذاب الله وقيل: معناه وجاء جلائل آياته، فجعل مجيئ جلائل الآيات مجيئا له تفخيما لشأنها وقال الحسن: معناه وجاء قضاء الله، كما يقول القائل: جاءت الروم أي سيرتهم. وقال بعضهم: معنى (جاء) ظهر بضرورة المعرفة، كما توصف الآية إذا وقعت ضرورة تقوم مقام الرؤية.

وقوله (والمالك صفا صفا) معناه كصفوف الناس في الصلاة يأتي الصف الاول ثم الصف الثاني ثم الثالث على هذا الترتيب، لان ذلك أشكل بحال الاستواء من التشويش والتخليط بالتعديل في الامور، والتقويم أولى.

وقوله (وجيء يومئذ بجهنم) أي احضرت جهنم ليعاقب بها المستحقون لها ويرى أهل الموقف هو لها، وعظم منظرها. وقوله (يتذكر الانسان) اخبار منه تعالى بأن الانسان يتذكر ما فرط فيه في دار التكليف من ترك الواجب وفعل القبيح ويندم عليه. ثم قال تعالى (وأنى له الذكرى) ومعناه من اين له الذكرى التي كان أمر بها في دار الدنيا، فانها تقوده إلى طريق الاستواء وتبصره الضلال من الهدى، فكأنه قال وأنى له الذكرى التي ينتفع بها، كما لو قيل يتندم وأنى له الندم.

ثم حكى ما يقول الكافر المفرط الجائي على نفسه ويتمناه، فانه يقول (بالييتي قدمت لحياتي) أي يتمنى انه كان عمل الصالحات لحياته بعد موته أو عمل للحياة التي تدوم له، فكان أولى بي من التمسك بحياة زائلة. ثم قال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد) معناه في قراءة من كسر الذال إخبار من الله تعالى أنه لا يعذب عذاب الله

(٣٤٨)

أحد في ذلك اليوم. ومن فتح الذال قال: المعنى لا يعذب عذاب الجائي الكافر الذي لم يقدم لحياته أحد من الناس لانا علمنا أن إبليس أشد عذابا من غيره بحسب إجرامه وإذا أطلق الكلام لقيام الدلالة على ذلك قيل معناه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، لانه المستحق للعذاب ولا يؤاخذ الله أحدا بجرم غيره.

وقوله (ولا يوثق وثاقه) أي لا يشد بالسلاسل والاعلال (أحد) على المعنيين اللذين ذكرناهما. وقوله (يا ايها النفس المطمئنة) قال ابن زيد عن أبيه: إن النفس المطمئنة التي فعلت طاعة الله وتجنبت معاصيه تبشر عند الموت ويوم البعث بالثواب والنعيم. وقيل: ان المطمئنة بالمعرفة لله وبالإيمان به - في قول مجاهد - وقيل:

المطمئنة بالبشارة بالجنة. وقال الفراء: تقديره ياأيتها النفس المطمئنة بالإيمان والمصدقة بالثواب والبعث (ارجعي) تقول لهم الملائكة إذا اعطوهم كتبهم بايمانهم (ارجعي إلى ربك) أي إلى ما اعدده الله لك من الثواب، وقد يجوز أن يقولوا لهم هذا القول يريدون ارجعوا من الدنيا إلى هذا المرجع.

ثم بين ما يقال لها وتبشر به بأنه يقال لها (ارجعي إلى ربك) أي إلى الموضع الذي يختص الله تعالى بالأمر والنهي به دون خلقه (راضية) بثواب الله وجزيل عطائه (راضية) الأفعال من الطاعات، وإنه يقال لها (ادخلي في عبادي) الذين رضيت عنهم ورضيت أفعالهم (وادخلي جنتي) التي وعدتكم بها وأعددت نعيمكم فيها، وروي عن ابن عباس أنه قرأ ادخلي في عبادي بمعنى في جسم عبادي، قال ابن خالويه: هي قراءة حسنة. قال المبرد: تقديره ياأيتها الروح ارجعي إلى ربك فادخلي في عبادي في كل واحد من عبادي تدخل فيه روحه.

(٣٤٩)

٩٠ - سورة البلد مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك، انزلت حين افتتحت مكة وهي عشرون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم (لا أقسم بهذا البلد (١) وأنت حل بهذا البلد (٢) ووالد وما ولد (٣) لقد خلقنا الانسان في كبد (٤) أيعسب أن لن يقدر عليه أحد (٥) يقول أهلكت ما لا لبدا (٦) أيعسب أن لم يره أحد (٧)

ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفنتين (٩) وهدينا النجدين (١٠) عشر آيات.

قرأ أبو جعفر (لبدا) بتشديد الباء. الباقي بالتخفيف.

قوله (لا أقسم) معناه أقسم، ولا صلة، كما قال الشاعر:

ولا ألوم البيض ان لا تسخرا (١)

أي ان تسخر. وقيل: هي ردا لكلام على طريق الجواب، لمن قد ظهر منه

(١) مر في ١ / ٤٥ (*)

(٣٥٠)

الخلاف أي ليس الامر على ما يتوهم. وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى. فاذا أثبت انه اقسام، فلا ينافي قوله (وهذا البلد الامين) لان هذا قسم آخر مثله. وإنما يكون مناقضة لو أراد نفي القسم بقوله (لا اقسام) فأما إذا كان الامر على ما بيناه فلا تنافي بينهما. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: يعني بالبلد مكة.

وقوله (وانت حل بهذا البلد) فمعناه في قول ابن عباس أنه حلال لك به قتل من رأيت حين أمر بالقتال، فقتل ابن حنظل صبوا، وهو أخذ باستار الكعبة ولم يحل لاحد بعده. وبه قال مجاهد وابن زيد والضحاك. وقال عطاء: لم يحل إلا لنبيكم ساعة من النهار. وقال الحسن: معناه وأنت فيه محسن وأنا عنك راض.

وقيل: معناه أنت حل بهذا البلد أي انت فيه مقيم، وهو محل. والمعنى بذلك التنبيه على شرف البلد بشرف من حل فيه من الرسول الداعي إلى تعظيم الله وإخلاص عبادته المبشر بالثواب والمنذر بالعقاب، ويقال: رجل حل أي حلال وقالوا: حل معناه حال. أي ساكن.

وقوله (ووالد وما ولد) قسم آخر بالوالد وما ولد، قال ابن عباس وعكرمة:

المعني بذلك كل والد وما ولد يعني العاقل. وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وسفيان وابوصالح: يعني آدم وولده. وقال ابو عمران الحوي: يعني به إبراهيم (عليه السلام) وولده. وقوله (لقد خلقنا الانسان في كبد) جواب القسم، ومعنى كبد قال ابن عباس والحسن: في شدة. وقال قتادة: معناه يكابد الدنيا والاخرة. قال مجاهد وابو صالح وإبراهيم النخعي وعبدالله بن شداد: معناه في إنتصاب قامة، فكأنه في شدة قوام مخصوص بذلك من سائر الحيوان، قال لبيد:

(٣٥١)

يا عين هلا بكيت أربد إذ * قمنا وقام الخصوم في كبد (١) أي في شدة نصب، فالكبد في اللغة شدة الامر يقال: تكبد اللبن إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد، كأنه دم يغلظ ويشتد، وتكبد الدم إذا صار كالكبد، والانسان مخلوق في شدة أمر بكونه في الرحم. ثم في القماط والرباط. ثم على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، فينبغي له أن يعلم ان الدنيا دار كد ومشقة، وأن الجنة هي دار الراحة والنعمة.

وقوله (ايحسب أن لن يقدر عليه أحد) معناه أيظن هذا الانسان أن لن يقدر على عقابه أحد إذا عصى الله تعالى وارتكب معاصيه فبئس الظن ذلك. وقيل: إنها نزلت في رجل يقال له أبو الاسدين كان من القوة بحيث يقف على أديم عكاظي فيجري العسرة من تحته، فتنقطع ولا يبرح من عليه فقال الله تعالى (أيحسب)

لشدته وقوته (أن لن يقدر عليه احد) ثم حكى ما يقول هذا الانسان من قوله (أهلكت مالا لبدا) قال الحسن: معناه يقول أهلكت مالا كثيرا، فمن يحاسبني عليه، حميق ألم يعلم ان الله قادر على محاسبته، اللبد الكثير الذي قد تراكب بعضه على بعض، ومنه تلبد القطن والصوف إذا تراكب بعضه على بعض، وكذلك الشعر ومنه اللبد ومن قرأ (لبدا) بتشديد الباء، فهو جمع لابد.

وقوله (ايحسب أن لم يره احد) ايظن هذا الانسان انه لم يبصره أحد فيطالبه من اين كسب هذا المال، وفي أي شئ أنفقه - ذكره قتادة - وقيل: معنا ايظن أن لم يره أحد في انفاقه، لانه كاذب.. وقال الحسن: يقول: أنفقت مالا كثيرا فمن يحاسبني عليه. وقيل الايه نزلت في رجل من بني جمح يكنى أبا الاسدين، وكان قويا شديدا.

(١) ديوانه ١ / ١٩ ومجاز القرآن ٢ / ٢٩٩ (*)

(٣٥٢)

ثم نبيه تعالى على وجوه النعمة التي أنعم بها عليه ليستدل بها على توحيدِهِ وخلع الاندادِ دونه بقوله (ألم نجعل له عينين) ليبيصر بهما (ولسانا وشفقتين) لينطق بهما (وهديناه النجدين) ليستدل بهما. وفي ذلك دليل واضح على أنه صادر من مختار لهذه الأفعال التي فعلها بهذه الوجوه، فأحكامها لهذه الأمور، فالمحكم المتقن لا يكون إلا من عالم، وتعليقه بالمعاني لا يكون إلا من مختار، لأنه لا يعلق الفعل بالمعاني إلا في الإرادة. وقال ابن مسعود: وابن عباس: معنى هديناه النجدين: نجد الخير والشر، وبه قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة، وفي رواية عن ابن عباس أنهما الثديان، والنجدان الطريقان للخير والشر. وأصل النجد للعلو ونجد بلد سمي نجد العلو عن انجفاض تهامة، وكل عال من الأرض نجد، والجمع نجود، ورجل نجد بين النجدة إذا كان جلدا قويا، لاستعلائه على قوته، واستجدت فلانا فانجدني أي استعنته على خصمي فأعانني، والنجد الكرب والغم، والنجاد ما على العاتق من حمالة السيف، وشبه طريق الخير والشر بالطريقين العالين لظهوره فيهما. قوله تعالى:

فلا اقتحم العقبة (١١) وما أدريك ما العقبة (١٢) فك رقبة (١٣)

أو إطعام في يوم ذي مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة (١٥) أو مسكينا ذا متربة (١٦) ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة (١٨) والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة (١٩) عليهم نار مؤصدة (٢٠) عشر آيات.

(٣٥٣)

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (فك رقبة أو اطعم في يوم ذي مسغبة) بغير الف على أنه فعل ماض. الباقيون (فك رقبة) على الإضافة ويكون الإضافة إلى مفعول (أو إطعام) فوجه الأول قوله (فلا اقتحم العقبة فك رقبة) الثاني أنه على جواب و (ما أدراك ما العقبة) فيكون الجواب بالاسم وتلخيصه هلا اقتحم العقبة ولا يجوز الصراط إلا من كان بهذه الصفة يفك رقبة أو يطعم يتيما في يوم ذي مسغبة مجاعة، فلا اقتحم بمعنى لم، كما قال (فلا صدق ولا صلى) (١) ومعناه لم يصدق ولم يصل، وإنما لم يكرر (لا) لأن معنا (ثم كان من الذين آمنوا) يدل على أنه لم يقتحم ولم يؤمن، وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص وخلف (مؤصدة) بالهمز. الباقيون بغير همز وهما لغتان، يقال: أصدت الباب أو صده إيصادا فهو مؤصد بالهمز، وأوصدته فهو مؤصد بغير همز. والوصيد الباب من أوصدت.

لما نبه الله تعالى الإنسان على وحدانيته وإخلاص عبادته بقوله (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين) وما فيهما من الدلالة على قدرته وعلمه وأنه هدى الإنسان طريق الخير والشر

ورغبه في اتباع الخير وزجره عن إتباع الشر، قال حائثا له على فعل الخير بقوله (فلا أقتحم العقبة) قال الحسن: عقبة - والله شديدة - مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان، ولم يكرر (لا) في اللفظ، وهي بمنزلة المكرر في المعنى كأنه قال: أفلا اقتحم العقبة وحذف الاستفهام، والمراد به التنبيه، والاحتحام الدخول على الشدة يقال اقتحم اقتحاما، واقحم إقحاما تقم تقحما وقحم تقحما ونظيره الادخال والايلاج. والمعنى هلا دخل في البر على صعوبة كصعوبة اقتحام العقبة، والعقبة الطريقة التي ترتقى على صعوبة. ويحتاج فيها إلى معاقبة الشدة بالتضييق

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٣١ (ج ١٠ م ٤٥ من التبيان) (*)

(٣٥٤)

والمخاطرة، وقيل: العقبة الننتة الضيقة في رأس الجبل يتعاقبها الناس، فشبهت بها العقبة في وجوه البر التي ذكرها الله تعالى. وعاقب الرجل صاحبه إذا صار في موضعه بدلا منه. وقال قتادة: فلا اقتحم العقبة إنها قمة شديدة، فاقتموها بطاعة الله.

وقال أبو عبيدة: معناه فلم يقتحم في الدنيا.

ثم فسر العقبة فقال (وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسغبة) وتقديره إقتحام العقبة فك رقبة، لان العقبة جثة والفك حدث، فلا يكون خبرا عن جثة. قال ابو علي و (لا) إذا كانت بمعنى (لم) لم يلزم تكرارها.

ثم بين تعالى ما به يكون اقتحام العقبة فقال (فك رقبة) فالفك فرق يزيل المنع، ويمكن معه أمر لم يكن ممكنا قبل، فكف القيد والغل، لانه يزول به المنع، ويمكن به تصرف في الارض لم يكن قبل، فكف الرقبة فرق بينها وبين حال الرق بايجاب الحرية وإبطال العبودية. وقوله (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) فالمسغبة المجاعة سغب يسغب سغبا إذاجاع، فهو ساغب قال جرير:

تعلل وهي ساغبة بنيتها * بأنفاس من الشبم القراح (١)

وقوله (يتيما) نصب ب (إطعام) في قراءة من نون نصبه بالمصدر. ومن قرأ على الفعل الماضي نصبه به، فهو مفعول به في الحالين، واليتيم الصبي الذي قد مات ابوه وأمه، والاعلب في اليتيم من الاب في الناس. وقوله (ذا مقربة) معناه ذا قرابة، ولا يقال: فلان قرابتي وإنما يقال ذو قرابتي، لانه مصدر، كما قال الشاعر:

بيكي الغريب عليه حين يعرفه * وذو قرابته في الناس مسرور

وقوله (أو مسكينا) عطف على يتيما. و (ذا متربة) معناه ذا حاجة شديدة

(٣٥٥)

من قولهم: ترب الرجل إذا افتقر - في قول ابن عباس - أيضا ومجاهد، يقال:
أترب الرجل إذا استغنى، وترب إذا افتقر.

وقوله (ثم كان من الذين آمنوا) معناه كان الانسان من جملة المؤمنين إذا فعل ذلك وعقد
الايمان، ثم أقام على إيمانه (وتواصوا) أي وصى بعضهم بعضا (بالصير) على الشدائد
والمحن والمصائب (وتواصوا) أيضا (بالمرحمة) أي وصى بعضهم بعضا بأن يرحموا الفقراء
وذوي المسكنة.

وقوله (أولئك اصحاب الميمنة) معناه إنهم متى فعلوا ذلك كانوا أصحاب الميمنة الذين يعطون
كتابهم بأيمانهم أو يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، والميمنة اليمين والبركة، والمرحمة حال
الرحمة.

وقوله (والذين كفروا بآياتنا) معناه إن الذين يجحدون نعم الله ويكذبون أنبياءه (هم اصحاب
المشأمة) أي ذات الشمال فيؤخذ بهم إلى النار، ويعطون كتابهم بشمالهم، واشتقاقه من الشؤم
خلاف البركة (عليهم نار مؤصدة) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: معناه عليهم نار مطبقة.

(٣٥٦)

٩١ - سورة الشمس مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي خمس عشرة آية في الكوفي
والبصري وست عشرة في المدنيين بسم الله الرحمن الرحيم (والشمس وضحيها (١) والقمر
إذا تليها (٢) والنهار إذا جليها (٣) والليل إذا يغشيها (٤) والسما وما بنيتها (٥) والارض وما
طحيها (٦) ونفس وما سويها (٧) فألهمها فجورها وتقويها (٨)
قد أفلح من زكيتها (٩) وقد خاب من دسيها) (١٠) عشر آيات.

قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم (وضحاها) بفتح أو اخر هذه السورة.

وقرأ الكسائي بامالة ذلك كله. وقرأ ابو عمرو ونافع جميع ذلك بين الكسر والفتح.

وقرأ حمزة (وضحها) كسرا وفتح (تلاها) و (طحاها) فمن فتح، فلانه الاصل، والامالة
تخفيف. وبين بين تخفيف يشعر بالاصل. فأما حمزة فأمال بنات الياء. وفخم بنات الواو.

هذا قسم من الله تعالى بالشمس وضحاها، وقد بينا أن له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه
تتبيها على عظم شأنه وكثرة الانتفاع به، فلما كانت الشمس قد عظم الانتفاع بها وقوام العالم
من الحيوان والنبات بطلوعها وغروبها، جاز القسم

(٣٥٧)

بها، ولما فيها من العبرة بنشئ الضوء حتى تقوى تلك القوة العظيمة باذن الله.
وقوله (وضحا) يعني ضحاها الشمس، وهو صدر وقت طلوعها، وضحى النهار صدر وقت
كونه، قال الشاعر:

أعجلها اقدحي الضحاء ضحى * وهي تناصي ذوائب السلم (١)
وأضحى يفعل كذا إذا فعله في وقت الضحى، ويقال: ضحى بكبش أو غيره إذا ذبحه في وقت
الضحى من ايام الاضحى. ثم كثر حتى قيل لو ذبحه آخر النهار.
وقوله (والقمر إذا تلاها) قسم آخر بالقمر وتلوه الشمس ووجه الدلالة من جهة تلو القمر
للشمس من جهة المعاقبة على أمور مرتبة في النقصان.

والزيادة، لانه لا يزال ضوء الشمس ينقص إذا غاب جرمها، ويقوى ضوء القمر حتى يتكامل
كذلك دائبين، تسخيرا من الله للعباد بما ليس في وسعهم أن يجروه على شئ من ذلك المنهاج.
وقال ابن زيد: القمر إذا اتبع الشمس في النصف الاول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها
القمر بالطلع، وفي آخر الشهر يتلوها في الغروب وقال الحسن (والشمس وضحاها) أي
يضئ نورها (والقمر إذا تلاها) يعني ليلة الهلال. وقيل: تلاها في الضوء.

وقوله (والنهار إذا جلاها) قسم آخر بالنهار إذا جلاها يعني الشمس بضوءها المبين بجرمها.
وقيل معناه إذا جلا الظلمة، فالهاء كناية عن الظلمة، ولم يتقدم لها ذكر لانه معروف غير
ملتبس (والليل إذا يغشاها) قسم آخر بالليل إذا يغشاها يعني الشمس بظلمته عند سقوط الشمس.
وقوله (والسما وما بناها) قال قتادة: معناه والسما وبنائها جعل (ما)

مع ما بعدها بمنزلة المصدر. وقال مجاهد والحسن: معنى والسما وما بناها والسما

(١) قائله النابغة الجعدي اللسان (ضحا) (*)

(٣٥٨)

من بنى السماء وهو الله تعالى. وقوله (والارض وما طحاها) قسم آخر بالارض ما طحاها،
ويحتمل ذلك وجهين:

احدهما - ان يكون المعنى والارض وطحوها.
والثاني - والارض ومن طحاها، وهو الله تعالى ومعنى طحاها بسطها حتى مكن التصرف
عليها. وقال مجاهد والحسن: طحاها ودحاها واحد، بمعنى بسطها يقال طحى يطحو طحوا

ودحا يدحو دحوا وطحا بك عمك. ومعناه انبسط بك إلى مذهب بعيد، فهو يطحو بك طحوا قال علقمة:

طحأ بك قلب في الحسان طروب.

ويقال: القوم يطحي بعضهم بعضا عن الشيء أي يدفع دفعا شديدا الانبساط والطواحي النسور تنبسط حول القتلي، وأصل الطحو البسط الواسع. وقوله (ونفس وما سواها قسم آخر بالنفس وما سواها، وهو محتمل أيضا لامرين: احدهما - ونفس وتسويتها، والثاني - ونفس ومن سواها، وهو الله تعالى. وقال الحسن يعني بالنفس آدم ومن سواها الله تعالى. وقيل: ان (ما) في هذه الايات بمعنى (من)

كما قال (فانكحوا ما طاب لكم) (١) وإنما أراد (من) وقال ابو عمرو بن العلاء: هي بمعنى الذي، وأهل مكة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد: سبحان ما سبحت له بمعنى سبحان من سبحت له.

وقوله (فألهمها فجورها وتقواها، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وسفيان: معناه عرفها طريق الفجور والتقوى ورغبها في التقوى وزهداها في الفجور.

وقال قوم: خذلها حتى اختارت الفجور وألهمها تقواها بأن وفقها لها. وقوله (قد أفلح من زكاها) جواب القسم واللام مقدره، وتقديره لقد أفلح من زكاها أي

(١) سورة ٤ النساء آية ٣ (*)

(٣٥٩)

من زكى نفسه بالصدقة، وقد خاب من دساها وأخفى عن التصديق، والمعنى قد أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح أو اجتناب المعصية - وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - وقال قوم: معناه قد أفلح من زكى الله نفسه، وقد خاب من دساها نفسه وقوله (وقد خاب من دساها) معناه قد خاب أي خسر من دس نفسه في معاصي الله منهمكا في القبائح التي نهاه الله عنها. وقيل: معناه دساها بالبخل، لان البخل يخفي نفسه ومنزلة لئلا يطلب نائله، ودسا نفسه نقيض زكاها بالعمل الصالح، وكذلك دساها بالعمل الفاسد حتى صيرها في محاق وخسران. ويقال دسا فلان يدسو دسوا ودسوة فهو داس نقيض زكا يزكو زكا فهو زاك. وقيل معنى دساها أي دسها، بمعنى حملها ووضع منها بمعصية. وأبدل من أحدى السنين ياء، كما قالوا تظنيت بمعنى تظننت قال الشاعر:

تقضي البازي إذا الباري كسر (١)

بمعنى تقضض.

قوله تعالى:

(كذبت ثمود بطغويها (١١) إذ انبعث أشقيها (١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقيتها (١٣) فكذبوه فعقروها (١٤) فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسويها (١٥) ولا يخاف عقبيها) (١٦) ست آيات قرأ أهل المدينة وابن عامر (فلا يخاف) بالفاء وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام. الباقرن بالواو، وكذلك في مصاحفهم.

يقول الله تعالى مخبرا عن ثمود وهم قوم صالح (كذبت ثمود بطغواها) قال

(١) مر في ١ / ٢٨٦ و ٧ / ٣٥٨ و ٨ / ١٤٦ (*)

(٣٦٠)

ابن عباس: يعني بعذابها أي بعذاب الطاغية فأناها ما كذبت به. وقال مجاهد: بمعصيتها - وهو قول ابن زيد - وهو وجه التأويل، والطغوى والطغيان مجاوزة الحد في الفساد وبلوغ غايتها، تقول: طغى يطغي إذا جاوز الحد، ومنه قوله (لما طغى الماء) (١) أي لما تجاوز المقدار على ما جرت به العادة وكثر. وقوله (إذا انبعث أشقاها) أي كان تكذيبها حين انبعث أشقى ثمود، وقيل اسمه قدار بن سالف.

وقال قوم: عقر الناقة الناقة هو تكذيبهم. وقيل: لأن، بل هو غيره. وقيل: كانوا أقروا بأن لها شربا ولهم شرب غير مصدقين بأنه حق. والشفاء شدة الحال في مقاساة الآلام، فالاشقا هو الاعظم شقاء، ونقيض الشقاء السعادة، ونقيض السعود النحوس يقال: شقي يشقى شقاء، فهو شقي نقيض سعيد، واشقاها الله اشقاء.

وقوله (فقال لهم رسول الله) يعني صالحا، فانه قال لهم: ناقة الله وتقديره فاحذروا، ناقة الله، فهو نصب على الاغراء كما تقول: الاسد الاسد، أي احذره (وسقياها) فالسقاء الحظ من الماء. وهو النصيب منه، كما قال تعالى (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) (٢) والسقي التعريض للشرب.

وقوله (فكذبوه) أي كذب قوم صالحا ولم يلتفتوا إلى قوله (فعقروها)

يعني الناقة. فالعقر قطع اللحم بما يسيل الدم عقره يعقره عقرا فهو عاقر، ومنه عقر الحوض وهو أصله، والعقر نقض الشيء عن أصل بنية الحيوان، وعاقر الناقة أحمر ثمود، وهم يروه وكلهم رضوا بفعله. فعمهم البلاء بأن عاقبهم الله تعالى لرضاهم بفعله. وقوله (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) معناه أهلكهم الله تعالى عقوبة على ذنوبهم من تكذيب صالح وعقر الناقة.

وقيل: معنى دمدم عليهم دمر

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٥٥ (*)

(٣٦١)

عليهم. وقيل: معناه أطبق عليهم بالعذاب يقال دمدمت على الشئ إذا ضيقت عليه، وناقاة دمدمة قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الاطباق قلت دمدمت. وقيل (دمدم عليهم) أي غضب عليهم، فالدمدمة ترديد الحال المتكرهه، وهي مضاعفة ما فيه المشقة، فضاعف الله تعالى على ثمود العذاب بما ارتكبوا من الطغيان.

وقوله (فسواها) أي جعل بعضها على مقدار بعض في الاندكاك واللصوق بالارض، فالتسوية تصيير الشئ على مقدار غيره.

وقوله (ولا يخاف عقابها) قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: معناه لا يخاف الله تعالى تبعة الدمدمة. وقال الضحاك: معناه لم يخف الذي عقرها عقباها والعقبي والعاقبة واحد، وهو ما أدى اليه الحال الاولى، قال ابو علي: من قرأ بالفاء فللعطف على قوله (فكذبوه فعقروها) فلا يخاف كأنه تبع تكذيبهم عقروهم أي لم يخافوا. ومن قرأ (ولا) بالواو جعل الجملة في موضع الحال، وتقديره فسواها غير خائف عقباها أي غير خائف أن يتعقب عليه في شئ مما فعله.

(ج ١٠ م ٤٦ من التبيان)

(٣٦٢)

٩٢ - سورة الليل مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي إحدى عشرون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والانثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥)

وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨)

وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا تردى (١١) إن علينا

للهدى (١٢) وإن لنا للاخرة والاولى) (١٣)

ثلاث عشرة آية.

هذا قسم من الله تعالى بالليل إذا غشية الظلام، فاطلم وادلهم وغشى الانام لما في ذلك من الهول المحرك للنفس بالاستعظام.

ثم اقسام بالنهار إذا تجلى، ومعناه إذا أثار وظهر للابصار لمافى ذلك من الاعتبار. وقيل للتقدير والليل إذا يغشى النهار، فيذهب بضوئه (والنهار إذا تجل) أي جلى الليل، فأذهب

ظلمته، ذكره الحسن. والغشي إلياس الشئ ما يغمر ويستتر جملته، وإنما كرر ذكرهما في السورتين لعظم شأنهما، وجلالة موقعهما في باب

(٣٦٣)

الدلالة على توحيد الله - ذكره قتادة - .

وقوله (وما خلق الذكر والانثى) للتنازل بينهما. ويحتمل أن يكون المراد ومن خلق الذكر والانثى، وفي قراءة عبدالله (والذي خلق الذكر والانثى)

لان (ما) بمعنى الذي، وهو الله، فيكون القسم بالله. وعلى الاول يكون القسم بخلق الله. وقيل: المراد بالذكر والانثى آدم وحواء (عليهما السلام).

وقوله (إن سعيكم لشتى) جواب للقسم، ومعناه إن سعيكم لمختلف، فسعي المؤمن خلاف سعي الكافر. ومعنى (شتى) أي متفرق على تباعد ما بين الشئئين جدا، ومنه شتان أي بعد ما بينهما جدا كبعد ما بين الثرى والثريا. ويقال: تشتت أمر القوم وشتتهم ريب الزمان.

وقوله (فاما من اعطى واتقى) معناه من أعطى حق الله واتقى محارم الله - ذكره قتادة - (وصدق بالحسنى) قال ابن عباس وعكرمة: وصدق بالخلف.

وقال الضحاك: صدق بتوحيد الله، وقال مجاهد والحسن: يعني صدق بالجنة. وقال قتادة: بوعد الله، والحسنى النعمة العظمى بحسن موقعها عند صاحبها، وهذه صفة الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين وحرمها من كذب بها.

وقوله (فسنيسره لليسر) معناه يسهل عليه الامر، فالتيسير تصيير الامر سهلا. ومثله التسهيل والتخفيف، ونقيض التيسير والتعسير وهو تصيير الامر صعبا.

واليسير نقيض العسير، يقال: أيسر إذا كثر ماله ويوسر ايسارا. وتقديره فسنيسره للحال اليسرى، فلذلك أنت فحال اليسير اليسرى، وحال العسير العسرى والتيسير لليسرى يكون بأن يصيرهم إلى الجنة، والتيسير للعسرى بأن يصبرهم إلى النار. ويجوز أن يكون المراد بالتمكين من سلوك طريق الجنة، والتمكين من سلوك طريق النار. ومعناه إننا لسنا نمنع المكلفين من سلوك أحد الطريقين ولا نضطرهم

(٣٦٤)

اليه، وإنما نمكنهم بالاقرار عليهما ورفع المنع، والترغيب في احداهما، والتزهيد في الاخرى. فان احسن الاختيار اختار ما يؤديه إلى الجنة. وإن أساء فاختر ما يؤد به إلى النار فمن قبل نفسه أتى.

وقوله (وأما من بخل واستغنى) يعني به من منع حق الله الذي أوجب عليه من الزكاة والحقوق الواجبة في ماله، واستغنى بذلك وكثر ماله، فسنيسره للعسرى يعني طريق النار. وقد بينا كيفية تيسير الله لذلك من التمكين أو التصيير فلا حاجة لا عادته. والعسرى البلية العظمى بما تؤدي إليه، ونقيضها اليسرى، وهو مأخوذ من العسر واليسر، فحال العسر العسرى وحال اليسر اليسرى، ومذكره الايسر، والامر الاعسر. وقال الفراء: المعنى فسنيسره للعود إلى الصالح من الاعمال ونيسره من الاعمال للعسرى على مزوجة الكلام. والاولى أن تكون الايتان على عمومهما في كل من يعطي حق الله، وكل من يمنع حقه، لانه ليس - ههنا - دليل قاطع على أن المختص بها إنسان بعينه، وقد روي أنها نزلت في أبي الدحداح الانصاري، وسمرة بن حبيب، ورووا في ذلك قصة معروفة. وروي في غيره وقوله (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) معناه أي شئ يغني عن هذا الذي بخل بماله، ولم يخرج حق الله منه (إذا تردى) يعني في نار جهنم - في قول قتادة وابي صالح - وهو المروي عن ابي جعفر (عليه السلام). وقال مجاهد: معناه إذا مات.

وقال قوم: معناه (إذا تردى) في القبر أي شئ يغنيه. وقيل (إذا تردى) في النار فما الذي يغنيه.

وقوله (إن علينا للهدى قال قتادة: معناه إن علينا لبيان الطاعة من المعصية وقيل في قوله (إن علينا للهدى) دلالة على وجوب هدى المكلفين إلى الدين، وإنه

(٣٦٥)

لا يجوز إضلالهم منه. وقوله (وإن لنا للآخرة) معناه الاخبار من الله بأن له دار الآخرة والجزاء فيها على الاعمال، والامر والنهي ليس لاحد سواه، لان دار الدنيا قد ملك فيها أقواما التصرف، وقوله (والاولى) معناه وإن لنا الاولى ايضا يعني دار الدنيا فانه الذي خلق الخلق فيها، وهو الذي مكنهم من التصرف فيها وهو الذي ملكهم ما ملكهم، فهي ايضا ماله على كل حال.

قوله تعالى:

(فأنذرتكم نارا تلتظى (١٤) لا يصلحها إلا الاشقى (١٥)

الذي كذب وتولى (١٦) وسيجنبها الاثقى (١٧) الذي يؤتي ماله يتزكى (١٨) وما لاحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الاعلى (٢٠) ولسوف يرضى (٢١) ثمان آيات. قوله (فأنذرتكم نارا تلتظى) وعيد من الله تعالى للمكلفين. تقول خوفتم المعاصي التي تؤدبكم إلى نار تلتظى.

وقرأ ابن كثير (نارا تلظى) بتشديد التاء ادغم احدى التاعين في الاخرى، لان الاصل تتلظى. وقيل: انه ادغم نون التتوين في التاء. الباقيون بالتخفيف فحذفوا احدى التاعين. والتلظى تلهب النار بشدة الايقاد تلظت النار تتلظى تلظيا ولظى اسم من اسماء جهنم. وقوله (لا يصلها إلا الاشقى الذى كذب) وقصر عما أمرته كما تقول: لقي فلان العدو فكذب: إذا نكل ورجع - ذكره الفراء - فكأنه كذب في الطاعة أى لم يتحقق. وقال المفسرون فيها قولان:

(٣٦٦)

احدهما - الانذار بنار هذه صفتها، وهي درك مخصوص من أدراك جهنم فهي تختص هذا المتوعد الذى كذب بآيات الله وجدد توبيخه (وتولى) عنها بأن لم ينظر فيها أو رجع عنها بعد أن كان نظر فيها فصار مرتدا. والثاني محذوف لما صحبه من دليل الاي الاخر، كأنه قال ومن جرى مجراه ممن عصى فعلى هذا لا متعلق للخوارج في أن مرتكب الكبيرة كافر. وقوله (وسيجنبها الاتقى) معناه سيبعد من هذه النار من كان اتقى الله باجتناب معاصيه (الذي يؤتي ماله) أي يعطي ماله (يتزكى) يطلب بذلك طهارة نفسه، فالتجنب تصيير الشئ في جانب عن غيره، فالاتقى يصير في جانب الجنة عن جانب النار يقال: جنبه الشر تجنيبا وتجنب تجنبا وجانبه مجانبة، ورجل جنب، وقد اجنب إذا أصابه ما يجانب به الصلاة حتى يغتسل. وقوله (وما لاحد عنده من نعمة تجزى) معناه ليس ذلك ليد سلفت تكافي عليها ولا ليد يتخذها عند أحد من العباد، وقوله (إلا ابتغاء وجه ربه الاعلى) معناه بل إنما فعل ذلك طلب رضوان الله، وذكر الوجه طلبا لشرف الذكر. والمعنى إلا ابتغاء ثواب الله وطلب رضوانه. وقوله (ولسوف يرضى) معناه إن هذا العبد الذي فعل ما فعله لوجه الله سوف يرضى بما يعطيه الله على ذلك من الثواب وجزيل النعيم يوم القيامة.

(٣٦٧)

٩٣ - سورة الضحى مكية في قول ابن عباس الضحاك، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (والضحى) (١) والليل إذا سجي (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣) وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥) ألم يجدك يتيما فأوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر (٩) وأما السائل فلا تنهر (١٠) وأما بنعمة ربك فحدث (١١) إحدى عشرة آية. روي أن عروة ابن الزبير قرأ (ما ودعك ربك بالتخفيف من قولهم:

ودع يدع أي ترك يترك، وهو قليل، لان سيويوه قال: استغنوا ب (ترك) عن (ودع) فلم يستعملوه. والباقون بالتشديد.

هذا قسم من الله تعالى بالضحى، وهو صدر النهار، وهو الضحى المعروف - في قول قتادة - وقال الفراء: هو النهار كله من قولهم: ضحى فلان للشمس إذا ظهر لها. وفي التنزيل (وإنك لا تظماً فيها ولا تضحى) (١).

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٩ (*)

(٣٦٨)

وقوله (والليل إذا سجي) قسم آخر، وقال الحسن: معنى (سجى) غشي بظلامه وقال قتادة: معنى (سجى) سكن وهذا من قولهم: بحر ساج أي ساكن، وبه قال الضحاك، يقال: سجا يسجو سجوا إذا هدئ وسكن، وطرف ساج قال الاعشى:

فما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم * وبحرك ساج لا يوارى الدعا مصا (١)
وقال الراجز:

يا حبذا القمراء والليل الساج * وطرق مثل ملاء النساج (٢)

وقوله (ما ودعك ربك وما قلى) جواب القسم. وقيل: إنه لما تأخر عنه الوحي خمس عشرة ليلة، قال قوم من المشركين: ودع الله محمدا وقلاه، فانزل الله تعالى هذه السورة تكذيباً لهم وتسلياً للنبي (صلى الله عليه وآله)، لانه كان اغتم بانقطاع الوحي عنه - ذكره ابن عباس وقتادة والضحاك - ومعنى (ما ودعك) ما قطع الوحي عنك، ومعنى (قلى) أبغض - في قول ابن عباس والحسن وابن زيد - والقالي المبغض يقال: قلاه يقلاه قلا إذا ابغضه. والعقل دال على انه لا يجوز ان يقلا الله احدا من أنبيائه، والتقدير ما قلاك، فحذف الكاف لدلالة الكلام عليه، ولان روس الاي بالياء، فلم يخالف بينها، ومثله (فاوى، وفهدى، وفاغنى) لان الكاف في جميع ذلك محذوفة، ولما قلناه.

وقوله (وللاخرة خير لك من الاولى) خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول الله تعالى له إن ثواب الاخرة والنعيم الدائم فيها خير لك من الاولى يعني من الدنيا، والكون فيها لكونها فانية. قال ابن عباس: له في الجنة الف قصر من اللؤلؤ ترابه المسك، وفيه من كل ما يشتهي على اعم الوصف.

(١) تفسير القرطبي ٢٠ / ٩١ وديوانه ١٠٠ (٢) مجاز القرآن ٢ / ٣٠٢ واللسان (سحى) والكامل ٢٠٤ (*)

(٣٦٩)

وقوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وعد من الله له أن يعطيه من النعيم والثواب وفنون النعم ما يرضى النبي (صلى الله عليه وآله) به ويؤثره.

ثم عدد عليه النعمة في دار الدنيا فقال (ألم يجدك يتيما فأوى) ومعناه تقريره على نعم الله عليه حين مات أبوه وبقي يتيما فأواه بأن سخر له عبدالمطلب أولاً، ولما مات عبدالمطلب آواه إلى إبي طالب، وسخره للاشفاق عليه والحنين على حفظه ومراعاته.

وقوله (ووجدك ضالاً فهدى) قيل في معناه أقوال:

أحدها - وجدك لا تعرف الحق فهذاك اليه بأن نصب لك الأدلة وارشدك اليها حتى عرفت الحق، وذلك من نعم الله.

وثانيها - وجدك ضالاً عما أنت عليه الآن من النبوة والشريعة، فهذاك اليها وثالثها - وجدك في قوم ضلال أي فكأنك واحد منهم.

ورابعها - وجدك مضلولا عنك فهدى الخلق إلى الاقرار بنبوتك والاعتراف بصدقك فوجدك ضالاً بمعنى مضلول كما قيل ماء دافق بمعنى مدفوق، وسر كاتم بمعنى مكتوم.

وخامسها - أنه لما هاجر إلى المدينة ضل في الطريق، وضل دليله فأرشدهم الله إلى الطريق الواضح حتى وصلوا فاذا قيل: السورة مكية أمكن أن يقال: المراد بذلك الاستقبال والاعلام له أنه يكون هذا على وجه البشارة له به، ولم يكن فعلاً له معصية، لأنه ليس ذهاباً عما كلف.

وقوله (ووجدك عائلاً فأغنى) فالعائل الفقير، وهو ذو العيلة من غير جدة عال يعيل عيلة إذا كثر عياله وافتقر قال الشاعر:

(ج ١٠ م ٤٧ من التبيان)

(٣٧٠)

وما يدرى الفقير متى غناه * وما يدرى الغني متى يعيل (١)

أي متى يفتقر. وقيل ان ذكر النعم من المنعم يحسن على وجهين:

أحدهما - التذكير للشكر وطلب الزيادة منها فهذا جود وكرم.

والآخر - عند كفر المنعم عليه، فهذا التذكير على الوجه الأول.

وقوله (فأما اليتيم فلا تقهر) أي لا تقهره لظلمه بأخذ ماله فكذلك من لا ناصر له لا تغلظ في أمره، والخطاب متوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وهو نهى لجميع المكلفين وقيل: معناه لا تقهره على ماله.

وقوله (وأما السائل فلا تنهر) فالانتهاز هو الصياح في وجه السائل الطالب للرفد، يقال: نهره وانتهره بمعنى واحد، وهو متوجه إلى جميع المكلفين.

وقوله (وأما بنعمة ربك فحدث) معناه اذكر نعم الله واطهرها وتحدث بها.

وقد قيل: من شكر النعمة الحديث بها.

فان قيل: في هذا ونظائره مما عدده الله على خلقه من النعم وامتثائه عليهم كيف يمنن الله تعالى على خلقه بالنعم وذلك من فعل النجل، لان الواحد منا لو من على غيره بما يسدي اليه كان مقبحا؟ ! قبل: إنما يقبح الامتنان إذا كان الغرض الازراء بالنعم عليه والتفضيل به، فاما إذا كان الغرض تعريف النعمة وتعديدها وإعلامه وجوهها ليقابلها بالشكر فيستحق به الثواب والمدح، فانه نعمة اخرى وتفضل آخر يستحق به الشكر فبطل ما قالوه.

(١) مجاز القرآن ٢ / ٣٠٢ وقد مر في ٣ / ١٠٩ و ٥ / ٢٣٥ (*)

(٣٧١)

٩٤ - سورة الانشراح مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف بسم

الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وزرك (٢)

الذي أنقض ظهرك (٣) ورفعنا لك ذكرك (٤) فان مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا

(٦) فاذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب) (٨) ثمان آيات.

روى اصحابنا ان ألم نشرح من الضحى سورة واحدة لتعلق بعضها ببعض ولم يفصلوا بينهما

ب (بسم الله الرحمن الرحيم) وأوجبوا قراءتهما في الفرائض في ركعة وألا يفصل بينهما.

ومثله قالوا في سورة (ألم ترك كيف) و (الايلاف) وفي المصحف هما سورتان فصل بينهما

ببسم الله.

والمعني بهذه الايات تعداد نعم الله تعالى على النبي (صلى الله عليه وآله) في الامتنان بها عليه

فقال (ألم نشرح لك صدرك) فالشرح فتح الشئ باذهاب ما يصد عن إدراكه فالله تعالى قد فتح

صدر نبيه باذهاب الشواغل التي تصد عن إدراك الحق وتعظيمه بما يجب له. ومنه قول

القائل: أشرح صدري لهذا الامر. وشرح فلان كتاب كذا، ومنه تشريح اللحم إذا فتحه ورققه،

ومنه قوله (أفمن شرح الله صدره

(٣٧٢)

للاسلام) (١) وقال البلخي: كان النبي (صلى الله عليه وآله) ضاق صدره بمغاضبة الجن والانس

له فاتاه الله من آياته ووعدته ما اتسع قلبه لكل ما حمله الله وأمره به. وقال الجبائي:

شرح الله صدره بأن فعل له لطفًا بسنن منه إلى ما كلفه الله وسهل عليه، وكان ذلك ثوابا على

طاعته لا يجوز فعله بالكفار. وعكسه ضيق الصدر كما قيل في قوله (فمن يرد الله أن يهديه

يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (٢) والصدر الموضع الارتفاع الذي فيه القلب، ومنه أخذ صدر المجلس تشبيهاً بصدر الانسان.

وصدرته بكذا إذا جعلته في أول كلامك. والصدر لأن الاوامر تصدر عنه. وصادره إذا اخذ ما يصدر عنه والاصل الانصراف عن الشيء.

وقوله (ووضعنا عنك وزرك) قال الحسن: يعني بالوزر الذي كان عليه في الجاهلية قبل النبوة. وقال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: يعني ذنبك. قالوا:

وإنما وصفت ذنوب الانبياء بهذا الثقل مع انها صغائر مكفرة لشدة اغتمامهم بها وتحسرهم على وقوعها مع ندمهم عليها. وهذان التأويلان لا يصحان على مذهبننا، لأن الانبياء (عليهم السلام) لا يفعلون شيئاً من القبائح لا قبل النبوة ولا بعدها ولا صغيرة ولا كبيرة، فاذا ثبت هذا، فمعنى الآية هو أن الله تعالى لما بعث نبيه وأوحى اليه وانتشر أمره وظهر حكمه كان ما كان من كفار قومه وتتبعهم لاصحابه باذاهم له وتعرضهم إياهم ما كان يغمه ويسؤه ويضيق صدره ويثقل عليه، فزال الله ذلك بأن أعلى كلمته وأظهر دعوته وقهر عدوه. وانجز وعده ونصره على قومه، فكان ذلك من اعظم المنن وأجزل النعم.

فاذا قيل: السورة مكية، وكان ما ذكرتموه بعد الهجرة؟! !

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٢ (٢) سورة ٦ الاععام آية ١٢٥ (*)

(٣٧٣)

قيل: ليس يمنع أن يكون الله أخبره بأن ذلك سيكون فيما بعد ليبشره به ويسليه عما هو عليه فجاء بلفظ الماضي وأراد الاستقبال، كما قال (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) (١) وكما قال (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) (٢) والوزر الثقل في اللغة، ومنه اشتق اسم الوزير لتحمله أقال الملك. وإنما سميت الذنوب أوزارا لما فيها من العقاب العظيم.

وقوله (الذي انقض ظهره) نعت الوزر، ووصفه بأنه انقض ظهره بمعنى أقاله، والانقاض الانتقال الذي ينتقض به ما حمل عليه. أنقض ينقض انقاضا والنقض والهدم واحد، ونقض المذهب إبطاله بما يفسده. وقال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد: معنى انقض أقال، وبغير نقض سفر إذا أقاله السفر.

وقوله (ورفعنا لك ذكرك) قال الحسن ومجاهد وقتادة: معناه إني لا اذكر إلا ذكرت معي يعني ب (لا إله إلا الله محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله)).

وقوله (فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا) يدل على أن التأويل في قوله (ووضعنا عنك وزرك) ما قلناه، لان الله بشره أنه يكون مع العسر يسرا وروي عن ابن عباس أنه قال: لن يغلب عسر واحد يسرين، لانه حمل العسر في الايتين على انه واحد لكونها بالالف واللام، واليسر منكر في تثنية الفائدة، والثاني غير الاول، والعسر صعوبة الامر وشدته، واليسر سهولته.

ثم قال له (فاذا فرغت فانصب) قال ابن عباس: معناه فاذا فرغت من فرضك فانصب إلى ما رغبتك الله فيه من العمل. وقال قتادة: معناه فاذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك في الدعاء. وقال مجاهد: معناه فاذا فرغت من أمر دنياك فانصب إلى عبادة ربك. ومعنى (فانصب) ناصب يقال: ناله هم ناصب أي ذو

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٧ (*)

(٣٧٤)

نصب. ويقال: أنصبتني الهم فهو منصب قال الشاعر:

تعنك هم من أميمة منصب (١)

وقال النابغة:

كليني لهم يا اميمه ناصب (٢)

أي فيه نصب كقوله (عيشة راضية) (٣) أي ذات رضى. والخطاب وإن كان متوجها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فالمراد به جميع المكلفين من أمته، والفراغ انتفاء كون الشئ المضاد

لكون غيره في المحل. ونقيضه الشغل، وهو كون الشيء المضاد في المحل ومنه أخذ شغل الأفعال، ولهذا لا يوصف تعالى بأنه يشغله شيء عن شيء، لأنه تعالى يخترع ما شاء من الأفعال.

وقوله (وإلى ربك فارغب) حدث له على الرغبة في الطلب من الله تعالى دون غيره.

(١) مر في ٨ / ٥٦٧ (٢) مر في ٥ / ٣٦٨ و ٦ / ٩٥ ٣٢٩ و ٨ / ١٢٢، ٥٦٧ (٣) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١
وسورة ١٠١ القارعة آية ٧ (*)

(٣٧٥)

٩٥ - سورة التين مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الامين (٣) لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٦) فما يكذبك بعد بالدين (٧) أليس الله بأحكم الحاكمين) (٨) ثمان آيات.

هذا قسم من الله تعالى بالتين والزيتون، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة:، هو التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر. وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس. قال الفراء: سمعت رجلا من أهل الشام، وكان صاحب تفسير، قال: التين جبال ما بين حلوان إلى همدان، والزيتون الذي يعصر (وطور سينين) هو قسم آخر، وقال مجاهد وقتادة (الطور) جبل. و (سينين)

معناه مبارك، فكأنه قيل: جبل فيه الخير الكثير، لأنه أضافه إضافة تعريف. وقال الحسن: طور سينين هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران (عليه السلام)، فهو عظيم

(٣٧٦)

الشأن. وقيل: سينين بمعنى حسن، لأنه كثير النبات والشجر - في قول عكرمة - وقوله (وهذا البلد الامين) قسم آخر، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وابراهيم: البلد الامين مكة، والامين بمعنى آمن، كما قال الله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا) (١) قال الشاعر:

ألم تعلمي يا اسم ويحك انني * حلفت يمينا لا أخون أميني (٢)

يريد أمني، وقوله (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) جواب القسم قال ابن عباس: خلق الله تعالى الانسان في أحسن تقويم منتصب القامة وسائر الحيوان منكب. وقال الفراء: معناه إننا لنبلغ بالادمي أحسن تقويمه، وهو اعتداله واستواء شبابه، وهو أحسن ما يكون. وقال الحسن

ومجاهد وقتادة: معناه في أحسن صورة والتقويم تصبير الشئ على ما ينبغي أن يكون عليه من التأليف والتعديل، قومه تقويماً فاستقام، وتقوم.

وقوله (ثم رددناه أسفل سافلين) قال ابن عباس وابراهيم وقتادة: معناه إلى ارضل العمر، وقال الحسن ومجاهد وابن زيد: ثم رددناه إلى النار في أقبح صورة ثم استثنى من جملتهم (إلا الذين آمنوا) بالله تعالى واخلصوا العبادة له (وعملوا الصالحات) أي وأضافوا إلى ذلك الاعمال الصالحات، وبين أن من هذه صفته (لهم أجر) أي ثواب على طاعتهم (غير ممنون) أي غير منقوص. وقيل غير مقطوع، وقال مجاهد: غير محسوب، وقيل غير مكرر بما يوذي ويغم. وقوله (فما يكذبك بعد بالدين) معناه أي شئ يكذبك أيها الانسان بعد هذه الحجج بالدين الذي هو الجزاء. وقال قتادة: معناه فمن يكذبك أيها الانسان

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٧ (٢) تفسير القرطبي ٢٠ / ١١٣ (*)

(٣٧٧)

بعدها بالدين الذي هو الجزاء والحساب، وهو قول الحسن وعكرمة. وقوله (أليس الله بأحكم الحاكمين) تقرير للانسان على الاعتراف بأنه تعالى أحكم الحاكمين صنعا وتدبيراً، لانه لا خلل فيه ولا اضطراب يخرج عما تقتضيه الحكمة وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبرة في أن الله يخلق الظلم والفساد. والحكم الخبر بما فيه فائدة بما تدعو اليه الحكمة، فاذا قيل: حكم جائر فهو بمنزلة حجة داحضة مجازاً بمعنى أنه حكم عند صاحبه كما أنها حجة عنده. وليست حجة في الحقيقة. وقيل:

المعنى أي شئ يكذبك بالدين: ويملك على جد الجزاء يوم القيامة وأنا أحكم الحاكمين. وروي عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ (ليس الله بأحكم الحاكمين) قال: سبحانك اللهم بلى. وروى أبوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (إذا قرأ احدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها فليقل: بلى).

(ج ١٠ م ٤٨ من التبيان *)

(٣٧٨)

٩٦ - سورة العلق مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آية في الكوفي والبصري وعشرون في المدنيين بسم الله الرحمن الرحيم (اقرأ باسم ربك الذي خلق (١) خلق الانسان من علق (٢)

إقرأ وربك الاكرم (٣) الذي علم بالقلم (٤) علم الانسان ما لم يعلم (٥) كلا إن الانسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨) أرأيت الذي ينهى (٩) عبدا إذا صلى (١٠)

عشر آيات.

روي عن عائشة ومجاهد وعطاء وابن سيار: ان أول آية نزلت قوله (إقرأ باسم ربك الذي خلق) وهو قول أكثر المفسرين. وقال قوم: أول ما نزل قوله (ياايها المدثر) وقد ذكرناه فيما مضى.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقرأ باسم ربه الذي خلق الخلق، وأن يدعوه بأسمائه الحسنی. وفي تعظيم الاسم تعظيم المسمى، لان الاسم وصف ليذكر به المسمى بما لا سبيل إلى تعظيمه إلا بمعناه، فلهذا لا يعظم اسم الله حق

(٣٧٩)

تعظيمه إلا من هو عارف به ومعتقد العبادة ربه فهو معتقد بتعظيم المسمى لأوجه له يعتد به إلا تعظيم المسمى، ولهذا قال الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الاسماء الحسنی) (١) وقال (فسبح باسم ربك) (٢) وقال الله تعالى (تبارك اسم ربك ذي الجلال والاکرام) (٣) والباء زائدة، وتقديره اقرأ اسم ربك.

وقوله (الذي خلق) في موضع جر، نعت ل (ربك) الذي خلق الخلائق وأخرجهم من العدم إلى الوجود. وقوله (خلق الانسان من علق) تخصيص لبعض ما ذكره بقوله (الذي خلق) لانه يشتمل على الانسان وغيره، وإنما أفرد الانسان بالذكر تشريفا له وتنبیها على ما خصه الله به من سائر الحيوان، وبين أنه مع ذلك خلقه الله من علق، وهو القطعة الجامدة من الدم، وإنما قال (علق) وهو جمع علقه لان المراد بالانسان الجمع، لانه اسم جنس، وسمي به قطع العدم التي تعلق لרטوبتها بما تمر به، فاذا جفت لا تسمى علقا، وواحدھا (علقة) مثل شجرة وشجر. وعلق في معنى الجمع، لان الانسان جمع على طريق الجنس، والنطقة تستحيل في الرحم علقه ثم مضغة ويسمى ضرب من الدود الاسود العلق، لانه يعلق على الشفتين لداء يصيبها فيمتص الدم. وفي خلق الانسان من علق دليل على ما يصح أن ينقلب اليه الجوهر.

وقوله (إقرأ وربك الاكرم) معناه اقرأ القرآن وربك الاكرم ومعنى الاكرم: الاعظم كرما وفي صفة الله تعالى معناه الاعظم كرما بما لا يبلغه كرم، الذي يشيك على عملك بما يقتضيه كرمه، لانه يعطي من النعم ما لا يقدر على مثله غيره، فكل نعمة من جهته تعالى، إما بأن اخترعها أو سببها وسهل الطريق اليها.

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١٠ (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥٢ (٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٧٨ (*)

(٣٨٠)

وقوله (الذي علم بالقلم) (الذي) في موضع رفع، لانه نعت لقوله (وربك) والمعنى إنه تعالى امتن على خلقه بما علمهم من كيفية الكتابة بالقلم، لما في ذلك من كثرة الانتفاع لخلقه، فقد نوه الله بذكر القلم إذ ذكره في كتابه، وقد وصف بعض الشعراء القلم فقال:
لعاب الافانمي القاتلات لعابه * وأري الجنا اشتارته أيد عواسل
وقوله (علم الانسان ما لم يعلم) امتنان من الله تعالى على خلقه بأن علمهم ما لم يكونوا عالمين به إما بخلق العلوم في قلوبهم من الضروريات أو بنصب الأدلة لهم على الوصول إليها فيما لم يعلموه ضرورة، وذلك من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وفي ذلك دلالة على انه تعالى عالم لان العلم لا يقع إلا من عالم.
وقوله (كلا) ردع وزجر وتقديره ارتدعوا وانزجروا معاشر المكلفين، ثم اخبر (إن الانسان ليطغى) ويحتمل أن يكون بمعنى حقا على وجه القسم بأن الانسان ليطغى أي ليجاوز الحد في العصيان والخروج عن الطاعة (أن رآه استغنى)
أي إذا كثرت ماله واستغنى بطر وطغى، وخرج عن الحد الحدود له، ويجوز أن يقال: زيد رآه استغنى من الرؤية بمعنى العلم، ولا يجوز من رؤية العين، زيد (رآه)
حتى تقول رأى نفسه، لان الذي يحتاج إلى خبر جاز فيه الضمير المتصل لطول الكلام بلزوم المفعول الثاني. وقرأ ابو عمرو (رآه) بفتح الراء وكسر الهمزة.
وقرأ نافع وحفص عن عاصم بالفتح فيهما. الباقر بفتح الراء وبعد الهمزة الف على وزن (وعاه) على أمالة الفتحة، وابو عمرو يميل الالف.
ثم قال على وجه التهديد لهم (ان إلى ربك الرجعي) فالرجعي والمرجع والرجوع واحد أي مصيرهم ومرجعهم إلى الله فيجازيهم الله على أفعالهم على الطاعات بالثواب، وعلى المعاصي بالعقاب.

(٣٨١)

وقوله (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى) تقرير للنبي (صلى الله عليه وآله) وإعلام له ما يفعله بمن ينهيه عن الصلاة. وقيل: إن الايات نزلت في أبي جهل بن هشام، والمراد بالعبد في الاية النبي (صلى الله عليه وآله) فان أبا جهل كان ينهى النبي (صلى الله عليه وآله) عن الصلاة وكان النبي (صلى الله عليه وآله) لما قال ابو جهل: ألم انهك عن الصلاة انتهره واغلظ له، فقال أبو جهل، أنا اكثر أهل هذا الوادي ناديا - ذكره ابن عباس وقتادة - والمعنى أرأيت يا محمد (صلى الله

عليه وآله) من فعل ما ذكرناه من منع الصلاة، وينهى المصلين عنها؟ ماذا يكون جزاؤه؟ وما يكون حاله عند الله؟ وما الذي يستحقه من العقاب؟ قوله تعالى:

(أرأيت إن كان على الهدى (١١) أو أمر بالتقوى (١٢)

أرأيت إن كذب وتولى (١٣) ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية (١٥) ناصية كاذبة خاطئة (١٦)

فليدع ناديه (١٧) سندع الزبانية (١٨) كلا لا تطعه واسجد واقترب (١٩) تسع آيات. لما قال للنبي **(صلى الله عليه وآله)** (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى) بين ما ينبغي أن يقال له فإنه يقال له (أرأيت إن كان) هذا الذي صلى (على الهدى) والطريقة الصحيحة (أمر بالتقوى) أي بأن يتقي معاصي الله كيف يكون حال من ينهاه عن الصلاة ويزجره عنها؟ ! ثم قال للنبي **(صلى الله عليه وآله)** (أرأيت إن كذب وتولى) بما يقال له وأعرض عن قبوله. والاصغاء إليه (ألم يعلم بأن الله يرى) أي يعلم ما يفعله ويدرك ما يصنعه، فالهدى البيان عن الطريق المؤدي إلى الغرض الحكمي يقال:

(٣٨٢)

هداه إلى الحق في الدين يهديه هدى، والعمل بالبيان عن طريق الرشد هدى، وكذلك باللطف فيه. والتقوى تجنب ما يؤدي إلى الردى، انتقاء اتقاء وتقوى والاصل وقيا. فابدلت الواو تاء، والياء واوا، لان التاء أحسن أولا من الواو مع مناسبتها بالقرب وإمتناع المخرج، والتقدير أرأيت الذي فعل هذا الفعل ما الذي يستحق بذلك من الله من العقاب. ثم قال على وجه التهديد (كلا لئن لم ينته)

عن هذا الفعل والقول (لنسفعا بالناصية) أي لنغيرن بها إلى حال تشويهه، يقال:

سفعته النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى حال تشويهه، وقيل: هو أن يجرب بناصيته إلى النار، والناصية شعر مقدم الرأس. وهو من ناصى يناصرى مناصاة إذا واصل قال الراجز:

قي يناصرىها بلاد قي (١)

فالناصية متصلة بشعر الرأس. وقوله (ناصية) بدل من (الناصية)

بدل النكرة من المعرفة ووصفها بأنها (كاذبة خاطئة) ومنعاه أن صاحبها كاذب في اقواله خاطئ في أفعاله وأضاف الفعل إليها لما ذكر الخبر بها، وقوله (فليدع ناديه) وعيد للذي قال:

أنا أكثر هذا الوادي ناديا بأن قيل له (فليدع ناديه)

إذا حل عقاب الله به. وقال ابو عبدة: تقديره، فليدع أهل ناديه، كقوله (واسأل القرية) (٢)

والنادى الفناء ومنه قوله (وتأتون في ناديك المنكر) (٣) ثم قال (سندع)

نحن (الزبانية) يعني الملائكة الموكلين بالنار - في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك - وقال ابو عبيدة: واحد الزبانية زبينة، وقال الكسائي واحدهم زبني.
وقال الاخفش: واحدهم زابن. وقيل: زبنية. ويجوز أن يكون اسما للجمع مثل

(١) مر في ٦ / ١١ و ٩ / ٤٧٧، ٥٠٨ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢ (٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٩ (*)

(٣٨٣)

ابابيل، والزين الدفع، والناقة تزبن الحالب أى تركضه برجلها، وقال الشاعر:
ومستعجب مما يرى من أناتنا * ولو زبنته الحرب لم يترمرم
ثم قال (كلا) أى ارتدع وانزجر (فلا تطعه) أى لا تطع هذا الكافر، فانه ليس الامر على ما
يظن هذا الكافر وهو أبوجهل الذى نزلت الايات فيه (واسجد) لله تعالى وأطعه (واقترب) من
ثوابه بطاعته. وقيل: معناه تقرب اليه بطاعته دون الرياء والسمعة. والسجود - هنا - فرض
وهو من العزائم، وهي أربعة مواضع: ألم تنزىل، وحم السجدة، والنجم، وقرأ باسم ربك. وما
عداها في جميع القرآن مسنون ليس بمفروض. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف.

(٣٨٤)

٩٧ - سورة القدر مدنية في قول الضحاك. وقال عطاء الخراساني هي مكية، وهي خمس
آيات بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم (إنا أنزلناه في ليلة القدر (١) وما أدريك ما ليلة القدر (٢)
ليلة القدر خير من ألف شهر (٣) تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر (٤) سلام
هي حتى مطلع الفجر) (٥) خمس آيات قرأ الكسائي وخلف (مطلع الفجر) بكسر اللام على
معنى وقت طلوعه.

الباقون بالفتح على المصدر، وروي عن ابن عباس انه قرأ (من كل أمرئ) بمعنى من
الملائكة. الباقون (من كل أمر) بمعنى الواحد من الامور.

يقول الله تعالى مخبرا انه أنزل القرآن في ليلة القدر، فالهاء كناية عن القرآن، وإنما كنى عما
لم يجر له ذكر، لانه معلوم لا يشتبه الحال فيه. وقال ابن عباس:

أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر. وقال الشعبي: إنا ابتدأنا إنزاله في
ليلة القدر، وليلة القدر هي الليلة التي يحكم الله فيها . يقضي بما يكون في السنة بأجمعها من
كل أمر - في قول الحسن ومجاهد - يقال: قدر الله هذا الامر يقدره قدرا إذا جعله على مقدار
ما تدعو اليه الحكمة. وقيل: فسر الله تعالى ليلة

(٣٨٥)

القدر بقوله (فيها يغرق كل أمر حكيم) (١) وقيل: سميت ليلة القدر لعظم شأنها وجلالة موقعها من قولهم: فلان له قدره الأول أظهر، وليلة القدر في العشر الاواخر من شهر رمضان بلا خلاف، وهي ليلة الافراد بلا خلاف. وقال اصحابنا هي احدى الليلتين إما ليلة احدى وعشرين او ثلاث وعشرين، وجوز قوم: أن يكون سائر ليالي الافراد احدى وعشرين وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين وتسع وعشرين، وجوزوا أيضا تقديهما في سنة وتأخيرها في أخرى، وإنما لم تعين هذه الليلة ليتوفر العباد على العمل في سائر الليالي. والقدر كون الشئ على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان، ففي ليلة القدر تجدد الامور على مقاديرها جعلها الله في الاجال والارزاق والمواهب التي يجعلها الله للعباد، ويقع فيها غفران السيئات ويعظم منزلة الحسنات على ما لا يقع في ليلة من الليالي، فينبغي للعاقل أن يرغب فيما رغبة الله بالمبادرة إلى ما أمر به على ما شرط فيه. والاوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون من الخير الجزيل والنفع الكثير فيها دون غيرها فلما جعل الله تعالى الخير الكثير يقسم في ليلة القدر بما جعله الله فيها من هذا المعنى، ولذلك قال (وما أدراك ما ليلة القدر) تعظيما لشأنها وتفخيما، وانك يا محمد لا تعلم حقيقة ذلك.

ثم بين تعالى ذلك فقال (ليلة القدر خير من الف شهر) والمعنى إن الثواب على الطاعة فيها خير يفضل على ثواب كل طاعة تفعل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر. وقيل إن الله يتفضل على خلقه في هذه الليلة وينعم عليهم بما لا يفعل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر وبما لا يكون مثله في الف شهر وكانت افضل من الف شهر

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤ (ج ١٠ م ٤٩ من التبيان) (*)

(٣٨٦)

ليس فيها ليلة القدر. والشهر في الشرع عبارة عن ما بين هلالين من الايام، وسمي شهرا لاشتهاة بالهلال. وقد يكون الشهر ثلاثين ويكون تسعة وعشرين إذا كانت هلالية، فان لم تكن هلالية فهي ثلاثون. وقوله (تنزل الملائكة والروح فيها) معناه تنزل الملائكة والروح الذي هو جبرائيل بكل أمر في ليلة القدر إلى سماه الدنيا حتى يعلمه أهل سماء الدنيا، فيكون لطفًا لهم وحتى يتصوره العباد ينزل بأمر الله اليها، فتتصرف آمالهم إلى ما يكون منها فيقوى رجاؤهم بما يتجدد من تفضل الله فيها.

وقيل: إن نزولها بالسلامة والخير والبركة إلى تلك الساعة (بإذن ربهم من كل أمر) أي ما ينزلون به كله بأمر الله، ويكون الوقف - ههنا - تاماً على ما قرأ به القراء المشهورون، وعلى ما حكيناه عن ابن عباس وهو قول عكرمة والضحاك: لا يكون تاماً.

وقوله (سلام هي حتى مطلع الفجر) قل هو سلام الملائكة (عليهم السلام) بعضهم على بعض إلى طلوع الفجر. وقيل: معناه سلام هي من الشر حتى مطلع الفجر - ذكره قتادة - وقيل إن فضل الصلاة فيها والعبادات على الف شهر يراد بها إلى وقت طلوع الفجر، وليست كسائر الليالي التي فضلت بالعبادة في بعضها على بعض والمطلع الطلوع، والمطلع موضع الطلوع، وجر (مطلع) ب (حتي) لأنها إذا كانت بمعنى الغاية خفضت الاسم باضمار (إلى) ونصب الفعل باضمار (إلى أن) كقولك:

دخلت الكوفة حتى مسجدها، أي حتى انتهيت إلى مسجدها، والفعل كقولك: أسير حتى ادخلها، بمعنى إلى أن أدخلها.

(٣٨٧)

٩٨ - سورة البينة مدنية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات في الكوفي والمدنيين، وتسع في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة (١) رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة (٢) فيها كتب قيمة (٣) وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة (٤) وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين * حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة (٥) إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية (٦) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية (٧) جزأؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً * رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) (٨) ثمان آيات.

(٣٨٨)

قرأ نافع وابن عامر - في رواية ابن ذكوان (خير البرئية) و (شر البرئية) مهموزتان الباقون بغير همز. من همز جعله من (برأ الله الخلق ببرؤهم) ومنه البارئ ومن لم يهمز يجوز أن يكون خفف. ويجوز أن يكون من البري الذي هو التراب، كما يقال: بغاك من سار إلى القوم البرئ، وروى أبونشيط من طريق القرطي (لمن خشي ربه) بضم الهاء من غير اشباع. الباقون بضم الهاء، ووصلها بواو في اللفظ يقول الله تعالى (لم يكن الذين كفروا

من أهل الكتاب والمشركين منفيين حتى تأتيهم البينة) قال الحسن وقتادة معناه لم يكونوا منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة. وقال قوم: معناه لم يكونوا منفيين من كفرهم أي زائلين. وقيل: معناه لم يكونوا ليتركوا منفيين من حجج الله حتى تأتيهم البينة التي تقوم بها الحجة عليهم وقال الفراء: معناه لم يكونوا منفيين من حجج الله بصفتهم للنبي (صلى الله عليه وآله) أنه في كتابهم وقيل معناه لم يكونوا زائلين من الدنيا، والانفكاك على وجهين: على لا يزال ولا بد لها من خبر وحرف الجحد. ويكون على الانفصال فلا يحتاج إلى خبر ولا حرف جحد، كقولك انفك الشيء من الشيء قال ذو الرمة:

قلايص ما تنفك إلا مناخة * على الخسف أو يرمى بها بلدا قفرا (١)

فجعله الفراء من (انفك الشيء من الشيء) وجعله غيره من (ما يزال) إلا أنه ضرورة. والانفكاك انفصال عن شدة اجتماع. وأكثر ما يستعمل ذلك في النفي كما أن (ما زال) كذلك تقول: ما انفك من هذا الأمر أي ما انفصل منه لشدة ملابسته له والمعنى أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى ومن المشركين يعني عباد الاصنام لا يفارقون الكفر إلى أن تأتيهم البينة يعني الحجج الظاهرة التي يتميز بها الحق من الباطل، وهي من البينونة. وفصل الشيء من غيره

(١) ديوانه ١٧٣ (كمبريج) وروايته (حرج) بدل (قلايص) (*)

(٣٨٩)

فالنبي (صلى الله عليه وآله) حجة وبينة، وإقامة الشهادة العادلة بينة، وكل برهان ودلالة فهو بينة، وقوله (رسول من الله) هو بيان تلك البينة، بينها بأنه رسول من قبل الله ينلو عليهم صحفا مطهرة، يعني في السماء لا يمسه إلا الملائكة المطهرون من الانجاس وقوله (فيها كتب قيمة) معناه في تلك الصحف كتب جمع كتاب (قيمة)

فالقيمة المستمرة في جهة الصواب، فهو على وزن (فيعلة) من قام الأمر يقوم به إذا أجراه في جهة الاستقامة. وقال قتادة: صحفا مطهرة يعني من الباطل وهو القرآن يذكره بأحسن الذكر ويثني عليه بأحسن الثناء.

وقوله (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جائتهم البينة) اخبار من الله تعالى أن هؤلاء الكفار لم يختلفوا في نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) لانهم مجمعين على نبوته بما وجدوه في كتبهم من صفاته، فلما أتاهم بالبينة الظاهرة والمعجزة القاهرة، تفرقوا واختلفوا، فأمن بعضهم وكفر بعضهم. وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إن الكفار خلقوا كفارا في بطون إلهاتهم، لأنه تعالى بين أنهم لم يختلفوا في ذلك قبل مجيء معجزاته وأدلتها، ولا يلزم

على ذلك أن يكون مجيئ الأيات مفسدة من حيث وقع الفساد عندها، لانه ليس حد المفسدة ما يقع عنده الفساد، بل حده ما يقع عنده الفساد ولولاه لم يقع، من غير أن يكون تمكيننا، وههنا المعجزات تمكين فلم يكن مفسدة.

ثم قال تعالى (وما أمروا) أي لم يأمرهم الله تعالى (إلا ليعبدوا الله) وحده ولا يشركوا بعبادته غيره (مخلصين له الدين) لا يخلطون بعبادته عبادة سواه.

وقوله (حنفاء) جمع حنيف، وهو المائل إلى الحق، والحنفية الشريعة المائلة إلى الحق، وأصله الميل، ومن ذلك الاحنف: المائل القدم إلى جهة القدم الأخرى.

وقيل: أصله الاستقامة، وإنما قيل للمائل القدم أحنف على وجه التفاضل (وقوله

(٣٩٠)

(ويقيموا الصلاة) أي يدوموا عليها ويقوموا بحدودها (ويؤتوا الزكاة) المفروضة من أموالهم. ثم قال (وذلك دين القيمة) أي ذلك الذي تقدم ذكره دين القيمة وتقديره ذلك دين الملة القيمة والشريعة القيمة.

وقوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) دليل على فساد مذهب المجبرة: ان الله خلق الكفار ليكفروا به، لانه صرح ههنا أنه خلقهم ليعبدوه. وليس في الآية دلالة على أن أفعال الجوارح من الايمان، ولا من الدين، لانه يجوز أن يكون المراد (وذلك) إشارة إلى الدين، وتقديره والدين بذلك هو دين القيمة، لان من لا يعتقد جميع ذلك ويؤمن بجميع ما يجب عليه فليس بمسلم. وقد تقدم قوله (مخلصين له الدين) ثم قال (وذلك) يعني ذلك الدين (دين القيمة) وليس يلزم أن يكون راجعا إلى جميع ما تقدم، كما لا يلزم على مذهبهم في قوله (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) (١) أن يكون راجعا إلى الشرك، وقتل النفس والزنا، بل عندهم يرجع إلى كل واحد من ذلك، فكذاك - ههنا - وقد أستوفينا ما يتعلق بذلك في كتاب الاصول.

وفي الآية دلالة على وجوب النية في الطهارة، لانه بين تعالى أنه أمرهم بالعبادة على الاخلاص، ولا يمكن ذلك إلا بالنية والقربة، والطهارة عبادة لقوله (صلى الله عليه وآله) (الوضوء شطر الايمان) وما هو شطر الايمان لا يكون إلا عبادة.

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار والمشركين فقال (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) يعني من جحد توحيد الله وأنكر نبوة نبيه وأشرك معه إليها آخر في العبادة (في نار جهنم) معاقبين فيها جزاء على كفرهم (خالدين فيها) أي مؤبدين لا يفنى عقابهم. ثم قال (أولئك هم شر البرية) أي شر الخليقة، والبرية

(٣٩١)

(فعيلة) من برأ الله الخلق إلا أنه ترك فيهما الهمز، ومن همز فعلى الاصل. ويجوز أن يكون (فعيلة) من البري وهو التراب ثم أخبر عن حال المؤمنين فقال (إن الذين آمنوا) بالله وأقروا بتوحيده واعترفوا بنبوة نبيه (وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) أي هم أحسنهم حالة. وإنما أطلق بأنهم خير البرية، لأن البرية هم الخلق، ولا يخلوا أن لا يكونوا مكلفين، فالمؤمن خير منهم لا محالة. وإن كانوا مكلفين: فاما أن يكونوا مؤمنين أو كافرين أو مستضعفين، فالمؤمن خيرهم أيضا لامحالة بما معه من الثواب.

وقوله (جزاءهم عند ربهم) يعني جزاء إيمانهم وطاعتهم عند الله يوفيههم الله يوم القيامة. ثم فسر ذلك الجزاء فقال (جنات عدن) أي بساتين إقامة (خالدين فيها) أي مؤبدين فيها (أبدا رضي الله عنهم) أي رضي أفعالهم (ورضوا عنه)

بما فعل بهم من الثواب. والرضا هو الإرادة، إلا أنها لا تسمى بذلك إلا إذا وقع مرادها، ولم يتعقبها كراهية، فتسمى حينئذ رضا، فأما الإرادة لما يقع في الحال أو فيما يفعل بعد، فلا تسمى رضا، فرضى الله عن العباد إرادته منهم الطاعات التي فعلوها، ورضاهم عنه إرادتهم الثواب الذي فعله بهم، ثم قال (ذلك لمن خشى ربه) أي ذلك الرضا والثواب والخلود في الجنة لمن خاف الله فترك معاصيه وفعل طاعاته.

(٣٩٢)

٩٩ - سورة الزلزال مدنية في قول ابن عباس وقال الضحاك مكية، وهي ثمان آيات في الكوفي والمدني الاول، وتسع آيات في البصري والمدني الاخير بسم الله الرحمن الرحيم (إذا زلزلت الارض زلزالها (١) وأخرجت الارض أنقالها (٢) وقال الانسان مالها (٣) يومئذ تحدث أخبارها (٤)

بأن ربك أوحى لها (٥) يومئذ يصدر الناس أشتاتا * ليروا أعمالهم (٦)

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٨) ثمان آيات.

قرأ عاصم في رواية أبان عنه (خيرا يره وشرا يره) بضم الياء فيهما بمعنى انه يريه غيره. الباقر بفتح الياء بمعنى أنه يراه ويبصره. وقرأ ابن عامر - في رواية هشام - وابن عامر والكسائي عن أبي بكر - بسكون الهاء - في قوله (خيرا يره، وشرا يره) الباقر بالاشباع فيهما. قال ابو علي: الاشباع هو الاصل، وهو الوجه، كما تقول: اكرمهم، وضربهم. وإنما يجوز إسكانها في الشعر. وقد حكى ابوالحسن أنها لغة رديئة فمن سكن فعلى هذه اللغة. وقرأ ابوجعفر من طريق

(٣٩٣)

ابن العلاف وروح - بضم الياء - من غير صلة يواو فيهما وقد بينا الوجه فيه. يقول الله تعالى مخوفا لعباده أهوال يوم القيامة ومنذرا لهم بالآيات الباهرة بأن قال (إذا زلزلت الأرض زلزالها) فالزلزلة شدة الاضطراب بما يهدم البنيان زلزل يزلزل زلزالا، فكأنه مكرر (زل، يزل) للتكثير والتعظيم، والزلزال - بكسر الزاي - المصدر، وبالفتح الاسم. وقال الحسن: زلزلت ورجت ورجفت بمعنى واحد وقوله (وأخرجت الأرض أثقالها) قال ابن عباس ومجاهد: معناه أخرجت موتاها، وأثقال الأرض ما فيها مدفون من الموتى وغيرها، فان الأرض تلفظ بكل ما فيها عند انقضاء أمر الدنيا، وتجديد أمر الآخرة.

وقوله (وقال الانسان مالها) معناه يقول الانسان: أي شئ أصارها إلى هذه الحالة التي ترى بها، يقول الانسان ذلك متعجبا من عظم شأنها وأنه لأمر عظيم لفظت بما فيها، وتخلت من جميع الأمور التي استودعها. وقوله (يومئذ تحدث أخبارها) قيل معناه يظهر بالدليل الذي يجعله الله فيها ما يقوم مقام أخبارها بأن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى، وأنه لا بد من الجزاء وأن الفوز لمن اتقى وأن النار لمن عصى. وقيل: معناه تحدث أخبارها بمن عصا عليها إما بأن يقلبها حيوانا قادرا على الكلام فتتكلم بذلك أو يحدث الله تعالى الكلام فيها، ونسبه إليها مجازا أو يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام فعبر عنه بالكلام، كما قال الشاعر:

امتلا الحوض وقال قطني * مهلا رويدا قد ملات بطني (١)

وقال آخر:

(١) مرفي ١ / ٢٣١ و ٨ / ٨٥، ٣٦٩، ٤٧ و ٩ / ١١١، ٣٦٩ (ج ١٠ م ٥٠ من التبيان) (*)

(٣٩٤)

وقالت له العينان سمعا وطاعة (١) ويقولون عيناك تشهد لسهرك، وغير ذلك مما قد مضى نظائره. وقال ابن مسعود: الأرض تتكلم يومئذ، فنقول أمرني الله بهذا. وقوله (بأن ربك أوحى لها) معناه إن الأرض تحدث بهذا، فنقول: إن ربك يا محمد أوحى إليها.

قال العجاج:

وحى لها القرار فاستقرت (٢)

أي أوحى إليها بمعنى القى إليها من جهة تخفى يقال: أوحى ووحى بمعنى واحد، ثم قال تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) أخبار من الله تعالى بأن ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتا أي مختلفين (ليروا أعمالهم) أي ليجازوا على أعمالهم أو ليريهم الله جزاء أعمالهم.

وقيل: معنى رؤية الاعمال المعرفة بها عند تلك الحال، وهي رؤية القلب، ويجوز أن يكون التأويل على رؤية العين بمعنى ليروا صحائف أعمالهم يقرؤن ما فيها لقوله (وقالوا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها) وقيل ليروا جزاء اعمالهم حسب ما قدمناه. وقيل يرى الكافر حسناته فيتحسر عليها، لأنها محبطة، ويرى المحسن سيئاته مكفرة وحسناته مثبتة ثم قال تعالى على وجه الوعيد (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) قال ابو عبيدة: مثقال ذرة شرا يره أي يرى ما يستحق عليه من العقاب، ويمكن أن يستدل بذلك على بطلان الاحباط، لان عموم الاية يدل أنه لا يفعل شيئا من طاعة أو معصية إلا ويجازي عليها وعلى مذهب القائلين بالاحباط بخلاف ذلك، فان مايقع محبطا لا يجازى عليه ولا يدل على أنه لا يجوز

(١) مرفي ١ / ٣١ و ٦ / ٤٥ و ٨ / ٤٧١، ٤٧٩ (٢) مرفي ٢ / ٥٩ و ٣ / ٨٤ و ٤ / ٦١ و ٦ / ٤٠٣
(*)

(٣٩٥)

أن يعفي عن مرتكب كبيرة، لان الاية مخصوصة بلا خلاف، لانه ان تاب عفى عنه وقد شرطوا أن لا يكون معصية صغيرة، فاذا شرطوا الامرين جاز أن نخص من يعفو الله عنه. ١٠٠ - سورة العاديات مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك: هي مدنية، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم.

(و العاديات ضبحا (١) فالموريات قدحا (٢) فالمغيرات صبحا (٣) فأثرن به نقعا (٤) فوسسن به جمعا (٥) إن الانسان لربه لكنود (٦) وإنه على ذلك لشهيد (٧) وإنه لحب الخير لشديد (٨) أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور (٩) وحصل ما في الصدور (١٠) إن ربهم بهم يومئذ لخبير (١١) إحدى عشرة آية.

قوله (و العاديات ضبحا) قسم من الله تعالى بالعاديات. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطاء: يعني الخيل تضبح ضبحا، فضبحا نصب على المصدر. وقال

(٣٩٦)

عبدالله بن مسعود: يعني الابل، فعلى قول ابن عباس أراد ضبح الخيل في الجهاد والحرب. وقال ابن مسعود: أراد ضبح الابل في طريق الحج. وروي عن علي (عليه السلام) أن المراد به الابل، لانه لم يكن يومئذ خيل للمسلمين. والضبح في الخيل اظهر عند أهل اللغة. وروي عن علي (عليه السلام) أن الضبح في الخيل الحممة عند العدو وقيل الضبح شدة النفس عند العدو.

وضبحت الخيل تضبح ضبحا وضباحا. وقال أبو عبيدة: ضبح وضبح بمعنى واحد أي تمد أضباعها في السير.

وقوله (فالموريات قدحا) معناه المظهرات بسنابكها النار قدحا، يقال: أورى القادح النار يوري أيراء إذا قدح قدحا، وتسمى تلك النار نار الحباب لضعفها، قال النابغة:

تجد السلوقي المضاعف نسبه * ويوقدن بالصفاح نار الحباب (١)
وهو رجل بخيل كانت نارة ضعيفة لئلا براها الاضياف. وقال قتادة والضحاك وعطاء (فالموريات قدحا) الخيل حين توري النار بسنابكها، وقال ابن عباس: هم الذين يورون النار بعد إنصرافهم من الحرب، وقال مجاهد: يعني ابطال الرجال. وقال عكرمة: الاسنة.
وقوله (فالمغيرات صباحا) قال ابن عباس: يعني الخيل في سبيل الله. وقيل: إنما ذكر (صباحا) لانهم كانوا يسيرون إلى العدو ليلا فيأتوهم صباحا، وقيل: إنهم لعزهم أغاروا نهارا. وقيل إنما أقسم بالمغيرات صباحا لعظم شأنها في الغارة على أعداء الله من المشركين ومعناه أمر الغارة عظيم، وإنما القسم تنبيه على عظم الشأن وتأكيدهم للاخبار.
وقوله (فأثرن به نقعا) إخبار منه تعالى أن هذه الخيل تثير الغبار بعدوها

(١) مر في ٦ / ٧١ (*)

(٣٩٧)

وسمي الغبار النقع، لانه يغوص فيه صاحبه كما يغوص في الماء يقال: نقعه ينقعه نقعا، فهو ناعم، واستنقع إستنقعا وانتقع انتقعا. وقال قتادة: النقع الغبار.
وقيل: الهاء في قوله (به) عائد إلى معلوم أي بالمكان أو بالوادي.
وقوله (فوسطن به جمعا) قال قتادة: يعني وسطن بذلك المكان جمع العدو.
وقال مجاهد: يعني جمع الفريقين. وقوله (إن الانسان لربه لكنود) جواب القسم ومعناه - في قول ابن عباس وقتادة والحسن ومجاهد وابن زيد - لكفور، فالكنود الكفور ومنه الارض الكنود التي لا تثبت شيئا، وأصله منع الحق والخير، قال الاعشى:
أحدث لها تحدث لوصلك إنها * كند لوصل الزائر المعتاد (١)
وقيل: إنها سميت كند لقطعها إياها عن سماك.

وقوله (وإنه على ذلك لشهيد) قال الحسن: معناه إن حسن الانسان على ذلك لشاهد. وقال قتادة: تقديره وإن الله على ذلك لشهيد. وقوله (وإنه لحب الخير لشديد) قيل تقديره وإنه لشديد الحب للخير. وقيل: معناه وإنه لشديد الحب للمال، فهو يظلم الناس بمنعه. وقال الحسن: لشديد

معناه لشحیح يمنع منه حق الله. وقال المبرد والربيع: معناه من أجل حب الخير الذي هو المال أو الملك لبخيل ثم قال على وجه التذكير على الانسان والوعيد له (أفلا يعلم) يعني الانسان الذي وصفه (إذا بعثر ما في القبور) معناه اثير ما في القبور وأخرج، ومثله بحثر. وقوله (وحصل ما في الصدور) قال سفيان: معناه ميز الحق من الباطل. وقال غيره: معناه جمع وأبرز.

وقوله (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) اخبار من الله تعالى واعلام لخلقه ان الذي خلقهم ودبرهم في ذلك اليوم بهم لعالم خبير بأحوالهم لا يخفى عليه شئ

(١) مجاز ٢ / ٣٠٧ (*)

(٣٩٨)

من ذلك.

وكان سبب نزول هذه السورة أن النبي (صلى الله عليه وآله) بعث سرية إلى حيين من كنانة واستعمل عليهم أحد النقباء: المنذر بن عمرو الانصاري، فغابت عن النبي (صلى الله عليه وآله) ولم يعلم لها مخبر فانزل الله تعالى السورة وأخبر بحال القوم. ١٠١ - سورة القارعة.

مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي إحدى عشرة آية في الكوفي. وعشر في المدنيين وثمان في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم (ألقارعة) (١) ما القارعة (٢) وما أدريك ما القارعة (٣) يوم يكون الناس كالفرش المبتوث (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥) فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فامه هاوية (٩) وما أدريك ما هي (١٠) نار حامية (١١) إحدى عشر آية. قرأ حمزة ويعقوب (ماهي) بحذف الهاء في الوصل، الباكون بأثباتها، ولم

(٣٩٩)

يختلفوا في الوقف أنه بالهاء. ومعنى (القارعة) البلية التي تفرع القلب بشدة المخافة تقول: قرع يقرع قرعا وهو الصوت بشدة اعتماد، ومنه انشقت القرعة، وتقارع القوم في القتال إذا تضاربوا بالسيوف، وقرع رأسه إذا ضرب في أعلى الشعر حتى يذهب، والقرعة كالضرب بالفال. وقال وكيع: القارعة، والواقعة، والحاقة القيامة.

وقوله (وما أدراك ما القارعة) تعظيم لشأنها، وتفخيم لامرها وتهويل لشدتها. ومعناه وأي شيء القارعة ومعناه إنك يا محمد (صلى الله عليه وآله) لاتعلم كبر وصفها وحقيقة أمرها على التفصيل وإنما تعلمها على طريق الجملة، ثم وصفها الله تعالى فقال (يوم تكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) والمعنى إن القارعة التي وصفها وذكرها تفرع القلوب يوم تكون الناس بهذه الصفة. والفراش الجرات الذي يفرش ويركب بعضه بعضا، وهو غوغاء الجراد - في قول الفراء - وقال ابو عبيدة: هو طير يتفرش وليس بذباب، ولا بعوض. وقال قتادة: الفراش هو هذا الطير الذي يتساقط في النار والسراج. والمبثوث المتفرق في الجهات، كأنه محمول على الذهاب فيها، يقال: بثه بيثه إذا فرقه، وأبثته الحديث إذا ألقته اليه كأنك فرقته بأن جعلته عند اثنين.

وقوله (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) فالعهن الصوف الالوان - في قول أبي عبيدة - قال زهير:

كأن فتات العهن في كل منزل * نزلن به حب الفنا لم يحطم (١)

ويقال: عهن وعهنة. وقيل: إن الخلائق لعظم ما يرونة من الالهوال ويغشاهم من العذاب يهيم كل فريق على وجهه، ويذهب في غير جهة صاحبه.

وقوله (فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية) قال الفراء الموازين

(١) ديوانه ٧٧ (دار بيروت) (*)

(٤٠٠)

والاوزان واحد، يقولون: هل لك في درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك. وقال الحسن: في الاخرة ميزان له كفتان. وهو قول الجبائي واكثر المفسرين. ثم اختلفوا فمنهم من قال: يجعل الله تعالى في احدى الكفتين نورا علامة للطاعات وفي الاخرى ظلمة علامة لمعاصي فأيهما رجح على الاخر حكم لصاحبه به. وقال آخرون: إنما يوزن صحف الاعمال فما فيها الطاعات نجعل في كفة وما فيها المعاصي في كفة أخرى فايهما رجح حكم لصاحبه به. وقال قوم: الميزان عبارة عن العدل ومقابلة الطاعات بالمعاصي، فايهما كان اكثر حكم له به وعبر عن ذلك بالثقل مجازا لان الاعمال أعراض لا يصح وزنها ولا وصفها بالثقل والخفة، قال الشاعر:

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة * عندي لكل مخاصم ميزانه (١)

يريدون كلامه في معارضته، فبين الله تعالى أن من كانت طاعته أكثر كان ثوابه أعظم، فيكون صاحبها (في عيشة راضية) أي مرضية، ففاعل - ههنا - بمعنى المفعول، لان معناه ذو رضا كقولهم (نابل) أي ذو نبل، قال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب * وليل اقاسيه بطئ الكواكب (٢)
أي ذو نصب وقال آخر:

وغررتي وزعمت أنك * لابن بالصيف تامر (٣)
أي ذو لبن وذ وتمر.

وقال مجاهد (ثقلت موازينه) على جهة الميل، ثم بين من كانت معاصيه أكثر وقلت طاعاته (فأمه هاوية) أي مأواه هاوية يعني، جهنم، وإنما سماها

(١) القرطبي ٢٠ / ١٦٦ والشوكاني ٥ / ٤٧٢ (٢) في مر ٥ / ٣٦٨ و ٦ / ٩٥ و ٨ / ١٢٢، ٥٦٧ (٣)
مر في ٨ / ٤٦٨ (*)

(٤٠١)

(أمه) لانه يأوى إليها كما يأوى الولد إلى أمه، وسميت هاوية - لما قال قتادة وابوصالح - من أن المعاصي يهوي إلى أم رأسه في النار.

ثم قال على وجه التفضيم والتعظيم لا مرها (وما أدراك) يامحمد (صلى الله عليه وآله) (ما هيه) أي انك تعلمها على الجملة ولا تعلم تفصيلها وأنواع ما فيها من العقاب.

والهاء في قوله (ما هيه) للسكت إلا أنه اجري الوصل معها مجرى الوقف، ويجوز فيها الحذف، ثم فسر الله تعالى فقال (نار حامية) أي هي نار حامية شديدة الحرارة

١٠٢ - سورة التكاثر مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي ثمان آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (ألهيكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا

سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين (٥) لترون الجحيم (٦) ثم لترونها عين اليقين (٧) ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم (٨) ثمان آيات.

قرأ ابن عامر (ألهاكم) ممدود، وروي عن الكسائي - بهمزتين - والمراد به الانكار (ج ١٠ م ٥١ من التبيان)

(٤٠٢)

وقرأ ابن عامر والكسائي (لترون) مضمومة التاء (ثم لترونها) مفتوحة التاء.

الباقون بالفتح فيهما. قال أبو علي: وجه الضم أنهم يحشرون إليها فيرونها في حشرهم إليها فيرونها، ولذلك قرأ الثانية بالفتح، كأنه أراد لترونها. ومن فتح فعلى أنهم يرونها. وقوله (ثم لترونها) مثل الاول في أنه من إبصار العين. وقيل: إن هذه السورة نزلت في حين من قريش، وهما بنو أسهم وبنو عبد مناف، تفاخروا حتى ذكروا الاموات، فقال الله تعالى مخاطبا لهم (ألهاكم التكاثر) فاللهاء الصرف إلى الله واللهم الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى، يقال: لها يلهو لهوا، ولهى عن الشيء، يلهي لهيا، ومنه قوله (إذا استأثر الله بشئ فآله عنه) والتكاثر التفاخر بكثرة المناقب، يقال: تكاثروا إذا تعادوا ما لهم من كثرة المناقب، والمتفاخر متكبر لانه تطاول بغير حق. فالتكاثر التباهي بكثرة المال والعدد. وقيل: ما زالوا يتباهون بالعز والكثرة حتى صاروا من أهل القبور وماتوا - ذكره قتادة -.

وقوله (حتى زرتم المقابر) فالزيارة إتيان الموضع، كاتيان المأوى في الالغة على غير اقامة، زاره يزوره زيارة، ومنه زور تزويرا إذا شبه الخط في ما يوهم أنه خط فلان وليس به، والمزورة من ذلك اشتقت. وقيل في معناه قولان: احدهما حتى ذكرتم الاموات. وقال الحسن: معناه حتى متم.

وقوله (كلا سوف تعلمون، ثم كلا) معناه ارتدعو وانزجروا (سوف تعلمون) في القبر (ثم كلا سوف تعلمون) بعد الموت - روي ذلك عن علي (عليه السلام) - وقيل إنه يدل على عذاب القبر.

وقوله (كلا لو تعلمون علم اليقين) نصب (علم اليقين) على المصدر، ومعناه ارتدعوا وانزجروا، لو تعلمون علم اليقين، وهو الذي يتلج الصدر بعد اضطراب الشك ولهذا لا بوصف الله بأنه متيقن.

(٤٠٣)

وقوله (لترون الجحيم) يعني قبل دخولهم إليها في الموقف.

وقوله (ثم لترونها) بعد الدخول إليها.

وقوله (عين اليقين) كقولهم هذا محض اليقين. والمعنى إنكم لو تحققتم وتيقنتم أنكم ترون الجحيم وأنكم إذا عصيتم وكفرتم عوقبتم، لشغلكم هذا عن طلب التكاثر في الاموال في الدنيا، ولا يجوز همز واو (لترون) لانها واو الجمع ومثله، واو (لتبلون) لا تهمز. وقوله (ثم لتسئلن) يعني معاشر المكلفين (يومئذ عن النعيم) قال الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. وقال سعيد بن جبير وقتادة: النعيم في المأكول والمشرب وغيرهما من الملاذ. وقال عبدالله بن مسعود ومجاهد: النعيم الصحة. وقال قوم: يسألهم الله عن كل نعمة. والفرق بين النعيم والنعمة أن النعمة كالانعام في التضمين لمعنى منعم، أنعم انعاما ونعمة، وكلاهما يوجب الشكر.

والنعيم ليس كذلك، لانه من نعم نعيما فلو عمل ذلك بنفسه لكان نعيما لا يوجب شكرا. والنعمة - بفتح النون - من نعم - بضم العين - إذا لان. وقيل المعنى (لتسألن يومئذ عن النعيم) عن ولاية علي (عليه السلام). وقيل: عن شرب الماء البارد. وقيل عن الامن والصحة. وقيل عن النورة في الحمام. وروي ذلك عن عمر بن الخطاب.

(٤٠٤)

١٠٣ - سورة العصر مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثلاث آيات بلا خلاف في جملتها وإن اختلفوا في تفصيلها.

بسم الله الرحمن الرحيم.

(والعصر (١) إن الانسان لفي خسر (٢) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (٣) ثلاث آيات.

هذا قسم من الله تعالى بالعصر. قال ابن عباس: المراد بالعصر - ههنا - الدهر. وهو قول الكلبي. وقال الحسن وقتادة: هو العشي وكلاهما فيه العبرة من جهة مرور الليل والنهار. وأصل العصر عصر الثواب ونحوه، وهو فتلته لإخراج مائه، فمنه عصر الدهر، لأنه الوقت الذي يمكن فتل الامور كفتل الثوب.

قال العجاج:

عصرا وحضنا عيشة المعذلجا.

أي الناعم، وقال في العشي:

يروح بنا عمر وقد قصر العصر * وفي الروحة الاولى الغنيمة والاجر (١)
وبه سميت العصر، لأنها تعصر بالتأخير، والعصارة ما يعتصر من العنب.

(١) القرطبي ٢٠ / ١٧٩ والشوكاني ٥ / ٤٨٨ (*)

(٤٠٥)

وغيره، و (المعصرات) السحائب التي تتعصر بالمطر. والاعصار غبار كالعمود يصعد إلى السماء. والعصر الالتجاء إلى الملجأ. والعصر الجارية التي قد دنا بلوغها لأنه عصر شبابها، وانعصار ماء الشباب منها. والاعتصار استخراج المال من الانسان، لأنه ينحلب كما ينحلب ما يعصر. والعصران الغداة والعشي، والعصران الليل والنهار. قال الشاعر:

ولن يلبث العصران يوم وليلة * إذا طلبا ان يدركا ما تيمما (١)

وقوله (إن الانسان لفي خسر) جواب القسم. وفيه اخبار من الله أن الانسان يعنى الكافر (لفي خسر) أي لفي نقصان بارتكاب المعاصي وكفره بالله والخسر هلاك رأس المال للانسان وبارتكاب المعاصي في هلاك نفسه خسران، وهو اكبر من رأس ماله.

وقوله (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) استثناء من جملة الناس المؤمنين المصدقين بتوحيد الله باخلاص عبادته العاملين بالطاعات (وتواصوا بالحق) أي تواصي بعضهم بعضا بأتباع الحق وإجتنب الباطل (وتواصوا بالصبر) تواصي بعضهم بعضا بالصبر على تحمل المشاق

في طاعة الله. وقال الحسن وقتادة: الصبر على طاعة الله. والصبر حبس النفس عما تنازع
إليه من الأمر حتى يكون الداعي إلى الفعل.
وقد أمر الله تعالى بالصبر والتواضع. والحق ما دعا إليه العقل.

(١) القرطبي ٢٠ / ١٧٩ (*)

(٤٠٦)

١٠٤ - سورة الهمزة مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع آيات بلا خلاف بسم الله
الرحمن الرحيم (ويل لكل همزة لمزة (١) الذي جمع مالا وعدده (٢) يحسب أن ماله أخذه
(٣) كلا لينبذن في الحطمة (٤) وما أدريك ما الحطمة (٥) نار الله الموقدة (٦) التي تطلع
على الأفئدة (٧)

إنها عليهم مؤصدة (٨) في عمد ممددة (٩) تسع آيات.

قرأ حمزة والكسائي وخلف وابن عامر وابوجعفر وروح (جمع) بالتشديد على التكثير. الباقر
بالتخفيف، لأنه يقع على القليل والكثير. ومن شدد أراد جمعه من وجوه شتى شيئاً بعد شئ
(وعده) أي جعله عدة. ومن قرأ مخففاً أراد جمع مالا وعدداً أي وقوماً ذوي عدد أنصاراً.
وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً (عمد) بضمّتين جعلوه جمع عمود وعمد، مثل قدوم وقدام، وزبون
وزبن. الباقر بفتح العين والميم، لأنهم قد قالوا في جمع عمود عمد، كما قالوا في جمع أديم
أدم.

وفى جمع أهاب أهب.

هذا وعيد من الله تعالى وتهديد (لكل همزة لمزة) فالهمزة الكثير الطعن

(٤٠٧)

على غيره بغير حق، العائب له بما ليس فيه عيب لجهله وسفهه وشدة إقدامه على مكاره
غيره، يقال: همز الناس يهزمهم همزاً، وهو همزة. ومثله ضحكة أي كثير الضحك وعبية أي
كثير العيب. فكذاك همزة كثير الهمز بالطعن. ومنه الهمزة في الكلام لأنها تخرج كالطعنة
بقوة اعتماد. وقال ابن عباس: الهمزة الطعان. واللمزة المغتاب وقال زياد الأعجم:

تدلي بودي إذا لا قيتني كذبا * وإن تغيبت فانت الهامز للمز (١)

وقال ابن عباس: الهمزة اللمزة المشاء بالنيمة، المفروق بين الاحبة الباغي المبرئ العيب
بالمكابرة. وقيل: نزلت في مشرك بعينه كان يعيب الناس ويلمزهم - ذكره ابن عباس -
وقال قوم: نزلت في الوليد بن المغيرة. وقال السدي:

نزلت هذه السورة في الاخنس ابن شريق، وكان يهمز النبي (صلى الله عليه وآله) ويلمزه. وقيل: نزلت في جميل بن عامر الجهني. وقال مجاهد وورقاء وابن عباس: ليست خاصة لاحد بل هي عامة.

وقوله (الذي جمع مالا وعدده) نعت للهمزة الذي تقدم ذكره في أنه يجمع المال ويحبه، ولا يخرج حق الله منه.

وقوله (يحسب أن ماله أخذه) معناه يظن هذا الذي جمع المال، ولا يخرج حق الله منه أنه سيخلده. وقوله (أخلده) يخلده كما قيل أهلك إذا حدث به سبب الهلاك من غير أن يقع هلاكه بعد. وإنما ذلك بمعنى أوجب إخلاذه وهلاكه وقيل: ليس المراد أنه يظن أنه لا يموت، ولكن يجب أنه يبقى من ماله إلى أن يموت. وقيل: معناه إنه يعمل عمل من يحسب أن ماله أخذه. وقال الحسن:

معناه يحسب أن ماله أخذه حتى يفنيه.

(١) مجاز القرآن ٢٥ / ٣١١ (*)

(٤٠٨)

وقوله (كلا لينبذن في الحطمة) معناه ليقذفن وليطرحن من وصفناه بجمع المال ومنع حق الله في الحطمة. ثم قال (وما أدراك ما الحطمة) تفخيما لها. ثم فسرها فقال (نار الله الموقدة) أي هي نار الله الموقدة. الحطمة الكثيرة الحطم أي الاكل، ورجل حطمة، وحطم الشيء إذا كسره. وأذهبه، وتحطم إذا تكسر وأصله الكسر المهالك.

وقوله (التي تطلع على الافئدة) معناه يبلغ ألمها ووجعها الافئدة، تقول:

اطلعت على أرض كذا إذا بلغتها، وقوله (إنها) يعني النار (عليهم) يعني الكفار (مؤصدة) أي مطبقة، يقال اصدت الباب أوصده إذا طبقته، وأوصدته إيصادا لغتان. ومنه قوله (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) (١) وابوعمرؤ يهمز (مؤصدة) إذا لين الهمز، لئلا يخرج من لغة إلى لغة أخرى.

وقوله (في عمد ممددة) فالعمد جمع عمود، وقيل: جمع عماد، كقولك:

أهاب وأهب، ويجوز عمد، والعمود عمود مستدير مستطيل قوي على شدة الاعتماد.

وقال ابن مسعود: معناه إن النار مطبقة بعمد ممددة. وقال ابن عباس: في عمد مغللين بها.

وقال قتادة: في عمد يعذبون بها. وقيل: الاطباق بالعمد الممددة ليتأكد بأسهم من الخروج منها.

(٤٠٩)

١٠٥ - سورة الفيل مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي خمس آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل (١) ألم يجعل كيدهم في تضليل (٢) وأرسل عليهم طيرا أبابيل (٣) ترميهم بحجارة من سجيل (٤) فجعلهم كعصف مأكول) (٥) خمس آيات هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) ويتوجه إلى جميع المكلفين من قومه، يقول لهم على وجه التنبيه على عظم الآية التي اظهرها والمعجزة التي فعلها، منبها بذلك على توحيده ووجوب إخلاص العبادة له، فقال (ألم تر) ومعناه ألم تعلم، فالرؤية - ههنا - بمعنى العلم، لان رؤية البصر لا تتعلق بما قد تقضى وعدم، كأنه قال: ألم تعلم (كيف فعل ربك باصحاب الفيل) الذين قصدوا هدم البيت وهاك أهله، فاهلكهم الله تعالى، وكان الذي قصد لهدم البيت ابرهة ابن الصباح.

وهو المعروف بابرهة الاشم، ويكنى أبا يكسوم. وقيل: إنه لم يسلم من قومه غيره، فولى إلى أهله فكل ما نزل منزلا تساقط منه عضو فلما وصل اليهم أخبرهم الخبر ثم هلك، وكان ابرهة رجلا من اليمن ملكته الحبشة عليهم، وكان سبب قصده إياها لتخريبها أنه بنى كنيسة عظيمة أراد ان يحج اليها بدل الكعبة. وقال (ج ١٠ م ٥٢ من التبيان)

(٤١٠)

الحسن: كان السبب في ذلك أن العرب هدمت كنيسة للحبشة، وهم نصارى، فأراد تخريب الكعبة في مقابلة ذلك، فاقبل في جمع كثيف معه أفيلة، فجعل الله كيدهم في تضليل عما قصدوا له من تخريب الكعبة (وأرسل عليهم طيرا أبابيل) فمعنى أبابيل جماعات في تفرقة زمرة وزمرة لا واحد لها - في قول ابي عبيدة والفراء - كما لا واحد للعباديد والشماطيط. وزعم ابوجعفر الرواسي أنه يسمع في واحدها أبالة. وقال الكسائي: سمعت النحويين يقولون واحده (ابول) مثل (عجول) وقال بعضهم: (ابيل) وقال ابن عباس معنى أبابيل يتبع بعضها بعضها. وقال قتادة:

معنى أبابيل كثيرة متتابعة. وقيل: إنها كانت سود الجرية تحمل في مناقيرها واكفها الحجارة - في قول عبيد بن عمير - وقيل: كان مع كل طائر ثلاثة أحجار إثنان في رجليه وواحد في منقاره، وقال موسى بن أبي عائشة: كانت الحجارة اكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وقيل كان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره.

وقيل: إن المعروف بأبرهة الاشم الذي ملكته الحبشة كان يكنى أبا يكسوم وقيل: إنه لم يسلم من قومه غيره فولى إلى أهله وكلما نزل منزلا تساقط منه عضو فلما وصل اليهم اخبرهم الخبر ثم هلك.

وقيل كان الفيل إذا وجهه نحو مكة وقف ولم يسر، وإذا وجهه إلى جهة غيرها سار إنذارا من الله لهم وموعظة، وكان هذا من أعظم المعجزات في ذلك الوقت أظهره الله تعالى ليبدل به على وجوب معرفته وإخلاص عبادته. وقال قوم:

إنه كان معجزة لنبي كان في ذلك الزمان، ويجوز أن يكون ذلك خالد بن سنان.

وقيل انه كان ذلك توطيئا لنبوته نبينا (صلى الله عليه وآله)، لانه كان ولد في عام الفيل.

وقوله (ترميمهم بحجارة) أى تقذفهم بحجارة (من سجيل) قال ابو عبيدة كل شديد سجيل. قال ابن مقبل:

(٤١١)

ضربا توأسى به الابطال سجيلا (١)

وقيل هي حجارة من الجحيم وهي (سجين) ثم ابدلت النون لاما، كما قالوا في أصيلان اصيلا. وقيل: معنى من (سجيل) أي من طين مطبوخ كالأجر.

وقيل: هو (سنل وكل) بلغة الفرس. فأعرب، وكذلك روي عن ابن عباس وقوله (فجعلهم كعصف مأكول) العصف ورق الزرع - في قول ابي عبيدة - وهو عصفية، لان الريح تعصفه أي تذهب به يمينا وشمالا، وقيل: معنى (كعصف مأكول) أي مأكول الثمرة كما يقال: فلان حسن أي حسن الوجه، فاجري مأكول على العصف من أجل اكل ثمرته، لان المعنى معلوم للايجاز. وقال قتادة: العصف التبن، ومعنى مأكول قد أكلت بعضه المواشي وكسرت بعضه.

وقال الزجاج: معنى مأكول وقع فيه الاكال. وقيل العصف التبن بلغة بني حنيفة، وبلسان قريش النحالة.

وقصة أصحاب الفيل من الادلة الواضحة والحجج اللائحة على الملحدين، ومن أنكر الصانع، لانه لا يمكن نسب ذلك إلى طبيعة ولا موجب كما تأولوا الزلازل والرياح والخسوف وغير ذلك مما أهلك الله به الامم، لانه ليس في الطبيعة إقبال طير بأحجار وتقصد اقواما دون غيرهم حتى تهلكهم بما ترميهم به، ولا تعدى إلى غيرهم، بل ذلك من أوضح الادلة على انه من فعل الله تعالى، وليس لاحد أن يضعف ذلك وينكر الخبر به، لان النبي (صلى الله عليه وآله) لما قرأ على أهل مكة هذه السورة، كانوا قريبي عهد بالفيل، فلو لم يكن كذلك ولم يكن له

اصل لانكروه، فكيف وهم ارخوا به كما أرخوا بنيان الكعبة وموت قصي وغيره، وقد نظم الشعراء في قصة الفيل الشعر ونقلته الرواة، فلا يمكن جحد ذلك، لانه مكابرة.

(١) مر في ٦ / ٤٥ (*)

(٤١٢)

١٠٦ - سورة قريش مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي أربع آيات في الكوفي والبصري وخمس في المدنيين.

بسم الله الرحمن الرحيم (لايلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) ألذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٤) أربع آيات. قرأ ابن عامر (لالاف قريش) بقصرها، ولم يجعل بعد هذه الهمزة ياء على وزن (علاف)، (إيلافهم) بياء بعد الهمزة خلاف لفظ الاول. الباقرن (لايلاف قريش إيلافهم) جميعا بهمزة بعدها ياء. وقرأ ابو جعفر وابن فليح (إلا فهم)

بهمزة بلا ياء بعدها مثل (علافهم) ورواه ابو الحسن حماد - بهمزتين مكسورتين - بعدها ياء. الباقرن بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل (عيلافهم) قال الازهرى: اليايلاف الاجارة بالحفارة يقال: أولف يولف وألف يؤلف إذا أجار الابل بالحفارة. والفت المكان ألفة والفا وأفته إيلافا بمعنى واحد. وقد قدمنا القول فيما (رواه أصحابنا أن (ألم تر كيف) و (لايلاف) سورة واحدة، مثل (الضحى وألم

(٤١٣)

نشرح) فعلى هذا العامل في (لايلاف) قوله (فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش) وهو قول الحسن: ومن قال: هما سورتان لم يجز ذلك، فقال العامل فيها، قوله (فليعبدوا) فكأنه قال لذلك الانعام (فليعبدوا) ومثله في تقديم القول فيه قوله (أفغير الله تأمروني) (١) لان تأمروني إعتراض على هذا التفسير، إنما جاز أن يعمل ما بعد الفاء فيما قبله لانها زائدة غير عاطفة، كقولك زيدا فاضرب، وتريد فاضربه، فهي على شبه الجواب الذي يجوز فيه تقديم المعمول كقولك زيدا:

إن يأتي زيدا اكرمه. ولو كانت عطفًا لم يجز التقديم، كما لا يجوز في الواو، ولا (ثم). وقيل العامل فيه (اعجبوا) لايلاف قريش إلا انه حذف لدلالة الكلم عليه.

وقيل هو على (ألم تر كيف فعل ربك... لايلاف قريش) أي فعل ذلك لايلافهم واليايلاف أصحاب الالف بحسن التدبير والتلطف، يقال: ألف يألف الفاء، والفه يؤلفه إيلافا إذا جعله يألف،

وانتلف القوم ائتلافا وتآلفوا تآلفا وألفهم تآليفا. والايلاف نقيض الايحاش، ونظيره الايناس. والى الشئ لزومه على عادة في سكون النفس اليه. وقوله (رحلة الشتاء والصيف) قال ابن زيد والكلبي: كانت لهم رحلتان رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة. والرحلة حال السير على الرحلة وهي الناقة القوية على السفر، ومنه الحديث المروي (الناس كابل مئة لا يوجد فيها راحلة) والرجل متاع السفر والارتحال احتمال الرحل للمسير في السفر. والشتاء أوان شدة البرد. والصيف زمان شدة الحر. وفصول السنة أربع: ربيع، وصيف وخريف، وشتاء. وقوله (فليعبدوا رب هذا البيت) أمر من الله تعالى للمكلفين أن يوجهوا عبادتهم إلى الله رب البيت الحرام دون غيره من الاصنام (الذي أطعمهم من

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٤ (*)

(٤١٤)

جوع) بما أعطاهم من الاموال وسبب لهم من الارزاق بالسعي في التجارة في رحلة الشتاء ورحلة الصف (وآمنهم من خوف) الغارة بالحرم الذي جبل قلوب العرب على تعظيمه. وقيل (آمنهم) من الجذام. قال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام بالكوفة يقرأ (ألم تر، ولايلاف) ولا يفرق بينهما.

١٠٧ - سورة الماعون وتسمى سورة (أرأيت) مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك مدنية وهي سبع آيات في الكوفي والبصري وست في المدنيين. عد أهل الكوفة والبصري (يرأون) رأس آية، يجوز أن يقال (أرأيت)

بحذف الهمزة. ولا يجوز ان يقال (رأيت) لان ألف الاستفهام يصير غيرها بسم الله الرحمن الرحيم (أرأيت الذي يكذب بالدين (١) فذلك الذي يدع اليتيم (٢) ولا يحض على طعام المسكين (٣) فويل للمصلين (٤)

الذين هم عن صلاتهم ساهون (٥) الذين هم يراؤون (٦) ويمنعون الماعون) (٧) سبع آيات.

(٤١٥)

قوله (أرأيت) خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) على وجه التعجيب له من الكافر (الذي يكذب بالدين) وذهابه عن الايمان به مع وضوح الامر فيه وقيام الدلالة على صحته والمراد بالدين الجزاء من الثواب والعقاب، فالتكذيب بالجزاء من أضر شئ على صاحبه، لانه يعدم به أكثر

الدواعي إلى الخير، والصوارف عن الشر، فهو يتهالك في الاسراع إلى الشر الذي يدعوه إليه طبعه لا يخاف عاقبة الضرر فيه.

وقوله (فذلك الذي يدع اليتيم) وصف الذي يكذب بالدين، فبين أن من صفته أنه يدع اليتيم، ومعناه يدفعه عنفاً، وذلك لأنه لا يؤمن بالجزاء عليه، فليس له رادع عنه، كما لمن يقر بأنه يكافئ عليه، دعه يدعه دعا إذا دفعه دفعا شديداً، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة (يدع اليتيم) معناه يدفعه عن حقه. وقوله (ولا يحض على طعام المسكين) معناه ولا يجث على طعام المسكين بخلا به، لأنه لو كان لا يحض عليه عجزاً عنه لم يذم به، وكذلك لو لم يحض عليه من غير قبيح كان منه لم يذم عليه، لأن الذم لا يستحق إلا بما له صفة الوجوب إذ أخل به أو القبيح إذا فعله على وجه مخصوص.

وقوله (فويل للمصلين) تهديد لمن يصلي على وجه الرياء والسمعة. إنما أطلق مع انه رأس آية يقتضي تمام الجملة، لأنه معرف بما يدل على انه أراد من يصلي على جهة الرياء والنفاق. ثم بين ذلك بقوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قال ابن عباس ومسروق: معناه يؤخرونها عن وقتها، وقال قتادة: معناه غافلون وقال مجاهد: لاهون كأنهم يسهون للهوهم عنها واللهو يوجب تأخيرها عن وقتها لأنه قال عن صلاتهم. وقيل: ساهون فيها (الذين هم يراؤون) معناه إنه يراؤون بصلاتهم الناس دون أن يتقربوا بها إلى الله. وإنما ذم السهو في الصلاة مع انه ليس من فعل العبد بل هو من فعل الله، لأن الذم توجه في الحقيقة على التعرض للسهو

(٤١٦)

بدخوله فيها وجه الرياء وقلبه مشغول بغيرها، لا يرى لها منزلة تقتضي صرف الهم اليها. وقوله (ويمنعون الماعون) قال ابو عبيدة: كل ما فيه منفعة، فهو الماعون. وقال الاعشى:

باجود منه بما عونه * إذا ما سماؤهم لم تنغم (١)
وقال الراعي:

قوم على الاسلام لما يمنعوا * ماعونهم ويضيعوا التنزيلا (٢)
وقال اعرابي في ناقة: إنها تعطيك الماعون أي تتقاد لك، والماعون أصله القلة من قولهم: المعن القليل قال الشاعر:

فان هلاك مالك غير معن أي غير قليل، فالماعون القليل القيمة مما فيه منفعة من آلة البيت نحو الفاس والمقدحة والابرة والدلو - وهو قول ابن مسعود وابن عباس وإبراهيم وابي مالك وسعيد ابن جبير - وسئل عكرمة فليل له: من منع ذلك فالويل له؟ قال: لا، ولكن من جمع

ذلك بأن صلى ساهيا مرائيا ومنع هذا وقوله (فويل للمصلين) وهو يعني المنافقين، فدل على أن السورة مدنية لأنه لم يكن بمكة نفاق، ويقال: معن الوادي إذا جرت مياهه قليلا قليلا. والماء المعين الجاري قليلا قليلا. وأمعن في الامر إذا أبعد فيه قليلا قليلا. وروي عن علي (عليه السلام) أنه قال: الماعون الزكاة، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك وقال الشاعر:

(١) ديوانه (١٩٩) واللسان (معن) ومجاز القرآن ٢ / ٣١٣ (٢) اللسان (معن) ومجاز القرآن ٢ / ٣١٥ وقد مر في ٧ / ٣٧٣ (*)

(٤١٧)

بمج صبيره الماعون صبا (١)

فالصبير السحاب. وقال أنس بن مالك: الحمد لله الذي لم يجعلها في صلاتهم وإنما جعلها عن صلاتهم، فتأولها من تركها متعمدا. والمراد بالصلاة هنا الفرض. ١٠٨ - سورة الكوثر مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك مدنية، وهي ثلاث آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (إنا أعطيناك الكوثر (١) فصل لربك وانحر (٢) إن شانئك هو الابتر) (٣) ثلاث آيات هذا خطاب من الله لنبيه (صلى الله عليه وآله) على وجه تعداد نعمه عليه. يقول (إنا أعطيناك الكوثر) فالاعطاء إخراج الشئ إلى أخذ له، وهو على وجهين: اعطاء تمليك واعطاء غير تمليك. فاعطاء الكوثر إعطاء تمليك، كاعطاء الاجر، وأصله تناول من عطا يعطوا إذا تناول. و (الكوثر) الشئ الذي من شأنه الكثرة، والكوثر الخير الكثير. وهو (فوعل) من الكثرة، قال عطاء: هو حوض النبي (صلى الله عليه وآله) الذي

(١) القرطبي ٢٠ / ٢١٩ والشوكاني ٥ / ٤٨٧ (ج ١٠ م ٥٣ من التبيان) (*)

(٤١٨)

يكثر الناس عليه يوم القيامة. وقال ابن عباس: هو الخير الكثير. وروي عن عائشة: أن الكوثر نهر في الجنة جانبه قباب الدر والياقوت، وقال الحسن: الكوثر القرآن. وقال ابن عمر: هو نهر يجري في الجنة على الدر والياقوت وقوله (فصل لربك) أمر من الله تعالى لنبيه ويدخل معه جميع المكلفين يأمرهم بالصلاة وأن ينحروا وقال ابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء: معنى وانحر انحر البدن متقربا إلى الله بنحرها خلافا لمن نحرها للاوثان. وقيل: معناه (فصل لربك) صلاة العيد (وانحر) البدن والاضاحي. وقيل: معناه صل لربك الصلاة

المكتوبة واستقبل القبلة بنحرك. تقول العرب: منازلنا نتناحر هذا ينحر هذا أي مستقبلة، وانشد بعضهم:

ابا حكم ها انت عم مجالد * وسيد أهل الابطح المتناحر (١) وروي عن علي (عليه السلام) أن معناه ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر - وهذه الرواية غير صحيحة - والمروي عن ابي جعفر وأبي عبدالله (عليهما السلام) أن معناه وانحر البدن والاضاحي.

وقوله (إن شانتك هو الابتر) فالشأن المبغض تقول: شنته اشنؤه شناء إذا أبغضته، وقال ابن عباس: معناه عدوك، وهو قول سعيد بن جبير، وقال:

هو العاص بن وائل السهمي، فانه قال في النبي (صلى الله عليه وآله) إنه أبتر لا عقب له، فقال الله تعالى (إن شانتك هو الابتر) يعني الذي انقطع عنه كل خير. وقيل: إنه أراد به انه لا ولد له على الحقيقة، وأن من ينسب اليه ليس بولده، والابتر هو المنقطع عن الخير. وقيل: هو الذي لا عقب له - ذكره مجاهد - وقال قتادة: معناه الاقل الاذل بانقطاعه عن الخير. وقيل: قوله (إن شانتك هو الابتر) جواب لقول قريش انه أبتر لا ولد له ذكر إذا مات قام مقامه يدعو اليه، وقد انقطع أمره.

(١) القرطبي ٢٠ / ٢١٩ والشوكان ٥ / ٤٨٩ (*)

(٤١٩)

فقيل: إن شانتك هو الابتر الذي ينقطع ما هو عليه من كفره بموته، فكان الامر كما اخبر به، وقيل: الحمار الابتر المقطوع الذنب، فشبّه به. وقيل: في السورة تشاكل المقاطع للفواصل وسهولة مخارج الحروف بحسن التاليف وتقابل المعاني بما هو أولى لان قوله (فصل لربك) احسن من صل لنا، لانه يجب أن يذكر في الصلاة بصفة الربوبية (وانحر) ههنا أحسن من قوله (وانسكه) لانه على بريعم بعد بريخص.

و (الابتر) احسن من (الاحس) لانه أدل على الكناية في النفس، فهذه الحروف القليلة قد جمعت المحاسن الكثيرة. ومالها في النفس من المنزلة اكثر بالفخامة والجزالة وعظم الفائدة التي يعمل عليها وينتهي اليها.

١٠٩ - سورة الكافرون مكية في قول ابن عباس، وقال الضحاك مدنية، وهي ست آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (قال يا أيها الكافرون (١) لا أعبد ما تعبدون (٢) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٣) ولا أنا عابد ما عبدتم (٤) ولا أنتم عابدون ما أعبد (٥) لكم دينكم ولي دين) (٦) ست آيات.

(٤٢٠)

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي (ولي دين) ساكنة الياء. الباقيون بفتحها من فتح الياء فلخفة الفتحة ومن أسكنها فانه كره الحركة على حرف العلة. وقرأ (ديني) بياء في الحاليين يعقوب. الباقيون بلا ياء فيهما. من أثبت الياء، فلانها الاصل. ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها. وقيل: إن هذه السورة نزلت جوابا لقول جماعة من المشركين دعوا النبي صلى الله عليه وآله إلى أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا هم إله سنة. وفيهم نزل قوله (أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) (١) هذا قول ابن عباس. وقيل: إنهم قالوا: نشرك في أمرنا، فان كان الذي في أيدينا خيرا كنت قد أخذت بحظ منه، وإن كان الذي في يدك خيرا قد أخذنا بحظ منه. وقيل: إن الذي قال ذلك الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والاسود ابن المطلب وأميرة ابن خلف. وقيل: إنهم قالوا: نتداول العبادة ليزول ما بيننا من البغضاء والعداوة، فأمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهم (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) ومعناه لا أعبد ما تعبدون لفساد عبادة الاوثان، ولا أنتم عابدون ما أعبد لجهلكم بوجوب اخلاص العبادة لله، لان العقل يقتضي أنه (صلى الله عليه وآله) لهذا امتنع وامتنعوا، وإنما كرر ذكر العبادة لتصريفها في الفوائد المختلفة وقد نفى عبادة المؤمن للوثن كيف تصرفت الحال في ماض أو حاضر أو مستقبل لقبحها، ونفى عبادة الكافر لله مع إقامته على الجهل بوجوب إخلاص العبادة له. وقيل: في وجه التكرير في السورة أن ظاهر ذلك وإن كان تكريرا، فليس في الحقيقة تكريرا أصلا، ولا تكرير في اللفظ إلا في موضع واحد سنبينه بعد بيان المعنى إن شاء الله، وذلك أن قوما من المشركين سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) مناقلة العبادة سنة يعبدون فيها ما يعبد (صلى الله عليه وآله) وسنة يعبد هو ما يعبدون لزوال العادة بوقوع العبادة

(١) سورة الزمر آية ٦٤ (*)

(٤٢١)

على هذه الجهلة فجاء الكلام على طريق الجواب لانكار ما سألوا، فقيل (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) وهذا نفي منه لما يعبدون في الاستقبال ثم قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) على نفي العبادة لما عبدوا في الماضي، وهذا واضح في أنه لا تكرير في لفظه ولا معناه. وقوله (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فعلى التكرير في اللفظ دون المعنى من قبل أن التقابل يوجب أن معناه ولا أنتم عابدون ما عبدت إلا انه عدل بلفظه إلى اعيد للاشعار أن ما عبدت هو ما أعبد، واستغني بما يوجبه التقابل من معنى عبدت عن الافصاح به. وعدل عن لفظه لتضمين معنى آخر فيه، وكان ذلك اكثر في الفائدة وأولى بالحكمة، لانه دل على (عبدت)

دلالة التصريح باللفظ فان قيل فهلا قال: ما عبدت ليتقابل اللفظ، كما تقابل المعنى؟ قيل: هو في حكم التقابل في اللفظ من حيث هو دال عليه إلا انه عدل عن الافصاح به للاشعار بأن معبوده واحد كيف تصرفت الحال، وكان هذا أبعد في الايهام أن معبوده فيما مضى غير معبوده فيما يستقبل. وقد يجوز في الماضي والمستقبل ان يقع أحدهما موقع الآخر إذا كان في الكلام ما يدل عليه، كما قال (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار) (١) على معنى ينادون، ومنه قولهم: يدعوه ابن رسول الله فلا يجيبونه، ويدعوه ابن زياد إلى الباطل فيسرعون اليه.

فان قيل: فهلا دل على اختلاف المعنى باختلاف اللفظ إذ هو الاصل في حسن البيان؟ قيل: إن التقابل في ذلك قد صير اللفظ في حكم المختلف، لانه مقيد به، ودلالة المقيد خلاف دلالة المطلق نحو: زيد قائم بالتدبير على خلاف معنى زيد قائم.

فان قيل: فهلا دل على ذلك من أصول مختلفة إذ هو أدل على خلاف المعنى بصريح الجهة؟ قيل: إنه لما أريد نفي العبادة على تصريف الاحوال صرف لفظ

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (*)

(٤٢٢)

العبادة لتصريف المعنى، ولم يصلح فيه أصول مختلفة، لئلا يوهم النفي نفي معنى غير تصريف عبادة الله على الوجوه والاسباب كلها، وكان تصريف لفظ العبادة لتصريف معناها أحق وأولى من تصريف معناها في غير لفظها لما فيه من التشاكل المنافي للتتافر، ولفظة (الكافرون) في السورة مخصوصة بمن علم الله من حاله أنه يموت على كفره.

ولا يجوز ان يكون المراد العموم لانا علمنا دخول كثير ممن كان على الكفر ثم دخل في الاسلام، وقيل: ان الالف واللام في الاية للمعهود، لان (أيا) لا يوصف إلا بالجنس، فخرج اللفظ على الجنس من حيث هو صفة ل (أي) ولكن (أيا) للمخاطبين من الكفار بأعيانهم فال إلى معنى المعهود في انه يرجع إلى جماعة بعينها، ونحوه يا أيها الرجال ادخلوا الدار، فلم تأمر جميع الرجال، ولكن أمرت الذي أشرت اليهم باقبالك عليهم. وقيل: يجوز أن تكون الاية عامة، والتقدير ولا أنتم عابدون ما أعبد بالشرط الذي ذكرتموه من أني أعبد إلهكم، لان هذا الشرط لا يكون ابداء، ولكن يجوز أن يؤمنوا فيما بعد بغير هذا الشرط.

فان قيل: ما فائدة الكلام؟ قيل الانكار لما لا يجوز من مناقلة العبادة على ما توهمه قوم من الكفار لتقوم الحجة به من جهة السمع كما كانت من جهة العقل مع الاعجاز الذي فيه. فان قال قائل: من أي وجه تضمن الاعجاز؟ قيل: له من جهة الاخبار بما يكون في مستقبل الاوقات

مما لا سبيل إلى علمه إلا بوحي الله إلى من يشاء من العباد، فوافق المخبر بما تقدم به الخير، وفي ذلك أكبر الفائدة وأوضح الدلالة.

فان قيل: ما معنى (لكم دينكم ولي دين)؟ قيل معناه لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني وحسبك بجزاء دينهم وبالآ وعقبا كما حسبك بجزاء دينه نعيما وثوابا.

(٤٢٣)

فان قيل: لم لا ذكرت الحجة في أن ما يدعون اليه لا يجوز. قيل له: تقبيحا لها من حيث أخرجت مخرج مقالة يكفي العلم بفسادها، حكايتها مع الاستغناء بما في العقول عن الدلالة على بطلانها.

فان قيل: فهلا أنكر عليهم من طريق أن كل ما دعوا اليه لا يجوز للايجاز؟ قيل: لانه إنكار متصل على حد ما يسألوا ولو أنكر انكارا مجملا لم يبين به تفصيل ما سأله إلا بأن يحكى على انفراده. ثم يحمل الانكار به فحينئذ يفهم منه معنى المفصل.

فان قيل: فهلا بين ذكرهم بصفة غير منكر؟ قيل: قد بين ذلك بعلم التعريف له إلا أنه بصفات الذم التي فيها معنى الزجر وهي دالة على احوالهم فيما دعوا له من الباطل، وتحموا من أحوال الجاهل.

فان قيل: فلم قال (لكم دينكم ولي دين) مع ما يقتضي ظاهره التسليم؟ قيل: مظاهرة في الانكار، كما قال تعالى (اعملوا ما شئتم) (١) لما صاحبه من الدليل على التمكين وشدة الوعيد بالقبح لانه إذا اخرج الكلام مخرج التسليم للامر دل على أن الضرر لا يلحق إلا المسلم اليه، فكأنه قيل له: اهلك نفسك إن كان ذلك خيرا لك.

فان قال: فلم قيل: ولا انتم عابدون مآعبد، ولم يقل من أعبد؟ قيل له: لانه مقابل لقوله (ولا أنا عابد ما عبدتم) من الاصنام، ولا يصلح ههنا إلا (ما) دون (من) لانه يعني ولا أنا عابد ما عبدتم من الاصنام ثم حمل الثاني على الاول للتقابل حتى لا يتنافر. وقيل: ان معناه ولا أنا عابد عبادتكم ولا انتم عابدون عبادتي، لان عبادته متوجهة إلى الله، وعبادتهم متوجهة إلى الاصنام

(١) سورة ٤١ (فصلت) حم السجدة آية ٤٠ (*)

(٤٢٤)

ف (ما) ههنا مع ما بعدها بمنزلة المصدر.

فان قيل: فلم انكر ما لا يجوز في الحكمة بألین النكير مع خروجه إلى أفحش القبح؟ قيل: ليس ذلك بألین النكير في المعنى وإن خرج لفظه ذلك المخرج، لانه إنما عومل تلك المعاملة ليجعل في حيز ما يكفي فيه التنبية، حتى يظهر انه أفح قبيح وهذا ضرب من البلاغة عجيب يفهمه كل عاقل له أدنى فطنة، ويعلم موضعه في الحكم فان قيل: ما الدليل على ان تأويل السورة ما ذكرتم دون غيره من التأويلات قيل: الدليل على ان ذلك الكلام إذا احتمل وجهين فصاعدا في اللغة، وأحد الوجهين يجوز، والآخر لا يجوز، وجب ان يكون تأويله ما يجوز عليه تعالى ويليق به دون ما لا يليق به ولا يجوز عليه، تعالى الله.

١١٠ - سورة النصر مدنية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثلاث آيات بلاخ لاف.
بسم الله الرحمن الرحيم (إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا (٣)
ثلاث آيات.

(٤٢٥)

هذا وعد من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) بالنصر بالفتح قبل وقوع الامر وقال الحسن ومجاهد: وعده الله فتح مكة ونصرته على كفار قريش، فيجئ النصر وقوعه على التوقع له، والنصر المعونة على العدو للظهور عليه، لان المعونة قد تكون بالمال على نواب الزمان، وقد تكون على العدو، وهي النصر دون المعونة الاخرى. والفتح الفرج الذي يمكن معه الدخول في الامر بملك العدو الناصب للحرب، وقد يكون الفرج بالفرق فقط، فلا يكون الفتح بذهاب العدو الذي صار علما على هذا المعنى.

وقوله تعالى (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) يعني في طاعة الله وطاعتك: من الاسلام والتزام الاحكام واعتقاد صحته وتوطين النفس على العمل به. وأصل الدين الجزاء. ثم يعبر به عن الطاعة التي يستحق بها الجزاء، كما قال (في دين الملك) (١) أي في طاعته. والفوج جماعة من جماعة، والافواج جماعات من جماعات. وهكذا كان الناس يدخلون في الدين جماعة بعد جماعة، من جملة القبيلة حتى يتكامل اسلام الجميع.

وقوله (فسبح بحمد ربك واستغفره) امر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) بأن ينزله عما لا يليق به من صفات النقص، وأن يستغفره. ووجه وجوب ذلك بالنصر والفتح، أن النعمة به تقتضي القيام بحق النعمة المنافي للمصيبة. فكأنه قال قد حدث أمر يقتضي الاستغفار مما جدهه الله لك فاستغفره بالتوبة يقبل ذلك منك، ومخرجه مخرج الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) وهو تعليم لجميع أمته. ومعنى (فسبح بحمد ربك) نزله عما لا يجوز عليه مع شركك إياه. وقيل

معناه: صل شكرا له على ما جدد لك من نعمة. والاستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الاصرار، وقد يكون على

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٧٦ (ج ١٠ م ٥٤ من التبيان) (*)

(٤٢٦)

وجه التسييح، والانقطاع إلى الله.

وقوله (إنه كان توابا) معناه إنه يقبل توبة من بقي كما قبل توبة من مضى. والتواب في صفة الله الكثير القبول للتوبة، وفي صفة العباد الكثير الفعل للتوبة. وقال قتادة:

عاش النبي (صلى الله عليه وآله) بعد هذا سنتين ثم توفي (صلى الله عليه وآله)

١١١ - سورة اللهب مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي خمس آيات بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم (تبت يدا أبي لهب وتب (١) ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢) سيصلى نارا ذات لهب (٣) وامرأته حمالة الحطب (٤) في جيدها حبل من مسد) (٥) خمس آيات.

قرأ عاصم (حمالة الحطب) نصبا على الذم. الباقرن بالرفع على أنه خير الابتداء، ويجوز أن يكون ارتفع (امرأته) على أنه فاعل (سيصلي) فكأنه قال سيصلى أبولهب وامرأته نارا ذات لهب. وقرأ ابن كثير (يدا ابي لهب) ساكنة الهاء على التخفيف، كما قالوا في نهر: نهر. الباقرن بالتثقل.

وروي أن أبا لهب كان قد عزم على أن يرمي النبي (صلى الله عليه وآله) بحجر فمنعه الله

(٤٢٧)

من ذلك، وقال تبت يداه للمنع الذي وقع به. ثم قال (وتب) بالعقاب الذي ينزل به فيما بعد، وقيل في قوله (تبت يدا أبي لهب) أنه الدعاء عليه نحو قوله (قاتلهم الله انى يؤفكون) (١) فاما قوله (وتب) فانه خبر محض، كأنه قال:

وقد تب. وقيل: إنه جواب لقول أبي لهب: تبا لهذا من دين، حين نادى النبي (صلى الله عليه وآله) بني عبدالمطلب، فلما اجتمعوا له قال لهم: إن الله بعثني إلى الناس عاما وإليكم خاصا، وأن اعرض عليكم ما إن قبلتموه ملكتم به العرب والعجم قالوا وما ذلك يا محمد (صلى الله عليه وآله) قال: أن تقولوا لا إله إلا الله واني رسول الله. فقال أبولهب تبا لهذا من دين. فأنزل الله تعالى قوله (تبت يدا أبي لهب) والتباب الخسران المؤدي إلى الهلاك تبه يتب تبا، والتباب الهلاك. وفي (تبت يدا) مع أنه إخبار ذم لابي لهب لعنة الله. وإنما قال: تبت يداه ولم يقل: تب، مع انه

هو الهالك في الحقيقة لانه جار مجرى قوله كسبت يداه، لان اكثر العمل لما كان باليدين أضيف ذلك اليهما) على معنى الخسران الذي أدى اليه العمل بهما. وقوله (ما اغني عنه ماله وما كسب) معناه ما نفعه ماله ولا الذي كسبه من الاموال، ولا دفع عنه عقاب الله حين نزل به، فالاغناء عنه الدفع عنه، فأما الاغناء بالمال ونحوه فهو دفع وقوع المضار به.

وقوله (سيصلى نارا ذات لهب) خبر من الله تعالى أن أبا لهب سيصلى نارا ذات لهب، وهي نار جهنم المتلهبة. وفي ذلك دلالة على صدق النبي (صلى الله عليه وآله)، لانه اخبر بأنه يموت على كفره، وكان الامر على ذلك.

وقوله (وامراته حمالة الحطب) قال ابن عباس والضحاك وابن زيد: ان امرأة ابي لهب كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي (صلى الله عليه وآله) إذا خرج إلى الصلاة

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣١ وسورة ٦٣ المنافقون آية ٤ (*)

(٤٢٨)

وقال عكرمة ومجاهد وقتادة: إنما وصفت بحمالة الحطب، لانها كانت تمشي بالنميمة وقيل: حمالة الحطب في النار. وفي ذلك دلالة أيضا قاطعة على أنها تموت على الكفر. وامرأة أبي لهب أم جميل بنت حرب اخت ابي سفيان عمة معاوية. وقوله (في جيدها حبل من مسد) فالمسد حبل من ليف، وجمعه أمساد وإنما وصفت بهذه الصفة تخسيسا لها وتحقيرا والجيد العنق، قال ذو الرمة:

فعيناك عيناها ولونك لونها * وجيدك إلا انه غير عاطل

وقال ابو عبيدة: المسد حبل يكون من ضروب، قال الراجز:

ومسد امر عن أيانق * صهب عناق ذات منح زاهق (١)

والمسد الليف لان من شأنه أن يفتل للحبل. وأصل المسد المحور من حديد، لانه يدور بالفتل. وقال قوم: هو اليف المفتل.

فان قيل: ما الذي كان يجب على أبي لهب حين سمع هذه السورة؟ أكان يجب عليه ان يؤمن؟ فلو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله بأنه سيصلى نارا ذات لهب، وإن لم يجب عليه الايمان فذلك خلاف الاجماع؟! ! قيل: خبر الله مشروط بأنه سيصلي نارا ذات لهب إن لم يؤمن، ويجب عليه أن يعلم ذلك، وهذا أبين الاجوبة واطهرها. والله أعلم.

(٤٢٩)

١١٢ - سورة الاخلاص مكية في قول ابن عباس، وقال الضحاك مدنية، وهي أربع آيات بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد (١) الله الصمد (٢) لم يلد ولم يولد (٣) ولم يكن له كفواً أحد) (٤) اربع آيات قرأ ابو عمرو - في رواية هارون عنه - (احد الله الصمد) بغير تنوين في الوصل. وقرأ في رواية نصر عن أبيه واحمد بن موسى عنه بالتنوين، وجه ترك التنوين أنه ينوي به الوقف، لانه رأس آية مع انه قد يحذف التنوين لا لتقاء الساكنين، والوجه تحريكه، قال الشاعر:

فالفتيه غير مستعتب * ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

وقرأ (كفواً) بسكون الفاء - مهموزا - حمزة ونافع على خلاف عن نافع.

الباقون بضم الفاء مهموزا. وإنما قال في أوائل هذه السور (قل) وهي أو امر من الله تعالى، لان المعنى قال لي جبرائيل (قل هو الله احد) فحكى النبي (صلى الله عليه وآله) ما قيل له. وقيل لسورة الاخلاص وقل يا ايها الكافرون (المعشقتان) ومعناهما المبرئتان من الكفر والنفاق، كما يقشش الهناء الجرب.

(١) مر ٢ / ٧٦ و ٣ / ٢١٥ و ٥ / ٢٣٩، ٣٩٣ (*)

(٤٣٠)

وهذا امر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لجميع المكلفين (هو الله) الذي نحق له العبادة (احد) ومعناه واحد، فقله (هو) كناية عن اسم الرب، لانهم قالوا ما ربك؟ قال هو الله احد. وقال الكسائي (هو) عماد، وقوله (الله)

ابتداء، وخبره (أحد) وانكر الفراء أن يكون العماد مستأنفاً، واصل (أحد) وحد فقلبت الواو همزة، كما قيل: وناه وأناه، لان الواو مكروهة اولاً، وقد جاء وحد على الاصل قال الشاعر:

كأن رجلي وقد زال النهار بنا * بذي الجليل على مستأنس وحد (١)

وحقيقة الوجد شيء لا ينقسم في نفسه أو معنى صفته، فاذا أطلق احد من غير تقدم موصوف، فهو واحد نفسه، فاذا جرى على، موصوف، فهو احد في معنى صفته، فاذا قيل: الجزء الذي لا يتجزأ واحد، فهو واحد في معنى صفته، وإذا وصف تعالى بأنه احد، فمعناه أنه المختص بصفات لا يشاركه فيها غيره: من كونه قديماً وقادراً لنفسه وعالماً وحياً وموجوداً كذلك، وأنه تحقق له العبادة لا تجوز لاحد سواه. ولا يجوز أن يكون (أحد) هذه هي التي تقع في النفي،

لأنها اعم العام على الجملة أحد، والتفصيل، فلا يصلح ذلك في الايجاب، كقولك ما في الدار
احد أي ما فيها واحد فقط ولا اكثر، ويستحيل هذا في الايجاب، وفي قوله (الله احد)
دليل فساد مذهب المجسمة، لان الجسم ليس ب (أحد إذ هو اجزاء كثيرة، وقد دل الله بهذا
القول على أنه احد، فصح انه ليس بجسم.
وقوله (الله الصمد) معناه الذي تحقق له العبادة هو الموصوف بأنه (الصمد)
وقيل: في معناه قولان:
احدهما - قال ابن عباس وشقيق وابووائل: إنه السيد المعظم، كما قال الاسدي:

(١) اللسان (وحد، انس) (*)

(٤٣١)

الابكر الناعي بخيري بني أسد * بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد (١)
وقال الزبرقان:
ولا رهينة إلا السيد الصمد.
الثاني - ان معناه الذي يصمد اليه في الحوائج ليس فوقه أحد، يقال: صمدت اليه أصمد إذا
قصدت اليه ألا أن في الصفة معنى التعظيم كيف تصرف الحال.
ومن قال: الصمد بمعنى المصمت، فقد جهل الله، لان المصمت هو المتضاغط الاجزاء وهو
الذي لا جوف له وهذا تشبيه وكفر بالله تعالى.
وقوله (لم يلد) نفي منه تعالى لكونه والد إله ولد.
وقوله (ولم يولد) نفي لكونه مولود إله والد، لان ذلك من صفات الاجسام وفيه رد على من
قال: إن عزيز والمسيح أبناء الله تعالى، وإن الملائكة بنات الله، وقوله (ولم يكن له كفوا أحد)
نفي من الله تعالى أن يكون له مثل أو شبيه أو نظير، والكفور والكفاء والكفي واحد، وهو
المثل والنظير، قال النابغة:
لا نقذفني بركن لاكفاء له * ولو تأثفك الاعداء بالرفد
و (أحد) مرفوع لانه اسم (كان) و (كفوا) نصب، لانه نعت نكرة متقدمة، كما تقول:، عندي
ظريفا غلام، تريد عندي غلام ظريف، فلما قدمت النعت على المنعوت نصبتة على الحال -
في قول البصريين - وعلى الظرف في قول الكوفيين - والتقدير في الآية ولم يكن له كفوا،
وأخص منه ولم يكن أحد كفوا له، وإنما قدم الظرف الملغى مع أن تأخير الملغى أحسن في
الكلام لانه أفضل بذكر الانبه الاعرف، كما يتقدم الظرف الذي هو خبر وموضعه التأخير لهذه
العلة في مثل قولهم: لزيد مال وله عبد.

(٤٣٢)

ولا حي من الاحياء إلا وله مثل إلا الله تعالى، فلذلك قال (ولم يكن له كفوا أحد) وروي أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقف عند آخر كل آية من هذه السورة، وكذلك كان يقرأ ابن مجاهد في الصلاة ابتداء.

١١٣ - سورة الفلق مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية، وهي خمس آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (قلو أعوذ برب الفلق (١) من شر ما خلق (٢) ومن شر غاسق إذا وقب (٣) ومن شر النفاثات في العقد (٤) ومن شر حاسد إذا حسد) (٥) خمس آيات.

روى فتية إمالة (حاسد)

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) ومتوجه إلى جميع الخلق المكلفين بان يستعيذوا من شر ما خلق، فالفلق الصبح - في قول ابن عباس والحسن وسعيد ابن جبير وجابر ومجاهد وقتادة وابن زيد - وفي رواية عن ابن عباس: إن الفلق

(٤٣٣)

الخلق. وقال قوم من أهل اللغة: الفلق الخلق، لانه مفلوق. ومنه (فالق الاصباح) (١) و (فالق الحب والنوى) (٢) وقيل للداهية فلقة، لانها تفلق الظهر وأصل الفلق الفرق الواسع من قولهم: فلق رأسه بالسيف يفلقه فلقا إذا فرقه فرقا واسعا. ويقال: أبين من فلق الصبح، لان عموده ينفلق بالضياء عن وفرق الصبح الظلام. وقيل له فجر لا نفجاره بذهاب ظلامه.

وقوله (من شر ما خلق) عام في جميع ما خلقه الله فإنه ينبغي أن يستعاذ من شره ممن يجوز أن يحصل منه الشر، وقيل: المراد من شر الاشياء التي خلقها مثل السباع والهوام والشياطين وغير ذلك.

وقوله (ومن شر غاسق إذا وقب) قال ابن عباس والحسن ومجاهد: من شر الليل إذا دخل بظلامه، وقيل: الغاسق كل هاجم بضرر كائنا ما كان، فالغاسق في اللغة هو الهاجم بضرره، وهو هنا الليل، لانه يخرج السباع من آجامها والهوام من مكانها، وأصله الجريان بالضرر من قولهم: غسقت القرحة إذا جرى صديدها. والغساق صديد أهل النار لسيلانه بالعذاب، وغسقت عينه غسقانا إذا جرى دمعا بالضرر في الخلق، والليل غاسق لجريانه بالضرر في

اخراج السباع وقال كعب: الغسق بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، ومعنى (وقب) دخل، وقب يقب وقوبا إذا دخل. ومنه الوقبة النقرة، لانه يدخل فيها. وقوله (ومن شر النفاثات في العقد) قال الحسن وقتادة: يعني السحرة الذين كل ما عقدوا عقدا نفثوا فيه، وهو شبيهه بالنفخ، فأما الثقل فنفخ بريق،

(١، ٢) سورة ٦ الانعام آية ٩٥ - ٩٦ (ج ١٠ م ٥٥ من التبيان) (*)

(٤٣٤)

فهذا الفرق بين النفث والتفل، قال الفرزدق:

هما نفثا في في من فمويهما * على النابح العاوي أشد رجام (١)

وقيل في شر النفاثات قولان: أحدهما - إيهامهم أنهم يمرضون ويعافون، ويجوز ذلك مما يخيل رأي الانسان من غير حقيقة لما يدعون من الحيلة بالاطعمة الضارة والامور المفسدة. الثاني - أنه بضرب من خدمة الجن يمتحن الله تعالى بتخليتهم بعض الناس دون بعض. ولا يجوز أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله) سحر على ما رواه القصاص الجهال، لان من يوصف بأنه مسحور، فقد خبل عقله. وقد أنكر الله تعالى ذلك في قوله (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) (٢) ولكن قد يجوز أن يكون بعض اليهود اجتهد في ذلك فلم يقدر عليه، فأطلع الله نبيه على ما فعله حتى استخرج ما فعلوه من التمويه، وكان دلالة على صدقه ومعجزة له.

وقوله (ومن شر حاسد إذا حسد) فالحاسد هو الذي يتمنى زوال النعمة عن صاحبها، وإن لم يرد لها لنفسه. والغبطة أن يريد من النعمة لنفسه مثل ما لصاحبه وأن لم يرد زوالها عنه، فالغبطة محمودة والحسد مذموم. وفي السورة ما يستدفع به الشرور باذن الله على تلاوة ذلك بالاخلاص فيه، والاتباع لامر اله. وكان النبي (صلى الله عليه وآله) كثيرا ما يعوذ به الحسن والحسين وبهاتين السورتين. وقيل إن اللواتي سحرن النبي (صلى الله عليه وآله) بنات لبيد بن أعضم اليهودي، سحر نه في إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى السورتين، وهما إحدى عشرة آية فحل بكل آية عقدة.

(١) ديوانه ٧٧١ (نشر الصاوي)

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٧ وسورة ٢٥ الفرقان آية ٨ (*)

(٤٣٥)

١١٤ - سورة الناس وهي ست آيات بلا خلاف بسم الله الرحمن الرحيم (قل أعوذ برب الناس
(١) ملك الناس (٢) إله الناس (٣)

من شر الوسواس الخناس (٤) الذي يوسوس في صدور الناس (٥)
من الجنة والناس (٦) ست آيات.

كان الكسائي في رواية أبي عمير يميل (الناس) لكسرة السين، وهو حسن الباكون يتركون
الامالة، وهو الاصل.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) ويدخل فيه المكلفون، يأمرهم أن يستعينوا
(برب الناس) وخالقهم الذي هو (ملك الناس) ومدبرهم وإلههم (من شر الوسواس) وأن يقولوا
هذا القول الذي هو (أعوذ برب الناس...)

إلى آخرها و (رب الناس) هو الذي خلقهم ودبرهم على حسب ما اقتضته الحكمة وقوله (ملك
الناس) إنما خص بأنه ملك الناس مع أنه ملك الخلق أجمعين لبيان أن مدبر جميع الناس قادر
أن يعيذهم من شر ما استعاضوا منه مع أنه أحق بالتعظيم من ملوك الناس.
والفرق بين (ملك) و (مالك) حتى جازا جميعا في فاتحة الكتاب ولم يجز

(٤٣٦)

- ههنا - إلا ملك، لأن صفة ملك تدل على تدبير من يشعر بالتدبير، وليس كذلك مالك، لأنه
يجوز أن يقال: مالك الثوب، ولا يجوز ملك الثوب، ويجوز أن يقال:

ملك الروم، ولا يجوز مالك الروم، فجرت - في فاتحة الكتاب - على معنى الملك في يوم
الجزاء، ومالك الجزاء، وجرت في سورة الناس على (ملك) تدبير من يعقل التدبير، فكأن هذا
أحسن وأولى.

وقوله (إله الناس) معناه أنه الذي يجب على الناس أن يعبدوه، لأنه الذي تحقق له العبادة دون
غيره (من شر الوسواس) حديث النفس بما هو كالصوت الخفي وأصله الصوت الخفي من
قول الاعشى:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت * كما استعان بريح عشرق زجل (١)
وقال روبة:

وسوس يدعو مخلصا رب الفلق * سرا وقد أون تأوين العقق (٢)

والوسوسة كالمهمة ومنه قولهم: فلان موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة لما يعتره من المرة.
وسوس يوسوس وسواسا ووسوسة وتوسوس توسوسا. وفي معنى قوله (من شر الوسواس)
ثلاثة أقوال:

أحدها - من شر الوسوسة التي تكون من الجنة والناس، فأمر بالتعوذ من شر الجن والانس.

الثاني - من شر ذي الوسواس وهو الشيطان، كما قال في الاثر: انه يوسوس فاذا ذكر العبد ربه خنس، فيكون قوله (من الجنة والناس) بيان انه منهم، كما قال (إلا ابليس كان من الجن) (٣) فأما (والناس) فعطف عليه كأنه قيل من الشيطان

(١) مر في ٤ / ٣٩٧ (٢) مر في ٤ / ٣٩٧ و ٩ / ٣٦٣ (٣) سورة ١٨ الكهف آية ٥١ (*)

(٤٣٧)

الذي هذه صفته والناس الذين هذه صفتهم.
الثالث - من شر ذي الوسواس الخناس على العموم، ثم يفسر بقوله - عز وجل - من (الجنة والناس) كما يقال: نعوذ بالله من كل مارد: من الجن والانس وقوله (الخناس) معناه الكثير الاختفاء بعد الظهور، خنس يخنس خنوسا، ومنه قوله (فلا اقسم بالخنس) (١) أي بالنجوم التي تخفى بعد ما تظهر بتصريف الحكيم الذي أجراها على حق حسن التدبير، ومنه الخنس في الانف لخبائثه بانخفاضه عندما يظهر بنتوءه. قال مجاهد: إذا ذكر العبد ربه خنس، فاذا غفل وسوس اليه وقوله (الذي يوسوس في صدور الناس) قيل: ان الشيطان يعترى الانسان بكلام خفي بفعله يصل مفهومه إلى قلبه من غير سماع صوته، كانسان يتكلم من وراء حجاب بكلام يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع الصوت، وهذه حالة معقولة تقع عليها الوسوسة وأما الانسان فانما يوسوس غيره بأن يدعو إلى الفساد ويحسن ذلك ويغويه به ويسوفه التوبة ويمنيه العفو. وقوله (من الجنة والناس) بيان لمن يكون منه الوسوسة وقد بين الله تعالى أنه يكون من قبيل الجن ومن قبيل الانس. والناس أصله من الاناس، فحذفت الهمزة التي هي فاء ويدل على ذلك الانس والاناس. واما في تحقيره نويس، فان الالف لماكانت ثانية زائدة اشبهت الف فاعل فلما قلبت واوا شبهة بألف فاعل كذلك جازت الامالة في المواضع التي اميل الاسم فيها لذلك، ومن سأل عن قوله (قل اعوذ برب. وقل ياايها الكافرون. وسيح اسم ربك) وما اشبه ذلك من الاوامر المتوجهة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: كيف جاز من النبي (صلى الله عليه وآله) أن يقول: قل للامة؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يقول الانسان لغلامه قل لزيد كذا فيقول غلامه لزيد: قل كذا. وهذا خلاف الغرض.

(١) سورة ٨١ التكوير آية ١٥ (*)

(٤٣٨)

قلنا عنه جوابان:

احدهما - ان الامر وإن كان متوجهها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فالمراد به أتمته معه، فكانه
خاطب الجميع بان يقولوا ذلك وأن يسبحوا وغير ذلك، فلا سؤال على هذا.
والثاني - ان الله تعالى أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بأن يفعل الذي أمره وامره أيضا بتلاوة
كلامه، فلما كان قوله (قل، وسبح) من كلام الله وجب عليه أن يتلوه على وجهه ولو كان
مأمورا بالفعل دون التلاوة لما وجب أن يأتي بلفظة (قل) في هذه المواضع كلها وجميع أي
القرآن في البصري ست آلاف ومئتان وأربع آيات.
وفي المدني الاول ست آلاف ومئتان وسبع عشرة آية.
وفي الكوفي ست آلاف ومئتان وست وثلاثون آية.
وفي المدني الاخير ست آلاف ومئتان واربع عشرة آية. وجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون
سورة لا خلاف في ذلك.
وبالمدينة تسع وعشرون سورة لا خلاف في ذلك.
فذلك مئة وأربع عشرة سورة.
وعلى ما روينا على أصحابنا وعن جماعة متقدمين مئة واثننا عشرة سورة.
وعدد جميع كلمات القرآن تسع وسبعون ألفا ومئتان وسبع وسبعون كلمة.
ويقال سبع وثمانون كلمة. ويقال تسع وثلاثون كلمة.
وجميع حروفه ثلثمائة الف حرف وثلاثة وعشرون الف وخمسة عشر الف.
وعدد نقطه مئة الف وست وخمسون الفا وإحدى وثمانون نقطة.
تم المجلد العاشر وبه تم الكتاب والحمد لله